الهيئة المصرية العامة للكتاب

[illegible]

جوزيه ساراماجو

الآخر مثلي

ترجمة [illegible]

جوزيه ساراماجو

كاتب برتغالى

ولد عام ١٩٢٢ فى مدينة أريتاجا البرتغالية.

عمل فى مهن مختلفة كصانع أقفال وميكانيكى وصحفى ومترجم قبل أن يتفرغ للأدب تماماً.

أصدر روايته الأولى "أرض الخطيئة" عام ١٩٤٧، وعلى الرغم من الاحتفاء النقدى بها إلا أنه توقف عن الكتابة أكثر من عشرين عاماً.

أصدر بعدها نحو عشرين كتاباً جعلته واحداً من أهم الكتاب فى البرتغال منها: "عام موت ريكاردوس"، "العمى"، "كل الأسماء"، "الطوف الحجرى".

حصل على جائزة نادى القلم الدولى، وجائزة كاموس البرتغالية، قبل أن تتوج جوائزه بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٨.

الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات، تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥، كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.

ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح، وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

الآخر مثلي

سارا ماجو ، جوزيه
الآخـر مثلى : رواية / جـوزيه سـارامـاجـو ؛
ترجمة : بدر الدين عـرودكى . ــ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٤٤٠ ص ؛ ٢٢ سم
تدمك ٥ ٧١٣ ٤١٩ ٩٧٧
١ ــ القصص الإسبانية
(أ) عرودكى ، بدر الدين (مترجم)
(ب) العنوان :
رقم الإيداع بدار الكتب ١١٧٩٢/ ٢٠٠٧

I.S.B.N 977 - 419 - 713 - 5

ديوى ٨٦٣

جوزيه ساراماجو

الآخر مِثلى

رواية

ترجمة: دكتور بدرالدين عرودكى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

- الكتاب: **الآخر مثلى** Homen duplicado
- تأليف: **جوسيه ساراماجو** Jose Saramago
- ترجمة: **دكتور بدر الدين عرودكى**
  مترجم عن اللغة الفرنسية
- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

- **الطبعة الأولى ٢٠٠٧.**
- **طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.**
- التصميم الجرافيكى: **دكتور مدحت متولى.**
- الإخراج الفنى: **صبرى عبد الواحد.**

إلى بيلار، حتى اللحظة الأخيرة

إلى راى - جود ميرتان

إلى بيبا سانشيز. مانخافاكاس

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على

جودته لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

ملاحظة إلى القارئ

لا يعتمد جوزيه ساراماجو فى هذه الرواية نظام كتابة الحوار المتبع تقليديًا فى الفن القصصي بمختلف أشكاله، أى بكتابة الكلام الذى تقوله كلّ شخصية من شخصيات القصة أو الرواية اعتبارًا من أول السطر، بل أنه يستمر فى الكتابة معتمدًا علي استخدام الحرف الكبير (أو ما يُسمّى بالفرنسية وبالإنجليزية كابيتال)، المعتمد فى كتابة اللغات الأوروبية فى بداية كلّ جملة جديدة، ليشير إلى تغيّر شخصية المتكلم. لا وجود لهذه الطريقة فى الكتابة العربية. ولم يكن أمامنا حتى لا يتعثر القارئ أثناء قراءته هذه الرواية، إلا اعتماد كتابة الحرف الكامل وطبعه بلون أسود فى بداية كل كلمة تبدأ بها شخصيّة من شخصيّات الرواية كلامها. ذلك ما ارتآه المسئولون عن النشر فى الهيئة المصرية العامة للكتاب. ونأمل أن تساعد القارئ على الانتقال فى حوار الشخصيات من شخصية إلى أخرى بلا مشقة.

بدر الدين عرودكى

الاضطراب هو نظام ينتظر الكشف

كتاب المضادات

أظنني استوقفت عديداً من الأفكار

التي كانت السماء ترسلها إلى امرئ آخر

لورانس ستيرن

يحمل الرجل الذى دخل لتوّه المخزن ليستأجر شريط فيديو على بطاقة هويته اسماً قليل التداول، ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ولا شىء غير ذلك، اسماً ذا مذاق كلاسيكى، زنّخه الزمن، لا يزال يتوصّلُ حسب مزاجه الآنىّ إلى تحمّل ماكسيمو وأفونسو، الأكثر استخداماً، لكنَّ اسم ترتوليانو يثقل عليه كما لو كان شاهدة قبر منذ اليوم الذى فهم فيه أنَّ هذا الاسم المجحف يمكن أن يُلفَظُ بسخرية مُهينة، إنه أستاذ التاريخ فى مدرسة للتعليم الثانوى وكان فيلم الفيديو قد اقترح عليه من قبل زميل كان على كلّ حال قد أخطره، إنه ليس رائعة سينمائيةً على الإطلاق بل إنه سيُسَلّيك خلال ساعة ونصف الساعة، والحق أن ترتوليانو ماكسيمو آفونسو بحاجة إلى حوافز مُسَليّة، فهو يعيش وحيداً ويضجر أو، لاستخدام مفردات طبية دقيقة كما تتطلب الحقبة الراهنة، إنه استسلم إلى ضعف نفسى مؤقت، معروف عادة من خلال كلمة انهيار عصبى، وسيكفى القول لإعطاء فكرة أوضح عن حالته، إنه كان متزوّجاً وأنه نسى ما حمله على

الزواج، لقد طلق ولا يريد اليوم حتى أن يتذكر أسباب الانفصال، لم يؤد الاتحاد الفاشل إلى إنجاب أطفال يمكن لهم أن يطلبوا إليه الآن أن يمنحهم العالم على طبق من فضة مجّاناً. منذ أمدٍ طويلٍ وهو يعتبر تعباً أخرق وابتداء بلا نهاية التاريخ العذب، الفرع العلمى الجادّ والمُكوّن الذى هو التاريخ، الذى تقوم مهمته على تعليمه والذى يمكن أن يفيده كملجأ رغيد، إن العيْشَ وحيداً بالنسبة إلى الأمزجة الكئيبة، الهشة عموماً، وقليلة الليونة، عقابٌ شديد القسوة، لكن ذلك، ولنعترف به، على إجهاده، لا يولّد المآسى المؤثرة إلا نادراً، مآسٍ من النوع الذى تقشعرُّ له الأبدان أو ترتعد له الفرائصُ. ما يحدث فى أغلب الأحيان، إلى درجة لم تعد تدهش كائناً من كان، هو أن الناس يقبلون بصبر أن يسبروا بعناية أقلّ زوايا عزلتهم، كما تشهد على ذلك فى ماضٍ قريب أمثلة عامة، وإن كانت لا تزال كتيمة، بل والتى عَرَفتْ فى حالتيْن نهاية سعيدة، شأن رسّام الوجوه هذا الذى لم نعرف اسمه أبداً إلا من خلال الحرفين الأولين، وهذا الطبيب العام الذى عاد من المنفى ليموت بين ذراعىْ وطنه المحبوب، وهذا المصحح للمسودات الطباعية الذى طرَدَ حقيقة ليُحِلَّ محلها كذبة، وهذا الموظف المرءوس فى الأحوال المدنية الذى كان يُخفى شهادات الوفاة التى كانت كلها، بالصدفة أو بالتزامن، تعود إلى جنس الذكور، لكن لم يكن أحدٌ منهم شقيّاً بحمله اسم ترتوليانو، وهو ما كان سيؤلف بالنسبة إليهم على وجه اليقين

ميزة لا تقدر بثمن فى علاقاتهم مع محيطهم. سَجَّلَ موظف المخزن الذى كان قد أخرج من أحد الرفوف الشريط المطلوب، على سِجلِّ الخروج، عنوان الفيلم وتاريخ اليوم وأوضح للزبون السطرَ الذى كان عليه أن يوقع عليه، ولم يُظهر التوقيعُ الذى رُسِمَ بعد لحظة من التردّد، إلا الاسميَن الأخيريْن، ماكسيمو أفونسو، بدون ترتوليانو، ولكن كما لو أنه قرر أن يوضّح سلفاً عنصراً يمكن أن يحمل على النزاع، همس الزبون وهو يكتب، هكذا ، سيتم الأمر على نحو أسرع، لم يفده كثيراً انتباهه على هذا النحو، لأن الموظف لفظ وهو ينقل على جذاذة معلومات بطاقة الهوية بصوت عالٍ الاسم المسكين المهجور بل، وزاد على ذلك، بلهجة لا يمكن حتى لمخلوق برىء إلا أن يعترف بأنها مشحونة بالمآرب. لا أحد، فيما نعتقد، أياً كانت حياته سهلة ومصقولة، سيغامر فى أن يزعم أنه لم يعرف أبداً استفزازاً من هذا النوع، تُصادَفُ على الدوام، وبصورة حتمية، عاجلاً أو آجلاً، واحدةٌ من هذه النفوس القوية التى تحمل ضروب ضعفها الإنسانى، وخاصة الأكثر رهافة، على الضحك قهقهة، وليست فى الحقيقة بعض الأصوات غير المنطوقة التى تخرج أحياناً من الفم بصورة لا إرادية إلا تأوّهات ألمٍ قديم عسيرة على الكبت يذكرنا بنفسه فجأة، علىً غرار ندبة جرح، جهدَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، بكبرياء تستحق الثناء، وهو يضعُ الشريطَ فى الحقيبة المثقوبة الخاصة به كأستاذ، فى ألا يدع الحزن الذى سبَّبه

الإعلان المجانى لموظف المخزن يظهر، لكنه لم يستطع أن يمتنع عن القول فى نفسه، وهو يؤاخذها على الظلم الخسيس لهذه الفكرة، إن ذلك كان خطأ زميله، خطأ الهوس الذى يحمل بعض الأشخاص على محض النصائح من دون أن يُطلبَ منهم ذلك. ما أكثر ما تلحُّ الحاجة إلى القذف بالخطيئة إلى أبعد مسافة ممكنة، فى حين لا توجد الشجاعة لمواجهة ما هو تحت الأنف. لا يعرف ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ولا يتصوّر، ولا يستطيع أن يحزر أن الموظف كان يأسف على غلطته الغليظة. فقد كان يمكن لأذن مختلفة، أشدّ رهفة من أذنه، قادرة على التقاط التموّجات الدقيقة لصوت الموظف حين يصرِّح بأنه تحت تصرف زبونه جواباً على الـ إلى اللقاء الإجبارى الذى وجّهه له، أنْ تعرفَ تمييز الرغبة الكبرى فى السلام التى استقرت وراء الطاولة الطويلة. والنتيجة، هناك مبدأ تجارى ممتاز، له جذوره فى العصور القديمة كما أثبت قيمته على امتداد القرون، مفاده إن الزبون على حقٍّ دوماً، حتى ولو كان، وتلك فرضية مستبعدة، لكنها ممكنة، يمكن أن يُسَمَّى ترتوليانو.

ففى الحافلة التى ستتركه بالقرب من العمارة التى يعيش فيها منذ نصف دستة من السنوات، وفى الواقع منذ طلاقه، تساءل ماكسيمو أفونسو، إننا نستخدم هنا النسخة الموجزة لاسمه لأننا مخولون من قبل مَنْ هو معلمه وسيّده الوحيد، بل وخاصة لأن كلمة ترتوليانو، شديدة القرب، المستخدمة بالكاد قبل

سطور عدة، تضرّ بصورة خطيرة بسيولة القصّ، نقول إن ماكسيمو أفونسو تساءل، وقد ثار فضوله فجأة، مرتبكاً على حين غفلة، أية دوافع غريبة، أية أسباب خاصة حملت زميله أستاذ الرياضيات، لقد نسينا أن نحدد أن الزميل المذكور كان يدرّس الرياضيات، على أن ينصحه مع كثير من الإلحاح بالفيلم الذى كان استأجره، فى حين أن الفن السابع لم يكن والحق يقال أبداً حتى هذا اليوم موضوع حديث بينهما. وكنا سنفهم التوصية لو كان المقصود فيلماً جيداً، واحداً من هذه الأفلام التى لا مهرب منها، وفى هذه الحالة فإن السرور، والرضا، والحماس أمام اكتشاف مبدَع ذى قيمة جمالية عليا كان يمكن أن يدفع بالزميل خلال وجبة الغذاء فى المطعم المدرسىّ أو خلال الزمن الفاصل بين حصّتَيْن إلى سحبه من كمّه على عجل ليقول له، **لا أظن أننا تحدثنا عن السينما من قبل أبداً، ولكن يجب أن أقول لك، يا زميلى العزيز، إن عليك أن تذهب حتماً لرؤية من يبحث يجد**، وهو بالضبط عنوان الفيلم الذى يحمله ترتوليانو ماكسيمو آفونسو فى حقيبته، فهذه المعلومة كانت ناقصة أيضاً. كان بوسع أستاذ التاريخ آنئذ أن يسأل، **فى** أية قاعة سينما يُعرض، ليجيب عن ذلك أستاذ الرياضيات، مُصَحِّحاً، **لقد** عُرض، ولم يعد يُعرض، فعمر الفيلم أربع أو خمس سنوات، لا أعرف كيف أمكننى أن أفوت رؤيته لدى عرضه الأول، ثم، دفعة واحدة، وقد أقلقته فكرة أن تتكشف النصيحة التى محضها بحماس دون

فائدة، لكن ربما سبق لك أن رأيته من قبل، لا، لم أره، إننى نادراً ما أذهب إلى السينما، إننى أكتفى بما يُعرض فى التليفزيون، هذا إن تابعت ما يعرض فيه، حسناً، يجب عليك أن تراه، فشريط الفيديو موجود فى المخازن المختصة كلها وليس عليك إلا أن تستأجره إن كنت لا ترغب فى شرائه، كان يمكن للحوار أن يدور على هذا النحو تقريباً لو أن الفيلم كان يستحق هذا الثناء، لكن الأشياء تتحقق فى الواقع بقدر أقل من الإطراء المبالغ فيه، لا أريد أن أتطفل على حياتك، صرّح أستاذ الرياضيات وهو يُقشّر برتقالة، لكنى منذ بعض الوقت أراك حزيناً بعض الشىء، وأكّدَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، صحيح إننى لست على ما يُرام تمامًا، مشكلات صحيّة، لا أظن، فبقدر ما أعرف لست مريضاً، والأمر هو أنَّ كل شىء يتعبنى ويضجرنى، هذه الرتابة الملعونة، التكرار، التشابه، سلِّ نفسك ياعزيزى، فالتسلية أفضل دواء على الدوام، اسمح لى أن أقول لك إن التسلية دواء الذين لا يحتاجون إليها، جواب حسن، ولا يمكن أن يضاف عليه شىء، على كل حال سيتوجب عليك أن تفعل شيئاً ما للخروج من حالة الوهن التى تتواجد فيها، الانهيار العصبى، الانهيار العصبى أو الوهن، الأمران سيّان، لا يهمّ نظام العوامل، لكن ليس حدّتها، ماذا تفعل باستثناء التدريس، أقرأ، أسمع الموسيقى، أزور المتاحف بين الحين والآخر، ولا تذهب إلى السينما أبداً، أرتاد السينما قليلاً، أكتفى بما يُعرض فى

التليفزيون، بوسعك أن تشترى أشرطة فيديو، وتكوّن مجموعة، أو مكتبة أفلام فيديو، كما يُقال الآن، نعم، هذا صحيح، أستطيع ذلك، لكن المزعج هو أننى لا أملك أصلاً فسحة كافية من المكان من أجل الكتب، إذًا، الاستئجار، الاستئجار أفضل حلّ، لدىّ بعض الأشرطة، أفلام وثائقية علمية، فى علوم الطبيعة، وفى الآثار، وفى الأنثروبولوجيا، الفن بصورة عامة، أهتم أيضاً بالفلك، وبموضوعات من هذا النوع، كلّ هذا حسن جداً، لكنك بحاجة لأن تُسَلّى نفسك بحكايات لا تحتلُّ كثيراً من المكان فى رأسك، مثلاً، بما أن الفلك يهمّك، أتصوّر أن الخيال العلمى يمكن أن يعجبك، المغامرات فى الفضاء، حرب النجوم، المؤثرات الخاصة، كما أراها وأفهمها، هذه المؤثرات الخاصة هى أسوأ أعداء المخيلة، هذه المهارة المبهمة، الغامضة، التى تعذبت الكائنات البشرية كثيراً من أجل ابتكارها، يا صديقى، أنت تبالغ، لا أبالغ، الذين يبالغون هم الذين يريدون إقناعى أنه فى أقلّ من ثانية، بمجرّد نقرة، تُرْسَلُ سفينة فضائية إلى مسافة مائة ألف مليون كيلومتر، أعترف أنه من أجل خلق هذه المؤثرات التى تحتقرها كثيراً، لا بدّ أيضاً من المخيلة، نعم، لكنها مخيلتهم هم، لا مخيلتى، ستملك على الدوام إمكانية استخدام مخيلتك حيث تنتهى مخيلتهم، أى مائتى ألف مليون كيلومتر بدلاً من مائة، لا تنسَ أن ما نسمّيه اليوم واقعاً كان بالأمس خيالاً، فكر بجول فيرن، نعم، لكن واقع اليوم هو أنه

من أجل الذهاب إلى المرّيخ، مثلاً، والمريخ بالمفردات الفلكية يقع إن صح التعبير على منعطف الطريق، يجب ما لا يقلّ عن تسعة أشهر، وبعد ذلك يجب البقاء هناك ستة أشهر، حتى يصير الكوكب من جديد فى النقطة الأمثل لكى تمكن العودة، وأخيراً الشروع برحلة أخرى لمدة تسعة أشهر للعودة إلى الأرض، أى مجموع سنتيّن من سأم قاتل، إن فيلماً حول رحلة إلى المريخ يحترم حقيقة الوقائع سيكون أكثر الأفلام إنهاكاً فى العالم، **فهمت لماذا** تضجر، لماذا، **لأنّه** لا شئ يجد قبولاً فى نظرك، **يمكن** أن أكتفى بالقليل لو كان لدىّ هذا القليل، **لا** بدّ وأنك تملك شيئاً ما، مسيرة مهنية، عمل، للوهلة الأولى ليس لديك أىّ سبب للشكوى، المسار المهنى والعمل هما اللذان يملكاننى، لا العكس، إننا نشكو جميعاً من هذا الشر، إذا افترضنا أنه شرّ، أنا أيضاً أودّ أن أشتهر كعبقرى فى الرياضيات بدلاً من أن أكون أستاذاً رديئاً مستسلماً فى مدرسة للتعليم الثانوى، وهو ما لا أستطيع إلا الاستمرار فى أن أكونه، ليس لدى الخيار، إننى لا أحبّ نفسى، وربما هذه هى المشكلة، **لو** قدّمتَ لى معادلة ذات مجهوليّن، فسيسعنى أن أقدم لك خدماتى كاختصاصىّ، ولكن فى حالة عدم تلاؤم من هذا المستوى، لن يؤدى علمى إلا إلى أن يُعَقِّدَ الحياة عليك، ذلك هو السبب فى أنى أنصحك أن تتسلى برؤية الأفلام مثلما تؤخذ المهدئات لا أن تكرّس نفسك للرياضيات التى تتعب السحايا بكثرة،

هـل لديك فكرة، فـكـرة عـن ماذا، عن فيلم مهمٍّ، يستحق المشاهدة، هـذا لا ينقص، أدخل مخزناً ما، وقم بجولة واختر، لكن اقترح عليّ واحداً على الأقل. فكر أستاذ الرياضيات، فكر وقال أخيراً، مـن يبحث يجد، وما هذا، فـيلم، أليس ذلك هـو ما طلبته منى، يـكاد يكون قولاً شعبيّاً مأثوراً، هـو ذاك، الفيلم كله أم العنوان فحسب، انتظر وسوف ترى، مـن أىّ نوع هـو، القول المأثور، لا، الفيلم، كـوميديا، هـل أنت واثق أنه ليس واحداً من هذه المآسى الرهيبة على الطريقة القديمة، سيف ومتراس، أو على الطريقة الحديثة، حافلاً بالطلقات النارية وبالمتفجرات، إنه كوميديا خفيفة تماماً، مسليّة، سـوف أسجل، ما اسمه، مـن يبحث يجد، حـسناً، لقد سجلته، إنه ليس تحفة سينمائية، لكنه سـوف يسليك خلال ساعة ونصف الساعة.

ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى بيته، وملامح شكٍّ على وجهه، ليس هناك أىّ شىء خطير مع ذلك، وليست هذه هى المرّة الأولى التى يحدث له فيها أن يشهد تذبذب إرادته بين إضاعة وقته لتحضير شىء من الطعام، وهو ما لا يستدعى بصورة عامة جهداً آخر غير جهد فتح علبة طعام محفوظ وأن يُسَخِّنَ محتواها، أو الخروج لتناول العشاء فى مطعم مجاور عُرِفَ فيه بعدم اهتمامه بقائمة الطعام، لا بسبب موقفٍ متعالٍ لزبون مستاء، بل بفعل اللامبالاة، بفعل العزوف، بفعلِ الكسلِ عن وجوب اختيار طبق من بين

الأطباق المقترحة على القائمة المحدودة والرتيبة. شعر بنفسه مرتاحاً لفكرة عدم الخروج من بيته بسبب حمله عملاً من مدرسته الثانوية، آخر تمارين التلامذة التى يجب عليه قراءتها بانتباه وتصحيحها فى كل مرة ينالون فيها من الحقائق المُدَرَّسَة أو التى يسمحون فيها لأنفسهم بحريات فى التأويل مُبَالغ فيها، إنَّ التاريخ الذى تقوم مهمّة ترتوليانو ماكسيمُو أفونسو على تعليمه يشبه شجرة بونزاى يجب تقطيع جذورها من وقت لآخر لكى لا تكبر، تصغير طفلى لشجرة الأماكن والزمن الهائلة ولكل ما يجرى فيها، إننا ننظر، إننا نسجّلُ عدم تساوى القامات ونبقى عند ذلك، إننا نهمل اختلافات أخرى لا تقلّ وضوحاً، مثلاً أن أىَّ طير، حتى ولو كان طنّاناً، لا يستطيع أن يبنى عشّه فى أغصان البونزاى، وإذا كان صحيحاً أن عظاءة تستطيع أن تلجأ إلى ظلها الطفيف بشرط أن تكون أوراقها على قدر كاف من الوفرة، فإن ذيْلَ الزحّاف، سيبقى، على وجه أكثر من محتمل، خارجاً، التاريخ الذى يُعلمُه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ويعترف هو نفسه ولا يمكن أن يرى أىّ فجاجة فى الاعتراف بذلك لو أنَّ أحداً طرح عليه السؤال، ينطوى على كمية هائلة من الذيول التى تبقى خارجاً، بعضها لا يزال يهتز، وبعضها الآخر تقلص إلى جلد متصلب يحتوى صفاً صغيراً من الفقرات المنفصل بعضها عن البعض الآخر. وإذ تذكر حديثه مع زميله، فكر، جاءت الرياضيات من كوكب دماغى آخر، ففى الرياضيات

لن تكون ذيول العظايا سوى تجريدات، أخرج الأوراق من محفظته ووضعها على منضدة عمله، استخرج منها أيضاً شريطَ مــن يبحث يجد، ها هما عملان يستطيع أن يكرس لهما أمسيته اليوم، تصحيح الوظائف، ومشاهدة الفيلم، كان يشك مع ذلك فى أنه لن يملك الوقت لأن يفعل كلّ شىء، لأنه لم يكن معتاداً على العمل متأخراً فى المساء ولم يكن يحبّ ذلك. لم يكن تصحيح الأوراق ملحّاً بصورة جنونية، أما بالنسبة إلى ضرورة رؤية الفيلم، فقد كانت غير موجودة. سيكون من الأفضل، يقول لنفسه، أن يتابع قراءة الكتاب الذى كان قد بدأه. بعد أن مرَّ بقاعة الحمام، ذهب إلى غرفته ليغيِّرَ ملابسه، ولينتعل حذاءين آخرين وليلبس بنطالاً مختلفاً، ورداءً صوفياً فوق قميصه من دون أن يخلع ربطة عنقه لأنه لم يكن يحبّ أن يكون عنقه عاريًا، ودخل المطبخ. أخرج من الخزانة ثلاث علب طعام محفوظ مختلفة ولما لم يكن يعرف أيها يختار، فقد لجأ، لكى يحسم الحظ، إلى أغنية غير مفهومة وشبه منسيّة من طفولته كانت فى تلك الحقبة قد تستبعده غالباً من الألعاب والتى تقول، آم ستram جرام بيك وبيك وكوليه جرام. وقع الحظّ على طبق اللحم بالخضار، لم يكن هو أكثر ما كان يشتهيه، لكنه قدّرَ أنه لا يجب عليه أن يعاكس القدر، أكل فى المطبخ، دافعاً كلّ شىء مع قدح من النبيذ الأحمر، وعندما انتهى، وبدون تفكير تقريباً، كرر الأغنية مع ثلاث كريّات من الخبز الليّن، اليسرى من أجل

الكتاب، والوسطى من أجل الأوراق الواجب تصحيحها. واليمنى من أجل الفيلم. انتصر من يبحث يجد، واضحٌ أنّ ما يجبُ أن يكون سيكون ويملك الكثير من القوة، ليس من المجدى أن يتشاطر المرء مع القدر، فهو خاسرٌ دوماً. هذا ما يُقالُ عادة، وكما قيل بصورة عادية، يُقبل القول المأثور دون نقاش، فى حين أن واجبنا أن نكون أحراراً يتمثلُ فى الاحتجاج بقوة على قدرٍ مستبدٍّ قرّرَ، يعلمُ الله مع أى قصد خبيث، أن يكونَ المنتصرُ هو الفيلم، وليس الأوراق الواجب تصحيحها أو الكتاب. كأستاذ، وكأستاذ للتاريخ فوق كلِّ شىء، ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا هو، نظراً للمشهد الذى أتينا على رؤيته فى المطبخ حيث عَهدَ بمستقبله الآنىّ وكذلك على وجه الاحتمال الأكثر بعداً إلى ثلاث كريّات من الخبز الطرى وإلى ثغثغة طفلية وغير متماسكة، مثلٌ سيئ للبالغين الذين يضعهم القدر، هذا القدر أو آخر غيره، بين يديه. من المؤسف، أنّ استباقاً للآثار المحتملة الضارة لتأثير أستاذٍ مماثل على تكوين النفوس الشابة للطلبة الثانويين لا مكان له فى هذه القصّة، إننا نتركهم هنا إذًا، آملين أن يلتقوا ذات يوم على درب الحياة تأثير أيةٍ مضادة ستخلّصهم، ربما فى آخر لحظة، من الضياع اللاعقلانى الذى يهددهم حاليّاً.

غسل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعناية صحون عشائه، كان ذلك دائماً فى نظره واجباً حراماً فى أن يترك كلّ شىء نظيفاً ومرتباً فى مكانه بعد الوجبة،

وهو ما يبيّن لنا، للعودة مرّة أخيرة إلى النفوس الشابة المذكورة آنفاً، الذين سيكون فى نظرهم مثل هذا السلوك على وجه الاحتمال، إن لم يكن يقيناً، مضحكاً، والواجب رسالة ميتة، حتى أنه مع امرئٍ قليل الجدارة بالاحترام فى مجال الثيمات، والمسائل والموضوعات المتعلقة بحريّة الاختيار من الممكن أن يتعلم المرء شيئاً ما. تلقى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا الدرس الناجع وسواه من الدروس الأخرى أيضاً من العادات المنتظمة للأسرة التى ولد فيها، وخاصة من أمه، التى لا تزال لحسن الحظ حيّة وفى صحة جيدة، والتى سيقوم بزيارتها فى أحد الأيام، هناك فى المدينة الصغيرة فى الريف حيث فتح الأستاذ القادم عينيْه على العالم، مهّد آل ماكسيمو من جهة الأم وأل أفونسو من جهة الأب، حيث حدث أنه كان أول ترتوليانو من السلالة، ولد قبل ما يقارب أربعين عاماً. أما بالنسبة إلى أبيه فلن يستطيع زيارته إلا فى المقبرة، فهذه الحياة العاهرة، هى كذلك، إنها تنتهى على الدوام إلى الانطفاء. لقد عَبَرَت الكلمة الفاحشة رأسه من دون أن يستدعيها، فى اللحظة التى كان يفكر فيها فى أبيه وهو يخرج من المطبخ حين كان الأسف على غيابه يداهمه، ليس ترتوليانو ماكسيمو أفونسو رجلاً يتلفظ الكلمات الفاحشة، إلى درجة أنه لو حصل له أن يقذف بواحدة منها، فهو أوّلُ مَنْ يدهشُ لذلك، مَنْ يُفاجأ من قلة قناعة جهازه الصوتى، وحباله الصوتية، والتجويف الزردمى،

اللسان، والأسنان والشفتين، كما لو كان ينطق قسراً وللمرّة الأولى كلمة فى لغة غير معروفة حتى الآن. فى الغرفة الصغيرة من الشقة التى يستخدمها مكتباً وقاعة جلوس توجد كنبة لشخصين، ومنضدة واطئة مركزية، وكرسى دائرى مبطن يبدو حفيّاً، مع جهاز تليفزيونى وضع فى الواجهة، فى نقطة المركز، ومكتب موضوع جانباً بطريقة يتلقى بها النور من النافذة حيث تنتظر أوراق التاريخ وشريط الفيديو من سيريح. جداران مغطيان بالكتب، معظمها متقبض من كثرة الاستخدام ومتجعِّدٌ بسبب السنوات. على الأرض، سجادة ذات رسوم هندسية وألوان صماء، وربما باهتة، تساعد على خلق جوٍّ من الرخاء مجرد وسيلة، بلا تكلف ولا ادعاء فى الظهور، شىء آخر غير ما هى عليه، أىْ مكانُ عيش أستاذ فى التعليم الثانوى راتبه قليل، كما تبدو مهنة التعليم فى مجموعها متعنتة فى إرادة ذلك، أو أن الأمر هو أثر حكم تاريخى لم تخضع له بعد. إن كريّة الخبز الطرى، أى الكتاب الذى بدأ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بقراءته، وهو دراسة عسيرة على الهضم حول الحضارات القديمة لبلاد الرافدين، موجودة حيث تُركت أمس فى المساء، على المنضدة الواطئة، منتظرة هى الأخرى، مثل الكريتيْن الأخريين، منتظرة مثلَ الأشياء الأخرى، بقدر ما هى عليه، لأنها لا تستطيع أن تفلت من هذا القدَرِ الذى يتحكم بها والذى يبدو جزءاً من طبيعتها الجوهرية كأشياء. ومِنْ قِبَلِ شخصية شأن الشخصية التى تعلن

عن نفسها أنها شخصية ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى قدَّمَ من قبلُ بعضَ البراهين على عقل متقلب، لكى لا نقول هارباً بصورة خفيفة منذ الوقتً القليل الذى عرفناه فيه، لن يكون مثيراً للدهشة أن نشهد فى هذه اللحظة إخراجاً مسرحياً مقصوداً لذاته من التظاهر حيث يقلب أوراق التلاميذ بانتباه زائف، ويفتح الكتاب على الصفحة التى توقفت عندها قراءته، وينظر بلامبالاة إلى شريط الفيديو على وجهيْه، كما لو أنّه لم يقرر بعد بصورة نهائية ما الذى يريد أن يفعله. لكن المظاهر، التى ليست خدّاعة دائماً بقدر ما يُزعم، تنفى نفسها بنفسها غالباً وتتيح انبثاق مظاهر تفتح الطريق إلى إمكانية انحرافات جادة مستقبلية بالعلاقة مع نموذج من السلوك الذى كان يبدو فى مجموعه مستقراً بصورة ثابتة، كان يمكن لهذا التفسير الشاق أن يُستبْعَد لو كنا قلنا، مكانه ومن دون مواربات أخرى، أن ترتوليانو ماكسيمو آفونسو توجّه مباشرة، أى فى خط مستقيم، نحو المكتب حيث تناول الشريط، واستعرض بعينيه المعلومات على وَجْهِ وقفا العلبة، واستحسن الوجوه المبتسمة، التى تفيض بالمزاج الطيب للمثلين، ولاحظ أنّ اسم واحدٍ منهم، الرئيسى، وهو اسم ممثلة شابة وجميلة، كان مألوفاً منه، دلالة على أنّ الفيلم ساعة إبرام العقود لم يستثر اهتماماً شديداً من قبل المنتجين، ثم وبحركة عازمة لإرادة بدت أنها لم تشك أبداً فى ذاتها، أدخل الشريط فى الڤيديو، وجلس على

الكرسى، وضغط على الزرّ المُوَجِّه عن بعد واستعدّ ليقضى بأفضل طريقة ممكنة أمسية، إذا كانت تعدُ بناءً على ما أمكن رؤيته القليلَ أصلاً، فسوف تمنح على وجه الاحتمال ما هو أقلّ من ذلك أيضاً، وكانت تلك هى الحالة. ضحك ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مرّتيْن، وابتسم ثلاث أو أربع مرّات، فالكوميديا، بالإضافة إلى أنها كانت خفيفة، حسب التعبير التقويمى لزميل الرياضيات، كانت عبثية خصوصاً، غريبة، خيالاً سينمائياً بقى فيهِ المنطقُ والحِسُّ المُشترَكُ يحتجبّان وراء الباب لأنه لم يُؤذن لهما بالدخول إلى مملكة الخبل، كان العنوان، من يبحث يجد الشهير، واحداً من هذه المجازات الواضحة، من نوع، هذا أبيض، تلك بيضة باضتها دجاجة، لم يُرَ أحدٌ يبحث أو يجدُ كائناً منْ كان، كلّ شىء كان مقتصراً على حكاية طموح شخصى مهتاج كانت الممثلة الشابة الجميلة تجسِّدُهُ بأفضل ما تستطيع، باعتبار أن الحكاية المذكورة كانت مغطاة بضروب سوء التفاهم، والمؤامرات، والمواعيد الفاشلة والملابسات، لم يتوصّل فى وسطها، للأسف، ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى اكتشاف أىّ مهدّئ لانهياره العصبى. عندما انتهى الفيلم، كان ترتوليانو أشد سخطاً على نفسه منه على زميله. فنواياه الحسنة تعذر هذا الأخير، أما بالنسبة إليه، هو الذى لم يعد فى عمر يحسب فيه المثانات مصابيح، فإنّ ما كان يفجعه، كما يحدث باستمرار للسذج، هو على وجه الدقة

سذاجته. قال بصوت عال، غداً سأذهب لإعادة هذا الخراء، لم يدهش هذه المرّة، فقد قدّر أنه يملك الحق فى أن يبوح بما فى داخله بطريقة فظة، من دون حسبان أنها كانت فقط الكلمة النابية الثانية التى تركها تفلت منه خلال هذه الأسابيع الأخيرة، باعتبار أن الأولى، فضلاً عن ذلك، لم يتفوّه بها إلا فى خاطره، وما هو فى الخاطر فقط لا قيمة له. نظر فى ساعته ولاحظ أنّ الساعة لم تبلغ الحادية عشرة بعد. الوقت باكر، همس، وهو يريد أن يقول بذلك، كما رأينا فيما بعد، إنه لا يزال لديه الوقت لمعاقبة نفسه على الخفة التى قايض معها الواجب مقابل الإخلاص، والأصيل مقابل المزيّف، والدائم مقابل الزائل، جلس إلى منضدة عمله، وسرّب برقة نحوه أوراق التاريخ، كما لو أنه يطلب منها العفو لهجْرِه لها، واشتغل إلى ساعة متأخرة من الليل، كأستاذ مدقق على النحو الذى كان يتفاخر بكونه هو، مليئاً بحبٍّ تربوىٍّ نحو تلامذته، لكنه شديد الصرامة حول التواريخ والشراسة حول الألقاب، كانت الساعة متأخرة جداً حين وصل إلى نهاية مهمته التى فرضها على نفسه، ومع ذلك، وفى نوبة أخيرة من التوبة عن خطئه، مليئاً بالندم بسبب خطيئته، وكما لو كان قد قرَّرَ أن يستبدل عقوبة مؤلمة بعقوبة أخرى لا تقلّ عنها إيلاماً، حملَ إلى السرير الكتاب حول حضارات بلاد ما بين الرافدين القديمة، فى الفصل الذى يعالج الساميين العموريين وخاصة الملك حمورابى، المعروف بشريعته.

نام بهدوء بعد أربع صفحات، دلالة على أنه قد غُفِرَ له.

استيقظ بعد ساعة من ذلك. لم يحلم، ولم يزعزع أى كابوس مريع دماغه، ولم يقاوم للدفاع عن نفسه ضد وحش هلامىّ جاء يلتصق على وجهه. فتح عينيْه ببساطة وفكر، هناك شخصٌ ما فى الشقة. بهدوء، ومن دون أن يفزع، جلس فى سريره وأصغى، لم تكن غرفته تطلُّ على الشارع، وحتى خلال النهار لا يصل ضجيج الخارج إليها، وفى هذه اللحظة من الليل، **كم** يمكن أن تكون الساعة، الصمت عادة كلىّ. ولقد كان كليّاً، كان باقياً بلا حراك، كائناً من كان الدخيل. مدّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ذراعه نحو منضدة السرير وأضاء النور، كانت الساعة تشير إلى الرابعة والربع. شأن معظم الناس العاديين، ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا هو أيضاً شجاع بقدر ما هو جبان، إنه ليس بطل سينما لا يُقهر، لكنه ليس كذلك واحداً من هؤلاء الرعاديد الذين يبولون فى سراويلهم حين سماعهم عند منتصف الليل أزيز باب الزنزانة فى القصر. صحيح أنه شعر بشعره ينتصب، لكن ذلك يحدث حتى للذئاب حين تواجه خطراً ولن يخطر فى بال أحدٍ بكامل قواه العقلية اتهام الذئاب بالجبن الشنيع، سوف يبرهن ترتوليانو ماكسيمو، أفونسو أنه هو الآخر ليس جباناً شنيعاً. ترك نفسه ينزلق بتؤدة من السرير، قبض على حذاء، فى غياب سلاح راضٍ أكثر، ثمَّ مع ألفِ ضربٍ من الحيطة أطلّ برأسه من

الباب المُطِلّ على الممرّ. نظر إلى جهة، ثم إلى جهة أخرى. صارت معرفة الحضور الذى أيقظه أكثر وضوحاً بقليل. وإذ يشعل المصابيح بقدر ما يتقدم، سامعاً قلبه يرنُّ فى قفصه الصدرى مثل حصان يعدو، دخل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قاعة الحمام، ثم المطبخ. لا أحد. وكان لديه الشعور بأنّ الحضور يفقد كثافته فى هذه الأماكن. عاد إلى الممرّ وبينما كان يقترب من قاعة الجلوس أدرك أن الحضور غير المرئىّ يزداد كثافة مع كلّ خطوة، كما لو أنّ صدى وهج خفىّ يجعل الجوّ يترجرج، كما لو أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو العصابى يتقدم على أرض مصابة بنشاط إشعاعى مع عدّاد جريجر باليد يوجه إشعاعاته إلى الطبقات الخارجية بدلاً من أن يصدر الإنذارات الصوتية، لم يكن هناك أىّ شخص فى قاعة الجلوس. نظر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من حوله، المكتبتان العاليتان الممتلئتان بالكتب قائمتان هناك، صلبتان وهادئتان، والنقوش على الجدران التى لم تتم الإشارة إليها حتى الآن، لكنها موجودة هنا، كما هى هنا أيضاً، هنا، هنا، المنضدة مع الآلة الكاتبة، والكرسىّ، والمنضدة الواطئة فى الوسط مع منحوتة صغيرة فى مركزها الهندسى، والأريكة لشخصيّن، والتليفزيون. همس ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، خائفاً، كان هذا إذًا، وحينئذ، آخر كلمة ملفوظة، الحضور، كان قد اختفى، بصمت، كفقاعة صابون تفرقعت،. نعم، كان هذا إذًا، التليفزيون، والڤيديو، والكوميديا

التى تسمى من يبحث يجد، صورة فى داخله كانت قد عادت إلى مكانها بعد أن ذهبت توقظ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى سريره، لم يكن يتصور أية صورة كانت المقصودة، لكنه كان على يقين من أنه سيتعرفها حين ستظهر، ذهب إلى غرفة النوم، ولبس مِبْذلاً فوق البيجاما كى لا يمسّه البرد وعاد. جلس على الكرسى، وضغط من جديد على الزرّ الموجِّه عن مسافة، وأعادَ، وهو محن إلى الأمام، واضعاً مرفقيْه على ركبتيْه، وعيناه شاخصًتان، بلا ضحك هذه المرة أو ابتسام، عَرْضَ حكاية المرأة الشابة والجميلة التى كانت تريد الانتصار فى الحياة. بعد عشرين دقيقة رآها تدخل فندقاً، وتتجه نحو الاستقبال، وسمع اسمه يُلفَظ، اسمى إينِس دو كاسترو، من قبل أن يلاحظ هذا التطابق التاريخىّ، سمعها تصرِّحُ بعد ذلك، لدىّ حجزٌ لديكم، نظر إليها الموظف مواجهًا، الكاميرا، لا المرأة، أو حينئذ المرأة التى تتواجد فى مكان الكاميرا، لم ينجح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذه المرة تقريباً فى إدراك جواب الموظف، هرع إصبع اليد، التى تمسك بالموجّه عن مسافة إلى الضغط على الزرّ الخاص بالوقفة، لكنّ الصورة كانت قد طارت أصلاً، من المنطقى عدم التبذير سدى بشريط التصوير من أجل ممثل ليس إلا ممثلاً صامتاً ولا يظهر فى الحكاية إلا بعد عشرين دقيقة، أعاد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لفّ الشريط، ورأى ثانية وجه موظف الاستقبال، والمرأة الشابة الجميلة تدخل مرة

أخرى إلى الفندق، تكرِّرُ أنَّ اسمها إينِس دو كاسترو وأنّ لديها حجزًا، والآن، نعم، هاهى الصورة الثابتة للموظف الذى ينظر مواجهًا الشخصَ الذى يراهُ، هو، نهض ترتوليانو ماكسيمو أفونسو عن كرسيّه، وركع أمام التليفزيون، ووجهه قريب من الشاشة بقدر الإمكان، وصرخ، هذا أنا، ومن جديد أحسَّ بشعْر جسمه ينتصب، ما كان يحدث لم يكن حقيقياً، لا يمكن أن يكون حقيقياً، أىّ شخص متوازن يمكن أن يوجد هنا كان يمكن أن يُطمئنه، ولكن يالها من فكرة، ياعزيزى ترتوليانو، أرجوك، انظر إذًا، إنّ له شارباً، فى حين أنك أنت، تملك وجهاً أمرد. الناس المتوازنون هم على هذه الشاكلة، إنهم معتادون على تبسيط كلّ شىء ثمّ بعد ذلك نراهم، ولكن فى وقت متأخر دائماً، وهم يندهشون من التنوع الذى لا ينفد فى الحياة، وينتبهون آنئذ إلى أن الشوارب واللحى لا تملك إرادة خاصة بها، وإلى أنها تنمو وتزدهر حين يُسمح لها بذلك، وأحياناً بفعل خمول محض من قبل مَنْ يحملها، لكنها تختفى دون أن تترك أثراً ببساطة لأنّ الموضة تغيرت أو لأن رتابة الشّعْر جعلها مزعجة للعينيّن أمام المرآة. ولا ننسى أيضاً، لأنّ من الممكن أن يحدث كل شىء حين نكون بصدد ممثلى فن المسرح، أنّ من المحتمل بقوّة أن يكون الشارب الدقيق الأنيق لموظف الاستقبال بكل بساطة شارباً مزيّفاً. لقد سبقت رؤية ذلك. هذه الاعتبارات التى، نظراً لبداهتها، تخطر بطبيعة الحال على خاطر أىّ امرئ،

كان بوسع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يصوغها لنفسه وحده لو لم يكن إلى حد بعيد متمسكاً بالبحث فى الفيلم عن أوضاع أخرى يظهر فيها الممثل الثانوى نفسه، أو الممثل الصامت مع عدد من سطور نصٍّ عليه القيام بنطقها، ستكون أكثر ملاءمة فى الإشارة إليه. حتى نهاية الفيلم، لا يزال يظهر الرجل ذو الشارب نفسه، وهو دوماً فى دور موظف الاستقبال، خمس مرات، كلّ مرة فى ظهور صامت، على الرغم من أنه كان عليه فى الظهور الأخير أن يتبادل جملتيْن مع الملحّة إينس دو كاسترو وبعد ذلك، بينما كانت تبتعد وهى تموّج فخذيها، نظر إليها مع تعبير شهوانى بصورة مضحكة لابد وأنّ المخرج قد حكم بأنه مضحك بصورة لا تقاوم بالنسبة إلى المشاهد. لا فائدة من الإشارة إلى أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يجده مضحكاً فى المرّة الأولى، وقد وجده أقلّ إضحاكاً فى المرّة الثانية، كان قد عاد إلى الصورة الأولى، الصورة التى ينظر فيها الموظف، فى مشهد يركز على وجهه، إلى إينس دو كاسترو وجاهاً، وكان يحلل الصورة بعناية، لمحة بعد لمحة، وتعبيراً بعد تعبير. فكر، باستثناء بعض الاختلافات الخفيفة، وخاصة الشارب، وقصّةُ الشعر المختلفة، والوجه الأقلّ امتلاء، فهو يشبهنى. شعَرَ بنفسه هادئاً فى الوقت الحالى، مما لاشك فيه أن التشابه كان إن جاز القول مدهشاً، لكنه لم يكن إلا ذلك، فالتشابهات لا تنقص فى هذا العالم، ويكفى التفكير بالتوءم مثلاً، وما

سيكون مدهشاً هو ألا يوجد مع أكثر من ستة آلاف مليون شخص على الكوكب، اثنان على الأقلّ يكونان متشابهين. مَنْ هم الذين لا يستطيعون أبداً أن يكونوا متشابهين، متشابهين فى كلّ شىء، نعلم ذلك، يقول، كما لو كان فى طريقه للتحدث مع هذا الأنا الآخر الذى كان ينظر إليه من داخل التليفزيون. ومن جديد جلسَ على الكرسى، محتلاً من ثمَّ الموقع الخاص بالممثلة التى كانت تقوم بدور إينس دو كاسترو، قام هو الآخر أيضاً بدور زبون الفندق. صرّح، اسمى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ثم، مع ابتسامة، وأنتم، كان السؤال شديد المنطقية، حين يلتقى شخصان من الطبيعى أن يودّ كلّ واحد منهما معرفة كلّ شىء عن الآخر، والاسم هو أول شىء دوماً، لأننا نتصور أنه الباب الذى ندخل منه. ترك ترتوليانو ماكسيمو آفونسو الفيلم يتتالى حتى النهاية، حتى المكان الذى تتواجد فيه قائمة الممثلين الأقلّ أهمية، لم يعد يتذكر إن كان يُشارُ أيضاً إلى الأدوار التى كانوا يقومون بها، ولكن لا، تظهرُ الأسماء ببساطة حسب الترتيب الأبجدى وكانت عديدة، تناول، وهو نصف غائب، علبة الشريط، ونظر من جديد ما كتب عليها وعُرِض، الوجه الباسم للمثلين الرئيسيين، وخلاصة موجزة عن العقدة، وكذلك، فى الأسفل، على سطر المعلومات الفنية، وبأحرف صغيرة جداً، تاريخ الفيلم. عمره خمس سنوات، همس، وهو يتذكر أنّ زميله المختص بالرياضيات سبق وأن قال له الشىء نفسه. خمس

سنوات مضت، كرَّرَ، وفجأة اهتزّ العالم من جديد، لم يكن ذلك أثرَ الحضور الغامض وغير المحسوس الذى كان قد أيقظه، بل كان بالأحرى شيئاً ما محسوساً، ولم يكن محسوساً فحسب، بل وقابلاً للتحقق. فتح، ويداه ترتعشان، وأغلق الدواليب، وأخرج ظروفاً تحتوى على صور سالبة ونسخاً فوتوجرافية، ونثر الكلّ على المنضدة وعثر أخيراً على ما كان يبحث عنه، صورة له تعود إلى ما قبل خمس سنوات، كان له شارب، وكانت قصَّة شعره مختلفة والوجه أقلّ امتلاء.

كان بوسع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو نفسه أن يكون عاجزاً عن القول إنْ كان النعاس قد فتح له من جديد ذراعيه الرحيمتين، بعد الإلهام المرعب الذى كانه فى نظره وجودُ، ربما فى هذه المدينة نفسها، إنسان هو، إذا ما حكمنا بناء على وجهه وقامته بصورةً عامة، صورتُهُ المطابقة تماماً. بعد أن قارن مطولاً الصورة الفوتوجرافية التى تعود إلى خمس سنوات مع الصورة التى تملأ الشاشة لموظف الاستقبال دون أن يكتشف أى اختلاف بين الواحدة والأخرى، أياً كانت ضآلته، ولا حتى أى تجعّد غير مرئىّ يتواجد لدى أحدهما ويفتقر الآخر إليه، ترك ترتوليانو ماكسيمو أفونسو نفسه يهوى على الأريكة لا على الكرسى حيث لم يكن بوسع المكان أن يأوى الانهيار المادى والمعنوى لشخصه، وهنا حاول، وقد أمسك رأسه بيديْه، منهك الأعصاب، معقود المعدة، أن ينظمَ أفكاره، وأن يستخلصها من فوضى الانفعالات المتراكمة منذ اللحظة التى حملته ذاكرته، وهى تسهر دون أن يشك فى ذلك وراء الستار المغلق لعينيّه، على

أن يستيقظ منتفضاً من نومه الأوّل والوحيد، إن ما يحيّرنى أكثر، كان يفكر بجهد، ليست تماماً واقعة أنّ هذا المرء يشبهنى، أنّهُ نسخة مطابقة، أو لنقل نسخة ثانية منى، فالحالات المماثلة ليست نادرة، هناك التوائم، هناك الأشباه، ثم إنّ الأنواع تكرّرُ نفسها، والكائن البشرى يكرّرُ نفسه، إنه مؤلفٌ من رأس، ومن جذع، ومن ذراعين، ومن ساقين، ومن الممكن أن يحصل، لست على يقين من ذلك، بل هو مجرد تخمين، أن يتجلى أثرُ تغيّرٍ عارض فى لوحة تكوينية محددة من خلال كائن مشابه لآخرٍ مصممٌ فى لوحة تكوينية ليس لها أية علاقة بالأولى، ليس هذا تماماً ما يحيّرنى، بل بالأحرى أن أعرف أننى منذ خمس سنوات كنت شبيهاً بما كانه آنئذ، كان لكلٍّ منا شارب، وأكثر من ذلك أيضاً إمكانية، ماذا أقول، احتمال أنّ يستمرّ التماثل بعد خمس سنوات، أى اليوم، فى هذه اللحظة ذاتها، كما لو أنّ أىّ تغير لدىّ يجب أن يؤدى إلى التغيّر نفسه لديه، أو، ما هو أسوأ أيضاً، ألا يتغيّر الواحد لأنّ الآخر تغيّر، بل لأن التغيير تمّ بالتزامن لدى الاثنيْن معاً، سيكون ذلك دافعاً لنطح الرأس على الجدران، نعم، حسناً، لا يجب علىّ أن أجعل من ذلك مأساة، نعلم أصلاً أنّ كلّ ما يمكن أن يحصل سيحصل، أولاً كانت الصدفة هى التى جعلتنا شبيهيْن، ثم صدفة فيلم لم يسبق لى أن سمعت به، وكنت أستطيع أن أعيش ما تبقى لى من حياة دون أن أتخيل أنّ ظاهرة من هذه الطبيعة ستختار، لكى

تظهـر، أسـتـاذ تاريخ عـادي، هذا الذى كـان هو نفسـه قـبل سـاعـات عـدة يصـحـح أخـطاء تلاميـذه والذى لا يعـرف هو نفـسـه الآن مـاذا يفـعل بالخطـأ الذى رأى نفسه قد تحوّل إليه من لحظة إلى أخرى. هــل أنـا خطأ حقاً، تساءل، ولنفـترض أننى فـعلاً كـذلك، أية دلالة، أية نتائج لمعرفة المرء نفسـه أنه خطأ يمكن أن تعنى بالنسبة لكائن بشرى، يخترق إحساس خاطف بالخـوف صُلبَه ويقـول لنفـسـه: إن من الأفـضل ترك بعض الأشياء على ما هى عليه، وإلا فالخطر كبير فى أن يرى الآخـرون بل، ومـا هو أسـوأ، أن نرى نحن أنفسنا أيضاً بعيون الآخرين هذا الانحراف الخفىّ الذى شوّهنا جميعاً عند ولادتنا والذى ينتظر وهو يقضم أظافره من نفاد الصبْر اليومَ الذى يستطيع فيه أن يكشف عن نفسه وأن يعلن عنها، هـأنذا. إنّ الثقل المفرط لتأمل مثل هذا العمق، يتناول فضلاً عن ذلك الوجود الممكنً للأزواج المتشابهة تشابهاً مطلقاً، وهو وجود مُسْتشعر كبروق خاطفة أكثر مما هو مشيّد لفظياً، جعله ينوس برأسه، والنومُ، نومٌ سيتابع بوسائله الخـاصـة السعْىَ الذهنى الذى تمّ حتى ذلك الحين بواسطة حالة السهر، يستحوذ على الجسد المتعب ويساعده على أن يتكوّر على وسائد الأريكة. لكن هذا النوم لم يتوصل إلى أن يكون راحة جديرة بهذا الاسم العذب، فبعد دقائق عدّة، وقد فتح عينيْه فجأة، وشأن لعبة متحركة ناطقة اختلت آليتها، كرَّرَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بكلمات أخرى السؤال المطروح قبل

قليل، ماذا يعنى أن يكون المرء خطأ. هزَّ كتفيْه كما لو أنّ السؤال كان قد كفّ فجأة عن أن يسترعى اهتمامه، وسواء أكانت أثراً مفهوماً لتعب أقصى أو، على العكس، نتيجة مفيدة لنوم شديد الإيجاز، تظلُّ هذه اللامبالاة مُشوِّشة وغير مقبولة، لأننا نعرف جيّداً، وأفضل من أىّ امرئ آخر، إن المشكلة لم تُحَلّ، فقد بقيت برمّتها داخل الڤيديو، منتظرة هى أيضاً بعد أن عرضت نفسها فى كلمات لم تكن تُسْمَعُ، لكنها كانت تستكمل حوار النصّ السينمائى، أحدنا هو خطأ، كانت فى الواقع ما صرّح به موظف الاستقبال إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو حين أعلم، وهو يتوجه نحو الممثلة التى تقوم بدور إينس دو كاسترو، أنّ الغرفة التى حجزتها كانت ١٢١٨ . كم مجهول فى هذه المعادلة، سأل أستاذ التاريخ أستاذ الرياضيات فى اللحظة التى كان يعبر فيها من جديد عتبة الرقود. لم يُجِب زميل الأرقام عن السؤال، واكتفى برسم إشارة شفقة وبأن يقول، سوف نتكلم فيما بعد، استرح الآن، وحاول النوم، فأنت بحاجة إليه، النوم هو ما كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يرغب فيه أكثر ما يرغب فى هذه اللحظة، لكنه فشل فى محاولته. فبعد دقائق عدة كان يستيقظ من جديد، مدفوعاً الآن بفكرة مضيئة جاءته فجأة وتقوم على أن يطلب إلى زميل الرياضيات أن يقول له لماذا اقترح عليه من يبحث يجد، فى حين أنه فيلم ذو مزايا أقرب إلى أن تكون هزيلة حاملاً عبء خمس سنوات

من الوجود مملوءة بالتأكيد بالأحداث المزعجة، وهو ما يؤلف بالنسبة إلى فيلم من الإنتاج المعتاد، وبميزانية ضعيفة، سبباً أكثر من مؤكد لكى يجد نفسه مُحالاً على المعاش بسبب العجز أو حتى أن يعرف موتاً قليل البهاء، مؤجَّلاً قليلاً فقط بسبب فضول نصف دزينة من المشاهدين الشاذين الذين كانوا قد سمعوا عن الأفلام المحترمة والذين كانوا يعتقدون أنه واحدٌ منها، أول مجهول عليه توضيحه فى هذه المعادلة المعقدة، سيكون معرفة هل كان زميله عالم الرياضيات نعم أم لا قد انتبه إلى التشابه وهو يرى الفيلم، وفى حال الإيجاب، لماذا لم ينبهه حين نصحه بهذا العنوان، حتى ولو لم يكن الأمر إلا عن طريق التهديد الممتع، من نوع، **هـيّئ** نفسك لخوف شديد يسيطر عليك. وعلى أنه لا يؤمن بالقدر بالمعنى المباشر للكلمة، أى بالقدر مع الحرف الأول الكبير الذى يميّزه عن كل قدر ثانوى، فإنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لا ينجح فى أن يفلت من فكرة أن كثرة من الصدف وضروب التزامن مجتمعة يمكنها تماماً أن تتطابق مع خطة غير قابلة للكشف حالياً، لكن تطورها وخاتمتها محدّدان أصلاً على وجه اليقين على الألواح التى نَقشَ عليها القدر، بافتراض أنه يوجد وأنه يحكمنا، منذ بداية الأزمان التاريخَ الذى ستقع فيه أول شعرة من الرأس، وذلك الذى ستمّحى فيه آخر ابتسامة من الفم، لم يعد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مرمياً على الأريكة كطقم مجعّد بلا جسم فى

داخله، فقد أتى على الوقوف على ساقين صلبتين بقدر الإمكان بعد ليلة لم يكن لعنف انفعالاته فيها ما يماثله طوال حياته كلها، ولما شعر أن رأسه لم يكن فى مكانه تماماً، فقد كان يستقصى السماءَ وراءَ زجاج النافذة، كان الليلُ يستمر فى التمسّك بسطوح المدينة، وكانت القناديل لا تزال مضاءة فى الشارع، لكنّ أول شقٍّ رقيق من الفجر كان قد بدأ فى تلوين الطبقات العليا من الجو بالصفاء، تيقّنَ على هذا النحو من أنّ نهاية العالم لن تقع اليوم، وأنه سيكون تبذيراً لا يغتفر أن تشرق الشمس على اللاشىء، لمجرّد أن يكون حاضراً فى بداية العدم مَنْ كان فى أصل كلٍّ شىء، وبالتالى، وعلى الرغم من أن الرابطة بين شىء وشىء آخر أبعد من أن تكون واضحة، وأقل من أن تكون بديهية، فقد ظهر الحس المشترك لترتوليانو ماكسيمو أفونسو أخيراً ليعطيه نصيحة كان غيابها ملحوظاً أكثر منذ أن ظهر موظف الاستقبال على شاشة التليفزيون وهذه النصيحة هى التالية، إذا كنت تفكر أن عليك أن تطلب تفسيراً من زميلك، فاطلبه منه مرة وإلى الأبد، ذلك أفضل من الإبقاء على الحنجرة معقودة بالتساؤلات وبالشكوك، أوصيك على كلّ حال ألا تفتح فمك أكثر من اللازم، وأن تراقب كلماتك، فبين يديك بطاطس حارة، ارمها إن كنت لا تريدها أن تحرقَك، اذهب وأعِدْ شريط الفيديو هذا فى نفس اليوم إلي المخزن، ادفن المسألة وانتهِ من أمْرِ هذا السرّ قبل أن يبدأ فى تقيؤ أشياء لعلك تفضل ألا

تعرفها، أو تراها، أو أن تقوم بها، وفضلاً عن ذلك، وبافتراض أن يوجد شخص يكون نسختك، أو أن تكون أنت نسخته، والظاهر أن هذه هى الحالة، فإنك لست ملزماً بأىّ حال أن تندفع لملاحقته، فهذا المرء موجود ولم تكن تعرف ذلك، وأنت موجود وهو لا يعرف ذلك، لم ير أحدكما الآخر أبداً، ولم يلتق أحدكما الآخر أبداً فى الشارع، الأفضل بالنسبة إليك هو أنْ، فقاطعه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وإذا قابلته ذات يوم، إذا التقيت به فى الشارع، تُدير رأسك إلى الجانب الآخر، لا رأيته ولا عرفته، وإذا توجّهَ إلىّ، لو أنّ لديه أقلّ ذرة من الحسٍّ السليم فسيفعل مثلك، لا تمكن المطالبة بأن يملك الناس جميعاً الحسّ السليم، ولهذا فالعالم هو على ما هو عليه، لم تُجب عن سؤالى، أىّ سؤال، ماذا أفعل إنْ توجّهَ إلىّ، تقول له يا للتزامن العجيب، الرائع، المذهل، أو ما سيبدو لك مناسباً بصورة أفضل، لكنك تتحدث عن التزامن وتنهى الحديث، هكذا لا أكثر ولا أقلّ، هكذا لا أكثر ولا أقلّ، سيكون ذلك قلة تهذيب، فظاظة، أحياناً هذه هى الطريقة الوحيدة لتلافى شرور خطيرة، إذا لم تتصرف على هذا النحو، تعرف ماذا سيحدث، كلمة تجرّ أخرى، وبعد لقاء أوّل سيكون هناك لقاء ثان وثالث، وعما قريب ستقصّ حياتك على مجهول، لقد عشت من قبل بما يكفى لتعرف أننا لسنا حذرين مع المجهولين والأجانب بما يكفى أبداً حين يعنى الأمر مسائل شخصية، وإذا أردت رأيى، من العسير علىّ أن

أتخيّل شيئاً أكثر شخصيّة، وأكثر حميميّة من البلبلة التى توشك أن تحشر نفسك فيها، من الصعب اعتبار شخصًا ما مشابهًا للذات أجنبياً، دعْهُ يستمرّ فى أن يكون ما كانه حتى الآن، مجهولاً، نعم، لكنه لن يستطيع أبداً أن يكون أجنبياً، نحن جميعاً أجانب، حتى نحن الذين هنا، لمن تشير، إليك وإلىّ، إلى حسّك المشترك وإليك أنت بالذات، إننا نادراً ما نلتقى لنتحدث، من وقت إلى آخر فقط، ولكى أكون صادقاً، غالباً ما لا يستحق الأمر ذلك، بسبب خطئى، بسبب خطئى أيضاً، نحن مرغمون بحكم طبيعتنا أو شرطنا على اتباع دروب متوازية، لكنّ المسافة التى تفصلنا أو تقسمنا هى من الكِبَرِ بحيث أنّ أحدنا لا يسمع الآخر فى معظم الحالات، إننى أسمعك فى هذه اللحظة، هناك ضرورة ملحّة والضرورة الملحّة تقرِّب، إنَّ ما يجب أن يكون سيكون، أعرف هذه الفلسفة، عادة ما نسميها القدر، الجبرية، القسمة، لكنّ ما تعنيه حقاً هو أنك لن تفعل إلا ما يروق لك، كما هو الأمر دوماً، هذا يعنى أننى سوف أفعل ما يجب أن أفعل، ولا أقلّ من ذلك، هناك أناس يرون أن ما فعلوه وما ظنّوا أنه يجب عليهم فعله سيّان، على العكس مما تعتقد بصفتك حسّاً مشتركاً، إنّ أمور الإرادة ليست على الإطلاق بسيطة، ما هو بسيط هو التردّد، الحيرة، الذبذبة، مَنْ يمكن أن يقول ذلك، لا تندهش، لا ننتهى أبداً من التعلم، مهمتى تتوقف هنا، ستفعل ما سيطيب لك، على وجه التأكيد، إذًا وداعاً، إلى مرة

أخرى، كن بصحة جيدة، احتمالاً حتى الضرورة الملحّة القادمة، شريطة أن أصل فى الوقت المناسب، كانت القناديل فى الشارع مطفأة، والمرور يتضاعف من دقيقة إلى أخرى، وكانت الزرقة تزداد فى السماء. نعلم جميعاً أن كل يوم يولد هو اليوم الأول بالنسبة إلى البعض واليوم الأخير بالنسبة إلى البعض الآخر وأنه بالنسبة للعدد الأكبر ليس إلا يوماً إضافيّاً، هذا اليوم بالنسبة إلى أستاذ التاريخ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، هو اليوم الذى نلتقى فيه، هو الذى نوجد فيه، وليس هناك أىّ سبب للتفكير أنه سيتبيّن أنه الأخير، ولن يكون كذلك مجرد يوم إضافىّ. لنقل إنه قد تقدم فى هذا العالم فى صورة أوّل يوم ممكن، صورة بداية أخرى وأنّه ربما ينطوى إذاً على قدَر آخر، كلّ شىء يتوقف على المبادرات التى سيقوم بها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو اليوم. ومع ذلك، فإن الموكب كما كان يقال فى الأزمان القديمة، لا يزال فى طريقه إلى الخروج من الكنيسة. فلنتابعه.

يا له من وجْه، همهم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يرى نفسه فى المرآة، وفعلاً لم يكن جميلاً لمن يراه، لم يكن قد نام إلا ساعة، وكان قد أمضى بقية الليلة يناضل ضد الذهول والخوف الموصوفيْن هنا بعناية ربما كانت مفرطة، لكنها معذورة إن فكرنا أنه لم يكن هناك أبداً فى تاريخ الإنسانية، ذلك نفسه الذى يجهد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى تعليمه جيداً بمثل هذا الإقدام لتلاميذه، شخصان متطابقان

فى المكان نفسه وفى اللحظة نفسها. فى حقب قديمة وُجدَت حالات أخرى من التشابه الجسدى الكامل بين شخصيْن، تارة من الرجال، وتارة من النساء، لكنها كانت منفصلة بعشرات، بمئات، بآلاف السنين وبعشرات، بمئات بآلاف الكيلومترات. والحالة المعروفة الأكثر إدهاشاً كانت حالة مدينة ما، لا وجود لها اليوم، ولدت فيها امرأتان متطابقتان فى الشارع نفسه وفى البيت نفسه، ولكن ليس فى الأسرة نفسها، ومع فاصل مائتين وخمسين عاماً، لم يسجل هذا الحدث العجيب فى أى سجل تأريخى، ولم تحتفظ منه التقاليد الشفهية بأى أثر كذلك، وهو أمر مفهوم تماماً لأنه حين ولدت الأولى لم يكن معروفاً أن ثانية كانت ستأتى وحينما ولدت الثانية كانت ذكرى الأولى قد اختفت. أمر طبيعى. على الرغم من الغياب الكامل لأىّ برهان وثائقى، أو لأىٍّ إثباتٍ بالشهود، فنحن قادرون على التأكيد بل، لو اضطر الأمر، على القسم بشرفنا إنّ كلّ ما صرّحنا به، أو نُصَرِّحُ أو سَنصرِّحُ به احتمالاً باعتباره حدث فى المدينة التى لا وجود لها اليوم قد حدث حقيقة، وكون التاريخ لا يستودع حدثاً لا يعنى أنه لم يحدث. عندما أنهى على نحو جيد عملية الحلاقة الصباحية، فحص ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الوجه الذى كان له أمامه ووجد أنه كان فى مجمله أفضل هيئة. والحقيقة، أن مراقباً حيادياً، امرأة كان أو رجلاً، لن يرفض أن يصف بالمنسجمة ملامح أستاذ التاريخ إن نظر إليها جملة، ولن يفوته

على وجه التأكيد أن ينتبه كما يجب إلى الأهمية الإيجابية لضروب عدم التماثل وبعض التنوعات فى الأحجام الدقيقة التى كانت تؤلف إن جاز القول فضلاً عن ذلك الملح المنعش الذى ينشط قليلاً مظهر الكريمَة الشاحبة التى تؤدى على الدوام تقريباً إلى أن تضرِّ بالوجوه المتمتعة بملامح مفرطة الانتظام، ليس المقصود هنا الإعلان أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يملك مظهراً رجولياً كاملاً، فهو لا يتطلع إلى مثل هذا الزعم ولن نكون على هذا القدر من الذاتيّة، لكنه لو كان يمتلك مجرد حفنة صغيرة من الموهبة لاستطاع تحقيق مهنة ناجحة فى المسرح فى الأدوار الرئيسية. ومن يقول المسرح يقول بالطبع السينما. جملة معترضة لا غنى عنها. هناك لحظات فى السرْد، وكما سنرى فهذا الذى هنا هو كذلك بالضبط، يجب فيها أن يُمنع على وجه السرعة كلّ تعبير مواز عن الأفكار والمشاعر من جانب الراوى على هامش ما تشعر أو تفكر به الشخصيات فى اللحظة نفسها بموجب قواعد الكتابة الجيّدة. إن المخالفة، بفعل التهور أو بفعل غياب الاحترام الإنسانى ، لهذا البند المُحَدِّد الذى، بافتراض إمكان وجوده، لن يكون على وجه الاحتمال إلزامياً، يمكن أن يقود الشخصيّة، بدلاً من أن تتبع مسار الأفكار المستقل والانفعالات انسجاماً مع الوضع الذى أضفىَ عليها، كما هو حقها المحبوس، إلى أن ترى نفسها مُداهمة بصورة تعسفية بتعبيرات ذهنية أو نفسية، لن تكون نظراً لأصلها غريبة عليها

كلياً، لكنها فى لحظة معينة يمكن أن تتكشف على الأقل غير ملائمة وفى بعض الحالات فاجعة، وكان ذلك على وجه الدقة ما حصل لترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كان يرى نفسه فى المرآة كما يرى المرء نفسه فيها لمجرّد تقدير أضرار ليلة من السهاد، كان يفكر بذلك وليس بشىء آخر حين أثار فيه، بغتة، التأمل المزعج للراوى حول ملامحه الجسدية والاحتمال الإشكالى لإمكان وضعها فى يوم قادم، وبمساعدة موهبة كافية، فى خدمة الفن المسرحى أو الفن السينمائى، استجابة لن يكون من المبالغ فيه وصفها بالرهيبة، ولو كان الشخص الذى كان يقوم بدور موظف الاستقبال هنا، أمام هذه المرآة، فكر بصورة مأساوية، لكان الوجه الذى سيراه فيها هو هذا الوجه. لا نلومنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لأنه لم يتذكر أنّ الآخر كان له شارب فى الفيلم، إنه لم يتذكره، هذا صحيح، ولكن لأنه كان يعرف عن علم أكيد أنه لم يعد له شارب اليوم؛ ولهذا السبب لا يحتاج العودة إلى هذه المعرفة الغامضة المتمثلة فى الهواجس، لأنه يجد أفضل الأسباب على وجهه هو المحلوق، والمتخلص من كلّ شعْر، لن يتردد أىّ كائن مهما كان اتزانه قليلاً، فى الاعتراف أن هذه الصفة، هذه الكلمة الرهيبة، غير الملائمة فى الظاهر مع الإطار المنزلى لشخص يعيش منفرداً، لا بد وأنها عبّرت بما يكفى من الملاءمة عمّا جرى فى رأس الرجل الذى يعود راكضاً من منضدة عمله حيث ذهب

ليبحث عن قلم حبر أسود وهاهو الآن، وقد وقف أمام المرآة، يرسم على صورته هو، فوق الشفة العليا ومقابلها تماماً، شارباً مطابقاً تمام المطابقة لشارب موظف الاستقبال، دقيقاً، رقيقاً، شاربَ ممثل الدوْر الأول. في هذه اللحظة، صار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا الممثل الذى نجهل اسمه وحياته، لم يعد أستاذ التاريخ فى التعليم الثانوى هنا أصلاً، وهذه الشقة ليست شقته، والوجه فى المرآة يملك بصورة نهائية مالكاً آخر. لو استمرّ هذا الوضع دقيقة إضافية، أو حتى أقلّ، لكان من الممكن أن يحدث أىّ شىء فى قاعة الحمام هذه، هياجٌ عصبىٌّ، جنونٌ مباغت، نقمةٌ مُدَمِّرة. لحسن الحظ، فإنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، على الرغم من بعض ضروب السلوك التى أمكن أن تحمل على فهم العكس والتى لن تكون على وجه الاحتمال الأخيرة، مجبولٌ من عجينة صالحة، لقد فقد السيطرة على الوضع خلال هنيهات عدّة، لكنه استعاد نفسه. ومهما بذلنا من جهد ، فإننا نعلم أننا لا نستطيع الخروج من الكابوس إلا بفتح أعيننا، ولكن العلاج فى الحالة الراهنة قام على إغلاقها، لا عينيْه هو، بل عينىّ الانعكاس فى المرآة. وبصورة فعالة كما لو أننا أمام جدار، فَصَلَ دفقٌ من رغوة الصابون هذيْن الأخويْن السياميَيْن اللذيْن لم يكونا يعرفان بعضهما بعدُ، وَيَدُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو اليمنى مسطحة جيداً على المرآة، تتحدّى وجْهَ الواحد ووَجْهَ الآخر، حتى أن أياً من

الاثنَين لن يتمكن من أن يجد نفسه ويتعرف عليها حالياً على السطح الملطخ برغوة بيضاء مخططة بنثارات سوداء تنساب ثم تذوب شيئاً فشيئاً، كفَّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو عن رؤية الصورة فى المرآة، وهو الآن وحيد فى بيته، وقف تحت الدُش وعلى الرغم من أنه كان على الدوام يرتاب جذرياً فى الفوائد السبارطية للماء البارد، إذ كان أبوه يؤكد أنْ لا شيء أفضل منه فى العالم لتحسين حالة الجسد واستنفار الدماغ، فقد قال لنفسه إن تلقيها بعنف هذا الصباح، دون خلطها مع الماء الحارّ المنحطّ، لكنه اللذيذ، ربما سيكون ناجعاً لرأسه الفارغ ويوقظ مرة وإلى الأبد مَنْ لا يزال فى الداخل يحاول فى كلّ لحظة الانزلاق فى النوم كما لو أنّ شيئاً لم يكن، دخل المطبخ، نظيفاً ومنشفاً، مصففف الشعر دون اللجوء إلى المرآة، لكى يُعِدَّ طعام فطور مؤلف كالعادة من عصير البرتقال، والبسكويت، والقهوة بالحليب، واللبن، فالأساتذة يجب أن يتغذوا بصورة مناسبة لكى يستطيعوا مواجهة الكدح المفرط فى القسوة والقائم على زرع أشجار أو مجرد شجيرات المعرفة فى أراض هى فى معظم الحالات قاحلة أكثر مما هى خصبة. ولا يزال الوقت مبكراً، فلن يبدأ درسه قبل الساعة الحادية عشرة، ولكننا يمكننا نظراً للظروف أن نفهم غياب أيةّ رغبة لديه فى البقاء فى بيته. عاد إلى قاعة الحمام لكى ينظف أسنانه وتساءل وهو يقوم بذلك إن لم يكن هذا هو اليوم الذى تأتى فيه جارته فى الطابق

الأعلى لتقوم بالتنظيف، امرأة مسنّة، أرملة وبدون أطفال، كانت قد طرقت بابه منذ ستة أعوام لتعرض عليه خدماتها بعد أن لاحظت أنّ جارها الجديد يعيش بمفرده هو الآخر. لا ليس هذا هو اليوم، إنه يستطيع أن يترك المرآة كما هى، فقد كانت الرغوة قد بدأت فى الجفاف، إذ هى تتحلل لأخفّ مسٍّ من الأصابع، لكنها حالياً لا تزال لاصقة ولا نرى أى شخص يرصد من تحتها. الأستاذ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على استعداد للخروج، لقد قرّرَ أن يستخدم سيارته لكى يفكر بهدوء بالأحداث الأخيرة التى أزعجته دون أن يتوجب عليه أن يتحمّل الجمهرة والتدافع فى وسائل النقل العامة التى يستخدمها عادة لأسباب اقتصادية واضحة، أدخل أوراق الامتحان فى محفظته، وتوقف ثلاث ثوان لكى يرى علبة شريط الفيديو، كانت تلك اللحظة المناسبة لاتباع نصائح الحسٍّ المشترك، أن يستخرج الشريط من المسجلة التليفزيونية، وأن يضعه فى علبته وأن يذهب مباشرة إلى المخزن. هاك، سيقول للعامل، كنت أعتقد أن هذا الفيلم سيكون مثيراً للاهتمام، لكنه ليس كذلك، فهو لا يستحق الجهد، لقد ضيعت وقتى، هل تريد فيلماً آخر، سيسأل العامل الذى سيجهد فى العثور على اسم هذا الزبون الذى قدم أمس، فلدينا بتصرفنا تشكيلة كاملة جداً من الأفلام الجيدة من كل الأنواع، سواء منها القديمة أو الحديثة، آه، ترتوليانو، بالطبع ستكون هاتان الكلمتان الأخيرتان مفكَّرة فقط

والابتسامة الساخرة التى كانت ترافقهما مُتخيّلة فقط. فات الأوان، فأستاذ التاريخ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان ينزل السلم أصلاً، وليست هذه أوّل معركة يجب على الحسّ المشترك أن يستسلم لخسارتها.

ببطء، كما لو أنه قرر الاستفادة من ساعات الصباح الأولى ليتمتع بنزهة ما، قام بدورة فى المدينة حاول خلالها، على الرغم من مساعدة المصابيح الحمراء والصفراء الأبطأ فى الانتقال إلى الخضراء، قدح زناد ذهنه للعثور على مخرج من وضع هو بين يديْه كلياً، كما يسع أىّ ذهن مستتير ملاحظة ذلك دفعة واحدة. توجد معضلة، كما اعترف لنفسه بصوت عالٍ بينما دخل فى الشارع الذى تقع فيه مدرسته الثانوية، لو أننى أستطيع فقط التخلص من هذه الحماقة، نسيان هذا الجنون، جهل هذه السخافة، وهنا توقف ليقول لنفسه إن أول عنصر من الجملة كان يكفى، ثم ختم، لكننى لا أستطيع ذلك، وهو ما يبرهن جيداً إلى أيّة درجة وصل الهوس بهذا الإنسان المجنون. درس التاريخ، كما سبق وقيل، لا يبدأ إلا فى الحادية عشرة، ولا تزال هناك ساعتان تقريباً باقيتان. عاجلاً أو آجلاً، سيدخل زميل الرياضيات إلى قاعة الأساتذة هذه حيث ينتظره ترتوليانو ماكسيمو أفونسو متظاهراً فى هيئة طبيعية مزيفة إعادة النظر فى أوراق الامتحان التى حملها فى محفظته. سيلاحظ مراقب يقظ ربما بقدر من

السرعة التصنّع، لكن يلزمه من أجل ذلك معرفة أنّ أىّ أستاذ من النوع المعتاد، لن يعكف على أن يقرأ ثانية ما سبق له وصحّحه، لا لأنه من الممكن جداً أن يكتشف أخطاء جديدة يتوجب عليه إذًا أن يصحّحها، وإنما لمجرّد مسألة الوجاهة، والسلطة، والاختصاص، أو ببساطة لأنّ ما صُحّح قد صُحّح نهائياً ولا يستوجب ولا يقبل الرجوع إلى الوراء. لم يعد باقياً إلا أن يصحح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أخطاءه هو، بافتراض أن واحدة من هذه الأوراق التى ينظر فيها حالياً دون أن يراها قد صحّح ما كان صحيحاً وأحلَّ محلَّ حقيقة غير متوقعة كذبة. إن أفضل المبتكرات، ولن يكون إلحاحنا على ذلك كثيراً، هى مبتكرات الإنسان الذى لا يعرف أنه يبتكر. آنئذ ظهر أستاذ الرياضيات. لمح زميله المؤرخ وتوجّه على الفور نحوه، **صباح** الخير، قال، **ها**، صباح الخير، **هل** أقاطعك، سأل، **لا**، أبداً، يا لها من فكرة، كنت ألقى مجرد نظرة ثانية، لقد صححت عملياً كل شىء، **كيف** حالهم، **مَنْ**، **تلامذتك**، **كالعادة**، وسط، لا جيد ولا سيئ، **تماماً** مثلنا حين كنا فى سنّهم، قال الرياضىّ مبتسماً. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يتوقع أن يسأله زميله إنْ كان عزم فى النهاية على استئجار شريط الفيديو، إن كان قد رآه، إن كان قد أعجبه، لكن أستاذ الرياضيات بدا أنه نسى الموضوع وطرد من ذهنه الحوار المهمّ أمس، ذهب ليملأ فنجان قهوة، وجلسَ وبَسَط بهدوءٍ صحيفته على المنضدة، مستعداً

للاستعلام عن الحالة العامة للعالم وللبلد. بعد أن استعرض عناوين الصفحة الأولى وقطّب حاجبيه عند رؤيته كلّ واحد منها، يقول، أتساءل أحياناً إن لم نكن نحن أوائل المسئولين عن الحالة التى يتواجد عليها كوكبنا، قال، مَنْ هو هذا النحن، أنا، أنت، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، متصنعاً الاهتمام، آملاً مع ذلك أنّ المحادثة على الرغم من ديباجة بمثل هذا البعد عن همومه الخاصة به ستنتهى إلى أن تقودهما إلى قلب الموضوع، تخيّل سلّة برتقال، قال الآخر، تصور أن واحدة منها، فى الأسفل تماماً، بدأت فى التعفن، من سيكون آنئذ قادراً، هذا هو السؤال الذى أطرحه، على أن يحدّد أين بدأ العفن، هذه البرتقالات التى تتحدّث عنها، هل هى بلاد أو كائنات بشريّة، أراد ترتوليانو ماكسيمو آفونسو أن يعرف، فى بلد ما إنها الكائنات البشرية، فى العالم إنها البلدان وبما أنه لا يوجد بلد من دون كائنات بشرية، فبهم إنما يبدأ التعفن بصورة لا محيد عنها، ولماذا سيكون بالضرورة نحن، أنا، أنت، هم المذنبون، شخصٌ ما هو كذلك، أدعوك لملاحظة أنك لا تأخذ بعين الاعتبار عاملَ المجتمع، المجتمع، يا صديقى، شأنه شأن الإنسانية، تجريد، مثلُ الرياضيات، أكثر بكثير من الرياضيات، فالرياضيات إلى جانبهما محسوسة بقدر ما هو محسوس خشب هذه المنضدة، ما الذى تقوله لى إذاً عن الدراسات الاجتماعية، ليس من النادر أن تكون هذه الدراسات الاجتماعية المزعومة كل شىء إلا

دراسات مخصصة للأشخاص، حـاذر أن يسمعك علماء الاجتماع، إذ سيحكمون عليك بالموت المدنى على أقلّ تقدير، الاكتفاء بموسيقى الأوركسترا التى نعزف فيها وبالجزء من هذه الموسيقى نفسها التى يجب عليك أن تعزفه خطأ شائع جداً، ولاسيّما بين مَنْ ليسوا موسيقيين، البعض هم بالتأكيد أكثر مسئولية من الآخرين، أنت وأنا، مثلاً، بريئان نسبياً، على كل حال من أخطر الشرور، هـاهنا فى العادة، خطاب الضمير الطيب، واقعة أن يكون الضمير الطيّب هو الذى يعتمده، لا ينتزعُ شيئاً من هذه الحقيقة، أفضل طريق نحو التبرئة العامة يمرُّ باستنتاج أنه لما كان كلّ الناس يرتكبون الأخطاء، فلا وجود هناك لشخص مذنب، ربما لا نستطيع من أجل ذلك شيئاً، إنها مشكلات العالم، صرّح ترتوليانو ماكسيمو آفونسو كما لو أنه يضع نهاية للمحادثة، لكن الرياضىّ يصحح، لا يملك العالم مشكلات أخرى سوى مشكلات الكائنات البشرية، وإذ تفوّه بهذا الحكم، أغرق أنفه فى صحيفته، كانت الدقائق تمرّ، وساعة درس التاريخ تقترب ولم يكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يرى كيف يتناول الموضوع الذى كان يهمّه، إن بوسعه بالطبع أن ينادى زميله مباشرة، أن يسأله وعيناه فى عينيّه، بـالمناسبة، من المعروف أصلاً أن ذلك لا يأتى أبداً فى مناسبته، لكنّ عكازات اللغة موجودة على وجه الدقة من أجل أوضاع مثل هذا الوضع، ضرورة ملحّة للانتقال إلى موضوع آخر دون

الظهـور بمظهـر من يعلق أهمـيـة خـاصـة على ذلك، ضـربٌ مـن الظهـور - كـمـا - لو - أننى - تذكـرت - لـتـوّى المقبول اجتماعيّاً، قد يقول، **بـ**المناسبة، هل لاحظت أن مـوظف الاسـتـقـبـال فى الفـيلم هو صـورتى بالضـبط، لكنّ ذلك يعنى كشف ورقته الرابحـة فى اللعبـة، إدخالَ شخص ثالث فى السرّ الذى لم يكن بعدُ حتى مشتـركاً بين شـخصيّن، دون الحـديـث عن المشكلة القـادمـة فى وجـوب توضـيح المسائل الطفيليّة من هذا النوع، **هـل** التقيت من قـبل بشبيهك الشـهـيـر. فى اللحظة ذاتها رفع أسـتـاذ الرياضـيـات عينيّه عن صحـيفتـه، وسـأل، إذًا، هذا الفـيلم، هل اسـتـأجـرته، فـأجـاب ترتوليـانو ماكسيمو أفونسو، شبه سعيد، وقد استثير، **نـ**عم، نعم، لقد استـأجـرته، **وما** كان رأيك فيـه، **إنّه** مـسلٍّ، **هـل** أحسن إليك فى انهيـارك العـصـبـى، أريد أن أقـول فى **ضـ**ـعـفك، ضعف أو انهيار عـصـبى، لا يهمّ، فالشـرّ لا يسكن فى اسـمـه، **هـل** أحـسـن إليك، **أ**ظن نعم، فقـد نجـحـت على الأقلّ فى الضـحـك من بعض المواقف. نهض أسـتاذ الرياضـيات، كان تلامذته ينتظرونه أيضاً، أيّة فـرصـة أفـضل من هذه ليـسـتطيع ترتوليـانو ماكسيـمو أفـونسو أن يقول أخيراً، **بـ**المناسـبـة، مـتى رأيـت **مَنْ** يبحث يجـد للمرّة الأولى، لا أهـميّة للسؤال، إنه مـجـرد فضـول، المرّة الأخـيـرة كـانت هـى المرّة الأولى والأولى كانت الأخيرة، **مـتى** رأيته، منذ حـوالى الشهر، صديق أعـارنى إيّاه، **كـ**ـنت أظنّ أن الفيلم كان لك، أنه يؤلف جـزءاً من مـجـمـوعتك، **هـ**ـيّا، لو كـان لـى لكنت

أعــرتك إيّاه، ولما جــعلتك تصــرف المال من أجل استئجاره. كانا قد صارا فى الممرّ ويتجهان نحو قاعات الدروس، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يشعر بذهنه وقد تحرّر، وانفرج، كما لو أن ضعفه تبدّد فجأة فى الفضاء اللامتناهى، ربما لكى لا يعود بعد ذلك أبداً. عند المنعطف التالى فى الممرّ انفصلا، سيذهب كلّ واحدٍ منهما من ناحيته، وإذ وصلا هنا، وتبادلا قولاً، إلى اللقاء القريب، وبعد أن قام بالسير أربع خطوات، استدار أستاذ الرياضيات وسأل، بــالمناسبة، هل لاحظت أنه يوجد فى الفيلم ممثل، ممثل صامت، يشبهك بصورة هائلة، لو أنك تضع شارباً كشاربه، فستكونان كقطرتى ماء. كالصاعقة، هَبَطَ الوهن من الأعالى وحوّل المزاج الطيب الخاطف لترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى رماد. ومع ذلك، وكما لو أنه يواجه حظاً عاثراً بطيبة قلب، أمكنه أن يجيب بصوت بدا يضعف مع كل مقطع، نعم، لاحظت، إنه تطابقٌ مذهل، خارق بصورة مطلقة، وأضاف بابتسامة شاحبة، لا ينقصنى أنا إلا الشارب ولا ينقصه هو إلا أن يكون أستاذ تاريخ، أما بالنسبة إلى ما تبقى، فكل شخص يمكن أن يقول إننا متطابقان. نظر إليه الزميل باستغراب، كما لو أنه يلتقى به بعد طول غياب، وقال، الآن أتذكر أنك أنت أيضاً كنت تحمل شارباً قبل سنوات عدّة، فأجاب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، مستصغراً كل حذر، شأن الإنسان الضائع الذى يرفض الاستماع إلى النصائح، ربما، فى تلك الحقبة،

كان الأستاذ هو، اقترب أستاذ الرياضيات منه، ووضع يده بصورة أبوية على كتفه، أنت فعلاً منهار عصبياً، يا عزيزى، إننا أمام واحد من هذه الصدف التى لا أهمية لها مثل كثير غيرها، لا يجب على ذلك أن يؤثر عليك إلى هذه الدرجة، ذلك لا يؤثر علىّ، الأمر ببساطة أننى نمت قليلاً، لقد قضيت ليلة تعيسة، مِنَ المُحْتمل جداً أنّه نظراً لتأثير ذلك عليك إنما قضيت ليلة سيئة، شعر أستاذ الرياضيات بكتف ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ينسحب تحت يده، كما لو أنّ جسمه كله، من القدميْن إلى الرأس، تصلب فجأة، والصدمة التى تلقاها منه كانت من القوة، والانطباع من الحدّة، بحيث سَحَبَ ذراعه. وبحركة كانت من البطء بقدر ما استطاع، محاولاً التصرف بطريقة لا يدرك فيها زميله أنه مصدود، لكن القسوة الغريبة فى نظرة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لم تكن تترك مجالاً لأىّ شك، فإنّ الهادئ، المطواع، أستاذ التاريخ المستكين الذى اعتاد على معاملته برفق ودّى، لكنه متسامح، هو فى هذه اللحظة إنسان آخر. وكما لو أنه يتواجد فى مواجهة لعبة يجهل قواعدها، يقول، حسناً، سنتقابل فيما بعد، لن أتناول اليوم طعام الغذاء فى مطعم المدرسة، وكان الجواب الكامل أن أحنى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو رأسه ودخل إلى قاعة الفصل الدراسى.

خلافاً للتأكيد الخاطئ المقدم قبل خمسة سطور أعلاه والذى نمتتع مع ذلك عن تصحيحه فوراً بما أن هذه الحكاية تقع على مسافة فُرْضَة على الأقل فوق التمرين المدرسى البسيط، لم يكن الرجل قد تغيّر، كان الرجل هو نفسه دوماً. والتغيير المفاجئ فى المزاج الملاحَظ لدى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى صَعَقَ أستاذ الرياضيات لم يكن إلا مجرّد عَرَض جسدى لمرض نفسى مشهور عامة تحت اسم غضب النواعم. بابتعادنا بصورة طفيفة عن الموضوع الرئيسى، ربما سنفلح فى أن نتفاهم على نحو أفضل إن استندنا إلى التقسيم الكلاسيكى، الذى وإن فَقدَ والحق يُقال اعتباره بفعل تقدم العلم الحديث، يُوَزِّع الأمزجة البشرية إلى أربعة أنماط، هىَ الكئيب نتيجة المرارة السوداء، والبارد الذى ينتج بالطبع عن النُّخَاعة، والدموى المرتبط كذلك طبعاً بالدم، وأخيراً الغضوب الذى كان نتيجة المرارة البيضاء، وكما يمكن ملاحظته بسهولة، ليس هناك فى هذا التقسيم الرباعى والمتناظر بصورة بدائية أية فئة يمكن تصنيف طائفة

النــواعــم فــيــهــا. ومــع ذلــك، فـالتــاريــخ، الــذى لا يخطئ دوماً، يؤكد لنا أنّ النواعم كانوا موجودين من قبل، بل وبأعداد كبيرة، فى هذه الحقب الغابرة، شأن أحداث الساعة تماماً، هذا الفصل من التاريخ الذى لا يزال بانتظار أن يُكتب، يقول لنا إنهم لا يستمرون فى الوجود فحسب، بل وكذلك إنهم أكثر عدداً من أىّ وقت مضى، تفسير هذا الشذوذ الذى، إنْ قُبِل، يفيدنا فى فهم خفوت الضوء المظلم للعصر القديم بقدر فهم الأضواء الاحتفالية للآن، ربما يكمن فى واقعة أنه عند لحظة تعريف وإعداد اللوحة الطبيّة الموصوفة أعلاه، كان ثمة مزاج آخر قد نُسِى، نريد أن نتحدث عن الدموع، من المدهش، لكى لا نقول من المعيب من وجهة نظر فلسفية، أن شيئاً على هذا القدر من الوضوح، وعلى هذا القدر من الذيوع وعلى هذا القدر من الغزارة كالدموع لم ينتبه إليه حكماء العصر القديم المحترمون، واستحق من الاعتبار هذا القدر القليل ممن لا يقلون عنهم من حكماء الآن وإن كانوا أقل منهم احتراماً، وسنتساءل ما علاقة هذا الاستطراد الطويل بغضب النواعم، خاصة إذا فكرنا أنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى هو سببه فى الظاهر، قلما رُئىَ وهو يبكى حتى الوقت الحاضر، إنّ الاستنكار الذى أتينا على القيام به لغياب الدموع فى نظرية الطبِّ المزاجىّ لا يعنى أن النواعم، الأكثر حساسيّة بطبيعتهم، وبالتالى الأكثر ميلاً لهذا الإظهار السائل للمشاعر، يتنزهون طوال اليوم المقدس

والمنديل في يدهم ليبصقوا وليمسحوا في كلِّ آن أعينَهم المغرورقة بالدموع. وبالمقابل هذا يعنى أن كائناً إنسانياً، رجلاً أو امرأة، يمكن له أن يكون ممزقاً تماماً داخلياً تحت أثر العزلة، والهجران، والخجل، وما تصفه المعاجم باعتباره حالة عاطفية تتجلى في العلاقات الاجتماعية والتى تصحبها أعراض إرادية، وأوضاع جسدية وعصبية، ومع ذلك، فبسبب مجرد كلمة أحياناً، لمجرد نعم ولا، لمجرد إشارة تعبِّرعن نيّة طيبة، لكنها شديدة الرعاية، كتلك التى أفلتت منذ قليل من أستاذ الرياضيات، وهاهو الهادئ، المطواع، الخاضع يختفى فجأة من المسرح وتنفجر مكانه، وتلك ظاهرة محيِّرة وغير مفهومة بالنسبة إلى الذين يظنون أنهم يعرفون كلّ شىء عن النفس البشرية، نوبة عمياء وهدّامة من غضب النواعم، تدوم النوبة عادة وقتاً قليلاً، لكنها تحمل على الخوف عندما تنتاب المرء. ولهذا السبب، فإن الصلاة الأشدّ ورعاً عند النوم في نظر الكثيرين، ليست أبانا المعتادة ولا سلام عليك يا مريم الأبدية، بل بالأحرى، نجِّنا من كل الشرور، يا إلهنا، وخاصة من غضب النواعم، كان يمكن لهذا التضرّع أن يكون ناجعاً لتلاميذ التاريخ لو أنهم ثابروا على ممارستها، ولكن نظراً لكونهم في مقتبل العمر، فالأمر مشكوك فيه، ستأتى الساعة بالنسبة لهم. صحيح أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو دخل قاعة الفصل الدراسىّ بهيئة كالحة، وهى ما دفعه، وقد لوحظت من قبل تلميذ كان يظنّ نفسه أكثر مكراً من

الأكثرية - إلى الهمس بها إلى جاره، كأن الرَّجُلَ فى حالة سيّئة، لكن ذلك ليس صحيحاً، كان الأمر بالضبط أعراضاً نهائية للعذاب، الزوابع الأخيرة المبعثرة، وابلاً من المطر متأخراً، الأشجار الأقل مرونة التى كانت ترفع بصعوبة رأسها، والبرهان على أن الأمر كان كذلك هو أنه بعد أن قام بإجراء النداء بصوت حازم ومطمئن قال الأستاذ، كنت فكرت فى الاحتفاظ بتصحيح آخر تمرين كتابى إلى الأسبوع المقبل، لكنى كنت حراً أمس مساء وقررت التقدّم فى العمل، فتح حقيبته، وأخرج منها الأوراق ليضعها على المنضدة وتابع، التصحيحات تمّت، والعلامات أعطيت حسب الأخطاء المرتكبة، ولكن خلافاً للعادة التى تقوم على أن أردّ لكم التمارين ببساطة، سوف نخصص وقت هذا الدرس لتحليل أخطائكم، أى أننى أريد أن أسمع من كلٍّ واحد منكم لماذا تظنون أنكم انخدعتم، فلربما حملتنى الأسباب التى ستقدمونها لى حتى على تغيير علاماتكم، توقف، ثم أضاف، إلى أفضل. انتهت الابتسامات فى القاعة إلى طرد الغيوم بعيداً.

بعد الغذاء شارك ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مع معظم زملائه فى اجتماع دعت إليه الإدارة لتحليل آخر اقتراح بالإصلاح التربوى الصادر عن الوزارة، من بينِ ألفٍ ونيِّف تجعل من حياة المعلمين المساكين رحلة شاقة إلى المريخ عبر أمطار لا تنتهى من النيازك المُنذرة التى تصيب الهدف غالباً فى القلب. عندما جاء دوره فى الحديث، اكتفى ترتوليانو ماكسيمو

أفونسو، بلهجة خاملة رتيبة، بتكرار فكرة كفّت عن أن تكون جديدة وأتاحت الفرصة حتماً لضحكات ملاطفة من قبل المجتمعين ولضيق صعب إخفاؤه من قبل المدير. قال، **في** رأيي، الخيارُ الوحيد الصالح، القرار الوحيد الجادّ الذي يجدر اتخاذه في ما يخصّ معرفة التاريخ سيكون في تحديد ما إذا كنا سنعلّمه من الوراء إلى الأمام أو، كما أعتقد، من الأمام إلى الوراء، وكلّ ما عدا ذلك، وهو ما لا يجب احتقاره بالتأكيد، مشروط بالخيار الذي سيُقرَّر كما يَعْلَمُ كلٌّ منا، لكنه يتظاهر بجهل ذلك، كانت آثار ختام الخطبة هي الآثار المعتادة دوماً، زفرة إذعان ضجرة من المدير، تبادل النظرات والهمسات بين الأساتذة، يبتسم أستاذ الرياضيات هو أيضاً، لكنها كانت ابتسامة تواطؤ ودّي، كما لو أنه كان يقول، **معك** حق، لاشيء من هذا يستحق النظر إليه جدّياً، والإشارة التي وجّهها إليه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بصورة نصف سرّية من الجانب الآخر من المنضدة كانت تعني أنه كان يشكره على الرسالة، لكنَّ الشيء الذي كان يصاحب هذه الإشارة في الوقت نفسه والذي سنسمّيه في غياب كلمة أفضل إشارة فرعيّة كان يذكره بأن الحكاية في الممرّ لم تكن قد نُسِيَت كلياً وبعبارات أخرى، في الوقت الذي كانت فيه الإشارة الرئيسية تبدو مُصَالحة صراحة، قائلة، **ما** فات مات، فإن الإشارة الفرعيّة، من جانبها، كانت تحترس وتدقق، **نعم**، ولكن ليس كليّاً. خلال ذلك كانت الكلمة قد أعطيت للأستاذ

التالى وبينما كان هذا الأخير، بخلاف ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، يخطب بإسهاب وبمهارة، فلننتهز الفرصة لنفَصِّلَ قليلاً، قليلاً جداً نظراً لتعقد الموضوع، مسألة الإشارات الفرعيّة المثارة هنا للمرّة الأولى، على الأقلّ حسب علمنا. يُقال غالباً على سبيل المثال إن س أو ق أو ج، فى وضع محدّد، قاموا بإشارة لهذا أو لذاك، كما لو أنّ هذا أو ذاك، الشك أو إظهار الدعم أو النصيحة بالحذر كانت تعبيرات جاهزة، الشك، منهجىٌّ دوماً، والدعم، غير مشروط دوماً، والنصيحة خالصة دوماً، حين تتطلب الحقيقة العارية تماماً، إذا أردنا حقاً معرفتها، إذا لم نكتف بحروف الاتصال السوداء، أن نكون مُتنبّهين إلى التلألؤ المتعدّد للإشارات الفرعيّة الذى يتبع الإشارة، مثل الغبار الكونى الذى يتبع ذيل المُذنّب تماماً، لأنَّ هذه الإشارات الفرعيّة، للجوء إلى مقارنة فى متناول الأعمار جميعاً والأفهام جميعاً، هى كالحروف الصغيرة فى العقود، عسيرة على القراءة، لكنها موجودة بتمامها. ومع دفاعنا عن التواضع الموصى به من قبل المجاملات والذوق السليم، فلن نُفاجأ أبداً إذا ما صارت فى مستقبل شديدِ القرب، دراسةُ وتحديدُ وتصنيفُ الإشارات الفَرعية، كلّ واحدة منها بمعزل عن الأخرى ومجتمعة، فرعاً من أكثر فروع علم العلامات بصورة عامة خصوبة. ولقد شوهدت حالات أكثر عجباً من هذه الحالة. أتى الأستاذ الذى كانت له الكلمة على ختام مداخلته فى هذهِ اللحظة بالذات،

وحين أراد المدير متابعة استعراض الآراء من حول المنضدة، رفع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعزم يده اليمنى ليشير إلى أنه يودُّ التدخل. سأله المدير إذا كان ما يريد قوله يتعلق بوجهات النظر التى عُرضَت لتوّها وأضاف أنه، فى حال الإيجاب، تقتضى القواعد المتبعة فى هذا النوع من الاجتماعات، كما لا يجهل حتماً، أن يتم انتظار إنهاء المشتركين تصريحاتهم، لكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أجاب أن لا، ليس تعليقاً وأن ذلك لا يتعلق بأفكار زميله المحترم الملائمة بقوة، وأنه نعم، يعرف وكان يحترم دوماً القواعد، القواعد المتبعة مثل القواعد التى صارت مهجورة، أنه يرغب فقط طلب الإذن له بالانسحاب لأنّ عليه أن يقوم بقضاء حاجات ملحّة خارج الثانوية. هذه المرة لم يكن المقصود إشارة فرعيّة، بل بالأحرى لهجة ثانوية، ذات توافق جاء، لنقل، ليعطى قوة جديدة للنظرية الوليدة، المعروضة أعلاه، والمتعلقة بالأهمية التى يجب علينا أن نوليها لتنوعاتِ الاتصال، لا الثنائيات أو الثلاثيات فحسب بل الرباعيات والخماسيات، سواء الإيمائى منها أو اللفظى. فى الحالة التى تهمنا، مثلاً، انتبه الحاضرون جميعاً إلى أن اللهجة الفرعيّة الصادرة عن المدير تحت الكلمات الملفوظة فعلاً كانت تعبر عن شعور بالراحة، بالطبع، أكيد، يمكنك الانصراف. انصرف ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بإشارة واسعة من اليد، إشارة للمجتمعين، إشارة فرعية للمدير، وخرج. كانت سيارته مركونة بالقرب من الثانوية، وصار بعد

دقائق عدة فى داخلها، ناظراً بتصميم إلى الدرب الذى سيقود حالياً إلى الوجهة الوحيدة المتفقة مع الأحداث التى وقعت منذ ما بعد ظهر الأمس، أى إلى المخزن حيث استأجر شريط فيلم الفيديو **مَنْ** يبحث يجد، كان قد رسَمَ خطة فى قاعة الطعام بينما كان يتناول غذاءه وحيداً، وكان قد أكملها تحت الدرع الحامى لمداخلات زملائه المنوِّمة والآن أمامه عامل مخزن شرائط الفيديو، نفسه الذى كان قد وجد مضحكاً أن يُسمّى زبونه ترتوليانو والذى ستكون له بعد الصفقة التجارية وهى على وشك أن تتمّ أسباب أكثر من كافية للتفكير بالترافق بين اسم غير مستعمل والسلوك الأكثر من غريب لمن يحمله. فى البداية لم يحدث شىء خاص، دخل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مثل الناس جميعاً، وحيّا مثل الناس جميعاً ومثل الناس جميعاً طفق يستعرض الرفوف ببطء، متوقفاً هنا وهناك، مادّاً عنقه ليقرأ العناوين على العلب الحاوية على الأشرطة، ثم اتّجه أخيراً نحو الصندوق وصرّح، أتيت لشراء الشريط الذى أخذته من هنا أمس، لا أدرى إن كنت تتذكر، أتذكّرُ تماماً، أخذتَ شريط **مَنْ** يبحث يجد، **بـ**الضبط، أريد شراءه، **بـ**سرور، لكن لو سمحت لى بملاحظة، أقوم بها بالطبع لمصلحتك، من الأفضل أن تعيد لنا الشريط الذى استأجرته وأن تشترى نسخة جديدة منه، لأنه مع الاستعمال، كما تعلم، يطرأ دوماً بعض العطب على الصورة وعلى الصوت، قليل، حقاً، لكنه يُرى مع مرور

الوقت، **لا** أهمية لذلك، أجاب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فبالنسبة إلى ما أريد أن أفعله بها، تكفينى النسخة التى أخذتها. سجّل العاملُ بارتباك هذه الكلمات المحيِّرة بالنسبة ـ إلى ـ ما ـ أريد ـ أن ـ أفعله ـ بها، ليست هى جملة تنطبق عادة على شريط فيديو، شريط الفيديو، يُشاهَد، لهذا هو موجود، ومصنوع، ولا شىء آخر يمكن فعله به. إن فرادة الزبون لا تتلخّص مع ذلك فى هذا. فلكى يجتذب صفقات أخرى، كان العاملُ قد قرّر يختصّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بأفضل برهان على التقدير وعلى الاحترام التجارى الموجود منذ الفينيقيين، **سـ**أخصم لك من سعر المبيع قيمة الأجرة، كان قد قال، وبينما كان يقوم بالطرح، سمع الزبون يسأله، **هـ**ل لديك بالصدفة أفلام أخرى للمنتج نفسه، أفترض أنك تريد أن تقول المخرج نفسه، استأنف العامل بلباقة، **لا**، لا، لقد عنيت تماماً المنتج، إنّ المنتج هو مَنْ يهمنى، لا المخرج، اعذرنى، فخلال كلّ السنوات التى قضيتها فى هذا الفرع لم يسألنى أى زبون على الإطلاق ذلك، فالزبائن يطلبون الفيلم بواسطة عنوانه، وغالباً بواسطة اسم الممثلين، ومن وقت إلى آخر فقط يحدّثنى بعضهم عن المخرج، لا المنتج على الإطلاق، إذًا، لنقل إننى أنتمى إلى فئة خاصة من الزبائن، **نـ**عم، صحيح، هذا ما يبدو، ياسيّد ماكسيمو أفونسو، همس العامل بعد أن ألقى نظرة سريعة على بطاقة الزبون. شعر بنفسه طائشاً، مشوّشاً، لكنه أيضاً راضٍ بالإلهام المباغت

والسعيد الذى دفعه إلى أن يتوجّه إلى الزبون باسميْه اللذيْن، باعتبارهما أيضاً اسمىْ علم، يمكن أن يفلحا على وجه الاحتمال فى أن يدفعا إلى الظلِّ الاسمَ الأصلىَّ، الاسمَ الحقيقى، الاسمَ الذى كان قد أثار لديه فى لحظة قاتلة الرغبة فى الضحك. كان قد نسىَ أن عليه أن يجيب زبونه الذى يريد أن يعرف إن كان لديه فى مخزنه أم لا أفلام أخرى للمنتج نفسه، ووجَبَ على ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يكرّر السؤال، مضيفاً تدقيقاً كان يأمل أن يُصحِّح سمعة المنحرف التى كان قد اكتسبها، فيما يبدو، فى هذه الشركة، إن سبب اهتمامى بأفلام أخرى لهذا المنتج آتٍ من أننى أعِدُّ حالياً دراسة، صارت الآن متقدمة، حول الاتجاهات، والأذواق، والمقاصد، والرسائل، الصريح منها شأن الضمنى والرفيع، وبإيجاز كلّ العلامات الأيديولوجية التى تقوم شركة ما للإنتاج السينمائى، شريطة أن تكون حقاً واعية بما تفعل، ببثها شيئاً فشيئاً، متراً بعد آخر، صورة بعد صورة، بين المستهلكين. وبمقدار ما كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يتقدم فى خطابه، كان العامل يفتح عينيه واسعتين أكثر فأكثر من الدهشة المحضة، والإعجاب المحض، وقد اكتسبه بصورة نهائية زبون لم يكن يعرف ما يريد فحسب، بل يقدم أفضل الأسباب لتبرير ما يرغب فيه، وهو أمر شديد الندرة فى التجارة وخاصة فى مخازن إيجار أشرطة الفيديو، يجب القول مع ذلك أن بقعة مؤسفة تلطخ بمصلحة تجارية دنيا

الدهشة المحضة والإعجاب المحض الظاهر فى التعبير السعيد للعامل، وفى الوقت نفسه فكرة أن شركة الإنتاج موضوع الحديث باعتبارها واحدة من أنشط الشركات وأقدمها فى السوق، سينتهى هذا الزبون، الذى يجب ألا أنسى أبداً أن أدعوه السيّد ماكسيمو أفونسو، إلى أن يترك فى دولاب الصندوق مبلغاً ضخماً حين سينتهى من عمله الشهير، أو دراسته، أو مقالته، أو يعلم الله وحده ماذا. سيتوجب بالطبع الأخذ بعين الاعتبار، واقعة أنّ كلّ الأفلام لم تُسوّق فى شكل أشرطة فيديو، لكن هذا لا يحول دون أن تكون الصفقة واعدة، وهى تستحق العناء. **فكرتى،** من أجل البدء، صرّح العامل، وقد استعاد وعيه بعد انبهاره الأول، هى أن أطلب إلى الشركة المنتجة قائمة أفلامها كلها، **نعم،** ربما، أجاب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكن ذلك ليس هو الأكثر إلحاحاً، ثم إن من المحتمل جداً إلا يتوجّب علىّ رؤية الأفلام المنتجة كلها، سنبدأ إذًا بتلك التى لديكم هنا، وبعد ذلك أوجِّه خياراتى القادمة بناء على النتائج والاستنتاجات التى سأتوصل إليها، شحبت آمال العامل بغتة، كان البالون لا يزال على الأرض حين بدا وقد فقد الغاز. لكن حسناً، فالتجارة الصغيرة تعرف هذا النوع من المشكلات، فلن تتكسّر ساق الحمار لأنّه رفسَ رفسة وإذا لم تكن قادراً على أن تغتنى خلال أربعة وعشرين شهراً، فربما ستتوصّل لو اجتهدت فى أربع وعشرين سنة كاملة. بعد أن استوت عدّته الأخلاقية نسبياً

بفضل الفوائد الناجعة لهذه القطع الذهبية المتمثلة فى الصبر والاستسلام، أعلن العامل وهو يدور من حول المنضدة متوجهاً نحو الرفوف، سأرى ما عندنا هنا، فأجاب ترتوليانو ماكسيمو آفونسو على ذلك، إذا كان عندكم عدد منها، فخمسة أو ستة منها تكفينى لكى أبدأ، سيكون أمراً حسناً أن أتمكن من أن أحمل معى ما أشتغل به هذا المساء، ستحتاج على الأقل إلى تسع ساعات لرؤية ستة أشرطة، حذر العامل، وسيجب عليك السهر متأخراً. هذه المرة، لم يجب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كان ينظر إلى الملصق الذى يعلن عن فيلم للمنتج نفسه يحمل عنوان إلهة المسرح لا بدَّ أن يكون حديث العهد جداً، كانت أسماء الممثلين الرئيسيين مكتوبة بأحجام مختلفة وكانت مرتبة على سطح الملصق حسب درجة الشهرة فى السماء السينمائية القومية. بالطبع لم يكن عليه اسم الممثل الذى يلعب دور موظف الاستقبال فى الفندق فى فيلم مَنْ يبحث يجد. عاد عامل المخزن من تفتيشه مع كومة من ستة شرائط فيديو وضعها على المنضدة، لدينا أشرطة أخرى، لكنك قلت إنك لا تريد منها إلا خمسة أو ستة، هذا يكفى الآن، سأمرّ غداً أو فيما بعد لأخذ الأفلام التى عثرت عليها، هل تظنّ أنه يجبُ علىّ أن أطلب بعض الأفلام الإضافية مما هو ناقص، سأل العامل الذى كان يحاول إحياء آماله الضعيفة، لنبدأ بما لديكم هنا، وسنرى فيما بعد. من غير المفيد الإلحاح، فالزبون يعرف حقاً ما يريد. قام

العامل بحساب ثمن أشرطة الفيديو ذهنياً، فهو ينتمى إلى المدرسة القديمة، إلى الزمن الذى لم تكن موجودة فيه الآلات الحاسبة الصغيرة والتى لم تكن يُحلم بها، وأعلن المبلغ. صحّحَ ترتوليانو ماكسيمو آفونسو له، هذا هو ثمن الأشرطة، لا قيمة الأجرة، بما أنك اشتريت الآخر، فكرت أنك تريد أيضاً شراء هذه، برر العامل ما قام به، نعم، يمكن أن أشتريها، بعضها أو حتى كلها، لكن يجب أولاً أن أراها، أن أشهدها، أظن أنّ هذه هى الكلمة الصحيحة، أن أعرف إذا كانت تتضمن ما أبحث عنه. أما وقد خسر أمام المنطق المفحم للزبون، أعاد العامل بسرعة حساباته ووضع الأشرطة فى كيس من البلاستيك. دفع ترتوليانو ماكسيمو آفونسو، وقال إلى اللقاء، إلى الغد، وخرج. همس البائع خائباً بين أسنانه، إنّ من جعلك تستغرب اسم ترتوليانو كان يعرف ما يفعل.

إنّ الأسهل بالنسبة إلى كاتب التقرير، أو الراوى، فى الحالة الأكثر من محتملة التى يُفضِّلُ فيها شخص متمتع بالموافقة الأكاديمية، وقد وصل إلى هذه المرحلة، هو أن يكتب أن جولة أستاذ التاريخ فى المدينة جرت دون عقبات حتى اللحظة التى دخل فيها إلى بيته، وشأن آلة للتحكم فى الزمن، خاصة وأن الضمير المهنى لم يسمح باختلاق شجار فى الشارع أو حادثة مرور من أجل هدف وحيد يتمثل فى سدّ نواقص الحبكة، فهذه الكلمات الأربع جَرَتْ دون عقبات تستخدم حين يكون من الملحّ الانتقال إلى

الحلقة التالية أو حين لا نعرف، مثلاً، على نحو جيّد ماذا نفعل بالأفكار التى تطرأ عفوياً على الشخص، خاصة إذا لم تكن لها أية علاقة مع الظروف التى يفترض فى الشخص أن يصمم فيها على شىء وأن يتصرّف سوى أن الأستاذ والهاوى الجديد لأشرطة الفيديو ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان موجوداً بالدقة فى هذا الوضع بينما كان يقود سيارته. صحيح أنه كان يفكر، كثيراً وبكثافة، لكنّ أفكاره كانت غريبة عما سبق وعاشه خلال هذه الأربع وعشرين ساعة الأخيرة بحيث إننا إذا قررنا أن نأخذها بعين الاعتبار وأن نودعها فى هذه الحكاية، فإن القصة التى كنا أردنا أن نكتبها يجب أن تستبدلَ حتماً بقصّة أخرى. من المؤكد أن ذلك يمكن أن يستحق العناء، أو بالأحرى، بما أننا نعرف كل شىء عن أفكار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو نعرف أن ذلك يستحق العناء، لكن ذلك يوازى أن نعتبر باطلة ولا قيمة لها كلّ الجهود القاسية المبذولة حتى الآن، هذه الصفحات الأربعون المتراصة والشاقة التى سبق كتابتها، وأن نعود إلى البداية، إلى الصفحة الأولى، الساخرة والسليطة، مبددين عناءً شريفاً تم القيام به لتحمل مخاطر مغامرة ليست جديدة ومختلفة فحسب، بل خطيرة إلى درجة عالية، نحن على ثقة من أنّ أفكار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ستقودنا إليها، لنكتف إذاً بواحدٍ نملكه بدلاً من أن يخيب أملنا مرتين باثنين سنملكهما. وفضلاً عن ذلك، فإنَّ الوقت غير موفور

لمزيد على ذلك. هاهو ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد أتى على رَكْنِ سيارته، واجتاز المسافة القصيرة التى تفصله عن بيته، يحمل بيدٍ حقيبته كأستاذ، وفى اليد الأخرى الكيسَ البلاستيكى، بِمَ يمكن أن يفكر حالياً إن لم يكن يتساءل كم من أشرطة الفيديو سينجح فى النظر فيها، فعلٌ غامض، قبل أن يمضى إلى النوم، هذا ما سيحدث عندما نهتمّ بالأدوار الثانوية، لو كان المقصود نجماً من النجوم لظهَرَ منذ الصور الأولى. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد فتح الباب ودخل، أغلق الباب ووضع على منضدة العمل المحفظة وإلى جانبها الكيس المتضمن أشرطة الفيديو. الهواء خالٍ من أىّ حضور، أو ربما كان هذا الحضور بكلٍّ بساطة غير محسوس، كما لو أنّ ما دخل هنا أمس مساء يؤلف من الآن فصاعداً جزءاً لا يتجزأ من الشقة. ذهب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى غرفته ليغيِّر ملابسه، فتح الثلاجة فى المطبخ ليرى إن كان فيه ما يثير رغبته، أغلقه وعاد إلى قاعة الجلوس مع قدح وعلبة من الجعة. أخرج أشرطة الفيديو من الكيس ورتّبها حسب تاريخ الإنتاج بادئاً بالأقدم، الرمز الملعون، سنتان قبل مَــنْ يبحث يجد، حتى الأحدث عهداً، إلهة المسرح، من العام الماضى. الأشرطة الأربعة الأخرى، حسب النظام نفسه دوماً هى المسافر بلا بطاقة، الموت يهاجم عند الفجر، رنّ الإنذار مرتين، خــــابرنى فى يوم آخر. حركة استجابة لا إرادية، أثارها العنوان الأخير على وجه التأكيد، جعلته يُدير

رأسه نحو تليفونه هو. كانت العلامة المنبهة لوجود نداءات سابقة مضيئة على الجهاز. تردّد عدداً من الثوانى، ثم ضغط على الزرّ الذى يسمح بسماعها. كان الأول صوتاً نسائياً لم يعلن عن نفسه، ربما لأنها تعرف أنه سيتعرف عليها، قالت ببساطة، أنا، ثم أردفت، **لا** أدرى ماذا يجرى، مضى أسبوع لم تتصل بى، إذا كانت لديك النيّة فى أن تقطع العلاقة، قل لى ذلك بصراحة، لا يجب أن يكون نقاشنا قبل أيام وراء هذا الصمت، لكن ليس هناك إلا أنت من يستطيع أن يقول ذلك، أما بالنسبة لى فأنا أعرف أننى أحبك، إلى اللقاء، أقبلك. النداء الثانى كان منقولاً بواسطة الصوت نفسه، أرجوك، هاتفى. كان هناك رسالة ثالثة، لكن هذه آتية من زميل الرياضيات، **صديقى** العزيز، كان يقول، لدىّ الانطباع أنك اغتظت اليوم بلا داع، لكن صدقاً لا أدرى ما الذى أمكننى أن أفعله أو أن أقوله مما يمكن أن يزعجك، أظنّ أن علينا أن نتحادث بطريقة نبدِّدُ فيها سوء تفاهم محتمل بيننا، فإذا تبيّن أنه يجب علىّ الاعتذار منك، فاعتبر أنٍّ هذا النداء هو اعتذار، أحييك بمودّة، لابد وأنك تعرف أننى صديقك، قطّبَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو حاجبيّه، كان يتذكر بصورة غامضة أن شيئاً ما مغيظاً أو مقيتاً مورّطاً زميل الرياضيات كان قد حدث فى الثانوية ، لكنه لا يتذكر ما هو. أعاد الاستماع إلى الرسائل، وأعاد الاستماع إلى الرسالتيّن الأوليين، وهذه المرة مع ابتسامة صغيرة وتعبير يوصَفُ عادة

بالحالم، نهض ليسحب من الڤيديو **مَنْ** يبحث يجد وأدخل فيه الرمز الملعون، لكنه فى اللحظة الأخيرة، والإصبع كان على الزرّ المُوَجِّه عن مسافة، أدرك أنّهُ إنْ ضَغَطَ فوقه فسيرتكب مخالفة خطيرة، لأنه يقفز على هذا النحو فوق مراحل من خطة العمل التى رسمها لنفسه والتى تقوم على أن ينسخ من قائمة الأسماء فى نهاية فيلم **مَنْ** يبحث يجد أسماء الأدوار الثانوية من الفئة الثالثة. فهذه الأخيرة، على الرغم من احتلالها زمناً ومكاناً فى الحدوتة، وعلى الرغم من لفظها عدداً من الكلمات وقيامها بدور الكواكب التابعة، الصغيرة، بالتأكيد، فى خدمة الفواصل والأفلاك المتصالبة للنجوم،لا تملك الحق بواحدٍ من هذه الأسماء المستعارة، الضرورية جداً فى الحياة مثلما هى فى التخييل، حتى وإن كان قولُ ذلك يمكن أن يظهر غير مناسب. بوسعه أن ينسخها فيما بعد، **بالطبع، فى أىّ وقت،** لكن النظام، كما يُقال كذلك عن **الكلب، هو أفضل** صديق للإنسان وإن كان النظام من وقت إلى وقت، مثل الكلب، يعضُّ أيضاً، إن امتلاك مكان لكلٍّ شىء والمحافظة على كلٍّ شىء فى مكانه كان دائماً قاعدة ذهبية لدى الأسر التى عرفت الرفاهية مثلما بُرْهِنَ بكثرة على أن تنفيذ المهام الواجب القيام بها حسب النظام الملائم كان على الدوام أفضل شهادة ضمان ضدّ شبح الفوضى، استعرض ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بسرعة وحتى النهاية الفيلم المعروف **مــن** قبلنا والمعنون مَنْ يبحث

يجد، وأوقفه فى المكان المطلوب، عند القائمة المعروفة للممثلين الثانويين، وإذ ثبّت الصورة، نسخ على صفحة من الورق أسماء الرجال، أسماء الرجال فقط، لأن موضوع البحث هذه المرّة، بعكس ما هو معتاد، ليس امرأة. نفترض أنّ ما قيل أكثر من كافٍ للحمل على فهم العملية المُصَمَّمَة من قبل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد كثير من التفكير الشديد لكى يتعرف على الموظف فى الاستقبال، الرجل الذى كان صورته طبق الأصل فى الزمن الذى كان له هو نفسه شارب والذى يستمرّ حتماً اليوم بلا شارب، وربما أيضاً غداً، حين يفتح الصدغان المتساقط عنهما الشعر لدى أحدهما الطريق إلى صلع الآخر. وفى نهاية الأمر ما شرع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى القيام به هو تكرار متواضع لألعاب الشعوذة التى كان موضوعها بيضة الحمامة، أى تدوين أسماء كلّ الممثلين الثانويين، سواء فى الأفلام التى شارك فيها موظف الفندق أو فى تلك التى لم يُستخدم فيها. مثلاً، إذا لم تكن نسخته البشرية موجودة فى الفيلم الذى أتى على إدخاله فى المسجلة التليفزيونية، الرمز الملعون، فبإمكانه أن يشطب من القائمة الأولى كلّ الأسماء التى تتكرر فى مَنْ يبحث يجد. نعلم أن رأس إنسان من العصر الحجرى لن يساعده فى مثل هذا النوع من الأوضاع، ولكن بالنسبة إلى أستاذِ تاريخ، معتاد على أن يُمسك بزمام شخصيات قادمة من حقب ومن أمكنة غير معقولة، كان لا يزال يقرأ أمس فى كتاب علمى حول

الحضارات القديمة لبلاد الرافدين الفصلَ المُخَصَّصَ للساميين العموريين، فإن هذه النسخة التعيسة من الكنز المخفى ليست إلا لعبة أطفال ربما لم تكن لتستحق تفسيراً بمثل هذه العناية والتفصيل من جانبنا. وأخيراً، وعلى العكس مما كنا افترضناه سابقاً، ظهر موظف الفندق من جديد فى الرمز الملعون، وهذه المرة فى حالة موظف صندوق فى مصرف لم يكن يملك، تحت تهديد المسدّس ومبالغاً فى رجفات الخوف، لكى يبدو من دون شك أكثر إقناعاً فى عينى المخرج غير الراضيتيْن، الخيارَ ووجب عليه نقل محتوى الصندوق إلى كيس كان المُهاجم قد قذف به إلى وراء الشباك وهو يغمغم بفم ملو يميِّز كل لصٌ يحترم نفسه، إما أن تحشو هذا الكيِّس بالحمّيض، أو أحشو رأسك بالرصاص، أنتَ الذى تختار، كان هذا الشرّير يتلاعب بشكل رائع بالألفاظ والتصريف النحوى الموزون. يدخل موظف الصندوق أيضاً مرّتيْن فى الحدث، المرة الأولى ليجيب عن أسئلة الشرطة، والثانية حين قرَّرَ مدير المصرف سحبه من الشباك لأنه، وقد ارتضّ بسبب السطو المسلح، طفق يشك فى أن يكون كلّ الزبائن مهاجمين. لقد نسينا القول إن موظف الصندوق فى المصرف يحمل نوع الشارب نفسه الدقيق واللامع الذى كان لموظف الفندق. هذه المرة لم يعد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يشعر بالعرق البارد يسيل على طول ظهره، ولم تعد يداه ترتعشان، كان يوقف الصورة خلال

دقائق عدّة، يلاحظها بفضول بارد، ثم يتابع. وبما أن المقصود كان فيلماً كان قد شارك فيه الرجل المطابق، الشبَه، السيامى المفصول، سجين قصر زندا ما أو شيئاً ينتظر التحديد، فإن المنهج من أجل متابعة البحث عن هويته الحقيقية يجب أن يكون مختلفاً، بالطبع، بما أنَّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو سيدوِّن الآن الأسماء التى ستظهر على القائمتين، كان هناك اسمان ، اسمان فقط، أشار إليهما ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بصليب، ولما كانت ساعة العشاء لا تزال بعيدة، والشهيّة لم تقدم أىّ علامة نفاد صبر، فإنّ بوسعه إذاً أن يشاهد حسب نظام التسلسل التأريخى الفيلم التالى المعنون المسافر بلا بطاقة والذى كان من الممكن أن يسمّى زمنٌ ضائع لأنّ الرجل ذا القناع الحديدى لم يُستخدم. قلنا، زمن ضائع، لكنه ليس كذلك تماماً فى النهاية، إذ بفضله أمكن لبعض الأسماء الإضافية أن تشطب من القائمة الأولى والقائمة الثانية، على قدر ما أستبعد، سوف أصل إلى الغاية، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بصوت عال، كما لو أنه شعر بفتة بالحاجة إلى صحبة. رنَّ الهاتف. الاحتمال الأقلّ إمكاناً من كلّ الاحتمالات كان أن يكون زميل الرياضيات، والإمكانية الأكثر إمكاناً من كلّ الإمكانات كان أن تكون المرأة التى كانت قد هتفت مرّتَين، يمكن أن تكون أيضاً أمّه، تتقصّى من بعيد عن صحّة ابنها الحبيب، سكت الهاتف، بعد أن رنّ مرات عدّة، دلالة على أن آليّة المجيب الآلى قد

شرعت بالعمل، اعتباراً من هذه اللحظة ستنتظر الكلمات المسجّلة اللحظة والشخص الذى سيتفضل بسماعها، الأم التى تسأل، **كيف** حالك، يا بنىّ، والصديق الذى يلحّ، **لا** أظنّ أننى ارتكبت حماقة، والعشيقة التى تيأس، **لا** أستحق هذا. أياً كانت لهجة الكلمات المسجلة، لا يرغب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى سماعها، ذهب، لكى يتسلى لا لأنّ معدته كانت تطلب الغذاء، إلى المطبخ لكى يعدّ لنفسه سندوتشًا ويفتح زجاجة جعة أخرى، جلس على كرسى، ومضغ بلا لذة غذاءه اليومى الهزيل رغم أن فكره الذى تُرِكَ لحريته استغرق فى أحلام اليقظة. أما وقد شعر أن يقظته الواعية قد تلاشت فى ضرب من الإغماء، تسرّبَ الحسّ المشترك الذى مضى بعد تدخّله القوىّ الأول، يعلم الله أين بين جزءيْن لا رأس لهما ولا ذيل من حلم اليقظة الغريب هذا وطلب إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إذا كان سعيداً من الوضع الذى كان قد أوجده. وهو يرتدّ إلى المذاق المرّ لجعة فقدت بسرعة برودتها وإلى القوام الطرى والرطب للحم بارد من الصنف الردىء مكبوس بين شريحتين من الخبز المزيف، ردّ أستاذ التاريخ بأنّ السعادة لم تكن لها علاقة أبداً مع ما يجرى هنا وأنه، بالنسبة إلى الوضع، يسمح لنفسه بأن يُذكر بأنه لم يكن هو من أوجده. **موافق**، لم توجده أنت، أجاب الحسّ المشترك، لكن معظم الأوضاع التى نحشر أنفسنا فيها لا تمضى مثل هذه المسافة البعيدة أبداً إذا لم

نساعدها، ولن تنكر أنك ساعدت هذا الوضع، **كـ**ان الأمر مجرد فضول، ولا شيء أكثر من ذلك، **لـ**قد سبق وناقشنا الموضوع، **هـ**ل عندك شيء ضدّ الفضول، **إ**نّ ما ألاحظه هو أنه حتى الآن لم تعلمك الحياة أنّ أكبر امتياز لنا، نحن الحسّ المشترك، هو بالتحديد وعلى الدوام الفضول، **فى** رأيى، الحسّ المشترك والفضولُ متعارضان، **خـ**ـطأ خطير، تتهّد الحسّ المشترك، **بـ**ـرهن لى على ذلك، **مـ**ـن الذى ابتكر الدولاب، فى رأيك، **لا** أحد يعلم عن ذلك شيئاً، **بـ**ـالتأكيد نعلم ذلك، لقد ابتكِرَ الدولاب من قبل الحسّ المشترك، وحدها كمية هائلة من الحسّ المشترك كانت قادرة على ابتكاره، **و**القنبلة الذرية، أهو الحسّ المشترك أيضاً من ابتكرها، سأل ترتوليانو ماكسيمو آفونسو بلهجة رجل منتصر أتى على مفاجأة خصمه على حين غرة، **لا**، ليست هى، هى أيضاً ابتكرت من قبل حسٍّ ما، لكنه لا ينطوى على أىّ شىء مشترك، الحسّ المشترك، اعذرنى أن أقول لك ذلك، محافظ، لا بل إنى أغامِرُ فى التأكيد على أنه رجعى، **هـ**ـذا الضرب من الرسائل الاتهامية لا مفرّ منه، عاجلاً أم آجلاً سيكتبها الناس جميعاً والناس جميعاً سيتلقونها، **إ**ذاً هى صادقة بما أنه يوجد كثيرٌ من الناس يوافقون على أن يكتبوها بوصفهم أناساً لكى يتلقوها، لكن هؤلاء لم يكونوا يملكون الخيار، هذا إلا إذا كتبوها هم أيضاً، **لا** بدّ وأنك تعلم أن كون المرء موافقاً لا يعنى دوماً الاشتراك فى سبب ما، إنّ ما يحدث عادة هو أن

الناس يجتمعون فى ظلٍّ رأى ما، كما سيفعلون تحت مظلة. فتح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فمه لكى يردّ، إن كان فتح الفم هو التعبير المناسب بما أننا أمامَ حوار صامت كلياً، ذهنىٍّ كلياً، لكن الحسّ المشترك لم يعد مُوجوداً هنا أصلاً، فقد انسحب بلا ضجيج، لا مهزوماً والحق يُقال، بل غاضباً من نفسه لأنه سمح بأن تبتعد المحادثة عن الموضوع الذى دفعه لأن يظهر من جديد، هذا إذا لم يكن بكلٍّ بساطة مسئولاً عما حدث. الحقيقة، ليس من النادر أن ينخدع الحسّ المشترك فى المتواليات، فى الشرّ بعد أن ابتكر الدولاب، وفى الأسوأ أيضاً بعد أن ابتكر القنبلة الذرية. نظر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى ساعته، وحَسَبَ الزمن الذى يمكن أن يتطلبه فيلم آخر، كان والحق يقال قد بدأ يشعر بآثار ليلته من السهاد، كان جفناه، وقد ساعدتهما الجعة، يثقلان كالرصاص، حتى التجريد الذى سقط فيه قبل قليل لم يكن له من سبب آخر. قال لنفسه، إذا نمت مباشرة، فسأصحو على وجه الاحتمال بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الآن، وبعد ذلك سيكون الأمر أسوأ. قرّرَ أن يرى قسماً من فيلم الموت يهاجم عند الفجر، ربما لم يكن الشخص يمثل فى هذا الفيلم، ذلك سيسهّل كل شىء، سيقفز مباشرة إلى النهاية، ويُدَوِّن الأسماء ويذهب آنئذ إلى السرير. لقد انخدع. فالشخص كان يتواجد فى الفيلم، كان يقوم بدور ممرّض ولم يكن له شارب. عاد شعْرُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ينتصب من

جديد، وهذه المرّة شعْرُ ذراعيه فقط، وترك العرقُ ظهرَهُ في سلام واكتفى، وهو بحرارة عادية، دون أن يكون بارداً، بأن يرطب جبهته بصورة خفيفة، شاهدَ الفيلم حتى النهاية، وضع صليباً آخر صغيراً إلى جانب اسم آخر كان يتكرر وذهب لينام. قرأ أيضاً صفحتيْن حول الساميين العموريين، ثم أطفأ الضوء. كانت آخر فكرة واعية له حول زميله أستاذ الرياضيات، لم يكن حقاً يعرف أيّة أسباب يمكن له أن يعطيها إياه ليفسّر البرودة المباغتة التى عامله بها فى ممرّ الثانوية. ألأنه وضع يدَهُ على كتفى، تساءل وأعطى الجواب فوراً، سأبدو فى مظهر الأحمق لو قلت ذلك وسوف يديرُ ظهرَه لى، وهو ما سأفعله لو كنت فى مكانه. قبل ثانية من استغراقه فى النوم همس، وهو يكلم ربما نفسه مخاطباً زميله، هناك أشياء يستحيل شرحها بواسطة الكلمات.

وهو ما لم يكن عليه الحال على وجه الدقة، كان هناك زمن كانت فيه الكلمات من قلة العدد بحيث إننا لم نكن نستطيع حتى التعبير عن فكرة بسيطة، بساطة هذا لى أو هذا لك، بل وبصورة أقلّ أيضاً من أجل سؤال لماذا نجمع ما هو لك ولى. لا يملك بشرُ اليومِ أية فكرةٍ عن العمل الذى وَجَبَ من أجل خلق كلٍّ هذه الألفاظ أولاً، وربما كان الأصعب وعىُ ضرورتها، ثم وَجَبَ بعد ذلك الإجماع على دلالة آثارها المباشرة وأخيراً، وهى مهمّة لن تستكمل كلياً أبداً، وَجَبَ تصوُّر العواقب المحتملة، على المدى المتوسط والطويل، لما سُمِّىَ آثارُ ما سمِّىَ الألفاظ. بالمقارنة، وعلى العكس مما أكده الحسّ المشترك بلهجة حاسمة أمس مساء، كان ابتكار الدولاب مجرد ضربة حظ ، كما سيكون من بعد اكتشافُ قانون الجاذبية العام، لمجرّد أنَّ تفاحة ارتأت أن تسقط بسرعة على رأس نيوتن. لقد ابْتكِرَ الدولاب وبقى مبتكراً إلى الأبد، فى حين أن الكلمات، هذه الكلمات والكلمات الأخرى كلها، جاءت إلى العالم مع قدَرٍ مبهم، منتشر، قدر أن تكون

تنظيمات صوتية وصرفيّة ذات طبيعة مؤقتة للغاية، على الرغم من أنها تتشبّث ربما بفضل الهالة الموروثة من خلقها الأوّل، بأن تعتبر خالدة، أو غير قابلة للهلاك أو أبدية، تبعاً للمُصنِّف، لا بوصفها كذلك إلى هذا الحدّ، بل بالأحرى بسبب ما تعنيه وتمثله بطريقة متغيّرة. هذا الميْل الوراثى، الذى لم تعرف أو لم تستطع مقاومته، تحوّل مع مرور الزمن إلى مشكلة شديدة الخطورة وربما غير قابلة للحل فى التواصل، الجمعى والفردى، من شخص إلى شخص، حتى انتهى الأمر إلى خلط الخِرَق مع المحارم، وفرق أنصبة الميراث مع الإرث، والكلمات وقد حلّتْ محلَّ الأشياء التى كانت تزعم التعبير عنها على نحو حسن تقريباً من قبل، وهو ما أدّى فى النهاية ، أتعرف عليك تحت قناعك، إلى هذا اللغط الرعدىّ من علب الصفيح الفارغة، إلى هذا الموكب الكرنفالى من القِرَبِ مع رقع ملصقة، ولكن دون شىء داخلها، أو مجرّد الرائحة التى، وقد تبخرت أصلاً، تذكر بالغذاء من أجل الجسم ومن أجل الروح الذى احتوياه ذات يوم واحتفظا به. مضى بنا هذا التفكير الكثيف حول أصل ومصير الكلمات بعيداً عن موضوع حديثنا بحيث صارَ الحلُّ حالياً هو العودة إلى البداية. على العكس مما أمكن أن يبدو، ليست مجرد صدفة هى التى قادتنا إلى كتابة **هذا** لى أو **هذا** لك وبصورة أقلّ أيضاً لماذا نجمع ما هو لك ولى. لو أنَّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان قد قضى قليلاً من وقته قبل سنوات عدة،

شريطة أن يفعل ذلك فى الوقت المناسب، فى التفكير بعواقب وبآثار جُمَل مثل هذه وأخرى تميل نحو الغاية نفسها على المدى المتوسط والبعيد، فلن يكون على وجه الاحتمال الشديد فى طريقه لأن ينظر إلى التليفون وهو يحكّ رأسه بهيئة مرتبكة بينما يتساءل عمّا سيمكنه أن يقول للمرأة التى عهدت أمس مرتين، إن لم يكن ثلاث مرات، بصوتها وبشكاواها إلى المجيب الآلىّ. إن الابتسامة الصغيرة الراضية والتعبير الحالم اللذين لاحظناهما لديه أمس مساء حين أعاد الاستماع لرسائلها لم تكن بعد كلّ شىء إلا علامة ذميمة من الغرور، والغرور، خاصة غرور النصف الذكورى فى العالم، هو كهؤلاء الأصدقاء المزعومين الذين يهربون منك لأقلّ ضيق فى حياتك أو الذين ينظرون إلى الناحية الأخرى وهم يصفرون بهيئة طليقة. ماريا دا باز، لأنّه هذا هو الاسم العذب الواعد للمرأة التى هتفت، لن تتأخر عن الخروج من بيتها للذهاب إلى العمل وإذا لم يكلمها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى هذه اللحظة ذاتها، فإن على السيّدة المسكينة أن تعيش يوماً إضافياً من القلق، وهو، أياً كانت أغلاطها وأخطاؤها، إن كانت قد ارتكبت منها، ما لن يكون حقاً إنصافاً. ولا مُستحقاً، كما قالت هى نفسها. يجدر مع ذلك أن نحدِّدَ، لكى نحترم دقة الوقائع ونخضع لها، أن الضيق الذى يتخبط فيه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى هذه اللحظة لا ينتج عن مسائل محترمة ذات طبيعة أخلاقية، ولا عن

استبصارات العدل أو الظلم، بل عن معرفته أنه إن لم يهتف لها، فسوف تفعل هى، باعتبار أن هذا النداء الجديد سيزيد باحتمال أكثر ثقلاً الاتهامات السابقة، مصحوبة أولا بالدموع. قُدِّم النبيذ واستسيغ فى وقته، ويجب الآن شرب ما بقى منه حامضاً فى قعر الكأس، ولما كانت فرص التحقق من ذلك لابدّ وأن تتاح فى المستقبل وأكثر من ذلك بمناسبة مغامرات ستفرض عليه دروساً قاسية، فإن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ليس ممن جرت العادة على تسميته بالشخص السيّئ، بل إنه يسعنا أن نجده مصنفاً بشرف على قائمة الأشخاص المتمتعين بصفات حسنة، ما كان لأحدٍ أن يقرر وضعها بناء على معايير ليست شديدة الصرامة، ولكنه يشكو بالإضافة إلى أنه مفرط الحساسية، كما أمكن لنا ملاحظة ذلك من قبل، وهى علامة صارخة على افتقار للثقة بالنفس، من قصور خطير فى المشاعر التى لم تكن أبداً قوية ولا دائمة عنده. فطلاقهُ، مثلاً، لم يكن واحداً من ضروب الطلاق الكلاسيكية، من النوع الميلودرامى، مع الخيانة، أو الهجران أو العنف، بل كان بالأحرى مآلَ انطفاءٍ بطىءٍ لشعوره الغرامى ربما كان يمكن له هو نفسه، بفعل اللهو أو اللامبالاة، المحافظة عليه ليرى إلى أى صحارى قاحلة كان قادراً على الذهاب، لكن المرأة التى كان متزوجاً منها، وهى أكثر استقامة وحسماً منه، انتهت إلى أن تراهُ غيرَ محتمل وغيرَ مقبول. صرّحت له ذات يوم، لقد تزوجتك لأننى كنتُ أحبك،

لكنّ الجبن وحده اليوم يمكنه أن يرغمنى على البقاء متزوّجة، فأجابها، وأنت لست جبانة، فأجابت، **لا** لست جبانة. إن الاحتمال فى أن تلعب هذه الشخصية الجذابة لأسباب مختلفة دوراً فى القصة التى نرويها شديد الضعف للأسف، لكى لا نقول غير موجود، إنه يتوقف على فعل، إشارة، كلمة من زوجها السابق، كلمة، إشارة، فعل محدّدٌ قطعاً بالحاجة أو بالمصلحة التى يشعر بها هذا الزوج السابق نفسه، لكننا لسنا قادرين الآن على لَمحِها. ولهذا السبب لا نرى أنَّ إعطاءها اسماً أمرٌ لا غنى عنه. أما فيما يخصّ ماريا دا باز، فمسألة معرفة ما إذا كانت ستستمرّ أم لا فى هذه الصفحات، وخلال كم من الزمن ولأيِّة غاية، فهى من اختصاص ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إنه سيعرف ماذا سيقول لها حين سيعزم على رفع السمّاعة وعلى أن يضغط رقمها الذى يعرفه عن ظهر قلب. وهو ليس حال رقم زميله أستاذ الرياضيات، إنه يبحث عنه إذاً فى مفكرته، ويبدو فى النهاية أنه لن يهتف إلى ماريا دا باز، فقد حكم بأنّ توضيح نزاع لا معنى له أهمّ وأكثر إلحاحاً من أن يطمئن روحاً أنثوية معذبة أو أن يوجه لها الطعنة القاضية. عندما صرحت الزوجة السابقة لترتوليانو ماكسيمو أفونسو أنها لم تكن جبانة، فقد جهدت فى ألا تهينه بتأكيدها أو بتلميحها إلى أنه هو كان كذلك، ولكن اللبيبَ، فى هذه الحالة مثلما هو الأمر فى كثير من الحالات الأخرى فى الحياة، من الإشارة يفهمُ، وللعودة إلى السيناريو

العاطفى وإلى الوضع الراهن، فإن ماريا دا باز هذه المفعمة ثباتاً وصبراً لن يكون لها حتى الحق فى نصف كلمة، على الرغم من أنها فهمت أصلاً كلّ شىء تقريباً مما يجب فهمه، أى أن خطيبها، أو عشيقها، أو رفيقها فى السرير، أو يعلم الله أىّ اسم يُعطى لها اليوم، يستعدّ لتركها، كانت امرأة أستاذ الرياضيات هى التى أجابت على الهاتف، مِنْ قبلِ مَنْ، قالت، كاظمة على نحو سيّئ غيظها الذى كان يسببه هذا النداء فى ساعة مبكرة على هذا النحو، لم تحمل على فهم ذلك بكلمة ما بل بلهجة فرعية هزّازة وشديدة البراعة. من المؤكد أننا نجد أنفسنا هنا أمام موضوع يتطلب انتباه الباحثين فى مختلف ميادين المعرفة، وخاصة انتباه مُنظِّرى الصوت، نريد، وقد نُصِحْنا كما يجب من قبل الأشخاص الأكثر تمكناً فى هذه المادة منذ قرون، أن نتكلم بالطبع عن الموسيقيين، وعن المؤلفين الموسيقيين فى المقام الأول، بل وكذلك عن العازفين الذين لابدّ وأنهم يعرفون كيف ينتظم كلّ ذلك. بدأ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بالاعتذار، ثم أعلن عن نفسه وسأل إن كان يسعه التكلم مع، لحظة، سوف أناديه، قاطعته المرأة، بعد لحظة كان زميل الرياضيات يقول صباح الخير وهو نفسه يجيب صباح الخير، اعتذر مرة جديدة، فقد أتى على سماع الرسالة لتوه، كان بوسعى أن أنتظر لأكلمك فى الثانوية، لكنى فكرت أن من الأحسن تبديد الغموض بأسرع ما يمكن لكى لا يُتركَ مجالٌ لأىّ ضرب من

ضروب سوء التفاهم يتفاقم فيما بعد، حتى وإن لم نُرِدْ ذلك، فيما يخصنى لا يوجد أى سوء تفاهم، أجاب أستاذ الرياضيات، فضميرى مرتاح كضمير مولود جديد، أعرف، أعرف، أجاب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إننى المذنب الوحيد، إنه هذا الوهن، هذا الانهيار العصبى الذى يثير أعصابى، فأصير بسببه نزقاً، حذراً، وأتصور أشياء كثيرة، أيّة أشياء، سأل الزميل، وما يدرينى، أشياء، مثلاً إننى لست مُعتبَراً كما أعتقد إننى أستحق الاعتبار، حتى أن الانطباع يخامرنى أحياناً بعدم معرفة ما أنا عليه بالضبط، أعرف مَنْ أنا، لا ما أنا عليه، لا أدرى إن كنت مفهوماً تماماً، نسبيّاً، لكنك لم تقل لى ما هو سببٌ، لا أدرى كيف أسميّه، ردّ فعلك، نعم، هى ذى الكلمة تماماً، لكى أحدثك صراحة، ولا أنا أيضاً، كان ذلك انطباعاً عابراً، كما لو أنك عاملتنى بطريقة، كيف أقول، بطريقة أبوية، ومتى عاملتك إذاً بطريقة أبوية، لكى أستخدم كلماتك، كنا نتواجد فى الممرّ، وكنا نفترق للذهاب لإعطاء دروسنا ووضعت يدك على كتفى، لا يمكن أن يكون ذلك إلا تعبيراً عن الصداقة، لكنى وقتها انزعجت، كما لو كان ذلك عدواناً، ها أنذا، تذكرت، سيكون من المستحيل ألا تتذكر ذلك، لو كنت أملك مولداً كهربائياً فى المعدة لسقطتُ مكانك مصعوقاً، مَنْ كثرة ما كان الرفض قوياً، ربما لم يكن الرفض هو الكلمة الملائمة، فالحلزون لا يرفض الإصبع التى تمسّه، بل يتقلص، إنها ولاشكّ طريقته

فى الرفض، بالتأكيد، ومع ذلك فللوهلة الأولى، لا يبدو عليك أنك تشبه الحلزون، لدىّ أحياناً الانطباع بأننا نتشابه كثيراً، مَنْ، أنتَ وأنا، لا، الحلزون وأنا، اخرج من هذا الانهيار العصبى وسترى كيف سيتغير وجه كلّ شىء، هذا عجيب، ماذا، استخدامك لهذه الكلمات، أية كلمات استخدمتها، تغيير الوجه، معنى الجملة على قدر من الوضوح، فيما أعتقد، بالتأكيد، ولقد فهمته، لكن ما أتيت على قوله يلتقى تماماً مع بعض القلق الذى يحفر فىّ خلال هذه الأيام الأخيرة، لكى أتمكن من الاستمرار فى متابعتك يجب أن تكون أكثر وضوحاً، لا يزال الأمر مبكراً، ربما، فى يوم ما، سأنتظر. فكر ترتوليانو ماكسيمو آفونسو، ستنتظر طوال حياتك، ثمّ، لكى أعود إلى ما يهمّ حقاً، يا صديقى العزيز، أطلب إليك أن تتفضل بقبول عذرى، أنت معذور تماماً، يا صديقى، معذور كلياً، وإن لم يكن فى الواقع هناك ما تُعْذَرُ عليه، لقد حدث أنك أوجدت فى رأسك ما يُسَمّى عادة عاصفة فى كأس من الماء، من حسن الحظ أن الغرق فى هذه العواصف يحدث دوماً بالقرب من الشاطئ ولا يموت أحدٌ غرقاً، شكراً على قبولك هذا الحادث بنفسية طيبة، لا يجب عليك أن تشكرنى، أقول هذا من قلب شديد الطيبة، لو لم يكن حسّى المشترك شارداً بخيالات، وبأشباح، وبمبادئ لم يطلبها منه أحد، لكان حملنى فوراً على ملاحظة أن الطريقة التى استجبت بها على اندفاعك الكريم كانت عبثية أكثر مما كانت مبالغاً

فيها، لا تخدع نفسك فى ذلك، فالحسّ المشترك مفرط فى كونه مشتركاً لكىْ يكون حسّاً حقاً، وليس هو فى الأساس شيئاً آخر إلا فصلاً من فصول الإحصاء وأكثرها عموميّة، ما تقوله هنا مثير للاهتمام، فلم أفكر أبداً بالحسّ المشترك العزيز الذى يُصَفَّقُ له من قبل الجميع باعتباره فصلاً من الإحصاء، وبإنعام النظر فى ذلك، فإنه هو ما هو عليه بالضبط ولا شىء غير ذلك، لاحظ أنه يمكن أن يكون أيضاً فصلاً من التاريخ، من جهة أخرى، وطالما أننا نتحدث عن هذا الموضوع، هناك كتاب كان يجب أن يكتب، لكنه حسب علمى لا وجود له والذى هو بالتحديد هذا، ما هذا، تاريخ الحسّ المشترك، إنك تذهلنى، لا تقل لى إنك معتاد على أن تأتى بأفكار من هذا المستوى فى ساعة مبكرة مثل هذه الساعة، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بلهجة استفهامية، بلى، شريطة أن أشَجَّعَ على ذلك، لكن بعد تناول طعام الفطور فقط، أجاب أستاذ الرياضيات ضاحكاً، سأهتف لك من الآن فصاعداً كل صباح، حذار، تذكر ما حدث للدجاجة ذات البيض الذهبى، سنلتقى فيما بعد، نعم، فيما بعد وأعدك ألا أكون أبوياً أبداً، إنك فى عمر يمكن لك معه أن تكون أبى تقريباً، وهو سبب إضافى. أغلق ترتوليانو ماكسيمو آفونسو الهاتف، كان يشعر بنفسه راضياً، مرتاحاً، وفضلاً عن ذلك كانت المحادثة مثيرة للاهتمام، ذكيّة، ليس هناك كل يوم مَنْ يقول إنَّ الحسّ المشترك ليس إلا فصلاً من الإحصاء

وأنه ينقص فى المكتبات كتاب يقصّ تاريخه منذ أن طرد آدم وحواء من الجنّة. نظرة خاطفة على ساعته أعلمته أن ماريا دا باز لابدّ وأنها خرجت لتذهب للعمل فى مصرفها، وأن بوسعه أن يصلح أخطاءه، مؤقتاً على الأقلّ، بأن يترك لها رسالة لطيفة على المسجلة الآلية لهاتفها، فيما بعد سأرى. ومن باب الحيطة، فى حال ما كان الشيطان شريكاً فى اللعبة، قرر الانتظار نصف ساعة أخرى. فماريا دا باز تسكن مع أمها وتخرجان معاً على الدوام فى الصباح، إحداهما تذهب إلى العمل، والأخرى إلى القداس ولشراء حاجيات النهار. تتردد أمّ ماريا دا باز على الكنائس كثيراً منذ أن صارت أرملة. فبعد أن حرمت من الجلالة الزوجية التى كانت تظن أنها تلجأ إلى ظلها، شحبت، سنة بعد سنة، وطفقت تبحث عن سيّد آخر تخدمه، عن واحدٍ من هؤلاء السادة من أجل الحياة ومن أجل الموت، عن سيّدٍ يملك فوق ذلك امتيازاً نفيساً يتجلى فى أنه لن يتركها أرملة مرة ثانية. وإذ انتهت مدة نصف الساعة من الانتظار، لم يكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يرى بوضوح بأىّ كلمات يحرر بها رسالته، كان قد بدأ بالقول إن رسالة بسيطة هى الأفضل، فى أسلوب لطيف وطبيعى، ولكن كما نعلم جميعاً فإن الفروق الدقيقة بين اللطيف والسمج وبين الطبيعى والمتكلف شبه لا نهائية، عموماً تأتينا اللهجة الصحيحة الملائمة لكلِّ ظرف عفوياً، ومع ذلك، حين نكون محترسين كما هو الحال الآن،

فإن كلّ ما سبق وبدا لنا كافياً ومناسباً فى البداية سيبدو لنا شديد القصر أو مفرطاً فى اللحظة التالية. إن ما وصفه الأدب الكسول لزمن طويل بالصمت البليغ لا يوجد، فالصمت البليغ هو ببساطة الكلمات التى بقيت فى حنجرتنا، الكلمات المخنوقة التى لم تستطع الإفلات من تضييق المزمار فى الحلق. بعد أن قدح ذهنه مطولاً، قدّر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه لتوفير أفضل أمان سيكون من الأسلم كتابة الرسالة ثم قراءتها على التليفون. وهذا ما توصّل إليه بعد أن مزق عدداً من الأوراق، **ماريا** دا باز، سمعتُ رسائلكِ جيداً، وكل ما أستطيع قوله هو أن علينا التصرفَ بهدوء، وأن نأخذ القرارات المناسبة لواحدنا وللآخر، مع معرفة أن الحياة هى الشىء الوحيد الذى يدوم الحياة كلها، أما الباقى فهو مؤقت، غير مستقر، عابر، لقد علمنى الزمنُ هذه الحقيقة الكبرى، لكن هناك شيئًا أعتبره أكيداً وهو أننا أصدقاء وأننا سنبقى كذلك، وما يلزمنا هو محادثة طويلة، وسترين آنئذ كيف أن الأمور كلها ستنحلّ بأفضل ما يمكن، سأهتف لك فى يوم قادم. تردَّدَ عدداً من الثوانى، ما كان سيقوله لم يكن مكتوباً، وأنهى، **أقبّلك**. بعد أن أغلق الهاتف أعاد قراءة ما كتب ولاحظ الحضورَ غير الملائم لعدد من الفروق الدقيقة التى لم يُعِرْها ما يكفى من الانتباه، أقل براعة بعضها من البعض الآخر، مثل الجملة الحشو غير المحتملة على سبيل المثال، إننا أصدقاء وسنبقى

كذلك، إنها الأسوأ بالنسبة إلى لشخص يودّ أن ينهى علاقة غرامية، نظن أننا أغلقنا الباب وعلى العكس نجد أنفسنا محصورين فيه، وأيضاً، دون الحديث عن القبلة التى ضعف إذ ودّعها بها، هذا الخطأ القذر فى الاعتراف بأنهما فى حاجة إلى محادثة طويلة، كان عليه أكثر من واجب أن يعرف بالتجربة الشخصية والتردّدِ المستمر على تاريخ الحياة الخاصة خلال قرون أن المحادثات الطويلة خطيرة بصورة رهيبة فى هذا النوع من الأوضاع، فما أكثر المرّات التى تبدأ فيها بالرغبة فى قتل الآخر وتنتهى بين ذراعىْ هذا الآخر نفسه، كيف كان يسعنى التصرف بصورة مختلفة، تساءَلَ، من الواضح إننى لا أستطيع أن أقول لها إنّ كل شىء سيستمرّ بيننا كما كان من قبل، وأن أقسم لها على حبٍّ أبدى وهكذا، لكنى لا أستطيع كذلك، هكذا، وعلى الهاتف، دون أن تكون على الطرف الآخر لتستمع، أن أوجه لها الضربة القاضية النهائية، بُمّ، انتهى الأمر، يا صغيرتى، سيكون الأمر إفراطاً فى الجبن وآمل جيداً ألا أضطرّ إلى ذلك أبداً. قرر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الاكتفاء بهذا التفكير المُصالِح وهو يعلم حق العلم، بكل أسف، أن الأسوأ كان لا يزال بالانتظار. وختم، لقد بذلت غاية جهدى.

حتى الآن لم نكن بحاجة إلى أن نعرف فى أى أيام من الأسبوع جرت هذه الأحداث الغريبة، ولكن من أجل أن نتمكن من أن نفهم فهماً كاملاً الأفعال

الأخرى لترتوليانو ماكسيمو أفونسو يجدر أن نحدد أنّ اليوم هو يوم الجمعة، ومن هنا تُستخلص بسهولة نتيجة أن الأمس كان الخميس وقبل الأمس الأربعاء. ربما سيحكم الكثير من الناس بأن المعلومات المتممة التى قررنا أن ننعم بها على يوميْ الأمس وقبل الأمس نافلة، وبدهيّة، وغير مفيدة، وعبثية، بل وحتى غبية، لكننا نسارع إلى الردّ بأن كلّ نقد يصاغ بهذه الكلمات يصدر فقط عن سوء النيّة أو عن الجهل مادام أن هناك لغاتٍ فى العالم، كما نعلم بصورة عامة، تسَمّى الأربعاءَ، على سبيل المثال، كارتا ـ فيرا، أو مييركول، أو ميركولدى، أو ونديسدى، والخميسَ، كوانتا ـ فيرا، أو جوفيس، أو جيوفدى أو ثيورسدى، والجمعة نفسه كان يمكن، لو أننا لم نعتنِ بحماية اسمه وجاهياً، أن يخاطر بأن يُسمّى فريتاج من قبل بعضهم. ليس لأن هذا لا يمكنه أن يحدث فى المستقبل، لكن لكل شىء وقته والساعة آتية بقدر من السرعة. أما وقد وُضِّحت هذه النقطة وبعد أن بيّنّا أننا فى يوم جمعة، وحدّدنا أن أستاذ التاريخ اليوم لن يلقى دروسه إلا بعد الظهر، وذكّرنا أنَّ الغد، السبت، سابادو، ساباتو، ساتوردى، لن تكون فيه دروس، وأننا بالنتيجة فى عشية إجازة نهاية الأسبوع، ولكن خصوصاً لأنه لا يجب أن يُترك إلى الغد ما يجب عمله اليوم، سيُفهمُ أنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يملكُ الأسباب كلها لكى يذهب هذا الصباح نفسه إلى مخزن أشرطة الفيديو لكى يستأجر باقى الأفلام التى تهمّه. سيعيد إلى المؤجِّر المسافر

بلا بطاقة، نظراً لعدم فائدته من أجل بحثه، وسيشترى الموت يهاجم فجراً والرمز السرّى، لا تزال لديه ثلاثة أفلام من مجموعة الأمس تمثل أربع ساعات ونصف على الأقلّ للمشاهدة، ومع ما سيأتى به من المخزن كل شىء يدعو لتوقع نهاية أسبوع لا تنسَ، وجبة مليئة من السينما حتى التخمة، كما يقول العشاق عندما كان لا يزال موجوداً منهم. أنهى غسلَ وجهه وحلاقة ذقنه، وتناول الفطور، ووضع أشرطة الفيديو فى علبها على التتالى، وأغلق عليها بالمفتاح فى واحد من دواليب المكتب وخرجَ، أولاً ليُخطرَ الجارة فى الطابق العلوى أن بوسعها النزول متى شاءت للقيام بالتنظيف فى بيته، **خذى** وقتك، فلن أعود إلا عند نهاية بعد الظهر، قال لها، ثمَّ، وهو أقلّ اضطراباً من الأمس، لكنه لا يزال مع لمحة من النرفزة الخاصة بالإنسان الذى سيواجه لقاءً ليس هو الأول، حقاً، لكنه لهذا السبب ذاته لا يجب أن يفشل على الإطلاق، ذهبَ بالسيارة إلى مخزن أشرطة الفيديو. حان الوقت لإعلام القراء الذين يُمكنُ لهم، وقد بنوا على الطابع الأكثر من مقتضب للأوصاف العمرانية المقدمة حتى الآن، أن يتصوّروا أن هذه القصة تجرى فى مدينة من حجم متوسط، أى بأقل من مليون نسمة، نقول، حان الوقت لإعلامهم أن الأستاذ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا، على العكس تماماً، هو واحد من خمسة ملايين ونيّف من الكائنات البشرية التى، مع اختلافات صارخة فى مستوى

الحياة وسواها، تستحيل مقارنتها، تعيش فى العاصمة الهائلة التى تمتدّ على ما كان قديماً جبالاً، ووديانًا، وسهولاً، وما هو اليوم النَّسْخ الأفقى والعمودى لمتاهة، تفاقمت فى البداية بعناصر يمكن أن نَصِفُهَا بالمعترضة، لكنها، مع الزمن، وازنت بمقدار ما النسيج العمرانى الفوضوى لأنها أقامت أنواعاً من الحدود التى قرّبت، بصورة غريبة، بدلاً من أن تفصل. غريزة البقاء، لأنّ هذا هو المقصود أيضاً حين نتكلم عن المدينة، وهذا ينطبق على الحيوانات بقدر ما ينطبق على اللاحيوانات، كلمة تعتبر عموماً صعبة، لا تتواجد فى المعاجم ووجب علينا ابتكارها بطريقة يمكن أن نجعل معها بصورة كافية وبصورة ملائمة شفافة من الوهلة الأولى، بفضل المعنى الجارى للكلمة الأولى، الحيوان، وبفضل كتابة اللفظ الثانى غير المتوقع، اللاحيوان، الاختلافات والتماثلات بين الأشياء واللاأشياء، بين المتحرك واللامتحرك. من الآن فصاعداً، حين نلفظ كلمة اللاحيوان سنكون واضحين ودقيقين شأننا حين، بعد أن تختفى، فى العالم الآخر، جدّة الكائن وأسمائه كليّاً، نسمّى بلا تمييز حيواناً الإنسان والكلب. على الرغم من أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يدرِّس التاريخ، فإنه لم يفهم أبداً أن كل ما هو حيوان مكرّس ليصير لاحيوان وأنه، مهما كانت عظمة الأسماء والأفعال التى نقشها البشر فى صفحاته، فإننا من اللاحيوان أتينا وإلى اللاحيوان نتوجّه. وبالانتظار، على كلٍّ حال، بينما ترقص العصا، كما

كان القرويون المشار إليهم أعلاه يقولون قديماً، الذين يريدون الاعتقاد أنه كان لدى العمود الفقرى خلال الفاصل الوجيز جداً بين ذهاب وإياب الهراوة وقت ليعرف الراحة، توجّه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو نحو مخزن أشرطة الفيديو، وهو واحدٌ مِنَ المقاصد الوسيطة التى تنتظره فى الحياة، كان العامل الذى اهتم به فى المرتيْن اللتين جاء فيهما مشغولاً مع زبون آخر. وجّه له مع ذلك من بعيد علامة التعرف عليه وأظهر أسنانه فى ابتسامة يمكن أن تكشف عن دلالة خاصة فى الظاهر أن تخفى غاية مريبة. وكانت العاملة التى هرعت لتستعلمَ عما يرغبُ فيه القادمُ الجديد قد استوقفت فى انطلاقتها بكلمات ثلاث موجزة، لكنها إلزامية، سأهتم به، ووجب عليها أن تعود من حيث أتت بعد أن رسمت ابتسامة صغيرة من الفهم ومن الاعتذار فى آن واحد. وبما أنها جديدة فى المهنة وفى المخزن، وبالتالى بلا تجربة فى الفن البارع الخاص بالبيع، فإنها لم تكن مُجَازة بعد لخدمة الزبائن من الدرجة الأولى، لا ننسى أنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فضلاً عن ميزاته كأستاذ شهير للتاريخ وكباحث ذائع الصيت فى المجال السمعى البصرى، هو أيضاً مستأجر أشرطة فيديو بالجملة، كما رأيناه أمس وكما سنراه بصورة أفضل أيضاً اليوم، اقترب العامل بعد أن تحرر من زبونه الأول بسرعة ومودّة، وصرّح، صباح الخير، يا سيدى الأستاذ، إنها سعادة لى أن أراك من جديد هنا، فى هذا البيت الذى

هو بيتك. دون وضع صدق وحرارة الاستقبال موضعَ شك، فإن من المستَحيل مع ذلك عدم ملاحظة التناقض الصارخ والمنيع فى الظاهر بينهما وبين الملاحظات التى همس بها أمس هذا العامل نفسه بعد ذهاب هذا الزبون نفسه، إنّ من جعلك تستغرب اسم ترتوليانو كان يعرف ما يفعل. لنسرع بالتحديد أنَّ التفسيرَ سيُعطى بكومة أشرطة الفيديو على المنضدة، أكثر من ثلاثين. وباعتباره خبيراً فى الفنِّ الذى سبقت الإشارة إليه فى البيع الجيِّد، وبعد أن ترك الحرية لهذه الملاحظة العنيفة، فكر أنه سيكون من الخطأ أن يستسلم للضلال بسبب الخيبة وأنه ما دام لم يستطع أن يحقق الغاية من البيع الغزير الذى توقعه، فإنه لا يزال يملك إمكانية حضٍّ المسمى ترتوليانو على استئجار كلّ ما يستطيع أن يجمعه من شركة الإنتاج نفسها، محتفظاً فضلاً عن ذلك بأمل ذى أساس على قدر من الصلابة فى أن يبيعه بعد ذلك جزءاً كبيراً من الأشرطة المُسْتأجَرَة، الحياة التجارية مليئة بالفخاخ والأبواب المزيفة، إنها علبة حقيقة من المفاجآت غير الواضحة دوماً، يجب أن يكون المرء بلا هوادة فى حذر دائم، أن يحسُبَ وأن يحتالَ دون أن ينتبه الزبون إلى مناوراته البارعة، وأن يهاجم بعذوبة الأفكار المسبقة التى يلوح بها ليدافع عن نفسه، وأن يدمِّرَ مقاومته، وأن يسبر رغباته الخبيئة، وبإيجاز، لا تزال العاملة الجديدة تحتاج إلى الكثير مما تتعلمه لتكون على المستوى المطلوب. إن ما يجهله العامل هو

أنه كانت لدى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو النيّة فى أن يتزوّد بالأفلام لإجازة نهاية الأسبوع كلها، وأنه كان عازماً على أن يدقق فى كلّ الأشرطة التى ستُقدَّمُ له، بدلاً من الاكتفاء بنصف الدزينة الهزيل الذى كان يفكر بالأمس أن يستأجره. هكذا، مرة أخرى، أثنت الرذيلة على الفضيلة، هكذا، جرّدها فى حين كان يظن أنه سيطأها بالقدمين. وضع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فيلم المسافر بلا بطاقة على المنضدة وقال، هذا الفيلم لا يهمنى، والأفلام الأخرى التى أخذتها، هل قررتَ ماذا ستفعل بها، سأل العامل، أحتفظُ بفيلمىَ الموت يهاجم فجراً والرمز الملعون، لم أشاهد بعدُ الأفلام الثلاثة الأخرى، وهى إن لم أخطئ، إلهة المسرح، ورنَّ الإنذار مرتيّن، وخابرنى فى يوم آخر، تلا العامل بعد أن نظر فى سجلاته، بالضبط، هذا يعنى أنك تستأجر المسافر وأنك تشترى الموت والرمز، بالضبط، حسناً، فيما يتعلق باليوم لدىّ هنا، لكنَّ ترتوليانو لم يترك له الوقت ليكمل جملته، أتصوّر أنّ الأفلام التى أراها هنا وُضعت جانباً من أجلى، بالضبط، ردّ العامل كالصدى، متردداً ذهنياً بين الرضا من أنه انتصر دون قتال والخيبة من أنه لم يضطر إلى القتال لينتصر، كم عدد الموجود منها، ستة وثلاثون، هذا يعنى كم ساعة، إذا استمررنا فى الحساب على أساس ساعة ونصف وسطياً لكلّ فيلم، لنر قليلاً، قال العامل وهو يستولى على حاسبة يدوية، من غير المفيد أن تتعب نفسك، سوف أقول لك ذلك،

سوف يكون المجموع أربعًا وخمسين ساعة، **كيف** تفعل لكى تحسب بهذه السرعة، سأل العامل، أنا، منذ ظهور هذه الآلات، ورغم أننى لم أفقد القدرة على الحساب الدهنى، فإننى أستخدمها للعمليات المعقدة، الأمر بسيط كصباح الخير، صرّح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ستة وثلاثون نصفاً تساوى ثمانى عشرة ساعة، إذاً مجموع الست وثلاثين ساعة التى معنا أصلاً بالإضافة إلى ثمانى عشرة ساعة التى حصلنا عليها، فيكون حاصل الجمع أربعًا وخمسين، **أنت** أستاذ رياضيات، **تاريخ**، لا رياضيات، لم تكن الأرقام أبداً نقطة قوتى، **حسناً**، ليس **هذا** ما كنت أظنه، المعرفة هى حقاً شىء جميل، هذا يتوقف على ما نعرف، **هذا** يجب أن يتوقف أيضاً على مَنْ يعرف، فيما أتصوّر، إذا كنتَ قادراً على الوصول بمفردك إلى هذه النتيجة، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فإنكَ لستَ بحاجة على الإطلاق لآلة حاسبة، لم يكن العامل على ثقة من أنه أدرك كلياً معنى كلمات زبونه، لكنها بدت له سائغة، لطيفة، بل ومُطرِيَة، ما إن يصل إلى بيته، إن لم ينسها على الطريق، لَن يفوته أن يكررها لزوجته. غامر فى أن يقوم بعملية الضرب مع قلم وورقة، كمية من أشرطة الفيديو بسعر كذا الشريط، لأنه قرر ألا يلجأ أبداً إلى الآلة الحاسبة، على الأقل أمام هذا الزبون بالذات، كانت النتيجة مبلغاً معقولاً، لا بالضخامة التى سيكون عليها لو أنه باع بدلاً من أن يؤجّر، لكن هذه الفكرة النفعية اختفت بالسرعة التى

طرأت فيها، فقد كان السلام قد أبرِمَ بصورة نهائية. سدّد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ثم طلبَ، مِنْ فضلك، ضعهم لى فى ربطتين كل واحدة منهما ثمانية عشر شريطاً بينما أذهب لإحضار سيارتى، فهى أبعد من أن أنقل الأفلام حتى مكانها. بعد ربع ساعة، كان العامل نفسه يضع الربطتين فى الصندوق؛ ثم يغلق باب السيّارة حين كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يستقر داخلها ويقول إلى اللقاء مع ابتسامة وإشارة من اليد كأنها المودّة ذاتها وقد تجسَّدَت إشارة وابتسامة، وأخيراً يهمسُ وهو يعودُ إلى وراء المنضدة، ويُقال إن الانطباعات الأولى هى المهمَّة، حسناً، هاهو رجل لم يكن شديد اللطف فى البداية، وفى النهاية. فى حين كانت أفكار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد اتجهت فى دروب شديدة الاختلاف، يومان، هذا يساوى ثمانى وأربعين ساعة، هذا لا يكفى، رياضياً، بالطبع، لرؤية الأفلام كلها، حتى ولو لم أنم خلال هذين اليومين، ولكن إذا بدأت منذ هذا المساء، مع السبت كله وكل الأحد أمامى، وإذا طبقت بدقة القاعدة القائمة على ألا أشاهد حتى النهاية الأفلام التى لا يظهر فيها الشخص قبل منتصف القصّة، فإنى على ثقة من أننى سأصل إلى نهاية عذاباتى من الآن وحتى الاثنين، كانت الخطة جاهزة فيما يخصّ المعنى وكاملة فى شكلها، وهى لا تتطلب لا إضافة، ولا ملحقاً، ولا هوامش فى أسفل الصفحات، لكنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ألحّ أيضاً، إذا لم يظهر

قبل منتصف الفيلم، فلن يظهر كذلك فيما بعد. نعم، فيما بعد. تلك هى الكلمة التى تجوبُ والتى تنتظر منذ أن انبثق الممثل الذى قام بدور موظف استقبال فى الفندق للمرة الأولى فى فيلم مثير للاهتمام ومسلٍّ اسمه مَنْ يبحث يجد. وبعد ذلك، سأل أستاذ التاريخ كطفل لا يعرف أنّ من غير المفيد طرح الأسئلة على مَنْ لم يصل بعد، ما الذى سأفعله بعد، ماالذى سأفعله حين أعرف أن هذا الرجل يمثل فى خمسة عشر أو عشرين فيلماً كان فيها، بناء على ما استطعت رؤيته حتى الآن، بالإضافة إلى موظف الاستقبال، موظف صندوق فى مصرف وممرض، ماالذى سأفعله، كان يملك الجواب على رأس لسانه، لكنه لم يعطه إلا بعد دقيقة، سأتعرف عليه.

بالصدفة أو مدفوعاً بقصد بقى غامضاً، ذهب أحدهم يقول إلى مدير الثانوية إن السيّد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، يتواجد فى قاعة الأساتذة، ينتظر فى الظاهر ساعة الذهاب لتناول طعام الغذاء لأنه منذ أن دخلها كان همّه الوحيد يقوم على قراءة الصحف، لم يكن يصحح أوراق امتحان، ولا يستكمل إعداد درس ما، ولا يسجل ملاحظات، كان يقتصر على قراءة الصحف، كان قد أخرج أولاً من محفظته فاتورة استئجار الستة وثلاثين شريط فيديو، كان قد بسطها على المنضدة وبحث فى الصحيفة الأولى عن صفحة الحفلات والباب المخصص للسينما، سيفعل الشىء نفسه فيما بعد مع صحيفتيْن أخرييْن. على الرغم، كما نعلم، من أن هواه بالنسبة إلى الفن السابع حديث العهد وأن جهله بكل ما يمتّ إلى صناعة الصورة بصلة بقى عملياً بلا تغيير، كان يعرف، كان يحسب، كان يتخيّل أو يتوقع أن الأفلام التى أتى على إخراجها لن تذاع مباشرة فى سوق الفيديو. للتوصّل إلى هذه النتيجة لم تكن هناك أية حاجة ليكون المرء

متمتعاً بذكاء استنباطى معجز ولا بطرق مذهلة لبلوغ المعرفة التى لم تكن تمرّ عن طريق الاستنباط، كان المقصود ببساطة تطبيق الحسّ المشترك الأكثر ابتدائية والأكثر بداهة، باب السوق، باب فرعى بيع واستئجار، بحث عن قاعات السينما التى تعرض أفلاماً مستعادة، والقلم فى يده، يقارن عناوين الأفلام المعلنة بعضها وراء البعض الآخر مع الأفلام المسجلة على الفاتورة، مسجلاً صليباً صغيراً على هذه الأخيرة كلما كانا يتطابقان. لو أننا طلبنا إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لماذا كان يتصرّفُ على هذا النحو وإذا كان يعقد النيّة فى الذهاب ليرى فى هذه القاعات الأفلام التى سبق له وشاهدها من خلال الفيديو، لنَظَرَ إلينا يقيناً بهيئة مذهول، مشدوه بل وربما مُهان من أننا كنّا نظنه قادراً على فعل بهذه العبثية، ومع ذلك لن يقدم لنا تفسيراً مقبولاً، هذا إن لم يكن التفسير الذى يقيم سوراً فى وجه فضول الآخرين والذى يُعبَّرُ عنه فى كلمتيْن، **لأنً**. **ومع** ذلك، نحنُ الذين نتقاسم أسرارَ أستاذ التاريخ الخفيّة والذين أشرنا إلى أسراره، نحن قادرون على إعلامكم بأن هذه العملية الحمقاء لا غاية أخرى لها سوى غاية تثبيت انتباهه على الهدف الوحيد الذى يهمّه منذ ثلاثة أيام والحيلولة دونه ودون الاستسلام إلى التسلى عنه، مثلاً، بأخبار الصحف، كما يفكر الأساتذة الآخرون الموجودون فى القاعة. ومع ذلك فالحياة تجرى على هذا النحو بحيث إنه حتى الأبواب التى

نعتبرها مغلقة تماماً ومقفلة أمام باقى الناس تتواجد تحت رحمة هذا الحاجب المتواضع المتحمّس الذى أتى على الدخول ليُعلمه بأن السيد المدير يطلب إليه التفضل بالحضور إلى مكتبه، نهض ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وطوى الصحف، ووضع الفاتورة فى حقيبته وخرج إلى الممرّ حيث تتواجد قاعات عدّة للدروس، كان مكتب المدير يتواجد فى الطابق الأعلى، وكان السلم المؤدى إليه يحتوى على كوة مستديرة هى من التكدير فى الداخل ومن الوساخة فى الخارج، شتاء وصيفاً، بحيث لم تكن تسمح بمرور سوى ضوء طبيعى خافت، توجّه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى ممرٍّ آخر وتوقف أمام الباب الثانى. ولما كانت العلامة المنبهة الخضراء مضيئة، فقد طرق وفتح وهو يسمع صوتاً من الداخل يقول، أدخل، سلّمَ، وصافح اليد التى مدّها له المدير وجلس بناء على إشارة من هذا الأخير. فى كل مرة دخل فيها هنا كان لديه الانطباع بأنه سبق له أن رأى فى مكان آخر هذا المكتب نفسه، كان كما لو أنه واحدٌ من هذه الأحلام التى نعرف أننا حلمنا بها، لكننا لا نتوصل إلى أن نتذكرها عند اليقظة، كان الموكيت يغطى الأرض، وستائر من نسيج سميك معلقة على النافذة، كانت المنضدة فخمة، من الأسلوب القديم، فى حين كانت الأريكة من الجلد الأسود، وحدها، حديثة. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يعرف هذا الأثاث، وهذه الستائر، وهذا الموكيت، أو يظن معرفتها، ربما لأنه قرأ ذات يوم فى

رواية أو فى قصة طويلة الوصفَ المقتضبَ لمكتب آخرَ لمدير آخـرَ لثانويةٍ أخرى، وهو، فى حـال تأكيـد ذلك، وفى حـالة مـا إذا برهن على ذلك والنصّ فـى اليد، مـا سيـجـبـره على أن يسـتـبـدل بتـفـاهة فى مـتناول أى شـخص يتمـتع بذاكرة مقبولة وهى مـا ظنّ أنهـا حتـى ذلك الحين تماسٌّ بين حياته الروتينية والدفق الدائرى والجليل للعـودة الأبدية. خـيـالٌ ذلك كله. لم يسـتـمع أسـتـاذ التـاريخ، وقد اسـتـغـرقـتـه رؤيتـه الحلميـة، إلى الكلمـات الأولى للمـدير، لكننا نحن الذين سنكون على الدوام هنا لسدّ النواقص قادرون على التـأكيـد بأنه لم يضـيّع شـيـئـاً مهـمـاً، مـجـرد صـبـاح الخـيـر جـواباً عن تصبيحـه، السؤال، كيف حالك، والتقرير التمهيدى، **طـــ**لبتُ إليكَ المجىء لرؤيتى، اعـتـبـاراً من ذلك صـارَ ترتوليانو مـاكسيمو أفونسو من جديد حاضـراً جسديّاً وذهنيّاً، تـألق النور من جـديد فى عـينيـه وفى إدراكـه. **طـ**لبت إليك المجىء لرؤيتى، كـرَّرَ المدير لأنه ظنَّ أنه اكتشف شيئاً من قلة الانتبـاه على وجـه مـحـدّثه، لكى نتكلم حـول مـا قلتـه لنا بمنـاسـبـة تعليم التـاريـخ أثنـاء اجتماع الأمس، **و**ماذا قلتُ أثناء اجتماع الأمس، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، **أ**لم تعد تتذكر، **لـ**دىّ فكرة غـامـضـة، لـكنّ رأسـى فـارغ قـليـلاً، إذ لم أغلق عـينىّ تقـريـبـاً خـلال الليل، **هـ**ـل أنت مـريض، **لا**، لسـت مريضاً، لدىّ هموم، **هـ**ذا كلّ شىء، **هـ**ذا يكفى أصلاً، **لـ**كن لا أهمية لها، يا سيدى المدير، لا تقلق ، **لـ**ـقـد سجلت، كلمة بعد كلمة، على هذه الصفحة من الورق،

ما كنتَ قد قلته، أى أنَّ القرار الوحيد الجادّ المتعلق بمعرفة التاريخ هو تحديد ما إذا كان يجب تعليمه من الوراء إلى الأمام أو من الأمام إلى الوراء، **لـ**يست هذه هى المرّة الأولى التى قلت فيها ذلك، **بـ**الضبط، لقد قلت ذلك مراراً إلى درجة أن زملاءك لم يعودوا يحملونك محمل الجدّ، فهم يبدءون بالابتسام ما إن تبدأ الكلام، **ز**ملائى محظوظون، فالابتسامة لديهم سهلة، وأنتَ، يا سيدى المدير، **مـ**اذا أنا، **أ**سألك إن كنت أنت أيضاً لا تحملنى محمل الجدّ، هل تبتسم ما إن أبدأ فى الكلام، ما إن أفتح فمى، **أ**نت تعرفنى بما يكفى لتعلم أننى لا أبتسم بسهولة وأقل من ذلك فى هذا النوع من الظروف، أما فيما يتعلق بحملك محمل الجد، فليس هناك أى شك فى هذا المجال، فأنت واحد من أفضل أساتذتنا، تلاميذك يقدِّرونَك ويحترمونك، وتلك معجزة فى أيامنا هذه، **إ**ذًا لا أرى لماذا عملتَ على مناداتى، **بـ**بساطة لكى أطلب إليك ألا تعود إلى ذلك، **لـ**ئلا أعود إلى قول إن هذا هو القرار الوحيد الجادّ، **نـ**عم، **لـ**ن أفتح إذًا فمى أبداً فى الاجتماعات، إذا ظن المرء أن لديه شيئًا ما مهمًا ليقوله وإذا كان الآخرون لا يريدون سماعه، فالأفضل أن يسكت، **شـ**خصيّاً، لقد وجدت فكرتك على الدوام مثيرة للاهتمام، **شـ**كراً، يا سيدى المدير، لكن لا تقل ذلك لى، قل ذلك لزملائى، قل ذلك خصوصاً للوزارة، الفكرة على كلّ حال لا تعود إلىّ، لم أبتكر شيئاً، هناك أناس أكثر اختصاصاً منى طرحوها ودافعوا عنها،

دون نتــائج ثمـينة، هـــذا مـفـهـوم، يا سـيـدى المدير، الحديث عن الماضى شديد السهولة، كل شىء مكتوب، ولا يبقى إلا التكرار، إلا التكلم بسـرعـة، إلا مـقارنة ما يكتبه التلامذة على أوراق امتحاناتهم أو يرددون فى الامتحانات الشفهية ما هـو مُدَوَّن فى الكتب، فى حين أن الحديثَ عن الحاضر الذى يتفجر فى وجوهنا فى كلِّ لحظة، الحديثَ عنه كل يوم من السنة ونحن نبحر على نهـر التاريخ ونحن نبيِّنه حتى أصوله أو تقريباً، الجهدَ فى أن نفهم أفضل. فأفضل تسلسل الأحداث التى قادتنا إلى هنا حيث نحن اليوم، ذلك أمر مختلف تماماً، ذلك يقتضى عملاً هائلاً، ذلك يتطلب الثبات والمثابرة، يجب أن يُحافظ على الحبل مشدوداً جيداً وأن يُتَلافى أن ينقطع، إن ما أتيت على قوله مثير للإعجاب، أعتقد أن بلاغتك يمكن أن تقنع حتى الوزير، أشك فى ذلك، يا سيدى المدير، فالوزراء هم هنا ليقنعونا نحن، أسحبُ ما قلته لك قبل قليل، من الآن فصاعداً سأدعمك بلا تحفظ، شكراً، لكن من الأفضل ألا يتوهّم المرء، إذ يجب على النسق أن يقدم حسابات لمن يهمّه الأمر ونحن هنا إزاء حساب لم يعد يروق أحداً، سوف نلحّ، قال أحدهم إن كلّ الحقائق الكبرى مبتذلة تماماً وإنه يجب التعبير عنها بمفردات جديدة وإن أمكن، مناقضة إن لم نشأ أن تسقط فى النسيان، من يقول هذا، ألمانىّ، شخص يُدعى شليجل، لكن من المؤكد أن آخرين من قبله قالوا الشىء نفسه، هـــذا يحمل على التفكير، نعم، لكن ما يفتننى أنا

خصوصاً هو التصريح الساحر القائل إنّ الحقائق الكبرى ليست إلا أشياء مبتذلة، والباقى، الضرورة المزعومة لتعبير جديدٍ ومناقض يمدّد وجودها ويغذيها لا يعنينى، فلستُ إلا أستاذاً للتاريخ فى الحلقة الثانوية، علينا أن نتحادث مرات أكثر، ياصديقى، لا وقت لدينا لعمل كلِّ شىء، يا سيدى المدير، وفضلاً عن ذلك من المؤكد أن زملائى يملكون أشياء أهمّ كى يقولوها لك، مثلاً، كيف يجيب المرء بابتسامة سهلة على كلام جادّ، والتلامذة، لا ننسى التلامذة، المساكين، الذين سينتهون نظراً لعدم وجود من يتحدثون إليه إلى ألا يكون لديهم ذات يوم شىء يقولونه، تصوّر ماذا ستكون عليه الحياة فى ثانوية إذا كان الناس جميعاً يتكلمون فيما بينهم، إننا لن نفعل أىّ شىء آخر وستعانى الدروس من ذلك. نظر المدير فى ساعته وقال، وطعام الغذاء أيضاً، لنذهب لتناول الغذاء. نهض، ودار من حول مكتبه، وباندفاع عفوى من التقدير وضع يده على كتف أستاذ التاريخ الذى كان قد نهض واقفاً هو الآخر أيضاً، كان فى هذه الحركة بلا مراء أثر من الأبوية، لكنها وقد أتت من المدير كانت أكثر طبيعية بل ومناسبة تمام المناسبة، نظراً لما نعرفه عن وضع العلاقات بين الكائنات البشرية، لم يستجب المولد الكهربائى شديد الحساسية لترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى هذا التماسّ، وتلك علامة على أنّ أية مبالغة ملحة لم تكن ترافق التعبير عن التقدير المُتلقَّى على هذا النحو، أو،

من يدرى، أنّ المحادثة المُهَذِّبة الصباحية مع أستاذ الرياضيات كانت قد فصلته بكل بساطة، لن نكرر أبداً بما يكفى هذه الترّهة الأخرى القائلة إن القضايا الصغيرة تنتج أحياناً آثاراً كبرى. بينما كان المدير يعود إلى منضدة عمله ليأخذ منها نظاراته، نظر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من حوله، ولمح الستارة، والأريكة من الجلد الأسود، والموكيت وفكر من جديد، **لقد** أتيت من قبل إلى هنا. ثمَّ، ربما لأنّ أحدهم كان قد طرح الفرضية بأن بوسعه أن يكون قد قرأ فى مكان ما وصف مكتب مماثل لهذا المكتب، أضاف فكرة أخرى إلى ما سبق وفكر فيه، القراءة هى على وجه الاحتمال أيضاً طريقة فى أن يكون المرء حاضراً فى الأمكنة، كانت نظارات المدير الآن قد وضعت فى الجيب الأعلى لسترته، وهو نفسه يقول مع ابتسامة، **هيا** بنا، ولن يستطيع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يشرح لا الآن ولا فيما بعد لماذا بدا له الجوّ فجأة وقد صار أكثر كثافة، كما لو أنه مشحون بحضور غير مرئى، بكثافة، وبقوة كتلك التى كانت أيقظته بغتة فى سريره بعد أول شريط فيديو. لو أننى جئت هنا قبل أن أكون أستاذاً، فإن ما أشعر به فى هذه اللحظة يمكن ألا يكون إلا ذكرى عن نفسى، استعيدت بطريقة هستيرية، لم تُفَصَّل بقية هذه الفكرة، هذا إن كان ثمة فكرة، وكان المدير أصلاً يأخذه من ذراعه ويحدثه عن الكذبات الكبرى، طالباً إليه إذا ما كانت هى الأخرى مبتذلة وإذا كانت المناقضات يمكنها أيضاً أن تحول

دون سقوطها فى النسيان، التقط ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذه الفكرة وهى تطير فى اللحظة الأخيرة، وأجاب، الحقائق الكبرى، الكذبات الكبرى، أفترض أنها تصير كلها مع الزمن مبتذلة، فالأطباق المعتادة مع التتبيل ذاته دوماً، آمل ألا يكون ذلك نقداً لمطبخنا، مزح المدير، إننى زبونه المخلص، ردّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو باللهجة نفسها. كانا ينزلان السلم المؤدى إلى المطعم، وقد التحق بهما على الطريق زميل الرياضيات وسيّدة، أستاذة اللغة الإنجليزية، كانت مائدة المدير لهذا الغذاء مليئة. إذًا، سأل أستاذ الرياضيات بصوت خفيض، فى لحظة كان خلالها المدير وأستاذة اللغة الإنجليزية يمشيان أمامهما، كيف تشعر بنفسك الآن، فى حالة حسنة، لا بل فى حالة حسنة جداً، هل تحادثتما، نعم، جعلنى آتى إلى مكتبه ليطلب إلىّ أن أكف عن الكلام عن تعليم التاريخ بلا معنى، بلا معنى، إنها طريقة فى الكلام، وأنت، بماذا رددتَ عليه، شرحت للمرة المائة وجهة نظرى وأعتقد أننى نجحت أخيراً فى إقناعه بأن هذه الغرابة كانت أقلّ غباء مما سبق له أن بدا يظنه حتى الآن، إنه انتصار، انتصار لن يفيد فى شىء، فعلاً، من غير المعروف على نحو جيد أبداً ماذا تفيد الانتصارات، قال أستاذ الرياضيات مع التنهد، بالمقابل، الهزائم، من المعروف ماذا تفيد به، لاسيّما أولئك الذين دفعوا إلى المعركة كلّ كينونتهم وكلّ ما يملكونه، لكن أحداً لا يقيم كبير وزن لهذا الدرس

المستمر فى التاريخ، **كـ**أنَّك تعبٌ من عملك، ربما تماماً، إننا نستمرّ دوماً بوضع التتبيل نفسه فى أطباقنا المعتادة، ولا شىء يتغيّر، **هـ**ل تفكر فى ترك التعليم، **لا** أدرى حقاً، ولا حتى بصورة غامضة، ما أفكر به أو ما أريده، لكنى أتصوّر أنه سيكون فكرة جيدة، ترك التعليم، **تـ**رك أى شىء. دخلوا المطعم، واستقرّ أربعتهم جميعاً على المائدة وطلب المدير إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو ينشر فوطته، أود أن تكرر هنا لزملائنا ما قلته لى قبل قليل، **حـ**ول ماذا، **حـ**ول مفهومك الجديد عن تعليم التاريخ. بدأت السيدة أستاذة اللغة الإنجليزية بالابتسام، لكن النظرة التى ألقاها عليها الشخص المُنادى على هذا النحو، نظرة شاخصة، غائبة وفى الوقت نفسه باردة، شلّت الحركة التى كانت بدأت ترتسم على شفتيها. **بـ**افتراض أن مفهوم هى الكلمة الصحيحة، يا سيدى المدير، فإنه لا ينطوى على أىّ جديد، إنه تاج من الغار لم يُصنع من أجل رأسى، أجاب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد توقف، **نـ**عم، لكن الخطاب الذى أقنعنى خرج من فمك، ردّ المدير. خلال لحظة تسللت نظرة أستاذ التاريخ من غير أن تُرى، تركت المطعم، طافت الممرّ، تسلقت إلى الطابق الأعلى، اجتازت الباب المغلق لمكتب المدير، رأت فيه ما كانت تتوقع رؤيته فيه، ثم عادت منه بواسطة الدرب نفسه، وصارت من جديد حاضرة، لكنها الآن تعبِّر عن حيرة قلقة، رجفة توجّس تلامِسُ الخوف. إنه هو، إنه هو، إنه هو، كان

ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يكرر لنفسه ذهنياً، وبينما كانت عيناه مثبتتين على زميل الرياضيات، كان يذكِّر مراحل إبحاره المجازي ليصعد ثانية نهر الزمن. هذه المرّة لم يتحدث عن نهر التاريخ، قال لنفسه إنّ نهر الزمن يُحدث تأثيراً أقوى، كان وجه أستاذة اللغة الإنجليزية وقوراً، كان عمرها حوالى الستين، إنها أمٌّ وجدّة، وبعكس ما أمكن ظنه فى البداية، ليست من الأشخاص الذين يقضون وقتهم فى توزيع الابتسامات الهازئة يمنة ويسرة. حدث لها الشىء نفسه الذى حدث لعدد منّا، الوقوع فى الخطأ دون قصد، ذلك لأنّ الخطأ بدا أنه علامة وصل، تواطؤ مريح، غمزة عين من قبل شخص يظن أنه يعرف ماذا يعنى ذلك بكل بساطة لأن آخرين كانوا يؤكدون معرفته. عندما أنهى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو خطابه الموجز، لاحظ أنه أقنع أيضاً شخصاً آخر، همست أستاذة اللغة الإنجليزية بخجل، من الممكن صنع الشىء نفسه مع اللغات، تعليمها بهذه الطريقة، الإبحار حتى نبع النهر، ربما سنفهم على هذا النحو بصورة أفضل ماذا يعنى التكلم، إنّ الاختصاصيين الذين يعرفون ذلك كثرة، ذكَّر المدير، لكنى أنا التى يفترض بى أننى أعلم اللغة الإنجليزية كما لو أنّ شيئاً لم يكن موجوداً قبلاً لا أعرف ذلك. صرّح زميل الرياضيات مع ابتسامة، أخشى ألا تؤدى هذه المناهج إلى شىء فى الحساب، فعدد عشرة لا يتغير بعناد، إنه لا يحتاج حتى إلى المرور بالتسعة ولا ينهشه الطموح إلى أن يصير أحد

عشر، كان الغذاء قد حُمِلَ إلى المائدة وتحدثوا عن شيء آخر. لم يعد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أصلاً على يقين من أنّ المسئول عن الجبلّة غير المرئية التى انتشرت فى مكتب المدير كان موظف الصندوق فى المصرف. لا هو، ولا موظف الاستقبال فى الفندق. وفوق ذلك مع هذا الشارب الصغير المضحك، فكر، ثم مع ابتسامة صغيرة داخلية حزينة، إننى يقيناً فى طريقى لأن أفقد أعصابى. خلال الدرس الذى أعطاه بعد الغذاء، بعيداً كلّ البعد فى اللهجة وفى الموضوع، مادامت المادة لا تؤلف جزءاً من البرنامج، قضى وقته كله يتحدث فى موضوع الساميين العموريين، وفى قانون حمورابى، وفى التشريع البابلى، وفى الإله ماردوك، وفى اللغة الأكادية، مع نتيجة أن التلميذ الذى كان قد همس فى ذلك اليوم لرفيقه بأن الرجل غريب غيّر رأيه، كان التشخيص فى الوقت الحالى، وهو أشدّ جذرية، أن الرجل كان دماغه ممزقاً أو أنّه كان قد صار مجنوناً كليّاً. لحسن الحظ، مضى الدرس التالى، وهو لتلاميذ أصغر سناً، بصورة طبيعية، تلميحٌ وحيد، أثناء الدرس، إلى السينما التاريخية، استقبل باهتمام حماسىّ من قبل الفصل الدراسى، لكن التسلية توقفت هنا. لم يكن الكلام عن كليوباترا، ولا عن سبارتاكوس، ولا عن أحدب نوتردام، ولا حتى عن الإمبراطور نابليون بونابارت، الذى يحشر فى كل حديث. يومٌ يجب أن يُلقى فى غياهب النسيان، فكر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يصعد

إلى سيارته ليعود إلى بيته، كان ظالماً مع اليوم ومع نفسه، لأنه كسب أخيراً إلى جانب أفكاره الإصلاحية المديرَ والسيدة أستاذة اللغة الإنجليزية، هذا سيؤدى إلى ابتسامة أقلّ فى اجتماع الأساتذة القادم، ومن الأوّلِ لا يوجد شىء يُخشى منه بما أننا علمنا قبل ساعاتٍ عدّة أنه لا يبتسم بسهولة.

كانت الشقة مرتبة ونظيفة، وكان السرير يبدو فى حالة من ينتظر عريسيْن شابّيْن، والمطبخ نظيف جدّاً، وقاعة الحمام تعبقُ برائحة المعقم، رائحة ليمون يطهر الجسد ويثير الروح لمجرد استنشاقه. فى الأيام التى تقوم فيها جارة الطابق الأعلى بتنظيف شقة الرجل الوحيد هذه، يذهب ساكنها لتناول الطعام فى الخارج، فلديه الانطباع أنه سيكون من قلة الاحترام توسيخ الأطباق، وشعل الكبريت، وتقشير البطاطس، وفتح علب المحفوظات وبالطبع سيكون مما لا يخطر فى البال وضع مقلاة على النار، فهى تبصق الزيت فى كلّ مكان، المطعم قريب جداً، فى المرة الأخيرة التى ذهب فيها إليه أكل لحماً، اليوم سيتناول السمك، يجب التنويع، إذا لم نحترس تصير الحياة متوقعة، رتيبة، مضجرة. لقد سهر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على ذلك بانتباه، كانت الستة وثلاثون شريط فيديو مكوّمة على المنضدة الصغيرة الخفيضة فى غرفة الجلوس، والأشرطة الثلاثة التى بقيت من المجموعة السابقة والتى لم تشاهد بعدُ مصفوفة فى درج المكتب، إن ثقل المهمة التى تنتظره هى بكل بساطة مرهقٌ، ولا يتمناها

ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لأسوأ أعدائه الذى لا يعرف من ثمَّ من هو، ربما لأنه لا يزال شاباً، ربما لأنه أمضى حياته مع كثير من الحذر. لكى يتسلى حتى ساعة العشاء شرع فى ترتيب الأشرطة حسب تاريخ إنتاج الفيلم الأصلى ولما كانت أشرطة الفيديو لا يمكن وضعها على المنضدة ولا على المكتب، فقد قرر صفّها على الأرض، على طول أحد الرفوف، أقدمها، على اليسار، يُسمى رجل كالآخرين، والأحدث عهداً، على اليمين، إلهة المسرح. لو كان ترتوليانو ماكسيمو آفونسو منطقياً مع نفسه ولو أنه كان يطبق، فى كل مرة أمكن ذلك، الأفكار التى يمدحها حول التعليم على النشاطات العادية فى حياته اليومية، لشاهد هذا الصفّ من الأشرطة من أمام إلى وراء، وهو ما يعنى القول إنه سيبدأ بفيلم إلهة المسرح وينتهى بفيلم رجل كالآخرين. يعلم الناس جميعاً مع ذلك أن العبء شديد الثقل للتقاليد، وللعادات والأعراف، الذى يحتلّ القسم الأكبر من دماغنا يخنق بلا رحمة الأفكار الأكثر لمعاناً والأكثر ابتكاراً بينما لا يزال القسم الباقى منه قادراً، وإذا كان صحيحاً أن هذا العبء ينجح فى بعض الحالات فى أن يعادل الاعتلالات وتجاوزات المخيلة التى ستقودنا إلى حيث يعلم الله إذا ما تركت لنفسها، كذلك فلا يقلّ عن ذلك صحّة أنه يملك غالباً فنّاً أن يُخضِعَ بصورة بارعة إلى انتحاءات لاواعية ما نعتقد أنه حريتنا فى الفعل، شأن نبتة لا تعرف لماذا عليها دائماً أن تنحنى إلى الجانب الذى يأتيها النور منه.

سيتبع أستاذ التاريخ إذًا بأمانة برنامجَ التعليم الذى وُضعَ بين يديه وسيشاهد أفلام الفيديو من الوراء إلى الأمام، من الأقدم إلى الأحدث عهداً، منذ زمن المؤثرات التى لا نحتاج إلى وصفها بالطبيعية حتى هذا الزمن الآخر للمؤثرات المسماة الخاصة لأنه، لما كان لا يعرف كيف ابتكرت، وصنعت، وأنتجت، كان لابدّ من إعطائها اسماً، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد عاد من عشائه، لم يتناول فى نهاية الأمر سمكاً، فقد كان عفريت البحر وهو لا يحب عفريت البحر، هذا الحيوان البحرى القاعى الذى يعيش فى الأعماق الرملية أو الموحلة، منذ الساحل حتى ألف متر فى الأعماق، حيوان برأس ضخم، مسطح ومسلح بأسنان رهيبة، طوله متران ووزنه أكثر من أربعين كيلو، وبإيجاز حيوان شديد التنفير لم ينجح حلق وأنف ومعدة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أبداً فى تحمّله. إنه فى طريقه فى الدقيقة ذاتها إلى استنفاد هذه المعلومات كلها فى موسوعة، مدفوعاً أخيراً بالفضول ليعرف منها أكثر عن حيوان نفر منه منذ الوهلة الأولى، كان فضوله آتيًا من بعيد، من أزمان سحيقة، لكنه لم يشبعه أخيراً بصورة كاملة، وبصورة لا تفسير لها، إلا اليوم. قلنا، بصورة لا تفسير لها، ومع ذلك يجب علينا أن نعرف أن الأمر ليس على هذا النحو، أنه ليس هناك أىّ تفسير منطقىّ، موضوعى، لواقعة أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قضى سنوات وسنوات دون أن يعرف عن عفريت البحر شيئاً آخر

غير المظهر، والمذاق، وقوام القِطَع فى طبقه، وفجأة، ذات يوم، فى لحظة معطاة، كما لو لم يكن عليه أن يقوم بأىّ شىء أكثر إلحاحاً، ها هو يفتح موسوعته وها هو يستعلم. ما أغرب العلاقة التى نقيمها مع الكلمات، نتعلم البعض منها حين نكون صغاراً، وعلى امتداد وجودنا نستقبل منها أخرى تأتى إلينا بواسطة التعليم، والمحادثة، والتردّد على الكتب ومع ذلك، بمقارنتها، فقليل جدّاً منها لا تستثير دلالتها، ومفاهيمها ومعانيها أىّ شك فى عقلنا إذا ما طرحنا السؤال ذات يوم جدياً. على هذا النحو نؤكد وننفى، على هذا النحو نقنع ونقتنع، على هذا النحو نحاجج، ونستنبط ونستنتج، مخاطبين بهدوء ونحن مكتفون بسطح المفاهيم التى لا نملك عنها إلا أفكاراً شديدة الإبهام، وعلى الرغم من الثقة المزيفة التى نتظاهر بامتلاكنا لها ونحن نتقدّم متحسّسين فى وسط الضباب اللفظى، فإننا ننتهى على الأقل إلى أن نتفاهم نسبيّاً بل وأن نلتقى أحياناً. فإذا كان لدينا الوقت وإذا كان لدينا الفضول النهم الذى يشوّقنا، فسننتهى إلى أن نعرف ما هو عفريت البحر. من الآن فصاعداً، حين سيقترح عليه خادم المطعم من جديد العظمية البشعة، فأستاذ التاريخ سيعرف ماذا يرد عليه، ماذا، هذا القاعى الكريه الذى يعيش فى الأعماق الرملية والموحلة، وسوف يضيف بلهجة قاطعة، على الإطلاق. إنّ مسئولية هذا الاستطراد المملّ فى شئون السمك واللسانيات يقع كلياً على

ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى تأخر كثيراً فى إدخال رجل كالآخرين فى الڤيديو، كما لو أنه توقف تماماً فى أسفل جبل لكى يحسب القوة التى سيحتاجها من أجل تسلقه حتى القمة. وكما يقال، فيما يبدو، عن الطبيعة، يخشى القصّ هو الآخر من الفراغ، ولهذا السبب، لمّا لم يفعل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو شيئاً طوال هذا الفاصل الذى يستحق جهد روايته، لم يكن لدينا الخيار ووجب علينا أن نرتجل حشوة لكى نملأ بها الزمن أياً كانت النتيجة حسب الوضع. أما وقد عزم الآن على أن يستخرج الشريط من علبته وعلى أن يضعه فى الڤيديو، فإننا نستطيع أن نرتاح.

بعد ساعة من ذلك لم يكن الممثل قد ظهر، لاشك أنه لا يمثل فى هذا الفيلم. قام ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بكرِّ شريط الفيديو حتى النهاية، وقرأ بانتباه شديد الأسماء وشطب من قائمة المشاركين مَنْ كانوا يتكررون. لو طلبنا إليه أن يشرح لنا بكلماته هو ما أتى على رؤيته، فلربما سيلقى علينا النظرة المُجهَدة المخصصة للطفيليين وسيجيبنا بسؤال آخر، **هل** أبدو بمظهر من يهتم بمثل هذه الحماقات. يجب علينا أن نعترف أنه على حق جزئياً لأن الأفلام التى مرّرَها فى الواقع حتى الآن تنتمى إلى ما يسمى المجموعة ب، وهى منتجات سريعة موجّهة للاستهلاك السريع الذى لا يتطلع إلا إلى قضاء الوقت دون تشويش الذهن، كما قال ذلك على نحو جيد، وإن بمفردات مختلفة،

أستاذ الرياضيات. كان شريط آخر قد زُحْلِقَ أصلاً فى القيديو، إنه يسمى الحياة الفرحة وسيُظهر شبيهَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى دور بواب ملهى ليلى، من الصعب التمييز بوضوح كاف أىّ من التسميتيْن تلائم على نحو أفضل هذه المنشأة للتسلية الدنيوية هذه التى تدور فيها ضروب من الفحش منقولة بلا خجل عن مختلف نسخ الأرملة الطروب. توصل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى أن يقول لنفسه إنّ الفيلم لا يستحق عناء أن يشاهد بأكمله، فما كان يهمّه كان معرفة ما إذا كان أناه الآخر يمثل أو لا يمثل فى القصة وهذا ما عرفه أصلاً، لكن الحبكة كانت معقدة بصورة عبثية إلى درجة أنه استسلم للانقياد حتى النهاية، وقد فاجأه أنه بدأ يشعر فى أعماق نفسه بشعور تعاطف مع هذا الشيطان المسكين الذى لم يكن يفعل، بخلاف فتحه وإغلاقه أبواب السيارات، سوى أن ينزع ويضع من جديد قبعته ليحيّى بلا مهارة دوماً مع مزيج من الاحترام والتواطؤ الزبائن الأنيقين الذين كانوا يدخلون ويخرجون. أنا، على الأقل، إنى أستاذ تاريخ، همس لنفسه. تصريحٌ من هذا النوع كان يمكن أن يكون موضوعه إبراز وتثبيت تفوّقه، لا المهنىّ وحده، بل أيضاً الأخلاقىّ والاجتماعىّ، بالعلاقة مع تفاهة دور الشخصية، يتطلبُ جواباً يعيدُ الأمورَ إلى نصابها وقد أعطى هذا الجواب من قبل الحسّ المشترك بسخرية لم تكن معتادة منه، حذار من الكبرياء، يا ترتوليانو، فكِّر بما فاتك لعدم كونك

ممثلاً، كان من الممكن أن يجعلوا منك مدير مدرسة، أستاذ رياضيات، بالطبع لا يمكنك أن تكون السيّدة التى تعلم اللغة الإنجليزية لأنه يتوجب من أجل ذلك أن تغير جنسك. أما وقد سُرَّ من نفسه بسبب لهجة التحذير، ضرب الحسُّ المشتركُ بعنفٍ منتهزاً فرصة كون الحديد لا يزال حامياً، ضربة جديدة بالمطرقة، بـــالطبع، سيتوجب أن تكون متمتعاً بحدٍّ أدنى من الموهبة لتقوم بالتمثيل، وفوق ذلك، يا عزيزى، أنا واثق مثل ثقتى بأن اسمى حسّ مشترك، أنهم سيرغمونك على تغيير اسمك، فأىّ ممثل يحترم نفسه لا يجرؤ على تقديم نفسه للجمهور مع هذا الترتوليانو المضحك، والحلّ الوحيد أمامك سيكون فى تبنى اسم مستعار جميل، أو ربما، بعد التفكير، لن يكون ذلك ضرورياً، ماكسيمو أفونسو لا يرنّ بصورة سيئة، فكر فى ذلك. عاد شريط الحياة الفرحة إلى علبته، ظهر الفيلم التالى مع عنوان إيحائى، حافلاً بالوعود فضلاً عن ذلك، **قل** لى من أنت، لكنه لم يضف شيئاً إلى المعارف التى يملكها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو عن نفسه، ولا شيئاً إلى الاستقصاء الذى يقوم به. لكى يتسلى، ترك الفيلم يكرّ حتى النهاية، وضع عدداً من الصلبان على القائمة، ثمّ، بعد نظرة على ساعته، قرّرَ الذهاب إلى السرير، كانت عيناه محتقِنتيْن، وصدغاه متضايقيْن، وثقل على عظمة جبهته، فكر، **لن** يكلفنى ذلك حــيــاتى، ولن تكفّ الأرض عن الدوران إن لم أتمكن من رؤية أشرطة الفيديو كلها خلال نهاية

الأسبوع هذه، وحتى لو توقفت عن الدوران، فلن يكون ذلك السرّ الوحيد الذى ينتظر توضيحه، كان مستلقياً، منتظراً أن يهرع النوم إلى نداء الحبّة التى ابتلعها، عندما قالَ شىءٌ ما يمكن أن يكونَ الحسّ المشترك من جديد، لكنه لم يقدم نفسه بوصفه كذلك، إنّ الحلّ الأسهل فى رأيه، بصورة مخلصة، لا يزال يتمثلُ فى أن يهتف أو أن يذهبَ شخصياً إلى شركة الإنتاج وأن يطلب بأكثر ما يمكن طبيعية اسم الممثل الذى لعب فى هذا الفيلم أو ذاك دورَ موظف الاستقبال، وموظف صندوق فى مصرف، وممرض، وبواب فى ملهى ليلى، ثم إنهم معتادون على ذلك، وربما سيدهشون لأن السؤال يتعلق بممثل من أكثر الممثلين ثانوية، يكاد يكون أكثر بقليل من مجرد ممثل صامت، لكن ذلك سيقطع على الأقل رتابة وجوب الحديث بلا توقف عن النجوم والكواكب، ردّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بصورة سديمية، وقد التحف بأوائل حجب النوم، بأن الفكرة لا تساوى مليماً، وأنها شديدة البساطة، فى متناول أوّل قادم، وختم، لم أقم بدراسة التاريخ من أجل هذا. لم تكن هذه الكلمات الأخيرة ذات أية علاقة بالموضوع، كانت لا تزال تعبيراً عن الكبرياء، لكن علينا أن نعذر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إنها الحبّة التى تتكلم، لا الإنسان الذى ابتلعها. وبالمقابل، فإن التفكير النهائى، الواضح بصورة غريبة وضوح لهب الشمعة وهى فى طريقها للانطفاء، يعود تماماً إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو شخصياً، وهو فى

غـاية النوم أصـلاً، أريد أن أصل إليـه دون أن يعـرف أحدٌ ذلك ودون أن يرتابَ أحد فيـه، كانت تلك كلمات نهائية، لا تقـبل الردّ. أغلق النوم البـاب، نام تـرتوليـانو ماكسيمو أفونسو.

فى الساعة الحادية عشرة صباحاً، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد شاهد ثلاثة أفلام، وإن لم يكن قد شاهد أيّاً منها من البداية إلى النهاية، كان قد استيقظ باكراً جداً، وقلص طعام الفطور إلى قطعتين من البسكويت وفنجان من القهوة التى أعيد تسخينها، ودون أن يضيّع الوقت فى الحلاقة، ومتجاوزاً الاستحمام الذى لم يكن بدقة ضرورياً، وبلباس البيجاما والمبذل كشخص لا ينتظر زيارة أحد، انهمك فى عمل اليوم. عُرضَ الفيلمان الأوليان فى هدر محض، لكن الثالث، الإرهاب، أتى إلى مشهد الجريمة بمصوِّر شرطة مرح كان يمضغ العِلكة ويكرر بصوت ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بأنّ كلّ شىء فى الموت كما هو الأمر فى الحياة مسألة زاوية رؤية. وفى النهاية، أعيدَ النظرُ فى القائمة، وشطِبَ اسم، ووُضِعَتْ صلبان جديدة. خمسة ممثلين أشير إليهم خمس مرات، بقدر الأفلام التى يمثل فيها شبيه أستاذ التاريخ، وكانت أسماؤهم، حسب ترتيب أبجدى موضوعىّ، أدريانو مايا، وكارلوس مارتينو، ودانييل

سانتا. كلارا، ولويس أوجستو فانتورا، و بيدرو فيليكس. حتى ذلك الحين كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ضائعاً فى البحر الكبير المؤلف من أكثر من خمسة ملايين نسمة فى المدينة، لكنه من الآن فصاعداً لم يعد عليه أن يهتم إلا بنصف دزينة بالكاد بل وبأقل منها إذا ما تمّ استبعاد واحدٍ أو عددٍ من هذه الأسماء لأنها لم تلبِّ النداء، همس، عملٌ هائل، لكن سرعان ما قفزت إلى عينيه بداهة، ففى نهاية الأمر لم يكن عمل هرقل الآخر هذا بمثل هذه القسوة، مادام مليونان ونصف المليون شخص على الأقل ينتمون إلى الجنس الأنثوى ويتواجدون بالنتيجة خارج مجال البحث، لا يجب أن يفاجئنا هذا النسيان من قبل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لأنَّ الميْلَ إلى عدم حسبان النساء فى الحسابات التى تتناول الأعداد الكبيرة، كما هو الأمر فى الحالة التى تشغلنا، لا يُقاوَم. وبالرغم من التقليص على المستوى الإحصائى، ذهب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى المطبخ يحتفل بالنتائج الواعدة بقهوة أخرى، دوّى جرس الباب عند الرشفة الثانية، بقىَ الفنجان فى الهواء، فى منتصف الطريق من نزوله نحو المنضدة، من يمكن أن يكون هذا، سأل وهو يضع الفنجان بهدوء، يمكن هذا أن يكون الجارة الخدومة فى الطابق الأعلى التى تودّ أن تعرف إذا كان قد وجد كل شىء حسب ذوقه، يمكن هذا أن يكون واحداً من هؤلاء الشباب الذين يقومون بالدعاية للموسوعات التى تصف عادات عفاريت

البحر، يمكن هذا أن يكون زميل الرياضيات، لا، لا يمكن أن يكون هو، فلم يتبادلا الزيارة أبداً، وردّد، من يمكن أن يكون هذا، أسرع فى إنهاء شرب قهوته وذهب ليرى مَنْ كان يرنّ، ألقى وهو يجتاز قاعة الجلوس، نظرة قلقة على علب الفيديو المبعثرة، على الصفِّ الساكن لتلك المصفوفة على الأرض على امتداد الرف التى تنتظر دورها، لن تكون جارة الطابق العلوى، بفرض أنها كانت هى، شديدة السرور من أن ترى فى هذه الحالة المؤسفة ما كان تطلَّبَ منها كثيراً من عمل الترتيب أمس، فكّر، لا أهمية لذلك، فهى ليست بحاجة إلى الدخول، وفتح الباب، لم تكن جارة الطابق العلوى ممن كان يتواجد أمامه، لم تكن البائعة الشابّة للموسوعات معلنةً له أنه يملك أخيراً الإمكانية، والامتياز الهائل فى أن يتعرّفَ على عادات عفريت البحر، كان الشخص الذى يقف أمامه امرأة لم نكن قد رأيناها بعد، لكننا نعرف اسمَها من قبل، إنها تسمى ماريا دا باز وهى تعمل فى مصرف. آه، أهذا أنتِ، تعَجَّبَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ثم، محاولاً إخفاء اضطرابه، وحَرَجه، يا للعجب، يا لها من مفاجأة كبرى، كان عليه أن يقول لها أن تدخل، ادخلى، ادخلى إذًا، كنتُ تماماً أتناولُ القهوة، أو، يا لها من روعة أن تكونى قد أتيتِ، خذى راحتك بينما أحلق وأتحمّم، لكنه ابتعد على غير رغبة منه ليتركها تمرّ، آه، لو أنه استطاع فقط أن يقول لها، انتظرى هنا بينما أذهب لإخفاء أشرطة الفيديو التى لا أريد أن

تريها، آه، لو أنه استطاع أن يقول لها فقط، اعذرينى، إنك تأتين فى وقت غير مناسب، ففى هذه اللحظة لا أستطيع أن أستقبلك، عودى غداً، آه، لو أنه استطاع أن يقول لها فقط شيئاً آخرَ أيضاً، لكن الوقت صار متأخراً الآن، كان عليه أن يفكر بذلك من قبل، كان ذلك خطأه كليّاً، فالرجل الحذر يجبُ عليه أن يحترس دوماً، أن يكون يقظاً، يجب أن يتوقع الاحتمالات كلها، وخاصة ألا ينسى أن أفضل طريقة فى التصرّف هى عموماً الأبسط، مثلاً، ألا يذهب بسذاجة لفتح الباب بكل بساطة لأنَّ أحداً رنّ الجرس، فالعَجَلة غالباً أمُّ التعقيدات، ذلك مكتوب فى الكتب. دخلت ماريا دا باز ببساطة الشخص الذى يعرف المكان جيداً، سألت، كيف حالك، ثمّ، سمعتُ رسالتك وفكرتُ مثلك أنّ علينا أن نتحادث، آمل ألا أكون قد جئت فى وقت غير مناسب، يا لها من فكرة، قال ترتوليانو ماكسيمو آفونسو، أرجوك معذرتى فى أن أستقبلك على هذا النحو، أشعث، وبلا حلاقة وبهيئة من يخرج من السرير لتوّه، رأيتكَ من قبلُ على هذا النحو فى مراتٍ أخرى ولم تجد من المناسب أن تعتذر، الظروف مختلفة اليوم، مختلفة فى ماذا، تعرفين جيداً ماذا أريد أن أقول، لم أستقبلكِ أبداً على الباب فى هذا اللباس، بالبيجاما والمبذل، هذا أمرٌ جديد، إنه لا يحدث غالباً فيما بيننا. كان مدخل قاعة الجلوس على بعد ثلاث خطوات، ولم يتأخر الاستغراب عن التعبير عن ذاته، ما كلّ هذا، ما الذى تفعله بحق

الشيطان بكل أشرطة الفيديو هذه، لكنّ ماريا دا باز توقفت لتسأل، ألا تقبلنى، بلى بالطبع، كان الجواب التعيس والمحرَج لترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى كان يقدم شفتيه ليطبع قبلة على وجنتها، تبيّن أنَّ الحياء الذكورى، بافتراض أنه كان كذلك، عبث، ففمُ ماريا دا باز كان قد ذهب إلى لقاء فمه وهو الآن يتنفسه، ويعتصره، وينهشه، فى حين كان جسمُها يلتصق بجسمه من الأعلى إلى الأسفل، كما لو لم تكن أية ثياب تفصلهما، كانت ماريا دا باز هى التى انفصلت عنه فى النهاية لتهمس وهى تلهث جملة لم تستطع إنهاءها، حتى ولو وجب علىّ أن أندم على ما فعلت، حتى ولو خجلت أنى فعلته، لا تقولى حماقات، قاطعها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى كان يحاول أن يكسب الوقت، يا لها من فكرة، الندم، الخجل، ما كان ينقص إلا هذا، الندم، الخجل فى التعبير عن الشعور، تعرف جيداً عن ماذا أريد الحديث، لا تتظاهر بأنك لا تفهم، دخلتِ، قبلنا بعضنا، كل ذلك عادىّ تماماً، طبيعىّ تماماً، إننا لم نقبل بعضنا، إننى أنا التى قبلتك، لكن أنا أيضاً قبلتك، نعم، لم يكن لديك الخيار، إنك تبالغين كالعادة، وتمسرحين، معك حق، أبالغ، أمسرح، بالغتُ حين أتيت إلى بيتك، ومسرحتُ بمعانقتى رجلاً كفَّ عن أن يحبنى، يجبُ علىّ أن أمضى من هنا فى هذه اللحظة، نادمة، نعم، خجلة، نعم، على الرغم من أنك أشفقت علىّ إذ قلتَ إنه لم يكن ضرورياً ذلك. إمكانية أن تذهب، على أنها

بعيدة، بالطبع، رمت بأشعة من الأمل فى التلافيف المتعرجة لعقل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكنّ الكلمات التى خرجت من فمه كما لو كانت رغماً عنه، إن أمكننا القول، عبّرت عن شعور مختلف، **حقاً**، لا أعرف أين ذهبت حيث تبحث عن هذه الفكرة العجيبة أننى لا أحبك، **لقد** عبّرتَ عن نفسك بوضوح كاف فى المرّة الأخيرة التى التقينا فيها، **لم** أقل أبداً إننى توقفت عن أن أحبك، أبداً لم أقل إننى لم أعد أحبك، **فى** موضوع القلب، الذى تعرفه معرفة سيئة جداً، حتى السامع الأشد بلادة يفهم النصف الذى لم يُعَبَّر عنه. سيعنى تخيّلُ أنَّ الكلمات التى نحللها الآن قد سبقت إرادة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو نسيانَ أنّ تلافيف العقل الإنسانى تتألف من خيوطٍ لا حصر لها بقدر ما هى مختلفة وأنّ وظيفة البعض منها، مع ادعائها قيادة المخاطب إلى معرفة ما يوجد فى الداخل، تقوم على أن تشير إلى دروب زائفة، على إتاحة افتراض وجود انحرافات هى فى الواقع طرق مسدودة، على التحويل عن الجوهرى أو، كما هو الأمر فى الوضع الحالىّ، على تخفيف الصدمة الوشيكة باستباقها. بتأكيده أنه لم يقل أبداً إنه لم يعد يحب ماريا دا باز، حاملاً إذاً على فهم أنه على العكس يحبها، وهو ما كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يزعم فعله، وعذراً على سوقيّة الصور، كان ذلك يعنى تغليفها بالقطن، إحاطتها بالوسائد لتشكل حاجزاً، ربطها إليه بالعاطفة الغرامية حين صار من المستحيل

منعها لوقت أطول من الدخول إلى قاعة الجلوس. وهذا بالضبط ما يحدث الآن. أتت ماريا دا باز على القيام بالخطوات الثلاث الأخيرة، دخلت، كانت تودّ ألا تفكر بأغنية العندليب العذبة التى أتت على دغدغة أذنها، لكنها لم تتوصّل إلى أن تحيد عنها، لا بل إنها على استعداد لتعترف مع الندم بأنّ تلميحها إلى السامعين الجيدين والسيّئين كان فى غير محله وكان إضافة إلى ذلك ظالماً، لا بل ها هى تستدير مع ابتسامة نحو ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، جاهزة لتقع بين ذراعيه ومصممة على نسيان الشكاوى والتظلمات، أرادت الصدفة مع ذلك، حتى وإن كان من الأصحّ القول إنّ ذلك كان حتمياً، لأنّ مفاهيم فتّانة مثل المقدور، أو القدر أو المصير لا مكان لها فى هذا الخطاب، أن يمرَّ قوس الدائرة الذى ترسمه عينا ماريا دا باز أولاً بالتليفزيون المضاء، ثم بالأشرطة التى لم توضع فى مكانها على الأرض، وأخيراً بصفٍّ أشرطة الفيديو، وهو حضور لا تفسير له، غريبٌ، بالنسبة إلى كلّ شخص اعتاد، مثلها، على المكان، ويعرف تمام المعرفة أذواق وعادات صاحب البيت. ما هذا كلّه، ماذا تفعل هنا هذه الأشرطة كلّها، سألت، إنها موادّ لعمل شرعت فى القيام به، أجاب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يحوّل عينيه، إن لم أكن مخطئة، منذ أن عرفتك، عملك يقوم على تعليم التاريخ، قالت ماريا دا باز، وهذا الشىء هناك، كانت تنظر إلى الشريط بفضول، الذى يسمى موازى

الإرهاب، لا يبدو لى هذا على علاقة وثيقة مع اختصاصك، لا شىء يجبرنى على أن أهتم حصراً بالتاريخ خلال حياتى كلها، بالطبع لا، لكن من الطبيعى أن أشعر بنفسى حائرة وأنا أراك محاطاً بالفيديو، كما لو أنك فجأة أخِذتَ بهوى السينما فى حين أنك لم تكن تهتم بها من قبل أقل اهتمام، قلتُ لكِ إننى مشغولٌ بعمل، بدراسة سوسيولوجية، إن صحّ القول، لستُ إلا مجرّدَ موظفة مصرف، لكنّ شرارة فهمى الضعيفة تسمح لى مع ذلك أن أدرك أنك لستَ صادقاً، لستَ صادقاً، تعجّب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو باستنكار، لستُ صادقاً، لم يكن ينقصنى إلا أن أسمع هذا، لا ضرورة لأن تحتدّ، أعطيتك فقط انطباعى، أعرف أننى لستُ الكمال وقد تجسّدَ رجلاً، لكن نقص الصدق ليس من عيوبى، يجب عليكِ أن تعرفينى على نحو أفضل، أطلبُ منكَ العفو، حسناً جداً، لقد عُفىَ عنكِ، لنكفّ عن الكلام عن ذلك. قال هذا، لكنه كان يفضل الاستمرار فى الكلام عن ذلك لكى لا يتوجب عليه أن يقترب من الموضوع الذى يخشاه. تربّعت ماريا دا باز على الكرسى أمام التليفزيون وقالت، لقد أتيتُ لكى نتحادث معاً، أشرطتك لا تهمّنى. كانت أغنية العندليب قد ضاعت فى الطبقات الجوية العليا بالقرب من السقف، لم تعد إلا ذكرى مفعمة بالحنين، كما كان يُقالُ فى الماضى. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على وعى، وهو فى هيئته المؤسفة، ملفوفاً بمبذلة، ولابساً خفّيْه، وغير

حليق، وبالتالى فى وضع دونى صارخ، من أن محادثة بلهجة لاذعة، حتى لو كانت الكلمات المتشنجة قادرة على الإسهام فى الهدف النهائى الذى نعرفه والذى هو وضعُ نهاية لعلاقته مع ماريا دا باز، سيكون صعباً القيام به بل وأكثر عسراً على وجه التأكيد على الاختتام، جلس إذًا على الأريكة، وجمع ثنايا مبذلة على ساقيه وشرع فى حوار ذى لهجة متسامحة، فكرتى، عن ماذا تتحدث، قاطعته ماريا دا باز، عنا أم عن أشرطة الفيديو، سنتحدث عنا فيما بعد، الآن أريد أن أشرح لك طبيعة دراستى، إذا كنت تصرّ على ذلك، فليكن، أجابت ماريا دا باز مسيطرة على نفاد صبرها، مدّد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أكثر ما يمكن الصمت الذى تلا، وانتزع من ذاكرته الكلمات التى حيَّرَ بها البائع فى مخزن أشرطة الفيديو شاعراً فى الوقت نفسه بانطباع غريب ومتناقض. قال لنفسه وهو على وعى من أنه سً‍‍‍‍‍يكّذب بأن هذه الكذبة ستكون مع ذلك شكلاً مُوارباً للحقيقة وأنه على الرغم من كون تفسيره زائفاً بصورة علنية، فإنّ مجرد واقعة تكراره يجعله بمعنى ما محتملاً وبالتدريج أكثر احتمالاً إن لم يتوقف عند هذه المحاولة الأولى، شرَعَ وقد شعر أخيراً بنفسه سيّد الموضوع، يقول، رغبتى فى رؤية عدد ما من أفلام شركة الإنتاج هذه المختارة على سبيل الصدفة، لأنها كما تستطيعين أن تتحققى آتية كلها من المنشأة السينمائية ذاتها، ولدت من فكرة طرأت علىّ منذ بعض الوقت، فكرة دراسة الميول،

والاتجاهات، والمقاصد، والرسائل، الصريح منها مثل الضمنى والرفيع أو، لكى أكون أكثر دقة، العلامات الأيديولوجية التى يرسلها صانع أفلام معيّن، صورة بعد صورة، إلى المستهلكين، وكيف جاءك هذا الاهتمام المفاجئ، أو بالأحرى هذه الفكرة، كما سمّيتها، أية علاقة لها مع عمل أستاذ للتاريخ، سألت ماريا دا باز، التى لم تكن أبداً لترتابَ بأنها أتتْ على تقديم الجواب، الذى ربما لم يكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قادرًا على اكتشافه بمفرده، على طبق، نظراً للاضطراب الجدلى الذى كان يجد نفسه فيه، إنه أمر بسيط جداً، أجاب مع تعبير ارتياح كان بالإمكان اعتباره بسهولة الرضا النزيه لأىّ أستاذ طيب يرى نفسه مرة أخرى فى طريقه لنقل علمه إلى فصل دراسى، إنه أمرٌ بسيطٌ جداً، كرَّرَ، شأنه شأن التاريخ الذى نكتبه، أو ندرسه، أو نعلمه يطبع كلّ سطر، كلّ كلمةٍ وحتى كلّ ميعادٍ بما أطلقتُ عليه العلامات الأيديولوجية الملازمَة لا لتفسير الوقائع فحسب، بل أيضاً للغةِ التى نعبِّرُ بواسطتها عن أنفسنا، هذا دون أن ننسى مختلف أنماط ودرجات القصدية فى الاستخدام الذى نقوم به لهذه اللغة، شأن السينما، كطريقةٌ فى قصٍّ قصص تؤثرُ، بواسطة فاعلية خاصة بها، على مضمون التاريخ نفسه، ملوثة إياهُ بطريقة ما ومشوهة إياه، شأن السينما التى تشاركُ هى أيضاً، وأكرِّر، بسرعة أكبر بكثير وبقصدية لا تقل عنها فى ذيوع معمَّم لكل شبكة هذه العلامات الأيديولوجية

المستهدَفةِ عادة بطريقة نفعيّة، توقفَ مع ابتسامة متسامحة للمحاضر الذى يعتذر عن جفاف محاضرة تهملُ أن تأخذ بعين الاعتبار قدرات الفهم غير الكافية لمستمعيه وأضاف، آمل أن أكون أكثر وضوحاً حين أصوغ هذه التأملات كتابة. على الرغم من هذه التحفظات الأكثر من مبررة، لم تستطع ماريا دا باز أن تمنع نفسها من النظر إليه بقدر من الإعجاب، إنّه فى نهاية الحساب أستاذ تاريخ مؤهل، اختصاصىٌ متمرسٌ باختصاص ثابت، من المفروض أنه يعرف عمّا ذا يتحدث حتى حين يتفق له تناولَ موضوعاتٍ لا ترتبط مباشرة بفرعه العلمى، فى حين أنها ليست أبداً إلا مجرّد موظفة مصرف من المستوى المتوسط دون تكوين خاصّ يسمح لها أن تلتقط بلمح البصر العلامات الأيديولوجية التى ما كانت لتبدأ على الأقل بقول كيف تُسَمّى وماذا تريد. ومع ذلك، انتبهت خلال خطبة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى نوع من البحّة المزعجة فى صوته، ذات تنافر كان يشوّه فى بعض اللحظات نطقه، شأن الارتجاج الخاص بوعاء مكسور حين نطرقه بالأصابع، فليأتِ أحدهم إذاً لمساعدة ماريا دا باز، وليُعلمْها أنه مع هذا الصوت بالضبط إنما تخرج الكلمات من فمنا حين تكون الحقيقة التى نبدو أننا نقولها هى الكذبة التى نخفيها. على ما يبدو، نعم، لقد جاء أحدهم لتحذيرها من ذلك أو إنّها أفهمَت ذلك بشكل إيمائى معتاد، لأنه لا وجود لتفسيرات أخرى لانطفاء الإعجاب بغتةً فى عينيْها

وانبثاق تعبير أليم مكانه، ملامح عطف ورحمة، تبقى معرفة إنْ كان ذلك إزاء نفسها أو إزاء الرجل الجالس أمامها. فهمَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أنّ خطابه كان جارحاً، دون الحديث عن عدم فائدته، ثمة طرق عديدة فى تقليل الاحترام الواجب نحو ذكاء وحساسيّة الآخر، وفهمَ أنّ طريقته كانت أكثرها فظاظة، لم تأتِ ماريا دا باز إلى بيته لكى تجد نفسها تُعطى شروحاً حول طرق لا رأس لها ولا ذيل أياً كانت الزاوية التى ينظر إليها منها، جاءت لتعلمَ كم يجب عليها أن تدفع لترى نفسها تستعيد، إن كان ذلك لا يزال ممكناً، السعادة الصغيرة التى تتصور أنها عاشتها خلال هذه الأشهر الستة الأخيرة. لكنَّ من الصحيح كذلك أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لن يقول لها، كما لو كان الأمر أكثر الأشياء طبيعية فى العالم، تصورى أننى اكتشفت شخصاً هو نسختى الدقيقة وأن هذا الشخص يُمَثّلُ فى بعض هذه الأفلام، لن يقول لها ذلك بأىّ حال بل وأقل، إن كان مسموحاً ربط هذه الكلمات الأخيرة بالكلمات التى سبقتها مباشرة؛ لأنّ الجملة يمكن أن تفسَّرَ من قبل ماريا دا باز باعتبارها مناورة لتحويل الأنظار إضافية، هى التى جاءت هنا لتعلم كم سيجب عليها أن تدفع لترى نفسها تستعيد السعادة الصغيرة التى تتصوّر أنها عاشتها خلال هذه الأشهر الستة الأخيرة، وليغفر لنا هذا التكرار باسم الحق الذى يملكه كل شخص فى أن يقولَ وفى أن يكرِّرَ أين يتوجّع، سادَ

صمتٌ محرج، كان يجب على ماريا دا باز أن تتدخل الآن، أن تتحدّاه، إذا أنهيت أخيراً خطابك الغبى حول هذه السفسفات من العلامات الأيديولوجية، فلنتحدث قليلاً عنّا، لكن الخوفَ عقدَ بغتةً لسانها، الرعبَ من الا تحملَ أقلُّ كلمةٍ على تفجير كريستال أملِها الضعيف، هذا هو السبب فى أنها سكتت، هذا هو السبب فى أنها تنتظر أن يبدأ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكنه غضّ بصره، وبدا مستغرقاً فى تأمل خفّيْه وشريط الجلد الشاحب هناك حيث تنتهى ساقا بنطال بيجامته، الحقيقة شىء آخر وشديدة الاختلاف، لا يجرؤ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على رفع عينيْه خوفاً من تثبيتها على الأوراق على المكتب، قائمة الأفلام وأسماء الممثلين مع الصلبان الصغيرة، والتشطيبات، وعلامات الاستفهام، كل ذلك شديد البعد عن الخطاب المسىء حول العلامات الأيديولوجية التى يبدو له فى هذه اللحظة أنه كان صنيعَ شخص آخر. على العكس مما يُظنُّ عموماً، إنَّ الكلمات المُنقذة التى تفتح الطريق للحوارات الكبرى الدرامية متواضعة عادة، عادية، شائعة، لا أحد يظنّ أن سؤال، **هل** تريد فنجان قهوة، يمكن أن يفيد كفاتحة لنقاش مرّ حول المشاعر الضائعة أو حول عذوبة المصالحة التى لا يُعرَف كيف الوصول إليها. كان على ماريا دا باز أن تردّ مع جفاف مُستَحَقّ، لم آتِ هنا لأشرب القهوة، لكنها وقد نظرت فى نفسها لاحظت أن ذلك لم يكن صحيحاً، رأت أنها جاءت

فعلاً لتتناول القهوة، وأنّ سعادتها، تصوروا قليلاً، كانت تتوقف على هذه القهوة. بصوت يريد أن يعبر فقط عن رضوخ مرهق، لكن العصبية تجعله يضطرب، قالت، أكيد، وأضافت، سأقوم بإعدادها. نهضت عن كرسيّها وليس تماماً لأنها توقفت وهى مارة إلى جانب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كيف ننجح فى شرح ما جرى، إننا نجمع الكلمات، كلمات ومزيدًا من الكلمات، هذه الكلمات الشهيرة التى سبق وتحدثنا عنها فى مكان آخر، ضمير شخصى، ظرْف، فعْل، صفة، لكننا مهما حاولنا، مهما جهدنا، ننتهى دوماً إلى أن نجد أنفسنا دونَ المشاعر التى كنا نريد بسذاجة وصفها، كما لو كان شعورٌ ما منظراً مع جبال فى البعيد وأشجار على أقدامها، لكن ما هو حقيقى حقاً هو أن عقل ماريا دا باز أوْقفَ بمهارةٍ الحركة المستقيمة لجسدها، منتظرة شيئاً وحده الله يعلمه، ربما أن يهصرها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بين ذراعيْه أو أن يأخذ بهدوء يدَها المتروكة، وهذا ما حدث، أولاً اليد التى تمسك باليد، ثم العناق الذى لم يجرؤ على الذهاب إلى ما وراء تقاربٍ رصين، لم تمنحه فمَها، لم يبحث هو عنه، هناك مناسبات من الأفضل فيها ألف مرة القيام بالقليل بدلاً من الكثير، فالقضية متروكة إلى عناية الحساسية التى تعرف أن تتصرّفَ أفضل من الذكاء العقلى حسبَ أفضل ما ينسجم مع كمال اللحظات التالية المليء والكامل، إن كانا ولدا من أجل هذا. انفصلا ببطء وأحدهما عن

الآخر، ابتسمتْ خلسة، ابتسمَ خلسة، لكننا نعلم أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يملكُ فكرة أخرى فى رأسه وهى أن يخلّصَ بأسرع ما يمكن من نظر ماريا دا باز الأوراق الفاضحة، فلا مجال للدهشة إذاً لرؤيته يدفعها تقريباً نحو المطبخ، اذهبى، اذهبى لإعداد القهوة بينما أرتب قليلاً هذه الفوضَى، وآنئذ حدث الأمر العجيب، كما لو أنها لم تنتبه إلى الكلمات التى كانت تخرج من فمها أو كما لو أنها لم تكن تفهمها كلياً، همست، الفوضى نظامٌ يتطلبُ الكشف، أين قرأت هذا، من فم مَنْ سمعت هذا، خَطرَ لى هذا عفواً، لا أظننى قرأته أبداً وأنا على يقين من أننى لم أسمعه من أحدٍ أبداً، ولكن كيف أمكنك إخراج مثل هذه الجملة، وماذا فيها من استثنائى، كثيرٌ من الأشياء، لا أدرى، ربما لأن عملى فى المصرف يخصّ الأرقام والأرقام، عندما تتقدم مختلطة، بغير انتظام، يمكن أن تبدو فوضى لأولئك الذين لا يعرفونها، ومع ذلك فهى تتضمن نظاماً خفيّاً، والحق أننى أعتقد أن الأرقام لا تملك أىّ معنى خارج النظام الذى نضفيه عليها، أيّاً كان، فإنّ المشكلة هى فى الوصول إلى العثور عليه، هنا لا وجود للأرقام، لكن توجد فوضى، لقد قلتَ ذلك أنتَ نفسك، بعض الأشرطة المبعثرة، ولا شىء أكثر من ذلك، وكذلك الصور التى تتضمنها، الملتصقة واحدتها إلى الأخرى بطريقة تقص معها قصّة، أى نظاماً، وضروب الفوضى المتعاقبة التى تؤلفها إن بعثرناها قبل أن نجمعها من جديد بطريقة

ننظمُ معها قصصاً مختلفة، والنظمُ المتعاقبة التى نحصل عليها على هذا النحو، تاركة دوماً وراءها فوضى منتظمة، متقدمة دوماً داخل فوضى تتطلب التنظيم، العلامات الأيديولوجية، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، دون أن يكون على ثقة كبيرة بأن التلميح أتى فى مناسبته، **نـ**عم، العلامات الأيديولوجية، إذا شئت، لدىّ الانطباع بأنكِ لا تصدقيننى، **لا** يهم إن صدقتك أو لا، فأنت الوحيد الذى يعلم ما تبحث عنه، **يـ**صعب علىّ أن أفهم كيف جاءتك هذه اللقية، فكرة نظام مُتضَمَّن فى الفوضى وأن من الممكن كشفه فى داخل هذه الفوضى نفسها، **تـ**ريد أن تقول إنك خلال كلّ هذه الأشهر، منذ بداية علاقتنا، لم تعتبرنى أبداً إنسانة تملك ما يكفى من الذكاء لتكون لها أفكار، **هـ**يا، وكيف ذلك، ليس المقصود هذا، أنت إنسانة ذكية تماماً، ومع ذلك، **مـ**ع ذلك، لا حاجة بك إلى أن تكمل، أقل ذكاء منك وبالطبع لم أستفد من التكوين الأساسى المناسب، لستُ إلا موظفة مصرف مسكينة، **أ**وقفى سخريتك، لم أفكر أبداً فى أنك أقلّ ذكاء منى، كلّ ما أقوله هو أنه كانت لكِ فكرة مدهشة تماماً، **غـ**ير متوقعة منى، **بـ**معنى ما، نعم، إنكَ أنتَ المؤرخ، لكنى أظننى أعرف أن أجدادنا لم يبدءوا فى أن يكونوا أذكياء بما يكفى ليملكوا الأفكار إلا بعد أن امتلكوا الأفكار التى جعلتهم أذكياء، **هـ**أنتِ تغذينَ المفارقة، وأنا أنتقل من دهشة إلى دهشة، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، **قـ**بل أن

تتحوّل إلى تمثال من الملح، سأذهب لتحضير القهوة، قالت ماريا دا باز وهى تبتسم وصرَّحت فى الممرّ المؤدى إلى المطبخ، **ضـ**ـع النظام فى الفوضى، ماكسيمو، **ضـ**ـع النظام فى الفوضى. زُجّت قائمة الأسماء على الفور فى درج أغلقه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد ذلك بالمفتاح، وعادت الأشرطة المبعثرة إلى علبها المتتالية. موازى الإرهاب، الباقى فى الڤيديو، سارَ على الدرب نفسه، لم يكن بمثل هذه السهولة أبداً وضع النظام فى الفوضى منذ أن كان العالم هو العالم. ومع ذلك، علمتنا التجربة أنه تبقى على الدوام خيوط مبعثرة تنتظر أن تُجمع، قليلٌ من اللبن ينسكب على الطريق، يوجد على الدوام صفٌّ يتقوّس نحو الداخل أو نحو الخارج، وهو، إذا ما طبق على الوضع الحالى، يعنى أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو واع بأنه قد خسر الحرب أصلاً حتى من قبل أن يبدأها. الآن وقد وصلت الأشياء حيث هى، بسبب الغباء الأقصى لخطابه عن العلامات الأيديولوجية والآن بعد ضربة المعلم التى كانتها الجُمْلة بمناسبة وجود نظام فى الفوضى، نظام قابل للكشف، من المستحيل الإعلان للمرأة التى هى فى طريقها لإعداد القهوة هناك، **عـ**لاقتنا وصلت إلى نهايتها، إذا كنت ترغبين يمكننا أن نبقى أصدقاء، ولكن لا شىء أكثر من ذلك، أو بالأحرى، أتأسف جداً إن سببتُ لك الحزن، لكن حين أنظر فى مشاعرى نحوك، لم أعُدْ أكشف فيها أىّ ضرب من حماس البداية، أو أيضاً،

كـــان ذلك رائعـاً جـداً، هـذا أكـيـد، لـكن انـتـهى، يا عزيزتى، اعتباراً من اليوم سيذهب كلٌّ منا من ناحيته. يستعيدُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو المحادثة ذهنياً، يحاول اكتشاف أين فشلت خطته، إذا كانت له خطة، إذا ما لم يكن قد استسلم ببساطة لتقوده تقلبات مزاج ماريا دا باز، كما لو كان الأمر بؤر حرائق مفاجئة كان يجب إطفاؤها مع اندلاع كلٍّ واحدة منها، دون الانتباه إلى أن النار كانت تستمرّ كامنة تحت قدميه، كانت دائمًا أكثر ثقة منى، فكر، وفجأة ميّزَ بوضوح أسبابَ هزيمته، هذه الشخصية الفظة التى كانها، أشعث، غير حليق، مع خفّيْن رثّيْن، حُزوز بنطال بيجامته الذى كانت له هيئة أهداب منهكة، وذيول مِبْذلِهِ التى تتدلى برخاوة، لكى يتخذ عدداً من القرارات فى حياته يجب أن يكون المرء شديد الأناقة فى ملابسه، مع ربطة عنق وحذاء لامع، تلك هى الطريقة النبيلة، يجب أن يتمكن المرء من الصراخ بلهجة مهانة، إذا كان حضورى يزعجك، يا سيدتى، فلا حاجة أبداً لتقولينه لى، يجب مغادرة المكان حالاً، دون النظر إلى وراء، فالنظر إلى الوراء قاتل، يمكن أن نتحول إلى تمثال من الملح وأن نكون تحت رحمة أقل قطرات من المطر. لكنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يواجه الآن مشكلة أخرى عليه حلّها، تتطلب كثيراً من المهارة، والدبلوماسية، واستعداداً للمناورة التى كان يفتقر إليها حتى الآن، مادامت المبادرة، كما سبق أن رأينا، كانت على الدوام تؤخذ من قبل ماريا دا باز،

حتى حين وصولها هُرِعَت إلى ذراعى عشيقها، مثل امرأة فى طريقها لتغرق نفسها. هذا بالضبط ما فكر به ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، موَزَّعاً بين الإعجاب، والانزعاج وضربٍ من الحنان الخطير، كانت تبدو كأنها تغرق نفسها وبانتظار ذلك كانت قدماها ثابتتَيْن على الأرض جيداً. للعودة منها إلى مشكلته، لا يمكن أن يسمح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لنفسه أن يترك ماريا دا باز وحيدة فى القاعة، لنتخيل أنها تظهر مع القهوة، ثم إننا لا نفهم لماذا وجب لها كل هذا الوقت، فالقهوة تُحَضَّر فى ثلاث دقائق، نحن بعيدون عن الزمن الذى كان يجب فيه تصفيتها، لنتخيّل أنهما بعد أن شرباها فى انسجام مقدس، تقول له مع فكرة مسبقة أو حتى بدونها، اذهب وخذ حمامك واحلق ذقنك بينما أضع واحداً من هذه الأشرطة لأرى إذا كنت سأكشف واحدة من علاماتك الأيديولوجية الشهيرة، لنتخيّل أن صدفة مميتة قضت بأن يظهرَ فى دور بواب الملهى الليلى أو موظف الصندوق فى مصرف نسخةُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لنتخيّل الصرخة التى ستطلقها ماريا دا باز، ماكسيمو، ماكسيمو، تعال هنا، أسرع، تعال لترى ممثلاً يشبهك تمام الشبه، من الممكن أن يُسَمَّى ممرضاً كما نريد، سامريّاً صالحاً، عناية إلهية، أخا الإحسان، لا علامة أيديولوجية بالتأكيد. ومع ذلك، لا شىء من هذا سيحدث، حملت ماريا دا باز القهوة، هاهى خطواتها تُسمعُ فى الممرّ، صينية مع فنجانين وسكّرية،

وبسكويت ليؤازر المعدة، وكل شىء سيجرى بطريقة ما كان ليجرؤ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على أن يحلم بها أبداً، شربا القهوة بصمت، لكنه كان صمتاً ودوداً، لا خصامياً، الرفاه المنزلىّ الكامل الذى يتحول إلى انتصار مبارك حين سمع ترتوليانو ماكسيمو آفونسو ماريا دا باز تقول، بينما تقوم بأخذ حمامك وحلاقة ذقنك، سأذهب لوضع قليل من النظام فى فوضى المطبخ، ثم سأتركك فى سلام مع دراستك، دراستى، دراستى، لا تتحدثى أبداً عن دراستى، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لكى ينزع هذا الحجر غير المناسب من وسط الدرب، لكنه فطِنَ إلى أنه أتى على استبداله بآخر أشد صعوبة على الانتزاع، كما لن نتأخر فى ملاحظة ذلك. مهما يكن الأمر، لم يكن ترتوليانو ماكسيمو آفونسو يريد أن يترك شيئاً للصدفة، حلق فى طرفة عيّن، واغتسل فى لحظة، ولبس فى أقلّ من ثانية وكان من العجلة أنه كان لا يزال لديه الوقت ليمسح أوانى الطعام. إنْ عشنا آنئذ فى هذه الشقة المشهدَ الشجىّ والعائلى الذى يؤلفه رجل يمسحُ الصحونَ وامرأة ترتبها، كان يمكن لهذا أن يكون العكس، لكن المقدور أوالتزامن، لنسمِّه ما شئنا، قرَّرَ أنه سيكون الأمر كذلك لكى يجب أن يحدث ما حدث فى اللحظة التى كانت ماريا دا باز ترفع عالياً ذراعيها لصفٍّ صحن على الرفّ، مانحة عن غير وعى أو عن وعى قامتها الرشيقة ليدى رجل لم يكن قادراً على مقاومة الإغراء. ترك ترتوليانو ماكسيمو أفونسو

فوطته وبينما كان الفنجان، الذى أفلت منه، ينكسر على الأرض، جذب ماريا دا باز إليه وهصرها بشدة بين ذراعيه، لن يترددَّ المراقب الأكثر موضوعية والأكثر إنصافاً فى الاعتراف بأن الحماس المزعوم فى البداية ما كان ليستطيع أبداً أن يتجاوز هذا الحماس. السؤال، السؤال المؤلم والأبدى، هو معرفة كم من الوقت سيدوم ذلك، إذا كان ذلك سيكون حقاً انبعاث عاطفة اعتبرت أحياناً حباً، بل وهوىً، أم أننا سنجد أنفسنا مرة أخرى فقط أمام الظاهرة المعروفة الخاصة بالشمعة التى تُحْدِثُ وهى تنطفئ شعلة أشدّ ارتفاعاً وأكثر لمعاناً بصورة لا تطاق، بصورة لا تطاق لأنها الأخيرة لا لأنّ عيوننا تنكرها، هى التى تودّ بشدة أن تتابع الاستغراق فيها. قلنا ونكرِّر إنه بينما تروح الهراوة وتجىء يستريح الظَّهْر، لكن الظَّهْر بالمعنى الحقيقى للكلمة لا يستريحُ كثيراً فى هذه اللحظة بل ونستطيع القول، إذا قبلنا أن نكون فطين، إنّ الهراوة تستريح أقلّ منه أيضاً، لكن ما هو صحيح، حتى ولو لم توجد هنا أسباب قوية للاستسلام إلى تجاوزات غنائية، فإن فرحة، ولذة، ومتعة هذيْن الاثنيْن اللذيْن ارتميا على السرير أحدهما فوق الآخر، وقد تشابك حرفياً ذراعاهما وساقاهما، يجب أن تقودنا إلى أن نخلع باحترام قبعتنا وإلى أن نرغب فى أن تستمرّ على هذا النحو إلى الأبد، بالنسبة لهما، أو بالنسبة إلى كلٍّ واحدٍ من الذين سيزوجهم القدر ذات يوم، إذا كانت الشمعة التى تلتهب فى هذه اللحظة لا تدوم

وقتاً أطول من هذا التشنج الوجيز والأخير الذى يجعلنا ننصهر يُقسينا عادة ويفصلنا. الأجسام، الأفكار. فكر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بتناقضات الحياة، ويكفى رؤية الحالة الراهنة، كان الربح سيكون فى توجيه المحادثة باتجاه القطيعة المأمولة، قطيعة كليّة ونهائية، ويجب عليه أن يعتبر هذه المعركة، فى الوقت الحالى على كلّ حال، بوصفها خاسرة، لكن الربح سيكونُ النجاحُ فى تحويل انتباه ماريا دا باز عن أشرطة الفيديو والدراسة الخيالية حول العلامات الأيديولوجية، وقد ربح، فى الوقت الراهن، هذه المعركة. تقول الحكمة الشعبية إنّه لا يمكن امتلاك كل شىء وهى لا تخطئ، فالحساب الختامىّ للحيوات الإنسانية يقوم باستمرار على الأرباح والخسائر، وتكمن المشكلة فى استحالة الاتفاق فيما بيننا، وهى أيضاً إنسانية، حول الفوائد الخاصة بما يجب خسارته وما يجب ربحه، وهذا هو السبب فى أن العالم على الحالة التى نعلم. فكرت ماريا دا باز أيضاً، وبما أنها امرأة، ومن ثمَّ فهى أقرب إلى الأشياء البدائية والجوهرية، فقد تذكرت القلقَ الذى كانت فريسته وهى تدخل هذه الشقة، ويقينَها من ذهابها من هنا مهانة ومهزومة، لكنّ ما لم تتوقعه فى النهاية فى أية لحظة قد حصل، كانتْ فى السرير مع الرجل الذى تحبّه، وهو ما يبيّن كمية الأمور التى يجب على هذه المرأة أن تتعلمها إذا كانت تجهلُ أنَّ العديد من النقاشات الدرامية بين الأزواج تنتهى وتذوبُ هنا على وجه الدقة، لا لأنّ الألعاب الغرامية هى ترياق كلّ

الآلام الجسدية والنفسية، على الرغم من أن كثرة هم الذين يعتقدون ذلك، ولكن لأنّ العقلَ حين تكون قوى الجسم منهكة، ينتهز الفرصة لكى يرفع الإصبع بصورة خجلة ويسأل السماح له بالدخول، إنه يريد أن يعرف إنْ كان مسموحاً له أن يقدّم أسبابه وإذا كان هو، الجسد، على استعداد لسماعها. آنئذ يقول الرجل للمرأة، أو المرأة للرجل، **كم** كنا مجانين، كم كنا أغبياء، ويُخرِسُ أحدهما بصورة رحمانية السببَ الحقيقى الذى سيكون، أنت، ربما، أنا بكل بساطة انتظرت. على الرغم من أن ذلك يبدو مستحيلاً، فإن هذا الصمت الحافل بالكلمات التى لم تقل هو الذى ينقذ ما كنا نظنّه ضائعاً، مثل طوْفٍ يتقدم منبثقاً من الضباب باحثاً عن بحارته، مع الجدافات والبوصلة، الشراع وصندوق الخبز. اقترح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، **يـ**مكننا أن نتناول الغذاء معاً، لا أدرى إن كنتِ حرة، **بـ**التأكيد، إننى حرة دائماً، أريد أن أقول، لديكِ أمّك، **قـ**لت لها إن لدى الرغبة فى أن أقوم بالنزهة وحيدة، وأننى لن أعود ربما لتناول الطعام، **عـ**ذرًا للمجىء هنا، **لـ**يس تماماً، لم أقرّر المجىء لمحادثتك إلا بعد أن خرجتُ من بيتى، **لـ**قد سبق وتحدثنا، **أ**تريد القول، سألت ماريا دا باز، إن كل شىء بيننا سيستمر كما كان من قبل، **بـ**التأكيد. كان يمكننا أن نتوقع أكثر قليلاً من البلاغة من جانب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكن بوسعه دوما أن يدافع عن نفسه، **لـ**م يكن لدىّ الوقت، لقد تعلقت برقبتى لتقبلنى وفعلت الشىء نفسه، وبعد دقيقة من ذلك كنا من جديد متشابكين

واحدنا فى الآخر، فليساعدنا الله، **وهل** ساعد، سأل الصوت المجهول الذى لم نعد نسمعه منذ زمن طويل، **لا** أدرى إن كان فعل ذلك، لكن هذا استحق الجهد تمام الاستحقاق، **والآن**، الآن سنذهب لتناول الغذاء، ولن تعودا تتحدثان عن القضية، **أية** قضية، **قضيتكما**، **لقد** سبق وتحدثنا، **لا**، **بلى**، **إذًا** لقد تبدّدت الغيوم، **إنها** مبددة، **إذًا** لم تعد تفكر بالقطيعة، **تلك** مسألة أخرى، لنترك إلى الغد ما يعود إلى الغد، **إنها** فلسفة جيدة، **إنها** الأفضل، **شريطة** معرفة ما يعود إلى الغد، **مستحيل** معرفته قبل الوصول إلى الغد، **عندك** جواب لكل شىء، **أنت** أيضاً يمكن أن يكون عندك جواب لكل شىء **إذا** وجب عليك أن تكذب بقدرَ ما فعلتُ خلال هذه الأيام الأخيرة، **إذًا**، اذهبا للغذاء، **سنذهب** للغذاء، **شهية** طيبة، وبعد ذلك، **بعد** ذلك سأصحبها إلى بيتها وسأعود إلى هنا، **لمشاهدة** أشرطة الفيديو، نعم، لمشاهدة أشرطة الفيديو، **شهية** طيبة، كرّرَ الصوتُ المجهول، كانت ماريا دا باز قد نهضت، وكان ماء الدشّ يُسمع، فى الماضى كانا يتحمّمان معاً بعد ممارستهما الحب، لكن فى هذه المرة لاهى فكرت ولا هو فكر بالأمر، أو إنهما فكرا كلاهما، لكنهما فضّلا السكوت، هناك لحظات من الأفضل فيها الاكتفاء بما لدينا بدلاً من المخاطرة فى فقدان كلّ شىء.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة حين عاد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى بيته. ما أكثر الوقت المهدور، فكر وهو يفتح الدرج الذى وضع فيه القائمة

وتردد بين فيلم مُتخاصِرٌ مع الحظ وفيلم الملائكة ترقص أيضاً. لن يضعهما فى الڤيديو ولن يعرف إذاً أبداً أنّ نسخته، الممثل الذى يشبهه كقطرتى ماء، كما كان يمكن أن تقول ماريا دا باز، يقوم بدور مدير قمار فى الفيلم الأول وبدور أستاذ رقص فى الفيلم الثانى. فجأة قاوم الواجب الذى كان قد فرضه على نفسه فى اتباع النظام التسلسلى للإنتاج، من الفيلم الأقدم إلى الفيلم الأكثر عهداً، وفكر أنها لن تكون فكرة سيئة أن ينوّع، وأن يهزّ الرتابة، سوف أشاهد إلهة المسرح، أعلن. لم تمض عشر دقائق حين ظهر شبيهُهُ، يقوم بدور مدير مسرح. شعر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بالصدمة فى شُرُسُوفه، لا بدّ وأنّ كثيراً من الأشياء قد تغيرت فى حياة هذا الممثل لكى يقوم الآن بدور شخص كان قد اكتسب أهمية، بعد أن كان خلال سنوات وسنوات، وبصورة موجزة، موظف استقبال فى فندق، وموظف صندوق فى مصرف، وممرضاً، وبواب ملهى ليلى ومصور شرطة. بعد مُضىٍّ نصف ساعة، لم يعد يحتمله أكثر من ذلك، فكرّ شريط الفيلم بسرعة فائقة حتى النهاية، لكنه بخلاف ما كان يتوقع، لم يجد فى قائمة الأسماء فى النهاية اسماً واحداً من الأسماء التى كانت على قائمته. أعاد لفّ الشريط، وعاد إلى القائمة الأساسية التى لم يولها الانتباه بسبب قوة العادة ورأى أن الممثل الذى يقوم بدور مدير المسرح فى إلهة المسرح يسمى دانييل سانتا ـ كلارا.

ليست الاكتشافات فى نهاية الأسبوع أقلّ صلاحية من تلك التى تحدث أو تعبر عن نفسها خلال أىّ يوم آخر يقال له يوم عمل. فى هذه الحالة كما هو الأمر فى الأخرى، سيخبر مؤلف الاكتشاف مساعديه عنه، إذا كان هؤلاء يقومون بعمل ساعات إضافية، أو أسرته، إذا تواجدت قريباً منه، وفى غياب الشمبانيا فسيُحتفل بالحدث مع زجاجة النبيذ المزبد الذى ينتظر يومه فى الثلاجة، وستقدّم التهانى وتستقبل، وستسجّل المعطيات من أجل الشهادة وستستمر الحياة بهدوء، بعد أن برهنت مرة أخرى على أن الإلهام أو الموهبة أو الصدفة أمور لا تختار لتعلن عن ذاتها لا الأيام ولا الأماكن. نادرة هى الحالات التى كان يمكن أن يتواجد فيها مكتشف، بسبب أنه يعيش وحيداً ويعمل دون مساعدين، لم يكن بالقرب منه على الأقل شخص يتقاسم معه فرحة منحه للعالم نور معرفة جديدة. أكثر روعة أيضاً، وأكثر ندرة، إن لم يكن فريداً، هو الوضع الذى يتواجد فيه فى هذه اللحظة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذى لا يفتقر إلى شخص

يعلن له أنه اكتشف اسم الممثل الذى هو صورته الحيّة فحسب، لكنّ عليه فوق ذلك أن يسهر بعناية على ألا يذيع اكتشافه. والواقع أن من الصعب تصوّر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يركض ليهتف إلى أمه، أو إلى ماريا دا باز، أو إلى زميل الرياضيات، ليقول لهم، والكلمات تتزاحم فى فمه تحت أثر الاستثارة، اكتشفتُ، اكتشفتُ، الشخصُ يُسَمّى دانييل سانتا ـ كلارا. إذا وُجِدَ سرٌّ يتمسّك بالحفاظ عليه بأىّ ثمن، بحيث لا يستطيع أحد حتى أن يتوقع وجوده، فهو هذا السرّ. وخوفاً من النتائج فإن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مُرغمٌ، ربما إلى الأبد، على أن يستمر بالصمت المطلق تماماً حول نتائج بحوثه، سواء منها اكتشافات الطوْر الأول التى استكملت اليوم، أو تلك التى ستجرى لاحقاً، وهو مجبرٌ أيضاً على البقاء متوقفاً عن العمل توقفاً شاملاً على الأقل حتى الإثنين. يعلم أن رَجُلَهُ يسمى دانييل سانتا ـ كلارا، لكن هذا العلم يفيده بقدر ما يفيده أن يكون قادراً على القول إن نجماً ما يسمى الدَّبَران وهو يجهل كلّ شىء عنه. من المؤكد أنَّ شركة الإنتاج مغلقة الأبواب اليوم وغداً، ولا طائل من محاولة الاتصال بها بالهاتف، ففى أفضل الحالات سيجيب حارسٌ ما، مقتصراً على القول، اهتف الاثنين، اليوم لا أحد يعمل، **ظننتُ** أنه بالنسبة إلى منشأة للإنتاج السينمائى ليس هناك لا أحد ولا يوم إجازة، وأنّ الأفلام تُصَوَّر فى كلّ يوم يشاؤه الله، خاصة فى الربيع وفى الصيف لكى لا تفوت ساعة

واحدة من الشمس، سيتعلل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لكى يُديمَ المحادثة، **هذه** المسائل ليست من اختصاصى، إنها ليست القسم الخاص بى، لستُ إلا موظف أمن، أمنٌ جدير بهذا الاسم يجب أن يكون على علم بكلٍّ شىء، **لستُ** مُسْتأجَراً من أجل هذا، **خسارة**، **هل** ترغب فى شىء آخر، ربّما سأل الرجل بنفاد صبر، قل لى على الأقل إن كنت تعرف من يعطى المعلومات حول الممثلين، **لا** أعرف، لا أعرف شيئاً، قلت لك من قبل إننى جزء من الأمن، اهتف الاثنين، سيكرِّرُ الرجل بغيظ، إن لم يرسل بعض الكلمات النابية المبرَّرة بصفاقة محاوره. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وقد جلس على الكرسىّ المُنجَّد فى مواجهة التليفزيون، يستسلم، **لا** يوجد شىءٌ يمكن عمله، سيتوجّبُ أن أنتظر حتى الإثنين لكى أهتف إلى شركة الإنتاج. قال ذلك وفى اللحظة نفسها شعر بمعدته تنقبض، كما لو كان تحت تأثير رعب مفاجئ، لن يدوم ذلك، لكن الارتعاش الذى تلاه امتدّ عدة ثوان، كالاهتزاز المقلق لِوَتَرِ كونترباس. لكى لا يفكر بما بدا له أنه نوع من التهديد، تساءل عن الذى يمكن له عمله خلال ما تبقى من إجازة نهاية الأسبوع، خلال ما لا يزال باقياً من نهار اليوم ونهار الغد، كيف يملأ كلّ هذه الساعات الفارغة، سيكون الحلّ فى مشاهدة الأفلام التى تنتظر المشاهدة، لكن ذلك لن يقدم له معلومات أكثر، سيرى فقط وجهه فى أدوار أخرى، ربما أستاذ رقص، ربما رجل مطافئ، ربما مدير قمار،

ترزى مَحَافِظ جلدية، معمارى، معلم مدرسة، ممثل يبحث عن عمل، وجهه، جسده، كلماته، حركاته، حتى الغثيان، يمكنه أن يهتف إلى ماريا دا باز، يسألها أن تأتى لرؤيته، غداً، إن كان الأمر مستحيلاً اليوم، لكن ذلك يعنى أن يضع هو نفسه الحبل من حول عنقه، إن رجلاً يحترم نفسه لا ينادى امرأة للإسعاف، حتى وإن لم تفطن إلى ذلك، لكى يصرفها من بعد. حينئذ نجحت فجأة فكرة كانت قد تسللت من قبل إلى رأسه مرات عدّة وراء أفكار أخرى أكثر حظاً دون أن يوليها الاهتمام فى أن تشق لنفسها طريقاً حتى المقدّمة، قالت، إذا راجعت دليل الهاتف، بوسعك أن تعلم أين يسكن، ولن تحتاج إلى سؤال شركة الإنتاج بل، لو راق لك ذلك، يمكنك أن تذهب لتحدِّدَ الشارع الذى يعيش فيه وكذلك بيته، بالطبع عليك أن تلتزم لأدنى قدر من الحيطة بأن تتقنّع، لا تسألنى بماذا، هذا من شأنك. انقبضت معدة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من جديد، يرفض هذا الرجل أن يفطن إلى أن الانفعالات مفعمة بالحكمة، وأنها تهتم بنا، غداً ستقول، لقد حذرناك مع ذلك، ولكن سيكون الوقت حينئذ، بصورة شديدة الاحتمال، متأخراً أصلاً. أمسك ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بدليل الهاتف بين يديه اللتيْن تبحثان وهما ترتعشان حرفَ السين، اللتيْن تقلبان الصفحات نحو الأمام ونحو الوراء، هاهو. يوجد ثلاثة أشخاص يحملون لقب سانتا ـ كلارا ولا أحدَ منهم مع الاسم الأول دانييل.

لم تكن الخيبة كبيرة. إن بحثًا بمثل هذا العُسْر لا يمكن أن ينتهى على هذا النحو دون مزيد، إذ سيكون بسيطاً بصورة مضحكة. صحيح أن أدلة الهاتف كانت دوماً إحدى أوائل أدوات البحث لأىّ شرطىّ سرّىّ خاص أو شرطىّ فى الحىّ متمتع بمعرفة ابتدائية، نوعاً من المجهر الورقى قادراً على أن يقود الجرثومة المشكوك فيها حتى منحنى الإدراك البصرى للباحث، لكنه لا يقلّ عن ذلك حقيقة أنَّ هذا المنهج فى التعرّف ينطوى على أشواكه وعلى إخفاقاته، الأسماء التى تتكرر، المجيبون القساة، الصمت المريب، الجواب الغالب والمفقد للعزيمة، هذا السيّد لم يعد يسكن هنا. أولُ فكرة منطقية وبالتالى صحيحة طرأت على ذهن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كانت أن الشهير دانييل سانتا - كلارا لم يشأ أن يكتب اسمه فى الدليل. يتبنّى بعض الأشخاص ذوى السلطة، من طبقة اجتماعية رفيعة، هذه الطريقة، ويطلق على ذلك الدفاع عن الحق المقدس فى الحياة الخاصة، هذا ما يفعله مثلاً رؤساء الشركات ورجال المال، والسياسيون من الطبقة الأولى، ونجوم، وكواكب، ومذنّبات ونيازك السينما، وأبطال كرة القدم، وسبّاقو السيارات السريعة، وعارضات الأزياء الرفيعة والمتوسطة، وكذلك الدّنيا، ولأسباب أكثر قابلية للفهم الجانحون فى مختلف فروع الجريمة الذين يُفضِّلون هم أيضاً تحفظَ ورصانة وتواضعَ الاسمِ الغفل الذى يحميهم حتى درجة معينة من فضولٍ شرِّير، يمكننا

فى حالة هؤلاء الأخيرين، حتى ولو كانت إنجازاتهم تجعلهم مشهورين، أن نكون على ثقة من أننا لن نجدهم أبداً فى دليل الهاتف. سوى أنَّ دانييل سانتا - كلارا بناءً على ما علمناه حتى الآن، ليس جانحاً ولا كذلك نجماً سينمائياً على الرغم من انتمائه إلى هذه المهنة، لا وجود لأىِّ شكٍّ حول ذلك أبداً، وسببُ غيابِ اسمه فى المجموعة الضيقة للأشخاص الذين يسمون سانتا - كلارا يمكن أن يسبِّبَ بالضرورة إرباكاً شديداً لا يمكن الخروج منه إلا بالتفكير وحده. كان ذلك على وجه الدقة هو الشغل الذى شغلَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بينما كنا نطيل الكلام برعونة نُلام عليها حول التباين السوسيولوجى للأشخاص الذين يستحسنون أساساً أن يوجدوا فى دليل هاتف خاص، سرّىّ، خفىّ، نوع من تقويم جوتا الذى يسجل الأشكال الجديدة من التشريف فى المجتمعات الحديثة. وعلى الرغم من انتماء النتيجة التى توصّل إليها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى فئة البداهات، فإنها لا تقلُّ استحقاقاً فى أنْ يُصَفق لها من أجل ذلك، لأنها تبيّن أنّ البلبلة الذهنية التى يشكو منها مؤخراً أستاذ التاريخ لا تزال لا تمنعه من التفكير بحرية وبصورة صحيحة. لا يوجد اسم دانييل سانتا - كلارا فى دليل الهاتف، حقاً، لكن ذلك لا يعنى أنه لا يستطيع أن يرى فى ذلك علاقة، لنقل، قرابة بين أحد الأشخاص الثلاثة فى الدليل وسانتا - كلارا الممثل فى السينما. بل من الممكن أن نقبل احتمال أنهم ينتمون جميعاً للأسرة

ذاتها أو، حتى إن سرنا على هذا الدرب، أنّ دانييل سانتا ـ كلارا يسكن فى نهاية المطاف فى واحد من هذه العناوين وأن الهاتف الذى يستخدمه لا يزال، مثلاً، باسم جدّه المتوفى. كما كان يحكى قديماً للأطفال لتوضيح العلاقات بين القضايا الصغرى والآثار الكبرى، إذا خُسِرَتْ معركة لأنّ حصاناً كان قد خلّفَ وراءه حدوة من حدْوتيْه على الدرب، فإن مسار الاستنتاجات والاستقراءات التى تقود ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى النتيجة التى أتينا على عرضها لا يبدو لنا أكثر ريبة ولا أكثر إشكالية من هذه الحلقة المُنَوِّرَة من تاريخ الحروب التى كان العامل الأول فيها والمسئول الأخير عنها فى نهاية المطاف وبدون أى ظلٍّ ممكن من الشك عدم الأهلية المهنية لبيطار الجيش المهزوم. ما الذى سيفعله إذاً ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الآن، هو ذا السؤال المُحْرِق. ربما اعتبر نفسه راضياً لقيامه بتمهيد الأرض بطريقة يتمكن معها لاحقاً من دراسة الشروط التى تسمح بوضع خطة هجومية غير وجاهية، واحدة من هذه الخطط الحذرة التى تقوم على تحقيق بعض ضروب التقدم مع الاحتفاظ دوماً بإمكانية تراجع ما. لن يتصوّر الشخصُ الذى يراه جالساً على الكرسى حيث بدأ من قبل،لاعتبارات عديدة، طوراً جديداً من حياته، وظهره محن، ومرفقاه مسنودان على ركبتيْه ورأسه بين يديْه، الجهدَ الشاقَّ الذى يتمّ فى هذا الدماغ الذى يوازنُ مختلف الحلول، ويفحص الخيارات، ويقوِّمُ البدائل،

ويستبق الردود، شأن مُعَلِّم فى الشطرنج. مضى نصف ساعة أساساً وهو لا يتحرك، وسيمضى نصف ساعة أخرى أيضاً قبل أن نراه ينهض فجأة ويذهب للجلوس إلى مكتبه مع الدليل مفتوحاً على صفحة اللغز. من الظاهر أنه اتخذ قراراً رجولياً، فلنعجب بشجاعة هذا الرجل الذى أدار أخيراً ظهره للحذر وصمّم على الهجوم مواجهة. أدار رقم أول سانتا ـ كلارا وانتظر. لم يتناول أحد الهاتف ولم يكن هناك مجيب آلىّ. أدار الرقم الثانى وأجابت امرأة، آلــو، صباح الخير يا سيدتى، اعذرينى لإزعاجى لك، أودّ أن أتكلم مع السيّد دانييل سانتا ـ كلارا، لدىّ كلّ الأسباب التى تجعلنى أظنّ أنه يسكن فى هذا العنوان، إنك مخطئ، هذا السيّد لا يسكن هنا ولم يسكن هنا أبداً، لكن الاسم، الاسم مصادفة، ككثير غيرها، ظننت أنكِ على الأقل من الأسرة نفسها وأن بوسعكِ مساعدتى على العثور عليه، إننى حتى لا أعرفه، **هو**، **لا** هو ولا أنت، اعذرينى، كان علىّ أن أقول لكِ اسمى، **لا** تقله لى، لستُ أرغبُ فى معرفته، **يبدو** أنّهم أساءوا إعلامى، **هذا** ما يبدو لى تماماً، أشكركِ على لطفك، **لا**شىء يوجبُ الشكر، إلى اللقاء، اعذرينى لما سبّبته لك من إزعاج، إلى اللقاء. سيكون من الطبيعى بعد هذا التبادل اللفظى المتوتر دون تفسير، أن يستريح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لكى يستعيدَ سكينته ونبضه الطبيعى، لكن ذلك لم يحدث. توجد أوضاع فى الحياة لا تهمّنا الخسارة فيها على

الإطلاق، فما نريده هو معرفة النتائج الأخيرة للكارثة بسرعة لكى نفكر بعد ذلك، بشىء آخر. أديرَ الرقم الثالث من بعد دون تردّد، سأل صوت رجل بمباغتة، مَنْ على الهاتف. شعر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بنفسه كما لو أنّه أخِذ على حين غرّة، فتمتم باسم ما، مـــاذا تريد، سأل من جديد صوت ذو لهجة خشنة دوماً، لكنها ويا للعجب لم تكن تعبر عن أيّةِ عداوة، هناك أشخاص على هذا النحو، يبدو صوتهم على نحو يعطينا الشعور بأنهم غاضبون على الأرض ومن عليها وفى النهاية فإنهم يملكون قلباً من ذهب. لن نعرف هذه المرّة، بسبب إيجاز الحوار، إذا كان قلب هذا الرجل حقاً مصنوعاً من هذا المعدن النبيل، أظهر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الرغبة فى التحدّث إلى السيد دانييل سانتا ـ كلارا، ردّ الرجل ذو الصوت الساخط أن أحداً بهذا الاسم لا يسكن هنا ولم تكن المحادثة تبدو على الأقل قادرة على التقدم إلى أبعد من ذلك، من غير المفيد العودة إلى التطابق العجيب فى الأسماء، ولا إلى احتمال علاقة عائلية يمكن أن تقود صاحب الحاجة إلى غايته، فى مثل هذا النوع من الأوضاع تتكرّر الأسئلة والأجوبة ، وهى ذاتها على الدوام، هل فلان هنا، فلان لا يسكن هنا، لكن كان يوجد عنصر جديد هذه المرّة، فالرجل ذو الحبال الصوتية المبحوحة يتذكر أنه كان هناك قبل ما يقارب الأسبوع شخصٌ آخرَ هتفَ وطرَحَ السؤال نفسه، افترض بأنه لم يكن أنت، يبدو الصوت مختلفاً على

كلّ حال، إن سمعى مرهف وأميِّز الأصوات، **لا**، لم أكن أنا، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وقد اضطرب بغتة، ومن كان هذا الشخص، رجل، امرأة، رجل، بالطبع. نعم، رجل، أين كان سارحاً، لأنه إذا كان هناك اختلاف كثير بين صوتىْ رجلين فسيكون هناك اختلاف أكثر بين صوت امرأة وصوت رجل، **مع** أنّ لدىَّ الانطباع، أضاف المخاطب، الآن وأنا أفكر بذلك، بأنه كان فى لحظة ما يحاول أن يُقنِّع صوته. بعد أن شكره كما يجب على لطفه، أغلق ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الهاتف ونظر فى الأسماء الثلاثة فى الدليل. إذا كان الرجل المذكور كان قد طلب التكلم إلى دانييل سانتا ـ كلارا، فالمنطق البسيط يتطلب، كما أتى هو نفسه على فعله، أن يهتف للأرقام الثلاثة، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يجهل بالطبع إن كان أحدٌ على العنوان الأول قد أجابه، وكان كل شىء يبدو مشيراً إلى أنّ المرأة الفظة التى تكلم إليها والتى كانت، من ناحيتها، خشنة، على الرغم من لهجتها الحيادية، إما أنها لم تتذكر هذه الواقعة، أو أنها لم تر من المناسب الإشارة إليها، أو أنها، ببساطة تامة، لم تكن هى التى أجابت. ربما لأننى أعيش منفرداً، فكر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أميلُ إلى التفكير بأنّ الآخرين يعيشون بالطريقة نفسها. وبقىَ له من الاضطراب شديد الحدّة الذى سبّبه خبرُ أنَّ مجهولاً كان يبحث هو أيضاً عن دانييل سانتا ـ كلارا، إحساسُ ارتباكٍ قلق، كما لو أنه يتواجد أمام معادلة من

الدرجة الثانية بعد أن نسى كيف تحلّ معادلة الدرجة الأولى. مما لا شكّ فيه أنّه كان مديناً، فكَّر، وهذا هو الأكثر احتمالاً، فالفنانون والأدباء يعيشون على الدوام تقريباً حياة غير منتظمة، ولا بد أنه راكمَ ديوناً فى واحدٍ من هذه الأماكن التى يمارس فيها اللعب والآن يُنذرُ بأن يسدِّد. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد قرأ قديماً بأن ديون اللعب هى الديون الأقدس بل إن الجميع يصفونها بديون شرف، وعلى الرغم من أنه لم يفهم ما علاقة الشرف مع هذه الحالات أكثر من الحالات الأخرى، فقد قبل القانون والتشريع كشىء لم يكن يعنيه، إنها قضيتهم، كان قد فكر. بانتظار ذلك، كان يفضل اليوم لو لم تكن هذه الديون بمثل هذه القداسة، أن تكون أكثر عاديّة، من النوع الذى يُغفرُ ويُنسى، كما كان يُطلب ذلك وكما كان يوعَدُ بذلك فى صلاة أبانا القديمة، ذهب لكى يضىء أفكاره إلى المطبخ ليعدّ لنفسه قهوة وليقيّم الوضعَ وهو يشربها. لا يزال باقياً علىّ أن أقوم بهذه المخابرة الهاتفية وحينئذ واحدٌ من أمرين، إما سأجابُ أنهم لا يعرفون لا الاسم ولا الشخص وستُحَلّ المسألة آنئذ، وإما سأجابُ بأنه نعم، إنه يعيش هنا، وفى هذه الحالة سأغلق الهاتف لأننى أريد فى الوقت الحاضر أن أعرف فقط أين يسكن.

عاد وقد استراح ذهنه بهذا التعليل المنطقى، دون شرح وبنتيجته التى لا تقلُّ عنه منطقية، إلى قاعة الجلوس، كان دليل الهاتف لا يزال مفتوحاً على

المكتب، وثلاثىّ سانتا ـ كلارا لم يغيروا عنوانهم، أدار رقم هاتف الأول منهم وانتظر، انتظر وتابع الانتظار، حتى بعد أن تأكد من أن أحداً لن يردّ، اليوم يوم سبت، فكّر، ربما كانوا فى الريف، أغلق الهاتف، لقد فعل كل ما فى قدرته، لن يستطيع أحدٌ أن يتهمه بالتردّد ولا بالجبن. نظر فى ساعته، كانت الساعة مبكرة للذهاب إلى العشاء، لكن الذكرى المشئومة لأسمطة المطعم، البيضاء كالأكفان، وللمزهريات البائسة الصغيرة الملأى بورودٍ بلاستيكية على الموائد، وخاصة لتهديد عفريت البحر الدائم حمله على تغيير رأيه، مدينة من خمسة ملايين نسمة تحتوى بالطبع مطاعم بأعداد ملائمة، عدة آلاف على الأقلّ، وحتى لو وجب استبعاد المطاعم الفاخرة لسبب محدّد والمطاعم التى لا تزار لسبب آخر، يبقى له مع ذلك قائمة من الخيارات واسعة، على سبيل المثال المكان اللطيف حيث تناول طعام الغذاء اليوم مع ماريا دا باز، المُختار بالصدفة أثناء المرور، على كل حال إن التفكيرَ فى أنّه سيُرى وهو يدخل الآن وحده، فى حين أنه جاء مسبقاً فى صحبة جميلة، لا يبتسمُ لترتوليانو ماكسيمو أفونسو، قرّر إذًا ألا يخرج، سيتناول شيئاً ما، حسب التعبير المعتاد، وسيذهب إلى السرير فى ساعة مبكرة. لن يكون حتى بحاجة لأن يعدّه، فالسرير كان على الحالة التى تركه عليها، الشراشف ملفوفة، والوسائد فى عراك، مع بقايا الحبِّ البارد. قال لنفسه إنه يجب عليه أن يهتف إلى ماريا دا باز،

ليقول لها كلمة لطيفة، ويوجّه لها ابتسامة يمكن أن تشعر بها على وجه التأكيد على الناحية الأخرى من سلك الهاتف، صحيح أن علاقتهما توشك أن تنتهى، ولن يتأخر ذلك، لكن هناك واجبات ضمنية من اللباقة التى لا يمكن ولا يجب أن تهمَل، وسيكون برهاناً على عدم حساسية خطيرًا، لكى لا نتكلم عن فظاظة أخلاقية لا تغتفر، التصرفُ كما لو أنّه لم تحدث فى هذه الشقة، هذا الصباح، بعض الأفعال السارّة، الشافية، والمسليّة التى يكون السريرُ عادة شأنها شأن النوم، مسرحاً لعملياتها. أن يكون المرء من جنس الذكور لا يجب أبداً أن يحول دون التصرّف كإنسان شريف، ولا نشك إطلاقاً بأن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو سيتصرف على هذا النحو لو لم تعُدْ به، مهما أمكن لذلك أن يبدو غريباً للوهلة الأولى، ذكرى ماريا دا باز على وجه الدقة إلى همِّه الشاغل فى الأيام الأخيرة، أىّ كيف يلتقى دانييل سانتا - كلارا، لم تكن النتيجة السلبية لمحاولاته الهاتفية تترك له من خيار آخر إلا أن يكتب رسالة إلى شركة الإنتاج طالما أنه لا مجال لأن يتقدم بنفسه بلحمه وعظمه، مغامراً على هذا النحو فى أن يقول له الشخص الذى يطلب إليه المعلومات، كيف حالك، يا سيد دانييل سانتا - كلارا. اللجوء إلى التنكر، إلى القناع الكلاسيكى، اللحية، الشارب، الشعر المستعار، بالإضافة إلى طابعه المضحك بالمقارنة، سيكون أكثر من غباء، سيشعر بنفسه ممثلاً رديئاً فى مأساة من القرن التاسع عشر،

يقوم بدور أب نبيل أو وقح فى المشهد الرابع، وكما أنه كان يخاف على الدوام أن تجعل منه الحياة هدف النكات الرديئة على عادتها، كان على ثقة من أن شاربه أو لحيته سيسقطان فى اللحظة ذاتها التى سيستعلم فيها عن السيد دانييل سانتا ـ كلارا وأن الشخص المُستفهَمَ منه سينفجر ضحكاً وينادى زملاءه لكى يتقاسموا معه مرحه. يا لها من مزحة ممتازة، يا لها من مزحة رائعة، تعالوْا إذًا لرؤية السيد دانييل سانتا ـ كلارا يسألُ عن نفسِه بنفسِه، كانت الرسالة إذًا الوسيلة الوحيدة، والأكثر أماناً من كلّ الجوانب، لتحقيق غاياته التآمرية، بشرط، وهو شرط لا غنى عنه، ألا يشير لا إلى اسمه ولا إلى عنوانه، يمكننا أن نُقسِم أنه فكر هذه الأوقات الأخيرة بهذا التشوش فى الخطط، ولكن بطريقة كانت من الإسهاب ومن الغموض بحيث كان من الصعب معها أن يوصف بالفكر هذا العمل الذهنى الذى كان بالأحرى تقلباً، تشرّدَ أجزاء حيرى من الأفكار التى نجحت لتوها فى أن تترَتّبَ وتنتظم بصورة ملائمة، وهو السبب الذى من أجله نتحدث عن ذلك الآن فقط، إنّ القرار الذى أتى ترتوليانو ماكسيمو آفونسو على اتخاذه هو فعلاً ذو بساطة محيّرة، ذو وضوح وشفافية زواليّة تماماً. لا يتقاسم الحسّ المشترك الذى دخل لتوّه هذا الرأى، فقد سأل باستنكار، كيف يمكن لمثل هذه الفكرة أن تخرج من الرأس، إنها الوحيدة والأفضل، أجابَ ترتوليانو ماكسيمو آفونسو ببرود، ربما كانت الوحيدة،

وربما الأفــضل، لكن إذا أردت رأيى، ســيكون من المخجل كتابة هذه الرسالة باسم ماريا دا باز وإعطاء عنوانها من أجل الجواب، لماذا مخجل، يا لك من مسكين إذا كان يجب أن يُشرَح لك ذلك، لن ترى فى ذلك أمراً غير مناسب، وكيف تعرف ذلك، أنتَ لم تتحدث إليها عن هذا الأمر بعد، عندى أسبابى، أسبابك، يا صديقى، لا نعرفها إلا كثيراً، إنها تسمى زهوّ الذَّكر، كبرياء المُغوى، عنجهية الغازى، ذكر، أننى إياه فعلاً، إنه جنسى، لكنى لم أر أبداً فى مرآتى انعكاس المُغوى المذكور، أما بالنسبة إلى الغازى، فمن الأفضل ألا نتحدث عنه، إذا كانت حياتى كتاباً فهنا يوجد الفصل الناقص فيه، تدهشنى، إننى لا أغزو، إننى أنا المغزو، وكيف ستشرح لها واقعة أنك ستكتب رسالة لتطلب معلومات عن ممثل، لن أقول إننى أريد الحصول على تفاصيل حول الممثل، ماذا ستقول إذاً، أن الرسالة تتعلق بالدراسة التى حدثتها عنها، أية دراسة، لا تجبرنى على التكرار، بإيجاز، تظن أنه يكفى أن تفرقع بإصبعيْك كىْ تهرع ماريا دا باز لترضى كل نزواتك، سأكتفى بأن أطلب منها معروفاً، فى الحالة التى عليها علاقاتكما، فقدتَ الحقَّ فى أن تطلبَ منها المعروف، توقيع رسالة باسمى يمكن أن تكون له سيئات، لماذا، ليس معروفاً ما الذى يمكن أن تكونه نتائجها اللاحقة، ولماذا لا تلجأ إلى اسم مستعار، الاسم سيكون مستعاراً، ولكن العنوان، من ناحيته، يجب أن يكون أصلياً، أستمر فى التفكير بأن

عليك أن تنتهى مع قصة الشبيه اللعينة هذه، التوءم وسواها من الأمثال، **يـ**جب علىّ ذلك ربما، لكنى لا أتوصل إليه، إنه أقوى منى، **لـ**دىَّ الانطباع بأنك قد سيّرت مدحلة تتقدم فوقك، حَذَّرَ الحسّ المشترك ولما كان مخاطبه لم يجبه، انسحبَ هازاً رأسه حزناً أمام نتيجة المحادثة. أدار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو رقم ماريا دا باز، ربما ستكون أمها التى ستجيب والحوار الموجز سيكون مسرحية صغيرة إضافية من النفاق، ساخرة ومثيرة للشفقة إلى حدٍّ ما، **هـ**ل ماريا دا باز هنا، سأل، **مـ**ن يطلبها، **صـ**ديق، **مـ**ا اسمك، **قـ**ولى لها إنه صديق، وستعرف من المقصود، ابنتى لها أصدقاء آخرون، **لا** أظن أن عندها الكثير منهم، **سـ**واء أكانوا كثرة أو لا فإن لهم أسماء، **حـ**سناً، قولى لها إنه ماكسيمو. منذ ستة أشهر وعلاقته مستمرّة مع ماريا دا باز، ولم يتوجب على ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يهتف لها غالباً فى بيتها ولم تجبه أمها على الطرف الآخر من الخط أقلّ من ذلك، لكن فى كل مرة كان مغزى كلمات الأم ولهجة صوتها مطبوعيْن بالريبة ومن جانبه هو دائماً بنفاد صبر غير خفىّ، هى على وجه الاحتمال لأنها لم تكن على علم بقصتهما بقدر ما كانت تتمنى، وهو على وجه اليقين لأنه كان ساخطاً من أن تعرف هذا القدر عنها، لم تكن الحوارات السابقة شديدة الاختلاف عن المثل المسجّل هنا، مجرد عيِّنة أكثر شدّة مما كان يمكن أن يحدث والذى لم يحدث فى نهاية المطاف لأنها كانت ماريا دا باز

هـى التـى تناولت الســمّاعـــة، ومع ذلك فكل هـذه الحــوارات، هذا الحـــوار والحـــوارات الأخـــرى دون استثناء يمكن أن يكون لهـا مكانهـا فى فـصل يحـمل عنـوان **عـ**ـدم الفهم المتبادل من كتاب **الـ**ـعـلاقـات الإنسـانية. قالت ماريا دا باز، كنتُ أظنٌّ أنكَ لن تتصلَ بــى أبـداً، **كـ**ـــمـا ترين، إنك مـخطئـة، هـأنـا أناديك، **صـ**ــمتُكَ كـان يمكن أن يعنى أنَّ نهـارَ اليوم لا يمـثل بالنسبـة إليك الشىء نفسـه الذى يمثله بـالنسبـة إلىّ، إن ما مثله، مثله بالنسبة إلى الاثنين معاً، **و**لكـن ربمـا ليس بالطريقة نفسها ولا من أجل الأسباب نفسها، **لا** يوجد بتصـرفنا أدوات تسمح بقياس هذه الاختلافات، إن كان هناك اختلافات، **أ**تحبّنـى دومـاً، **نـ**ـعم، أحـبّك دوماً، **إ**نك تقول ذلك مع كثير من الحماس، أنتَ تكتفى بتكرار كلمـاتى، **ا**شرحى لى لماذا لا يجب أن تخـدمنى أنا أيضـاً، إذا كـانت قـد خـدمـتكِ أنت، **لأ**نهـا تفـقـد بتكـرارها جـزءاً من قـوتهـا فـى الإقناع التى تملكهـا لو أنهـا قيلت للمرّة الأولى، براڤو، فلنصـفق لروح المهـارة والتحليل، **سـ**ـتعرفه أيضاً لو خصَّصتَ وقتاً أكثر لقراءة أدب التـخـيـيل، **كـ**ـــيف تـريدين أن أعـكف على قــراءة التخييل، الروايات، القصص أو مـا تشـائين، فـى حين أننى بالنسـبـة إلى التـاريخ، الذى هـو عـملى، لا أملك حـتى مـا يكفى من الوقت، فى هذا الـوقت أتخـبّط مع كتـاب أصولى حول حضارة ما بين النهرين، **لا**حظتـه، كان على منضدة السرير، **أ**تريـن، **عـ**ـلى كلّ حـال، لا أظن أنك تفتقر إلى الوقت إلى هذا الحدّ، **لـ**ـو كنـت

تعرفين حياتى، لما قلتِ لى هذا، سأعرفها إذا تركتنى أعرفها، إننا لا نتكلم عن هذا، بل عن حياتى المهنية، أكثر بكثير من رواية يمكن أن تقرأها خلال ساعات فراغك، فإنّ هذه الدراسة الشهيرة التى انخرطت فيها، مع كل هذه الأفلام التى تنتظر المشاهدة، هى التى تسبب لها الأذى، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد شعر أن المنعطف الذى سارت فيه المحادثة لا يناسبه، إنه يبتعد أكثر فأكثر عن هدفه الذى كان يتمثل فى أن يأتى بمسألة الرسالة بأكثر صورة طبيعية ممكنة والآن، للمرة الثانية فى النهار، كما لو كان المقصود لعبة آلية من الأفعال وردود الأفعال، جاءت ماريا دا باز نفسها لتمنحه الفرصة على طبق، سيتوجّبُ عليه مع ذلك أن يكون حذراً، ألا يتركها تفكر أنّ سبب ندائه لها كان مصلحياً محضاً، وأنه لم يكن فى نهاية المطاف من أجل الحديث معها عن المشاعر، ولا حتى عن اللحظات الممتعة التى قضياها فى السرير، إذا كان لسانه يرفض أن يلفظ كلمة حب، صحيح أن المسألة تهمنى، قال، مصالحاً، ولكن ليس بالقدر الذى تفترضينه، لا أحد سيقول ذلك لدى رؤيتك كما رأيتك، أشعث، فى مبذل وخفّين، غير حليق، محاطاً من كل الجهات بالأشرطة، لا تشبه فى شىء الرجل الرصين، الرجل العاقل جداً الذى كنت أعتقد معرفته، لقد تركتُ نفسى على راحتها، كنت وحيداً فى بيتى، هذا مفهوم، ولكن ما دمتِ تكلمييننى حول هذا الموضوع، طرأت على فكرة يمكن لها أن

تسهّل وتسارع هذا العمل، آملُ ألا تكون عندك النية لتطلب إلىّ أن أشاهد أيضاً أفلامك، لم أفعل شيئاً لأستحق مثل هذا العمل الممل، اطمئنى، لن تصل غرائزى المفترسة إلى هذا المدى، ستكون الفكرة ببساطة الكتابة إلى شركة الإنتاج لطلب كل نوع من المعطيات المحسوسة، وخاصة حول شبكة التوزيع، وأمكنة قاعات السينما وعدد المشاهدين بالنسبة إلى كلّ فيلم، أعتقد أن ذلك سيكون شديد الفائدة لى وسيساعدنى على استنتاج عدد من النتائج، إننى لا أرى جيداً العلاقة مع العلامات الأيديولوجية التى تبحث عنها، قد لا يكون لذلك هذا القدر من الصلة الذى أتصوّره، على كلّ حال أريد المحاولة، أنت الذى يعرف، نعم، لكن هناك مشكلة صغيرة، أىّ مشكلة، لا أودّ أن أكون أنا من يكتب هذه الرسالة، ولماذا لا تذهب إلى هناك لتحدثهم شخصياً، بعض المسائل أسهل على الحلّ مواجهة وأراهن أنهم سيكونون سعداء باهتمام أستاذ تاريخ بالأفلام التى ينتجونها، هذا بالدقة ما لا أريده، خلطُ صفتى العلمية والمهنية مع دراسة من خارج اختصاصى، لماذا، إننى عاجز عن شرحه، ربما بفعل الشك، إذًا، لا أرى كيف ستحلّ صعوبة أنت الذى أوجدها بنفسه، هل تستطيعين كتابة الرسالة، هى ذى فكرة عبثية كلياً، اشرح لى كيف سأكتب رسالة حول موضوع غامض فى نظرى غموض اللغة الصينية، حينما أقول إنك ستكتبين الرسالة، فما أريد قوله فعلاً هو أننى سأكتبها باسمك

وأننى سأعطى عنوانك، هكذا أكون فى ملجأ من كلّ تطفّل، تطفل لن يكون بهذه الخطورة، وأفترض أنّ شرفك ضمن هذه الشروط لن يكون عرضة للاشتباه ولا كرامتك موضع شك، لا تكونى ساخرة، قلتُ لكِ إنّها مسألة شكٍّ محضة، نعم، لقد قلتها من قبل، وأنتِ لا تصدقيننى، بلى، أصدقك، لا تقلق، ماريا دا باز، نعم، تعرفين جيداً أننى أحبّك، عندما تقوله لى أظننى أعرفه، ثمَّ أتساءل بعد هذا إذا كان ذلك صحيحاً، هذا صحيح، وهتفتَ لى لأنك تتحرق لقوله لى أم لتطلب منى كتابة هذه الرسالة، فكرة الرسالة جاءتنى خلال المحادثة، نعم، لكن لا تحاول أن تحملنى على التصديق بأنها جاءت على وجه الدقة بينما كنا نتكلم، هذا صحيح، لقد فكرت بها من قبل بصورة غامضة، غامضة، نعم، بصورة غامضة، ماكسيمو، نعم، يا عزيزتى، يمكنك أن تكتب رسالتك، أشكركِ على قبولك، الحق يقال إننى كنت أفكر جيداً أن ذلك لن يضجرك، شىءٌ بمثل هذه السهولة، الحياة، يا عزيزى ماكسيمو، علمتنى أنه لا شىء سهل، وأن الأشياء لا تبدو أحياناً سهلة إلا فى الظاهر وأنه على وجه الدقة بقدر ما تبدو سهلة بقدر ما يجب علينا أن نحذر، أتجعلين من نفسك شكاكة، لا أحد يولد شكاكاً، فيما أعلم، حينئذ، بما أنك موافقة، سأكتب الرسالة باسمك، يجب أن أوقعها، فيما أتصور، لا أعتقد أن ذلك ضرورى، سأبتكر توقيعاً، فليُشبهِ على الأقل توقيعى قليلاً، لم أكن أبداً

موهوباً فى تقليد الخطوط، لكنى سأبذل جهدى، انتبه، راقب نفسك، ما إن يبدأ المرء بالتزييف، حتى لا يُعرف إلى أين يمكن أن يقودك هذا، تزييف ليست هى الكلمة الصحيحة، تريدين أن تقولى تزويرًا، شكراً لتصحيحى، يا عزيزى ماكسيمو، كنت أرغب ببساطة أن تكون هناك كلمة قادرة على التعبير لوحدها عن معنى هذين الفعليْن، حسب معرفتى إن فعلاً يجمعُ ويؤسِّسُ فى فعل واحد زيّف وزوّر لا وجود له، إذا وجد العملُ، فيجب أن توجد الكلمة أيضاً، الكلمات التى بتصرفنا موجودة فى القاموس، لا تتضمن القواميس جميعاً نصف المفردات التى نحتاج إليها ليتفاهم بعضنا مع البعض الآخر، على سبيل المثال، على سبيل المثال، لا أدرى أى كلمة يمكن أن تعبّر عن تراكب وغموض المشاعر التى أشعر بها فى هذه اللحظة، مشاعر حول ماذا، حول مَنْ، لا حول ماذا، عنى، نعم، عنكِ، آمل ألا يكون شيئاً شديد السوء، هناك من كل شىء، كما هو الأمر لدى الصيدلانى، لكن اطمئنى، مهما حاولتُ، فلن أتوصلَ إلى شرحِهِ لكِ، سنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى، أتريدين أن تقولى بذلك أن محادثتنا قد وصلت إلى غايتها، لم أقل هذا وليس هذا معنى كلماتى، لا، هذا صحيح، اعذرينى، على كل حال، وبعد التفكير، من الأفضل أن نبقى حيث نحنْ فى علاقتنا، هناك الكثير من التوتر فيما بيننا، شرارات تتفجر مع كلّ جملة تخرج من فمنا، لم يكن ذلك قصدى، ولا قصدى،

ولكن هكذا، نعم، الأمر هكذا، إذاً، سوف نقول لبعضنا إلى اللقاء كالأطفال المهذبين الذين هم نحن، وأن نتمنى ليلة طيبة وأحلاماً سعيدة، إلى اللقاء القريب، اهتف لى متى شئت، لن أتوانى عن ذلك، ماريا دا باز، نعم، أحبك، سبق وقلت لى ذلك.

بعد أن وضع السمّاعة على قاعدتها، مرّرَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يده على جبهته الرطبة من العرق. كان قد بلغ هدفه، لم تكن تنقصه الأسباب إذاً ليكون راضياً، لكنّ ماريا دا باز هى التى كانت لا تكف عن قيادة هذا الحوار الطويل والشاق، حتى عندما لم يظهر عليها ذلك، مُخضِعة إياهُ إلى إذلال مستمرٍ لم يكن يعبر عن نفسه صراحة فى الكلمات الملفوظة من أحدهما أو من الآخر، الكلمات التى كانت تترك له مع ذلك، واحدة بعد الأخرى، مذاقاً يزداد مرارة فى الفم، كما يقال عادة عن الهزيمة. كان يعرف أنه ربح، لكنه كان يدرك أيضاً أن الانتصار يتضمن قسطاً من الوهم، كما لو أن كل تقدّمٍ لم يكن سوى النتيجة الآلية لتراجع تكتيكى للعدو، جسوراً ذهبية ملقاة بمهارة لتجذبه إلى صوت الطبول والأبواق وإلى كل الرايات المرفوعة حتى النقطة التى سيكتشف فيها نفسه بصورة مريرة محاصراً، لكى يحقق مطلبه كان قد حبس ماريا دا باز فى مصائد كلامه الغشاش والحيسوب، لكن العُقدَ التى كان يظن فى نهاية المطاف أنه قيَّدَها بها هىَ كانت تحدُّ من حرية حركاته. لقد حافظ عن تبصّرٍ، خلال الأشهر الستة

من علاقتهما، ولكى لا يستسلم للأغلال زيادة عن اللزوم، على ماريا دا باز على هامش حياته الخاصة، والآن وقدْ قرَّرَ أن يضع حداً لعلاقتهما وبانتظار اللحظة المناسبة، وجد نفسه مرغماً لا على أن يناديها للمساعدة فحسب، بل أيضاً على جعلها تشارك فى أعماله التى تجهل كلياً أصلها وسببها وغايتها. سيتّهمه الحسّ المشترك بأنه انتهازى بلا ضمير، لكنه سيردّ عليه بأن الوضع الذى يعيشه كان فريداً فى العالم، بأنه لم يكن هناك سابقة كان يمكن لها أن تحدد معايير السلوك المقبول اجتماعياً، وأنّ أىّ قانون لم يتوقع الحالة العجيبة لنسخ الكائنات البشريّة وأنه من ثمَّ، كان عليه هو، ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أن يبتكر فى كل مرة الوسائل القانونية وغير القانونية، التى يمكن أن تقوده إلى غاياته ولم تكن الرسالة إلا واحدة من بين وسائل أخرى وإذا كان قد وجب عليه من أجل كتابتها أن يستغل ثقة امرأة كانت تقول إنها تحبه، فالجريمة لم تكن شديدة الخطورة، آخرون فعلوا أسوأ من ذلك ولم يُشِرْ إليهم أحدٌ من أجل الثأر العام.

أدخل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو صفحة من الورق فى الآلة الكاتبة وطفق يفكر يجب أن تبدو الرسالة مُحَرَّرَة من قبل معجبة، يجب أن تكون مُتحَمِّسة، ولكن دون مبالغة، لأن الممثل دانييل سانتا - كلارا ليس على وجه الدقة نجماً قادراً على أن يطلق الهياج اللفظى، يجب عليها من حيث المبدأ أن تضحّى من أجل طقس طلب صورة مصحوبة بإهداء وتوقيع، حتى وإن كان ما يهمّ تَرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو أن يعلمَ أين يسكن

الممثل وما اسمه الحقيقى إذا كان دانييل سانتا . كلارا، كما يبدو كل شىء مشيراً إلى ذلك، هو الاسم المستعار لرجل ربما يسمى هو الآخر، مَنْ يدرى، ترتوليانو. بعد أنْ ترسلَ الرسالة، ستكون هناك فرضيتان ممكنتان، إما أن تردّ شركة الإنتاج مباشرة بإعطائها المعلومات المطلوبة، وإما أن تقول إنها ليست مجازة لإعطائها وفى هذه الحالة ستنقلُ على وجه الاحتمال الرسالة إلى المرسَلِ إليه الحقيقى. **هل** سيكون الأمر على هذا النحو، تساءل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. فكرة سريعة حملته على القول لنفسه إن الفرضية الأخيرة كانت الأقلّ احتمالاً لأنّها تدلُّ على القليل جداً من الحرفيّة وعلى أقلّ قدر أيضاً من الاحترام من جانب المؤسسة إذا ما فرضتْ على ممثليها مهمة الردّ على الرسائل ونفقات إرسال الصور. فلتشأ السماء أن يكون الأمر على هذا النحو، هَمَسَ، سينهار كلّ شىء لو أن الممثل أجاب شخصياً ماريا دا باز، كان لديه خلال لحظة الانطباع برؤية قصر الكرتون الذى يبنيه منذ أسبوع بعناية دقيقة ينهارُ مع القرقعة، لكنّ المنطق الإدارى مضافاً إلى الوعى بأنه لا وجود لطريق آخر، ساعده على العثور شيئاً فشيئاً على اعتدال مزاجه، لم يكن تحريرُ الرسالة أمراً سهلاً، وهو ما يفسّر أن جارة الطابق العلوى سمعت طرقات الآلة الكاتبة خلال أكثر من ساعة. فى لحظة ما رنّ الهاتف، رنّ بإلحاح، لكنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يجب. لا بدّ أنها ماريا دا باز.

استيقظ متأخراً. كانت ليلته مضطربة، حافلة بالأحلام الخاطفة والمقلقة، كان الأساتذة جميعاً غائبين عن اجتماع مجلس الفصل الدراسى، ممرٌّ مسدود، شريط فيديو يرفض الدخول فى الجهاز، قاعة سينما ذات شاشة سوداء يُعرض عليها فيلم أسود، دليل هاتف لا يتضمن إلا اسماً واحداً مكرراً فى كلّ سطر، لكنه لم ينجح فى قراءته، طردٌ بريدى يتضمن سمكة، رجل ينقل حجراً على ظهره قائلاً أنا عمورى، معادلة فى الجبر مع وجوه بشرية بدلاً من الأحرف، الحلم الوحيد الذى توصل إلى أن يتذكره ببعض الدقة كان حلم الطرد البريدى، ومع ذلك فقد كان عاجزاً عن التعرف على السمكة، والآن، وهو لا يزال سيئ الاستيقاظ، اطمأنّ وهو يقول لنفسه إنه على الأقلّ لا يمكن أن يكون عفريت بحر لأنه ما كان ليستقر فى علبة، نهض بصعوبة، كما لو أنّ جهداً جسديّاً مفرطاً وغير معتاد كان قد جمّد مفاصله، ذهب إلى المطبخ يشرب كأساً كبيرة من الماء ابتلعه بشغف، كما لو أنه أكل طعاماً شديد الملوحة، كان

جائعاً، لكنه لم يكن يرغب فى أن يعدّ لنفسه فطوراً. عاد إلى الغرفة ليلبس مبذله وتوجّه نحو غرفة الجلوس. كانت الرسالة إلى شركة الإنتاج على المكتب، آخر نصٍّ معدّلٍ بين كل المسودّات التى كانت تملأ سلة المهملات الورقيّة بتمامها تقريباً، أعاد قراءتها وبدت له تلائم الأهداف المنتظرة، لم تكتف بطلب إرسال صورة الممثل مع إهداء وتوقيع، كانت تلتمس أيضاً، كما لو كان الأمر عفوياً، عنوانه. إيماءة أخيرة، لم يكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يخجل من اعتبارها ضربة معلم استراتيجية مفعمة بالخيال، تحمل على الفهم بأن ذلك كان ملحّاً لأن هذا يتعلق بدراسة تتناول أهمية الممثلين الثانويين، المهمّين لسيّر الحدث الفيلمى، حسب مؤلف الرسالة، بقدر أهمية مجارى المياه الصغيرة وسواها من السيول من أجل تكوين الأنهار الكبرى. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يفكر أن خاتمة مجازية وغامضة على هذا النحو تستبعد كلياً إمكانية أن ترسل شركة الإنتاج الرسالة إلى ممثل رأى مؤخراً اسمه موجوداً على قائمة الأسماء فى الفيلم الذى يمثل فيه، لكنه لم يكف بسبب ذلك عن أن ينتمى إلى كتيبة الممثلين المعتبرين بوصفهم أدنى، وتابعين، ومتممين، ضرباً من الشر الضرورىّ الذى، بناء على رأى المنتج، يثقل الميزانية بلا حق. إذا تلقى دانييل سانتا ـ كلارا رسالة محرّرة بهذه الكلمات، فسوف يبدأ فى أن يتخيّل بصورة طبيعية جداً مَطالبَ أجور وتأمينات اجتماعية مناسبة لإسهامه بوصفه

مَصَبّاً فى نيلٍ وفى أمـــازونٍ رءوس الإعـــلانات. وإذا توصل هذا العـمل الفــردى، الذى بدأ بالدفــاع عن مـجــرّد الرفــاه الأنانى للمُطالب، إلى التكاثر، وإلى التضخم، وإلى الامتداد فى عمل جماعى مستمر وتضامنى، فستنهار البنية الهرمية لصناعة السينما كلها، شأن قصر كرتون آخر، وسيكون لنا الحظ الرائع، بل وما هو أفضل أيضاً، الامتياز التاريخى فى المشاركة بولادة مفهوم جديد ثورىّ للمسرح وللحياة. لا يوجــد مع ذلك أىّ خطر فى أن تحـــدث مـــثل هذه الكارثة. فالرسالة الموقعة باسم المرأة المدعوّة ماريا دا باز ستنقل إلى القسم المختص الذى سيسترعى فيه مُسْتخدَمٌ انتباهَ رئيسه حول المقتضى المُقلق للمقطع الأخير، وسيرفع الرئيس المذكور دون تأخر الرسالة الكاوية الخطيرة إلى رئيسه الأعلى وفى اليوم ذاته، قبل أن يتمكن الفيروس من الانتشار إلى الخارج بفعل الإهمال، سيُفرَضُ فوراً على الأشخاص القلة الذين علمـوا أنْ يلزمـوا الصـمت المطلق حول الموضــوع وسيكافئون سلفاً بترفيعات مناسبة وبزيادات جوهرية فى أجورهم. سيبقى تقرير مصير الرسالة، فهل سيـجـاب إلى طلب صـورة مع توقـيع مـرفق بعنوان الممثل، الأول روتين محض، والثانى أكثر غرابة قليلاً، أم سيتصرفون ببساطة كما لو أن الرسالة لم تكتب أو كما لو أنها ضاعت فى ركام البريد، ستحتل المناقشة حـول هذا الموضوع فى مـجلس الإدارة نهار الغداة برمته، لا لأنه كان من الصعب الحصول على إجماع

من حيث المبدأ، ولكن لأن النتائج الممكنة كلّها كانت قد وُزِنَت مطولاً وليس فقط هذه النتيجة، بل وكذلك نتائج أخرى أيضاً كانت تبدو بالأحرى ثمرة خيالات مرضية، سيكون النقاش الأخير فى آن واحد جذريًا وحاذقًا. جذرى لأن الرسالة ستحرَقُ بالنار فى نهاية الاجتماع وبحضور كل مجلس الإدارة الذى سيرسل زفرة من الارتياح وحاذق لأنه سيستجيب للطلبيْن بطريقة يضمن معها عرفان الطالبةِ المزدوج، الأول روتينى، كما قيل، دون أقل تحفظ، والثانى، نظراً للاهتمام الخاص الذى أوليناه لرسالتكِ، تلك كانت المفردات المستخدمة التى تبرز الطابع الاستثنائى للمعلومات المُقدَّمَة. لم يكن مستبعداً أن تتعرّف هذه الماريا دا باز يوماً على دانييل سانتا ـ كلارا الآن وهى على وشك الحصول على عنوانه وأن تكلمه عن رسالتها حول المَصبّات المطبقة على توزيع الأدوار فى الفن الدرامى، ولكن كما برهنت تجربة الاتصال بوفرة، حتى ولو كانت قدرة الكلمة المنطوقة فى الاستنفار ليست أدنى فى شىء من قدرة استنفار الكلمة المكتوبة وحتى ربما أنها فى البداية تتكشف أكثر صلاحاً لإثارة حماس الإرادات والجماهير، فإن لها مع ذلك دلالة تاريخية محدودة أكثر لأنه مع تكرارات الخطاب فإن النَّفَسَ يُستهلك بسرعة ويضيع الهدف عن الأنظار، لا نرى أسباباً أخرى لواقعة أن القوانين التى تحكمنا جميعها مكتوبة. والأكثر احتمالاً مع ذلك هو أن دانييل سانتا كلارا، إذا تمّ هذا اللقاء

وإذا طرحت هذه المسألة، لن يولى أطروحة ماريا دا باز حول المَصبّات سوى اهتمام لاه وسيوجّه المحادثة إلى موضوعات أقل جفافاً وليُغفَرٍ لنا تناقض بمثل هذه الصراحة طالما كنا نتكلم عن الماء وعن الأنهار التى تنقلها.

بعد أن وضع أمامه واحدة من الرسائل التى كتبتها له ماريا دا باز قبل زمن قليل وبعد محاولات عدة لكى يدرِّب يده، ثبّت ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، بحركة رشيقة، التوقيعَ البسيط على أناقته الذى يختتمها. فعل ذلك احتراماً للرغبة الطفولية والكئيبة بعض الشىء التى كانت قد عبّرت عنها لا لأنه يعتقد بأن أكبر قدر من الإتقان فى التزوير يعطى مزيداً من المصداقية لوثيقة ستختفى، كما سبق وأعلن عن ذلك شرعياً، من هذا العالم وستُحَوَّلُ إلى رماد خلال عدة أيام، وتستحوذ الرغبة بنا فى أن نصرخ، كثير من العمل بلا طائل. وُضِعَت الرسالة فى ظرفها، والطابع فى مكانه، ولم يبق على ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلا الخروج من بيته ووضعها فى الصندوق على زاوية الطريق، لما كان اليوم يوم أحد، فإن شاحنة البريد الصغيرة لن تمرّ لسحب البريد، لكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على عجلة من أمره للتخلص من الرسالة بأسرع ما يمكن. فلديه الانطباع بأنها مادامت باقية فى بيته، فالزمن سيبقى ساكناً سكون منصّة مسرح خالية، واستثار صفّ الأشرطة على الأرض فى قرأرته نفاد الصبر العصبىّ نفسه، يرغبُ

فى أن يخلى المكان تماماً، أن يمسح كل الآثار، استكملَ المشهد الأول، وحانت ساعة سحب الديكور من المنصّة، انتهت أفلام دانييل سانتا - كلارا، وانقضى القلق، **هل** يمثل فى هذا الفيلم، إنه لا يمثل فيه، **هل** يحمل الشارب، **هل** يسرح شعره مع فرق فى الوسط، انتهت الصلبان الصغيرة أمام الأسماء، انتهى وجع الرأس. فى اللحظة ذاتها يعود إلى ذاكرته النداءُ الهاتفى الذى قام به لأول مَنْ يحمل اسم سانتا - كلارا فى الدليل وبقى بلا جواب. **هل** أحاولُ من جديد، تساءل. إذا هتف، وإذا أجيبَ، إذا قيل له إن دانييل سانتا - كلارا يسكن بالضبط هنا، فستصيرُ الرسالة التى اقتضت منه الكثير من الجهود الذهنية بلا موضوع، زائدة، يمكنه أن يمزقها ويلقى بها إلى سلة المهملات، بلا فائدة بقدر المسودّات الفاشلة التى رصفت الطريق نحو النصّ النهائى. فهمَ أنه بحاجة لوقفة استراحة، لفاصلٍ من الراحة، ولو لمدة أسبوع أو أسبوعين، الوقت اللازمٍ ليصلَ جوابُ شركة الإنتاج، فترة يتصنّع فيها أنه لم يرَ مطلقاً فيلم **من** يبحث يجد ولا موظف الاستقبال فى الفندق، وهو يعرف تمام المعرفة مع ذلك أن هذا الهدوء الزائف، هذا الاطمئنان الظاهرى كان له حدود، مدّة محدودة وأنه، حين يحين الوقت، سيرتفع الستار حتماً عن المشهد الثانى، لكنه فهم أيضاً أنه إن لم يحاول محاولة أخرى فلن يتخلص أبداً من الفكرة الملحّة بأنه تصرف بجبن فى معركة لم يجرّه إليها أىّ شخص وأنه هو الذى

استثارها بصورة إرادية، أن يُصَمِّمَ على البحث عن رجل يسمى دانييل سانتا - كلارا الذى ما كان ليتخيّل أنَّ أحداً يبحث عنه، ذلك هو الوضع العبثى الذى أوجده ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وضعٌ أكثر انسجاماً مع عقدة رواية بوليسية دون مجرم محدَّد مما هو مبرَّرٌ فى حياة أستاذ تاريخ لا تزال حتى الآن بلا جعجعة. لقد أبرم وظهره إلى الجدار، اتفاقاً مع نفسه، سأهتف مرة أخرى أيضاً، إذا أُجبتُ وإذا قيل لى إنه يسكن هنا، فسأرمى الرسالة وأبقى محترساً، سأرى إن كنت سأتكلم أم لا، ولكن إذا لم أجَب، فسترسَلُ الرسالة إلى المرسل إليه ولن أهتف أبداً، مهما حدث. حلّ محلّ الإحساس بالجوع الذى استشعره من قبل ضربٌ من الخفقان العصبى فى معدته، لكن قراره كان قد اتخذ، ولن يرجع عنه. أدارَ القرص بالرقم، رنّ الهاتف بعيداً، بدأ العرق يتجمّع ببطء على طول وجهه، كان الهاتف يرنّ ويرنّ، وكان من الواضح أنه ليس هناك أحد، لكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يتحدى القدر، ويمنح الخصمَ الحظَّ الأخير بعدم إغلاقه السماعة، حتى اللحظة التى تحوَّل فيها الرنين إلى رنة حادة فى الانتصار وسكت الهاتف من نفسه. حسناً، قال لنفسه بصوت عال، لن يُقال إننى لم أبذل ما بوسعى. شعر بنفسه فجأة هادئاً، كما لم يحدث له ذلك منذ وقت طويل، كانت فترة راحته قد بدأت، بوسعه أن يذهب إلى الحمام ونفسه مطمئنة، ليحلق، ويستحم دون تعجّل، وأن

يلبس بعناية، عادة ما تكون أيام الآحاد حزينة، مضجرة، لكنه على ثقة من أن الناس يستمتعون بأنها موجودة. كان الوقت متأخراً جداً لكى يتناول طعام فطوره، وأبكر من أن يتناول طعام الغذاء، يجب أن يقضى الوقت بطريقة أو بأخرى، بوسعه أن ينزل لشراء الصحيفة ويعود إلى هنا، بوسعه أن يلقى نظرة على الدرس الذى سيعطيه غداً، بوسعه الجلوس وقراءة صفحات من تاريخ حضارات بلاد ما بين النهرين، بوسعه، بوسعه، لَمَعَ بريقٌ حينئذ فى زاوية من ذاكرته، ذكرى حلم الليلة الماضية، الحلم الذى ينقل فيه رجلٌ حجراً على ظهره ويقول أنا عمورى، سيكون مسلياً أن يكون الحجر المذكور هو قانون حمورابى الشهير وليس أى حصاة التقطت من الأرض، يريد المنطق أن يُحلم بالأحلام التاريخية من قبل المؤرخين، ولهذا السبب قاموا بدراساتهم. ليس فى واقعة أن تاريخ حضارات بلاد مابين النهرين قاده إلى تشريع الملك حمورابى ما يفاجئنا، كان ذلك انتقالاً طبيعياً مثلما هو طبيعىٌّ، فتحُ البابِ المؤدّى إلى الغرفة المجاورة، ولكن أن يُذَكِّرَه الحجر على ظهر العمورى بأنه انقضى أسبوع تقريباً دون أن يهتف لوالدته، أمرٌ لا يستطيع أكبر فقهاء تفسير الأحلام أن يكون قادراً على تفسيره لنا، مُسْتبْعِداً بلا ألم ولا شفقة، لأنه سيكون تعسفياً وسيّئ القصد، التفسيرَ شديد السهولة، الذى يعتبر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بموجبه والدَتَهُ، دون الجرأة على الاعتراف بذلك

لنفسه، بوصفها عبئاً ثقيلاً. يا للمرأة المسكينة، هناك شديدة البُعد، محرومة من الأخبار، شديدة الرزانة وشديدة الاحترام لحياة ابنها، هل تتصورون، أستاذ ثانوية، لا تجرؤ أن تهتف له إلا عند الحاجة الملحّة القصوى، قاطعة عملاً يتجاوز فهمها بطريقة ما، لا لأنها لم تتابع التعليم، لا لأنها لم تدرُس التاريخ هى نفسها حين كانت صغيرة، لكن ما حيّرها دوماً هو أن يُمكِنَ تعليمه. حين كانت جالسة على مقاعد المدرسة وتسمع الأستاذ يتكلم عن أحداث الماضى، كان لديها الانطباع أن كلّ ذلك لم يكن إلا خيالات وأنه إذا كانت لدى المعلمة منها، فهى أيضاً تستطيع أن تمتلكها، وكانت تتفاجأ بنفسها أحياناً وهى تتخيل حياتها الخاصة بها، ولم يُغيِّر اكتشافُها بعد ذلك الأحداثَ مرتبة جيداً فى كتاب التاريخ فى شىء انطباعها، فالكتاب المدرسى لم يكن يفعل شيئاً سوى عرض الخيالات مطلقة العنان لمؤلفه وبالتالى لا يجب أن يكون ثمة اختلاف كبير بين هذه الأوهام وتلك التى يمكن قراءتها فى أيةّ رواية. وأمّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو التى يظهر اسمها كارولينا واسم عائلتها ماكسيمو أخيراً هنا، قارئة مواظبة ومتحمسة للرواية. وبهذه الصفة، فهى تعرف كل شىء عن الهواتف التى ترنّ أحياناً على غير انتظار وأخرى ترنّ فى بعض الأحيان عندما ننتظر يائسين أن ترنّ، لم تكن هذه هى الحالة هذه المرة، تساءلت أمّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ببساطة، متى سيهتف لى ابنى إذًا، وهاهو

صوته يدوّى فجأةً فى أذنها، **صباح** الخير سيدتى الوالدة، كيف حالك، **حسناً**، حسناً، كالعادة، وأنت، **أنا** أيضاً، كما هى حالتى دوماً، **هل** كان لديك الكثير من العمل فى ثانويتك، **عمل** عادىّ، أوراق الامتحان، الامتحانات، اجتماعات الأساتذة، **و**الفصول الدراسيّة، متى تنتهى هذه السنة، **خلال** أسبوعين، بعد ذلك لدىّ أسبوع للامتحانات، **إذًا**، خلال أقل من شهر ستكون هنا معى، **سآتى** لرؤيتك، بالطبع، لكنى لن أستطيع البقاء إلا ثلاثة أو أربعة أيام، **لماذا**، **لا** يزال لدى بعض الأمور الصغيرة الواجب حلها هنا، وإجراءات ضرورية، **أى** أمور صغيرة، وأى إجراءات، الثانوية تغلق أبوابها من أجل الإجازة،والإجازة، حسب علمى، وجدت للراحة، **كونى** مطمئنة، سأرتاح، لكن يجب علىّ أولاً حلّ بعض القضايا، **و**هذه القضايا هل هى جدّيّة، **أظنها** كذلك، **لا** أفهم، إذا كانت جدّية، فهى جدّيّة، ليس المقصود أن تظنّ أنها كذلك، **هذه** طريقة فى الكلام، **هل** هى على علاقة بصديقتك ماريا دا باز، **ب**طريقة ما، **يُخيَّل** إلىّ أننى أسمع شخصية كتاب قرأته، توجد امرأة تجيب دوماً عن السؤال بسؤال آخر، **أنتِ**، يا أمى، مَنْ يطرح الأسئلة، أنا سألتك فقط كيف حالك، **لأنك** لا تكلمنى بوضوح وبصراحة، تقول أظنها كذلك، تقول بطريقة ما، لست معتادة على أن تكون غامضاً معى، **لا** تغضبى، **لا** أغضب، لكن يجب أن تفهم أننى أدهش من أنك لا تأتى هنا مباشرة ما إن تبدأ الإجازة، لا أذكر أنّ ذلك حدث أبداً، **فيما**

بعد، سأقصّ عليك كلّ شىء، **هل** ستقوم برحلة، **سؤال** آخر أيضاً، **هل** ستسألنى أنت، نعم أم لا، **لو** أردتُ سؤالك، لكنت قلت ذلك، **لا** أفهم لماذا قلت إن ماريا دا باز على علاقة بهذه القضايا التى تجبرك على البقاء، **ليست** هذه هى الحالة فعلاً، ربما بالغت ولا شك، هل تفكر بالزواج من جديد، **يا** لها من فكرة، يا أمى، **حسناً**، يجب عليك ربما أن تفكر فى ذلك، **الناس** قليلاً ما يتزوجون الآن، لقد لاحظتِ ذلك بالتأكيد فى الروايات التى تقرئينها، **لست** حمقاء وأعرف تماماً فى أىّ عالم أعيش، لكنى أظن أنك لا تملك الحق فى أن تكذب على هذه الفتاة، **لم** أعِدْها أبداً بالزواج ولا اقترحتُ عليها العيشَ معاً، بالنسبة لها، علاقة تدوم منذ ستة أشهر هى كالوعد، إنك لا تعرف النساء، **لا** أعرف اللاتى ينتمين إلى عصركِ، **وتعرفُ** بصورةٍ سيئةٍ اللاتى من عصركَ أنت، **هذا** ممكن، فى الواقع ليست لدىّ تجربة كبيرة مع النساء، تزوجتُ مرة واحدة وطلقت، والباقى لا وزن كبير له، **ألستَ** على وعى بأنكَ **شرّير**، شرّير، يا لها من كلمة ضخمة، **أعرف** أن ذلك يشبه رواية شعبية، لكن هناك ما لا يحصى من أشكال الشرّ، بل إنّ بعضها يحمل قناع اللامبالاة أو البلادة، إذا أردتَ سوف أعطيكَ مثلاً، عدم التقرير فى الوقت المحدد يمكن أن يتحوّل إلى سلاح واع للعدوان الذهنى ضدّ الآخرين، **كنت** أعرف أنك تملكين مواهب عالم نفس، ولكن ليس إلى هذه الدرجة، **أجهل** كلّ شىء عن علم النفس، لم أدرس

منه سطراً واحداً، لكنى أعتقد أننى أعرف بعض الأشياء عن الناس، **سوف** نتكلم عن ذلك حينما سآتى لرؤيتك، **لا** تدعنى أنتظر كثيراً، من الآن فصاعداً لن يكون لى لحظة واحدة من الطمأنينة، **اطمئنى**، أتوسلُ إليك، فى الحياة كل شىء ينتهى إلى الحلّ بطريقة أو بأخرى، **بعض** الأحيان إلى الأسوأ، **لن** تكون هذه هى الحالة، **فلتسمعكَ** السماء، **أقبلكِ**، يا أمى، **وأنا** أيضاً، يا بنىّ، انتبه لنفسك، **سأنتبه**. طرد قلقُ أمّه انطباعَ النعيم الذى كان قد نشّط عقل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد النداء الهاتفى الذى قام به إلى سانتا. كلارا الغائب عن بيته، كان قد ارتكب خطأ لا يغتفر إذ تحدث عن قضايا جدية واجبة الحل بعد نهاية السنة الدراسية. صحيحٌ أن المحادثة انحرفت بعد ذلك إلى علاقته مع ماريا دا باز بل وبدت فى لحظة ما تستقرّ عليها، لكن جملة أمّه، **بعض** الأحيان إلى الأسوأ، حين كان يقولُ من أجل طمأنتها بأنّ كلّ شىء يجد حله فى الحياة، تبدو له الآن تتنبأ بالكوارث، وتتوقع المصائب، كما لو أنّ عرافاً أو كاساندرا انبثق بدلاً من السيّدة المسنّة المدعوة كارولينا ماكسيمو التى كانت أمّه، على الطرف الآخر من الخط ليقول له مع كلمات أخرى، **لا** يزال الوقت مناسباً لتتوقف. فكر لحظة فى أن يسرع إلى سيارته ليقوم برحلة من خمس ساعات تقوده إلى المدينة الصغيرة حيث تسكن أمّه وفى أن يقصّ عليها كلّ شىء لكى يعود بعد ذلك، وقد اغتسلت نفسه من كلّ الوخم المؤذى، إلى عمله كأستاذِ

تاريخ قليل الشغف بالسينما، عازم على طيٍّ الصفحة الغامضة من حياته وحتى، من يدري، على أن يتفكر بصورة شديدة الجدية فى إمكانيّة الزواج من ماريا دا بـــاز. انتهى اللعب، ولم يعد ممكنا تغيير شىء، قال بصوت عال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى لم يكن أبداً قــد وضع قــدمــه فى كــازينو، لكنه كــان يملك لصالحه قراءة عدد من الروايات الشهيرة من حقبة عشرينيات القرن العشرين. دسّ الرسالة الموجهة إلى شركة الإنتاج فى جيب سترته وخرج، سينسى أن يلقى بها فى علبة البريد، وسيتناول طعام الغذاء فى الحى، ثم سيعود إلى بيته لكى يتذوق حتى الثمالة بعد ظهر يوم الأحد هذا.

فى الغداة، قامت أول مهمة لترتوليانو ماكسيمو أفونسو على جمع الأشرطة فى ربطتين سيعيدهما إلى المخزن. ثم جمع الأشرطة الأخرى، وربطها بالخيط وذهب يغلق عليها بالمفتاح فى خزانة غرفة نومه. مزّقَ بصورة منهجية صفحات الورق التى كان قد سجّل عليها أسماء الممثلين، وفعلَ الشّىءَ نفسه بمسودّات الرسالة المنسيّة فى جيب سترته والتى لا يزال يجب أن تنتظر دقائق عدّة قبل أن تقوم بالخطوة الأولى على الدرب الذى سيؤدى بها إلى المرسل إليه وأخيراً، كما لو كان لديه سببٌ لازبٌ يُجبرُه على محو بصماته، نظف بفوطة رطبة الأثاث كله الذى كان قد مسّه فى الأيام الأخيرة فى مكتبه. محا أيضاً دون التفكير فى ذلك البصمات التى تركتها ماريا دا باز. لم تكن الآثار التى أراد إلغاءها لا آثاره ولا آثار ماريا دا باز، بل بالأحرى آثار الحضور الذى كان قد انتزعه بعنف من نومه فى الليلة الأولى. لا فائدة من حمله على ملاحظة أنَّ مثلَ هذا الحضور لم يكن موجوداً إلا فى عقله بسبب قلقٍ وُلِدَ من حلم كان قد نسيه، لا

فائدة من الإيحاء له بأنّ ذلك ربما كان فقط نتيجة فوق طبيعية لهضم سيئ لطاجن لحم، لا فائدة أخيراً من البرهنة له مع أسباب العقل أنه حتى لو كنا على استعداد لقبول احتمال قدرة ما فى التجسد المادّى للذهنى فى العالم الخارجى، فلا يمكننا مطلقاً قبول أن الحضور اللامادى وغير المرئى للصورة السينمائية لموظف الاستقبال فى الفندق قد تركت مبعثرة فى أرجاء الشقة بقايا تعَرُّق الأصابع. فى حالة معارفنا الحالية، الجبلّة الخارجية لا تتعرق. ما إن انتهت هذه العملية، حتى لبس ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ثيابه، وتناول محفظته كأستاذ والربطتيْن وخرج. التقى على السلم جارة الطابق العلوىّ التى سألته إن كان بحاجة لمساعدة، قال لها، لا، يا سيدتى، شكراً جزيلاً، واستخبرَ بدوره عن الطريقة التى قضت بها نهاية الأسبوع وأجابت نُصّ، نُصّ، كالعادة، وأنها كانت قد سمعته يضرب على الآلة الكاتبة، وردّ أن عليه أن يعزم ذات يوم على شراء حاسوب، فهو على الأقل صامت، وأجابت بأن ضجة الآلة الكاتبة لا تزعجها أبداً، على العكس، فإنها تعتبرُ بمثابة رفيق لها. وبما أن اليوم هو يوم التنظيف، فقد سألته إذا كان سيعود إلى بيته قبل الغذاء وأجاب أن لا، سوف يتناول طعام الغذاء فى الثانوية ولن يعود إلا فى ما بعد الظهيرة. وافترقا على قول إلى اللقاء القريب ونزلَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو السلّمَ، وهو على وعى بأنّ الجارة كانت قد لاحظت مُشفِقة طريقته الخرقاء فى حمل محفظة

المدرسة والربطتيْن، وهو يراقب جيداً أين يضع قدميْه كى لا ينزلق ويموت خجلاً، كانت السيارة مركونة فى الجانب المقابل لصندوق البريد، رتَّبَ الربطتيْن فى صندوق السيارة وعاد على آثاره مُخْرِجاً الرسالة من جيبه، ودفعه صبىّ كان يمر راكضاً عن غير قصد فأفلتت الرسالة منه وسقطت على الرصيف، توقف الصبىّ بعد خطوات عدة واعتذر، لكنه ربما لخوفه من أن يُنهَر أو يُعاقب لم يلتقطها ولم يقدمها له، كما كان واجبه، أشار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بإشارة قبول، كما لو أنه كان قد قرّر قبول الاعتذار والصفح عن الباقى، وانحنى ليلتقط الرسالة، قال لنفسه إن بوسعه أن يتراهن مع نفسه، أن يتركها على الأرض ويهجرها إلى أيادى صدفة قدره وقدر الرسالة، يمكن أن يحدث أن يلتقط الشخص القادم المارّ من هنا الرسالة الضائعة، ويلاحظ أنها تحمل طابع البريد وكمواطن صالح يضعها بعناية فى صندوق البريد، يمكن أيضاً أن يحدث أن يفتحها ليرى ما تتضمنه ويرميها بعد أن قراءتها، يمكن أن يحدث ألا يعيرها انتباهاً ماشياً بقدميه فوقها بلا مبالاة وأنْ يسحقها العديد من المارّة خلال بقية النهار، فتصير الرسالة أكثر فأكثر قذرة ومدعوكة، إلى أن يقرّرَ أحدُهم أن يدفع بها بطرف حذائه إلى بالوعة الماء على الرصيف أو أن يكنسها الزبّال، لم تبدأ المراهنة، فقد التقطت الرسالة ووُضِعَت فى صندوق البريد، ها هو دولابُ القدر يبدأ فى الدوران أخيراً. الآن سيذهب ترتوليانو

ماكسيمو أفونسو إلى مخزن أشرطة الفيديو، سيراجع مع العامل الأشرطة فى الربطة، باستثناء الأشرطة المتروكة فى بيته، وسيدفع ما عليه وسيقول لنفسه إنَّهُ ربما لن يضع قدميه أبداً فى هذا المكان. فى نهاية المطاف، ولسعادته الكبرى، لم يكن العامل المتملِّق هناك، كانت الفتاة الجديدة غير المُجرِّبة هى التى اهتمَّت به، وهو السبب الذى تطلبت العمليات من أجله وقتاً أكثر، على الرغم من أنّ السهولة لدى الزبون فى مجال الحساب الذهنى ظهرت فائدتها من جديد حين حان وقت الدفع. سألته العاملة إن كان يريد استئجار أو شراء أشرطة أخرى، أجاب لا، كان قد أنهى عمله، دون أن يتذكر أن الفتاة لم تكن بعد فى المخزن حين قام بخطابه الشهير حول العلامات الأيديولوجية الموجودة فى كلِّ القصص الفيلمية وكذلك، بالطبع، فى مبدعات الفن السابع الكبرى، ولكن خصوصاً فى منتجات الاستهلاك العادية، أفلام المجموعات ب وج، تلك التى لا يجرى الحديث عنها عموماً، لكنها الأكثر فعالية لأنها تأخذ المشاهدين على حين غرة منهم، كان يبدو له أن المخزن أكثر صِغَراً مما كان عليه حين دخله للمرّة الأولى، قبل ما لا يزيد عن أسبوع، أمرٌ لا يُصَدَّقُ حقاً كم تغيّرت حياته فى قليل من الزمن، وكان يشعر بنفسه فى هذه اللحظة كما لو أنه يطفو على ما يشبه حافة كوكب، فى ممرٍّ انتقالٍ بين السماء والجحيم، وتساءل مع بعض الدهشة من أين أتى وإلى أين سيذهب الآن من

حيث إنّ انتقال الروح، إذا ما حكمنا حسب الأفكار الشائعة حول الموضوع، من الجحيم إلى السماء لا يمكن أن يكون مطابقاً لهبوطها من السماء إلى الجحيم. كان قد صار في سيارته في طريقه إلى الثانوية حين حلَّ محلَّ هذه التأملات الأخروية قياسٌ من طبيعة أخرى، مغترفٌ هذه المرّة من التاريخ الطبيعي، قسم علم الحشرات، الذي قادَهُ إلى مقارنة نفسه بخادرة في حالة فتور عميق وفي قلب عملية سرية من التحوّل. ابتسمَ، على الرغم من المزاج الكئيب الذي يسكنه منذ استيقاظه، من المقارنة وقال لنفسه إنه والحالة هذه كان قد دخل أسْرُوعاً في الشرنقة وسيخرج منها فراشة. همس، أنا، فراشة، لم يكن ينقص إلا هذا. رَكَنَ سيّارته بالقرب من الثانوية، ونظر في ساعته، كان لا يزال لديه الوقت ليشرب فنجان قهوة وليلقي نظرة على الصحف، إذا كانت لا تزال هناك صحيفة مُتاحة، كان يعرف أنه أهملَ إعدادَ درسه، لكن تجربته الطويلة ستعوِّض هذا التقصير، كان قد حدث له من قبل أن اضطر للارتجال ولم يلاحظ أحدٌ الفرق. ما لن يفعله بأيّ حال هو أن يدخل القاعة ويطلق عن كثب على الأولاد المساكين، اليوم امتحان شفهي. سيكون ذلك عملاً غادراً، تجاوز سلطة رجل مع سكين يستعملها كما يروق له وينوّع من قطع الجبن التي يوزعها حسب نزوات اللحظة والتفضيلات المعروفة. عندما دخل قاعة الأساتذة، لاحظ أنه لا تزال هناك صحفٌ متاحةٌ

على الرفّ، لكن كان عليه لكى يبلغها أن يمرّ أمام منضدة كان ثلاثة زملاء يتناقشون من حولها أمام فناجين قهوة وأقداح ماء، سيكون من غير اللائق عدم التوقف، لاسيما وأنّ أحدهم كان صديقه أستاذ الرياضيات الذى كان مديناً نحوه بكل تفهمه وبصبره. الآخرون كانوا معلمين مسنّين للأدب وأستاذاً شابّاً للعلوم الطبيعية لم يكن له معه علاقات خاصة. حيّاهم، وسأل إن كان يسعه الانضمام إليهم وسحبَ، دون أن ينتظر الجواب، كرسياً وجلس. كان كلّ شخص غريب على الأعراف المحليّة سيجد أنّ هذه الطريقة تقترب من التربية السيئة، لكن بروتوكول العلاقات فى قاعة الأساتذة كان قائماً على هذا النحو، بطريقة إذا جاز القول طبيعية، لم يكن مُسَجَّلاً كتابة، لكنه يعتمد على أسس وطيدة واتفاقية، لأنه لم يكن ليخطر فى بال شخص أن يجيب سلباً عن السؤال، من الأفضل تلافى جوقة الأجوبة الموافقة، البعض منها صادق، والأخرى أقلّ، واعتبارها مُكتسبة. كانت النقطة الوحيدة الحرجة، القادرة على توليد توترات بين مَنْ كانوا جالسين من قبْلُ والواصل الجديد، تتعلق بإمكانية أن يكون الموضوعُ محلَّ نقاش من طبيعة سرّيّة، لكن هذه المشكلة أيضاً كانت قد حُلَّت باللجوء الضمنى إلى سؤال آخر، بلاغىّ بامتياز، **هل** أقاطعكم، جوابه الوحيد المقبول اجتماعياً، **لا** على الإطلاق، انضمّ إلينا. والقول للواصل الجديد على سبيل المثال، حتى بأكثر الطرق تهذيباً فى العالم،

نعم، إنك تقاطعنا، اذهب إذًا واجلس فى مكان آخر، سيستثير رجّة تجدُ معها شبكة العلاقات المتبادلة للجماعة ذاتها مزعزعة بصورة خطيرة ومطروحة ثانية للبحث. عاد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مع القهوة التى كان ذهب ليأتى بها، وجلس وسأل، ما الأخبار، أتتكلم عن أخبار الخارج أم أخبار الداخل، سأل بدوره أستاذ الرياضيات، مِنَ المبكر جداً معرفة أخبار الداخل، أفكر بأخبار الخارج، لم أقرأ بعد الصحف، حروب الأمس تستمرّ اليوم، صرّح أستاذ الأدب، دون حسبان الاحتمال شديد القوة لا بل اليقين بأن حرباً أخرى هى على وشك الانفجار، أضاف أستاذ العلوم الطبيعية، كما لو أنهم تشاوروا فيما بينهم، وأنت، كيف انقضت إجازة نهاية الأسبوع بالنسبة لك، استفهم أستاذ الرياضيات، بصورة هادئة، فى الهدوء، قضيتُ معظمَ وقتى فى قراءة كتاب أظننى كلمتك عنه، مُؤَلَّفٌ حول حضارات مابين النهرين، الفصل الذى يعالج العموريين مهم، حسناً، أنا، ذهبت إلى السينما مع زوجتى، آه، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يحَوِّلُ نظره، زميلنا هنا ليس محباً للسينما، أسرّ أستاذ الرياضيات إلى الآخرين، لم أؤكد أبداً بصورة قطعية أننى لا أحبّ السينما، قلتُ وأكرر إن السينما لا تؤلف جزءاً من خياراتى الثقافية، أفضِّلُ الكتب، يا عزيزى، من غير المفيد أن تجعل نفسك تفرقع، فالمسألة بلا أهمية، أنتَ تعرف حقَّ المعرفة أننى اقترحت عليك هذا الفيلم مع أفضل

النوايا، ماذا يعنى بالضبط البدء بالفرقعة، سأل أستاذ الأدب بباعث الفضول ولتهدئة الموقف فى آن واحد، جعل المرء نفسه يفرقع، ردّ أستاذ الرياضيات، يعنى أن يسخط الإنسان، أن يغضب، أو، بصورة أدق، أن يغتاظ بلا داع، ولماذا فى رأيك أن يغتاظ بلا داع أدقّ من أن يغضب أو من أن يسخط، سأل أستاذ العلوم الطبيعية، هذا على وجه اليقين تأويل شخصى بالعلاقة مع ذكريات الطفولة، حين كانت أمى تتهرنى أو تعاقبنى لخبثٍ ما، كنت أقاطع، أرفض أن أتكلم، أظلّ فى صمت كلىّ يدوم أحياناً ساعات عدّة، كانت آنئذ تقول بأننى أغتاظ بلا داع، أو أنك تبدأ بالفرقعة، بالضبط، فى بيتى، حين كنتُ فى العمر نفسه، قال أستاذ الأدب، كان المَجَازُ للمقاطعات الصبيانية مختلفاً، مختلفاً فى ماذا، لنقل إنه كان تشريحياً، اشرح لنا هذا، كان يُقال قطّب ولا تبحثوا عن هذا التعبير فى القواميس، فهو غير موجود فيها على وجه الاحتمال، أتصوّر أنه محصور بعائلتى، ضحك الجميع، باستثناء ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى صحّح مع ابتسامة اضطرارية، لا أظنُّ أنه خاصّ حصراً بعائلتك، فى بيتى أيضاً كان يستخدم. كانت هناك ضحكات جديدة، وعاد السلام إلى حاله، نهض أستاذ الأدب وأستاذ العلوم الطبيعية، وقالا إلى اللقاء القريب، كانت قاعتا درسيهما أبعد على وجه الاحتمال، ربما فى الطابق العلوى، ولا يزال لدى الذين بقوا جالسين بعضَ الدقائق ليستكملوا المحادثة،

أتوقعُ من شخص يؤكد أنه قضى يومين فى سكينة قراءة تاريخية، قال أستاذ الرياضيات، كل شىء، باستثناء هذا الوجه المُعَذَّب، إنه انطباع، لا شىء يُعَذبنى، ربما كانت هيئة وجهى السيئة آتية من أننى نمت قليلاً، تستطيع أن تعطينى الأسباب التى تريد، لكن الحقيقة هى أنك لم تعد أنت نفسك منذ أن رأيت هذا الفيلم، ماذا تريد أن تعنى بقولك لم تعُدْ أنتَ نفسك، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بلهجة قلقة بغتة، فقط ما قلته، أننى أجدك قد تغيرت، إننى الشخص نفسه، لا أشك، الحق يقال إننى مهمومٌ بقضية ذات طبيعية عاطفية تعقدت مؤخراً، يمكن أن يحصل هذا لجميع الناس، لكنه لا يعنى أننى تحولتُ إلى شخص آخر، لم أقل هذا، لا أشك مطلقاً أنك تستمر فى تسمية نفسك ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وأنك أستاذ التاريخ فى ثانوية، إذًا لا أفهم لماذا تستمر بالقول إننى لست الشخص نفسه، منذ أن رأيتَ الفيلم، لا نتحدث عن هذا الفيلم، أنت تعرف من قبل رأيى حوله، موافق، إننى الشخص نفسه، بالطبع، يجب عليك أن تتذكر أنه كان عندى انهيار عصبى، أو فترة وهن، كما سميتها أيضاً، بالضبط، وأن ذلك يستحق الاحترام، لكَ كل احترامى، أنتَ تعرف ذلك جيداً، لكننا لا نتحدث عنه، إننى الشخص نفسه، الآن أنت الذى يلحّ، هذا صحيح، قلت لك قبل عدّة أيام إننى أمرّ بفترة توتر نفسى شديد فمن الطبيعى إذًا أن ينعكس ذلك على وجهى وأن يكون لذلك آثار على

مزاجى، بالطبع، لكن ذلك لا يعنى القول إننى تغيرتُ معنوياً وجسدياً إلى درجة التشابه مع شخص آخر، قلتُ ببساطة إنكَ لم تعد أنتَ نفسك، لا أنك تشبه شخصاً آخر، ليس الاختلاف كبيراً جداً، زميلنا أستاذ الأدب يمكن أن يقول إنّه على العكس ضخم وهو كذلك، أعتقد أنه فى مجال الإتقان فى الفروق الدقيقة يشبه الأدب الرياضيات تقريباً، وأنا، يا لى من مسكين، أنتمى إلى ميدان التاريخ حيث الفروق الدقيقة والإتقان لا وجود لها، يمكن أن تتواجد إذا أمكن للتاريخ أن يكون، لنقل، صورة الحياة، إنك تدهشنى، هذا لا يشبهك أن تكون أيضاً بلاغياً بصورة اتفاقية، معك الحق كلياً، لأنه فى هذه الحالة لن يكون التاريخ الحياة، بل مجرّد صورةٍ من صورها الممكنة، المشابهة له، حقاً، لكنها غير المطابقة أبداً. حوّل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مرة أخرى عينيْه ثم، مع جهد مؤلم فى الإرادة، ثبتهما من جديد على زميله، كما لو من أجل سبر ما يمكن أن يخفيه وراء السكون الظاهر لوجهه؛ واجَهَ زميلُ الرياضيات النظرة دون أن يظهر عليه أنه يوليها انتباهاً خاصاً ثم، بابتسامة ملأى بالتعاطف الساخر امتلاؤها بالعناية الصادقة، يقول، ربما سأصمم ذات يوم على أن أرى من جديد الكوميديا المذكورة. ربما سأكتشف فيها ما يبلبلك إلى هذا الحدّ، بافتراض أن يكون هنا مقام أصل الشرّ، ارتعش ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من الرأس إلى القدمين، ولكن على الرغم من

اضطرابه، وهلعه، توصّل إلى إعطاء جواب معقول، **لا** تتعب نفسك، ما يبلبلنى، لكى أستخدم مفرداتك، إنما هى علاقة لا أعرف كيف أتخلص منها، لو أنّكَ وجدتَ نفسك ذات يوم فى وضع مماثل، فلا بدَّ أن تعرف ما يشعر به الإنسان، والآن يجب أن أذهب لإلقاء درسى، إننى متأخر أصلاً، إذا كنت لا ترى مانعاً، وعلى الرغم من أنّ هناك فى تاريخ هذه الدار سابقة مميتة على الأقلّ، سأصحبك حتى منعطف الممرّ، قال أستاذ الرياضيات، لكنى أعد رسميّاً بألا أكرر الحركة الرعناء فى وضع يدى على كتفك، هكذا هو العالم، من الممكن جداً أن يحدث، أن الأمر عندى سيّان فى هذا اليوم، لكن أنا لا أريد أن أعرِّض نفسى للخطر، تبدو لى على هيئة امرئ فى أشد حالات التوتر. ضحك كلاهما، ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بصورة صفراء قليلاً لأنه كان لا يزال يسمع فى أذنيه الكلمات التى استثارت ذعرَه، أسوأ وعيدٍ يمكن لشخص أن يوجّهه له هذه الأيام، بدَّدَ وصول أستاذ التاريخ الوهم الفاتن الذى أثاره تأخره لدى هؤلاء التلاميذ، وهمَ أنّه لن يلقى درسه اليوم. حتى قبل أن يجلس، أعلن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه سيكون هناك خلال ثلاثة أيام، أى الخميس القادم، امتحان كتابى جديد وأخير، وحدّدَ، اعلموا أنه سيكون حاسماً من أجل الحساب النهائى لدرجاتكم، لأننى لا أنوى تنظيم امتحان شفهى خلال الأسبوعيّن الأخيريّن قبل نهاية السنة الدراسية، بالإضافة إلى ذلك، سنخصص

هذا الدرس حصراً والدرسيّن القادميّن لمراجعة البرنامج لكى تتمكنوا من تقديم أنفسكم يوم الامتحان مع أفكار مجدّدة. استقبلَ هذا التمهيد بصورة حسنة من قبل القسم الأكثر إنصافاً من الفصل، والحمد لله، كان من الواضح أن ترتوليانو لم يكن ينوى أن يكون أكثر عنفاً مما كان ضرورياً. من الآن فصاعداً سيتركز كلّ انتباه التلاميذ على التفخيم الذى كان الأستاذ يعالج معه كلّ مادة من موادّ الدروس وبالتالى إذا كان منطق الأثقال والأوزان هو حقاً شيئًا إنسانيًا، وإذا كان القدر مؤاتياً لواحد من الكميّات المتغيّرة، فإن تنوعات الحدّة فى طريقة الإعلام يمكنها تماماً أن تعلنَ، دون أن ينتبه الأستاذ إلى الكشف اللاواعى، خيارَ موضوعات الامتحان. إذا كان صحيحاً أن أىّ كائن إنسانى، بما فى ذلك أولئك الذين بلغوا السنّ المسمّى الهرم، لا يمكنه البقاء دون وَهْم، هذا المرض النفسى الذى لا غنى عنه لحياة عادية، فما الذى يقال عن هاتيك الفتيات وهؤلاء الصبيان الذين، بعدَ أن فقدوا وَهْم أنه ليس عندهم درس ذلك اليوم، يتهدهدون الآن بوَهْم آخر أكثر إشكالية، وهم أن امتحان الخميس يمكنُ أن يكون لكلّ واحد، وبالتالى للجميع، الجسرَ الذهبى الذى سيمرّون عليه منتصرين إلى السنة الأعلى، كان الدرس على وشك الانتهاء حين قرع موظف الباب ودخل، قائلاً للسيّد الأستاذ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إن السيّد المدير يطلب إليه التفضل بالمرور إلى مكتبه ما إن ينتهى، استكمل الدرس الذى

كان يتناول موضوعاً ما فى أقلّ من دقيقتيْن وبلا عناء إلى درجة أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو رأى حسناً القول، **لا** تتشغلوا كثيراً بهذه المسألة، فلن تظهرَ فى الامتحان، تبادل التلاميذ نظرات متواطئة، كان من السهل الاستنتاج منها أنّ أفكارهم حول ثقل التفخيم تأكدت لتوّها فى حالة كانت فيها اللهجة الهازئة التى كانت هذه الكلمات قد نطقت بها تنطوى على أكثر من معناها. نادراً ما انتهى درس فى مثل هذا الجوِّ من الوفاقْ.

وضع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أوراقه فى محفظته وخرج، كانت الممرات تمتلئ بسرعة بالتلاميذ الذين كانوا يندفعون من كل الأبواب وهم يتحدثون عن موضوعات لم تكن لها علاقة مع الموضوعات التى كانت تُعَلَّمُ قبل دقائق عدّة. هنا وهناك كان أستاذ يحاول المرور متوارياً فى بحر الرءوس الهائج الذى كان يحاصره من كل الجهات، كان ينسلّ، متلافياً ما بوسعه صخور البحر التى كانت تنتصب أمامه، نحو قاعة الأساتذة، ملاذه الطبيعى. قطع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كتلة المبنى حيث يوجد مكتب المدير، وتوقف ليسمع أستاذة الأدب التى كانت تقطع عليه الطريق، **يــ**نقصنا قاموس جيد فى التعبيرات الاصطلاحية، قالت وهى تجذبه من كمِّ سترته، **كـلٌّ** القواميس العامة تتضمن عدداً منها، ردّ عليها، **نـ**عم، ولكن ليس بطريقة منتظمة وتحليلية، ولا مع الطموح فى استنفاد الموضوع، مثلاً لا يكفى أن يوضع تعبير

اغتاظ بلا داع وشرحه، يجبُ المضىُّ إلى ما هو أبعد من ذلك، التعرّف فى مختلف العناصر المقوّمة للتعبير على القياسات، المباشرة وغير المباشرة، مع الحالة العقلية التى يهتمّ التعبير بتمثيلها، معك الحق تماماً، ردّ أستاذ التاريخ بصورة ودية أكثر منه بسبب اهتمامه بالموضوع، والآن تفضلى بعذرى، يجب علىّ الذهاب، فالمدير أرسل مَنْ ينادينى إليه، اذهب، اذهب، فحمّلُ الإله على الانتظار هو أسوأ الخطايا. بعد ثلاث دقائق، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يطرق على باب المكتب، دخل حين أضاء الضوء الأخضر، سلّم وسُلِّمَ عليه، وبإشارة من المدير جلس وانتظر، لم يشعر بأى حضور غريب، أو كوكبىّ أو آخر، وضع المدير الأوراق جانباً على المنضدة وقال بابتسامة، فكرتُ كثيراً بمحادثتنا الأخيرة، تلك التى تناولت تعليم التاريخ، وتوصلت إلى نتيجة، أىّ نتيجة، سيدى المدير، سوف أطلب إليك أن تقوم لنا بعمل خلال الإجازة، أىّ عمل، تستطيع بالطبع إجابتى إن الإجازة مصنوعة للراحة وأنه من غير المعقول الطلب إلى أستاذ أن يستمر فى الاهتمام بمشكلات مدرسية ما إن تنتهى الدروس، سيدى المدير، تعلم تماماً أننى لن أقول ذلك بهذه المفردات، ستقوله لى بمفردات أخرى تحمل المعنى نفسه، نعم، ولكن بانتظار ذلك لم أقل كلمة واحدة، لا هاتيك ولا سواها، حتى أننى سأطلب منك أن تعرض علىّ فكرتك حتى النهاية، فكرتُ أن بوسعنا أن نحاول إقناع الوزارة، لا بقلب البرنامج رأساً على عقب،

سيكون ذلك مبالغة، فالوزارة لا تملك وجداناً ثورياً، بل أن تدرس، وأن تنظم، وأن تطلق تجربة صغيرة، تجربة رائدة محدودة، من أجل أن تبدأ، بمنشأة واحدة وبعدد محدود من التلاميذ، ويُفضَّلُ أن يكونوا متطوعين، حيث تعلم المواد التاريخية انطلاقاً من الحاضر نحو الماضى بدلاً من أن تكون من الماضى نحو الحاضر، بإيجاز الأطروحة التى توصى بها منذ زمن طويل والتى اقتنعتُ منك بشرعيتها، وهذا العمل الذى تودّ تكليفى به، على ماذا يقوم بالضبط، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، على إعداد اقتراح مُسَبَّب بصورة قويّة سوف يتم إرساله إلى الوزارة، أنا، ياً سيدى المدير، ليس من أجل إطرائك، ولكن حقاً لا أرى شخصاً فى ثانويتنا أكثر كفاءة منك لعمله، لقد برهنتَ أنك فكرتَ كثيراً حول هذا الموضوع، وتملك حوله أفكاراً دقيقة وسأكون سعيداً جداً أن تقبل هذه المهمّة، أقول ذلك بكلّ صدق ولم أعد بحاجة لأن أحدّد إنّ هذا العمل سيكون مأجوراً، سنعثر حتماً فى ميزانيتنا على بعض الأموال لهذا الغرض، أشكّ فى أنّ أفكارى، سواء كيفياً أو كميّاً، لأنك تعلم أن الكمية مهمة أيضاً، تكفى لإقناع هؤلاء السادة فى الوزارة، أنت تعرفهم أفضل منى، للأسف نعم، لا أعرفهم إلا كثيراً، إذًا، إذًا، اسمح لى أن ألحّ، أعتقد أنها ستكون الفرصة التى نحلم بها فى أن نظهر بوصفنا منشأة قادرة على إنتاج الأفكار المجددة، وحتى لو لم يهتموا بنا، ليس من المستبعد أن يفعلوا ذلك، سوف

يحـتـفـظون به ربمـا فى مـحـفـوظاتهم دون أى إجـراء يتخذونه، لكنه سيبقى فى الملفات وفى يوم ما يتذكره أحدهم، وسننتظر هذا اليوم، **فى** فترة ثانية، نستطيع أن نطلب من منشـآت أخـرى المشـاركـة فى المشـروع، فننظم المسـاجـلات، والمحـاضـرات، ونزجّ بوسـائل الإعلام فى الموضوع، **حـتى** اليوم الذى يرسل لك فيه مدير مكتب الوزير رسالة يطلب فيها منك أن تحملنا علـى السـكوت، **ألاحظ** بأسف أن اقـتـراحى لا يثـير حماسك إلا قليلاً، **أعترف** أن هناك القليل من الأشياء التى تحمّسنى فى العالم، يا سيدى المدير، لكن ليست هذه هى المشكلة فعلاً، إنها بالأحرى عدم معرفة ما تخبئه لى الإجازة المقبلة، **لا** أفهم، **سـيتوجب** علىّ أن أواجه عدّة مسـائل مـهـمة برزت مـؤخـراً فى حـياتى وأخشى ألا يكون لدى الكثيـر من الوقت ولا أن أكـون فى الحـالة الذهنيـة الضـرورية لعـمل يتطلبُ منى حـضـوراً كامـلاً، إذا كان الأمـر كذلك، فسنعـتبـر أن القضية منتهية، **دعنى** أفكر قليـلاً وقتاً أكثر، سيدى المدير، امنحنى عدّة أيام، وأتعهد أن أعطيك جواباً من الآن وحتى نهاية الأسبوع، **هـل** أجـرؤ على أن آمل أن يكون إيجابياً، **ربما**، سيدى المدير، لكنى لا أستطيع أن أؤكـد لك، **أجدك** مهموماً كثيراً، آمل أن تنجح فى حلّ مشكلاتك على أفضل نحو، آمل ذلك أيضاً، **كـيف** تم درسُكَ، **بـ**أفضل حـال، التلامذة يعـملون، **رائـع**، **الخميس** سيكون يوم امتحان كتابى، والجمعة تعطينى جوابك، **نـعم**، **فـكر** جيداً، سأفعل ذلك، **أتصوّر** أنه لا

حاجة بى لأن أقول لك بمن أفكر لكى يقود التجربة الرائدة، **شكراً**، سيدى المدير. نزل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى قاعة الأساتذة، كان يريد أن يقرأ فيها الصحف بانتظار الذهاب إلى الغذاء، لكنه كان يفطِنُ، بقدر ما كانت الساعة تقترب، إلى أنه لن يتحمّل أن يكون فى صحبة أحد، وأنه لا يريد محادثة أخرى كمحادثة الصباح، حتى ولو لم تكن تعنيه مباشرة، حتى ولو كانت تتناول كليّة تعبيرات اصطلاحية بريئة من مثل أخذ الذبابة (اغتاظ بلا داع)، هرس الأسوَد (يتكلم بلا طائل)، أو أعطى لسانه للقطة (أقرّ بعجزه). قبل أن يقرع الجرس، خرج وذهب يتناول طعام الغذاء فى مطعم ما، عاد إلى الثانوية من أجل درسه الثانى، لم يتحدث إلى إنسان وقبل نهاية ما بعد الظهر كان قد عاد إلى بيته. تمدّد على الكنبة، أغلق عينيّه، حاول أن يمحو من رأسه كل شىء، وأن ينام إن استطاع، لكن حتى الجهد الذهنى الضخم الذى بذله فيما بعد ليركز أفكاره على طلب المدير لم يتوصل إلى طرد الظلّ الذى سيكون مرغماً على العيْش معه حتى وصول الردّ على الرسالة الموقعة باسم ماريا دا باز.

انتظر أسبوعين تقريباً. خلال ذلك أعطى دروسه، وهتف مرتيْن إلى أمّه، وأعدّ أسئلة الامتحان الكتابى ليوم الخميس وبدأ فى إعداد أسئلة الامتحان المخصص لتلاميذ درسه الآخر، وفى يوم الجمعة أعلم المدير أنه يقبل اقتراحه الودّى، وفى إجازة نهاية الأسبوع لم يخرج من بيته، هتف إلى ماريا دا باز

ليسألها عن أخبارها وليعلم إن كانت قد تلقت جواباً، تحدث إلى زميله أستاذ الرياضيات الذى هتف له ليسأله إذا كانت لديه مشكلات، أنهى قراءة الفصل المخصص للعموريين وانتقل إلى الآشوريين، شاهد فيلماً تسجيلياً عن الثلج فى أوروبا وآخر حول الأجداد البعيدين للإنسان، قال لنفسه إن هذه اللحظة من حياته يمكن أن تكتبَ رواية، لكنه سيكون جهداً ضائعاً لأن أحداً لن يصدق قصة مماثلة، هتف من جديد إلى ماريا دا باز، لكن بصوت منطفئ إلى درجة أنه أقلقها وأنها سألته إن كانت تستطيع أن تساعده أية مساعدة، قال لها أن تأتى فأتت، ذهبا إلى السرير ثم خرجا يتعشيان وفى الغد هتفت له بدورها لتقول له إن جواب شركة الإنتاج قد وصل، **أهتف لك من** المصرف، إذا أردت تعال إلى هنا، أو سأحملها لك فيما بعد، حين سأخرج، توصّل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يرتعش داخلياً، مهزوزاً من الانفعال، إلى أن يكبتَ فى آخر لحظة سؤالاً لم يكن عليه فى أى حال من الأحوال أن يطرحه، **هل** فتحتها، وهذا ما أدّى به إلى تأخير جوابه القاطع ثانيتيْن مُبَدِّداً كلّ شك محتمل حول مسألة معرفة ما إذا كان على استعداد أم لا ليتقاسم معها مغزى الرسالة، **سأمرّ** لرؤيتك. إذا كانت ماريا دا باز قد تصورت مشهداً منزلياً مؤثراً ترى نفسها فيه مُستمِعَة إلى قراءة الرسالة وهى تشرب بجرعات صغيرة الشاى الذى أعدّته هى نفسها فى مطبخ الرجل المحبوب، فبوسعها

أن تحلم على الدوام، إننا نراها فى الوقت الحاضر، جالسة على منضدتها الصغيرة كمستخدمة فى المصرف، لا تزال يدها على الهاتف الذى أتت على إغلاقه، وظرف مستطيل الشكل أمامها مع الرسالة، فى داخله، التى لا تسمح لها أمانتها بقراءتها لأنها ليست موجهة إليها، على الرغم من أن اسمها مسجلٌ على العنوان، لم تمض ساعة حتى دخل ترتوليانو ماكسيمو آفونسو بتسرع إلى المصرف وطلبَ أن يتكلم إلى المستخدمة ماريا دا باز. هنا، لا أحدَ يعرفه، لا أحدَ يرتاب فى أن مشكلة عاطفية وأسراراً غامضة تربطه مع المرأة الشابة التى تقترب من الشباك، لمحته من قاع القاعة الكبرى حيث يتواجد مركزها كعاملة أرقام، وهو ما يفسّر وجود الرسالة بيدها، خذ، ها هى، قالت، لم يتبادلا التحية، لم يقل أحدهما إلى الآخر صباح الخير، لم يسأل كيف حالك، لاشىء من ذلك، كانت هناك رسالة للتسليم وقد سلمت الرسالة، يقول، إلى اللقاء القريب، سأهتف لك فيما بعد، وهى، بعد أن قامت بدورها فى عمليات التوزيع البريدى المدنى، تعود إلى مكانها، غير مبالية بالانتباه المرتاب لزميل أكبر سناً كان قد حام من حولها دون نجاح قبل فترة من الزمن والذى لم يكفّ، على الرغم من ذلك، عن مراقبتها باستمرار. فى الطريق، مشى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بخطى حثيثة، كان يركض تقريباً، ترك سيارته فى محطة سيارات تحت الأرض على مسافة تبعد مبان عدّة، لم يضع الرسالة فى

محفظته، ولكن فى جيب سترته الداخلى، خوفاً من أن تُسرَقَ محفظته من قبل مواطن سيئ ما، كما كان يُسَمَّى قديماً المشاغبون الناشئون فى فُجورِ الطرقات، ثم الفطِنون، ثم المتمردون بلا قضية واليوم الجانحون، دون تلميحات ولا مجازات، يقول لنفسه إنه لن يفتح الرسالة مادام لم يعد إلى بيته، وأنه مسنٌّ بما فيه الكفاية لكى لا يسلك سلوك المراهق نافد الصبر، لكنه فى الوقت نفسه يعلم أن هدفه كراشدٍ سيتبخر ما إن يصير جالساً فى سيارته، فى شبه عتمة المحطة، يحميه الباب المغلق من فضول العالم المرضى. قضى وقتاً طويلاً قبل أن يعثر على المكان الذى كان قد ترك فيه سيارته، وهو ما فاقم حالة قلقهِ العصبى وكانت حالة الرجل المسكين، إذا تفضلتم بعُذرنا على المقارنة، ككلب مهجور فى وسط الصحراء، ناظراً إلى كلّ الجهات كالضائع، دون أقلّ رائحة معروفة كفيلة بهدايته إلى بيته، **هذا** هو الطابق، إننى أكيد، لكن فى الواقع لم يكن هو، انتهى بإخراج سيارته، ثلاث مرات تواجد على نصف دزينة من الخطوات منها ولم يلمحها، دخلها متسرّعاً، كما لو أنّ أحداً يلاحقه، أغلق الباب وأقفله، أضاء المصباح فى سقفها. هاهو الظرف أخيراً بين يديه، حانت اللحظة لمعرفة ما تنطوى عليه، مثله مثلَ قائد سفينة وهو يبلغ النقطة التى تتصالب فيها الإحداثيات الجغرافية يفتح الرسالة المختومة لكى يعلمَ أى طريق سيجب عليه من الآن فصاعداً سلوكه، خرجت من الظرف صورة

وصفحة ورقية، الصورة صورة ترتوليانو ماكسيمو آفونسو، لكنها تحمل توقيع دانييل سانتا ـ كلارا تحت كلمات مع عميق المودّة. أما بالنسبة إلى صفحة الورق، فهى تخصّص لا أن دانييل سانتا ـ كلارا هو الاسم الفنىّ للمثل أنطونيو كلارو فحسب، بل وتعطى إضافة إلى ذلك وبصفة استثنائية عنوان مسكنه الخاص، نظراً للاعتبار الخاص الممنوح لرسالتكم، قيل فيها، تذكر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو المفردات التى حررها بها وهنأ نفسه على فكرته اللامعة لأنه تحدّث عن نيّته الشروع فى دراسة حول أهمية الممثلين الثانويين، لقد جربتُ حظى وسارَ الأمرُ على ما يرام، همس وهو يفطن دون أن يتفاجأ إلى أنّ عقله قد استعاد هدوءه السابق، وأن جسده كان منبسطاً، ولا وجود لأىّ أثر من العصبية، ولا أىّ علامة قلق، لقد انضمّ الرافدُ المُنْصَبُّ إلى النهر الذى زاد ت كميته، يعرف ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من الآن فصاعداً أى طريق يسلكه، أخرَجَ من جيب باب السيارة مخطط المدينة وبحث عن الشارع الذى يسكن فيه دانييل سانتا ـ كلارا. إنه يقع فى حىٍّ لا يعرفه، على كل حال إنه لا يتذكر أنه مرّ ذات يوم منه، وفوق كل ذلك فإنه بعيد جداً عن وسط المدينة، كما أتى على ملاحظة ذلك على المخطط المطوى على المقود. لا يهمّ، فلديه الوقت، لديه وقت العالم كله، خرج يدفع أجرة الوقوف، أطفأ ضوء مصباح سقف السيارة وانطلق. غايته، كما نحزرها بسهولة، هى الشارعُ حيث

يسكن الممثل، إنه يريد أن يرى المبنى، ينظر من الأسفل إلى الشقة حيث يسكن، النوافذ، نوع الناس الذين يعيشون فى الحىّ، الجوّ، الأسلوب، سلوك السكان، المرور كثيف، والسيارات تتقدم ببطء مغيظ، لكن صبرَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يعيل، فليس هناك أى خطر فى أن يغيِّرَ الطريقُ الذى يتجه نحوه مكانه، إنه سجينٌ شبكة الطرق التى تحصر المدينة من كل الجهات، كما يوضح المخطط ذلك بجلاء، حدث ذلك أثناء الانتظار عند الضوء الأحمر، وبينما كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يُصَاحِبُ بنقرات إيقاعية بالأصابع على المِقوَد أغنية بلا كلمات، دخلَ السيارة الحسُّ المشترك، نهارك طيب، قال، لم أناديك، أجاب السائق، فى الواقع، لا أذكر أنك قد رجوتنى أن آتى فى السابق، كنتُ سأفعلُ لو كنتُ لا أعرفُ مسبقاً خطاباتك، مثل اليوم، نعم، سوف تقول لى أن أفكر جيداً، الا أحشر نفسى فى هذه القضية، أن ذلك رعونة مجنونة، أنه لا شىء يضمن لى أن الشيطان لا ينتظر أصلاً وراء الباب، بإيجاز، الكلام المعسول المعتاد، حسناً، هذه المرّة أنتَ مخطئ، إنَّ ما سوف تفعله ليس رعونة، إنه غباء، غباء، نعم، سيدى، غباء بصورة رهيبة، لا أرى فى ماذا، هذا طبيعى، أحد الأشكال الثانوية من ضلال العقل هو بالضبط الغباء، اشرح لنا هذا، لا حاجة بك إلى أن تقول لى إنك تتجه نحو الشارع حيث يسكن صديقك دانييل سانتا ـ كلارا، أمر عجيب، كان وراء الأكمة ما وراءها ولم

تدرك مـــاذا هناك، أية أكمـة، أى وراء، دع الأحـاجى وتعـال إلى الوقـائع، هـــذا أمـر بسـيط جـداً، الاسم المسـتـعـار سـانتـا ـ كـلارا أخِذَ من اسم العـائلة كـلارو، هــذا ليس اسمـاً مستعاراً، بل اسم فنان، الآخـر كذلك لم يكن يريد السـوقـيـة الغـوغـائـيـة المُتـمَثلة فى الاسم المستعار وسمّاه باسم مغاير، وماذا كان سيفيدنى أنْ أرى ما وراء الأكمة، لا شىء كبير الأهمية، أوافق على ذلك، سوى أنه كان عليك أن تبحث، ولو أنك بحثتَ عن كــلارو فى الدليل لانتــهـيت إلى أن تقع عليــه بالضبط، لدىّ أصلاً ما يهمّنى، وفى الوقت الحاضر ستذهب إلى الشارع حيث يسكن لرؤية المبنى، والنظر من أســفل إلى الشــقــة التى يسكن، النوافــذ، نـوع الأشخاص الذين يعيشون فى الحىّ، الجوّ، الأسلوب، سلوك النـاس، تلك كـــانت كلمـــاتك أنت، إن لم أكن مـخطئاً، نــعـم، تــخيّل الآن أنك حين ستنظر إلى النوافذ فستظهرُ امرأة المُمَثل على واحدة منها، أو للتحدث باحترام أكثر، زوجة هذا الأنطونيو كلارو، وتطلبُ منكَ لماذا لا تصعد، أو، ما هو أسوأ أيضاً، أن تنتهز الفرصة لترجوك الذهابَ إلى الصيدلية لتشترى لها علبة أسبرين أو شراباً ضدّ السعال، هـذا عـبث، إذا بدا ذلك عـبـثـيـاً، تصـور الآن أن أحــدهم يمــرّ ويُحييكَ، لا بوصفك ترتوليانو ماكسيمو الذى هو أنت، ولكن بوصـفك أنطونيـو كـلارو الذى لـن تصـيـره أبداً، عـــبثٌ آخـر أيضـاً، إذا، إذا كـانت هذه الفـرضـيـة هـى الأخرى عبثية أيضـاً، فتخيّل أنكَ حين تصير على

الرصيف فى طريقك لرؤية النوافذ أو دراسة أسلوب السكان، يظهر دانييل سانتا ـ كلارا أمامك بلحمه وعظمه وأنكما ستبقيان ينظر أحدكما إلى الآخر ككلبين من الخزف، كلٌّ منكما انعكاسُ الآخر، لكنه انعكاسٌ مختلف لأن هذا الانعكاس، على عكس المرآة، سيبيّن اليسارَ حيث يوجدُ اليسار واليمينَ حيث يوجد اليمين، حسناً، كيف ستستجيب إذا حدث هذا، لم يردّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على الفور، بقى صامتاً دقيقتيْن أو ثلاث دقائق، ثم قال، سيكون الحلّ عدم الخروج من السيارة، لا يهم، لو كنت مكانك لما اطمأننت إلى ذلك، أجاب الحسّ المشترك، ربما توجَّبَ عليك أن تتوقف عند ضوء أحمر، وربما يكون هناك زحام، أو شاحنة صغيرة ستفرغ حمولتها، أو سيارة إسعاف ستحمِّل، أنتَ ستكون هنا، معرَّضاً لأنظار الجميع، كسمكة فى مَرْبَى الأحياء المائية، تحت رحمة أنْ تسألكَ المراهقة هاوية السينما والمقيمة الفضولية فى الطابق الأول من المبنى الذى تسكن فيه مافيلمك القادم، ما الذى سأفعله حينئذ، لا أعرف شيئاً من ذلكَ، ليس هذا من اختصاصى، دوْرُ الحسّ المشترك فى تاريخ أمثالك لم يذهب أبداً إلى ما وراء نصائح الحذر وتوصيات تتعلق بشرب مَغلى الفراخ، ولاسيّما حين يكون الغباء قد أخذ الكلمة وهدَّدَ بالسيطرة على أركان السلطة، الحلّ سيكون فى أن أتقنّع، بماذا، لا أدرى، يجب أن أفكر، فى الظاهر، لكى تكون ما أنتَ عليه، فإن الإمكانية الوحيدة التى بقيت لك هى فى أن

تكون لك ملامح آخر، يجب أن أفكر، نعم، آن الأوان، فـي هذه الحالة، الأفضل هو أن أعود إلى بيتى، إذا كان هذا لا يزعجك، قدنى حتى الباب، بعد ذلك أتدبر أمرى، ألا تريد الصعود، حتى اليوم لم يسبق أن دعوتنى أبداً، إننى أدعوك الآن، شكراً، لكن لا يمكننى القبول، لماذا، لأنه ليس سليماً جداً أن يكون العقل كمؤخرتين في سروال واحد مع الحسّ المشترك، أنْ يأكل معه على المائدة ذاتها، أن ينام فى السرير نفسه، أن يصحبه معه إلى العمل، أن يطلب إليه مصادقته أو رضاه قبل أن يفعل أى شىء، يجب أن تخاطروا كلٌّ شخص لصالحه، عمّن تريد الكلام، عنكم جميعاً، الجنس البشرى، لقد خاطرتُ لكىْ أحصلَ على هذه الرسالة وهأنتَ تؤاخذنى على ذلك، الطريقة التى حصلتَ بها عليها لا تنطوى على ما يجعلك فخوراً، المراهنة كما فعلت على إخلاص شخص ما هو نوع من الابتزاز مقرفٌ جداً، تريد الكلام عنْ ماريا دا باز، نعم، أتكلم عن ماريا دا باز، فأنا لو كنتُ مكانها، لكنتُ فتحت الرسالة، كنتُ قرأتها وكنت استخدمتها لأصفعكَ على الوجه حتى تطلب منى الغفران راكعاً، أهكذا يتصرف الحسّ المشترك، هكذا يجب أن يتصرّف، وداعاً، إلى مرّة أخرى، سوف أفكر بتنكرى، بقدر ما تتنكر، بقدر ما ستشبه نفسك. عثر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على مكان خالٍ شديد القرب من باب عمارته، ركنَ سيارته، تناولَ المخطط وقائمة الشوارع وخرج، رجلٌ كان يرفعُ وجهَهُ يقفُ على

الرصيف المقابل وينظر إلى المبانى الكبرى المُواجهة. لم يكن هناك أىّ تشابهٍ فى الوجه أو فى القامة، كان حضوره هناك صدفة محضة، لكن رعدة اخترقت العمود الفقرى لترتوليانو ماكسيمو أفونسو حين قال لنفسه، إذ لم يكن يستطيع تلافى ذلك، فخياله المرضى كان أقوى منه، إن دانييل سانتا ـ كلارا ربما انطلق بحثاً عنه، أبحثُ عنك، تبحثُ عنى، سارع فى طرد هذا الهذيان المقلق من عقله، إننى فى طريقى إلى رؤية الأشباح، هذا الشخص لا يعرف حتى بوجودى، ومع ذلك كانت ركبتاه لا تزالان ترتعدان حين دخل بيته واستسلم للسقوط، منهكاً، على الأريكة. بقى سابحاً فى ضرب من الخمول خلال دقائق عدّة، غائباً عن نفسه مثل عدّاء استنفدت قوته فجأة فى اللحظة ذاتها التى كان يعبر فيها خطّ الوصول، ولم يبق من الطاقة الهادئة التى كانت تحركه حين غادر المحطة وفيما بعد حين كان يقود سيارته نحو مقصد كان فى نهاية المطاف مصدر قنوط، سوى الذكرى الغامضة لشىء ما لم يُعَش فعلاً حقيقة أو أنه عيش من قبل الجزء من نفسه الغائب حالياً، نهض بصورة مؤلمة، كانت ساقاه تبدوان له غريبة عنه، كما لو كانتا تنتميان إلى شخص آخر، وذهب إلى المطبخ ليعدّ لنفسه فنجاناً من القهوة. شربها ببطء، بجرعات صغيرة، متذوقاً الحرارة المُواسيَة التى كانت تهبطُ الطريقَ من حلقه إلى معدته، ثم غسلَ الفنجانَ وطبقه وعاد إلى القاعة. كانت هذه الحركات رصينة كلها،

بطيئة، كما لو كان يستعمل عناصرَ خطيرة فى معمل كيميائى، ومع ذلك فكلّ ما كان يجب عليه أن يفعله كان أن يفتح الدليل على حرف ك ليؤكد المعلومات الموجودة فى الرسالة. وبعد ذلك، ماذا سأفعل، تساءل وهو يقلب الصفحات. كان هناك العديد ممن يحملون اسم كلارو، ولكن لا أكثر من نصف دزينة ممن يحملون اسم أنطونيو، كان قد عثر أخيراً على ما سبب له الكثير من العذاب والذى كان شديد البساطة، بمتناول أىّ شخص، اسمٌ، وعنوانٌ، ورقمُ هاتف، نسَخَ هذه المعلومات على قصاصة من الورق وكرَّرَ سؤاله، والآن، ماذا أفعل، مدّ ذراعه اليمنى بحركة آليّة نحو سمّاعة الهاتف، وضعها فوقها وتركها هناك بينما كان يقرأ ويعيد قراءة ما كان قد سجَّله ثم سحَبَها، نهض وقام بدورة فى الشقة، متناقشاً مع نفسه وقائلاً لها إن من الحكمة أن يستعيد هذه القضية بعد الامتحانات، فذلك ينزع عنه الهمّ، من المؤسف أنه وعد مدير الثانوية أن يحرِّرَ مشروع الاقتراح حول تعليم التاريخ، ولم يكن يستطيع العودة عن هذا الالتزام، ذات صباح سيجب علىّ أن أرتبط بهذا العمل الذى لن يبالى به أحد، لقد ارتكبتُ حماقة كبيرة بقبولى هذه المهمّة، لم يكن ضرورياً على كلّ حال أن يتصنَّع خداعَ نفسه بنفسه، أن يتظاهرَ بتأجيل أول خطوة على الطريق التى ستقوده إلى أنطونيو كلارو مادام دانييل سانتا. كلارا لا يوجد بالمعنى الحقيقى للكلمة، إنه ظلٌّ، دمية متحركة، شبح متغيِّرٌ

يتحرك ويتكلم داخل شريط فيديو ويعود إلى الصمت وإلى السكون حين ينتهى الدور الذى أنيط به، فى حين أنّ الآخرَ، هذا الأنطونيو كلارو، من ناحيته، حقيقىّ، ملموسٌ، صلبٌ صلابة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أستاذ التاريخ الذى يعيش فى هذه الشقة والذى يوجد اسمه فى الحرف أ من دليل الهاتف، على الرغم من أنّه لا أحد يؤكد أن أفونسو ليس اسم عائلة بل اسماً أول. وهاهو ذا يجلس وراء مكتبه، أمامه الورقة مع الملاحظات التى دوّنها، ومن جديد يدُه موضوعة على السمّاعة، ويخامرنا الانطباع بأنه عزمَ أخيراً على أن يهتف، ولكن بما أن هذا الرجل بطىءٌ فى التقرير، بما أنه متردّدٌ، مذبذبٌ، فمن يمكنه أن يفكر أنه هو الشخص نفسه الذى انتزع الرسالة، قبل ساعات عدة فقط، من يد ماريا دا باز. فجأة، دون تفكير، وهىَ الطريقة الوحيدة للتغلب على جُبْن يشلّ، أدار قرصَ الهاتف بالرقم، سمع الجرس يرنّ مرة، مرتيْن، ثلاث مرات، عديداً من المرّات وفى اللحظة التى أوشك فيها أن يغلق السمّاعة، مفكراً، نصف مرتاح، نصف خائب، أنه لا أحد هناك، تقول امرأة، لاهثة كما لو أنها ركضت من الطرف الآخر للشقة، فقط ، آلو، خنقَ انقباضٌ عضلىٌّ مباغت حنجرة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، تأخَّرَ فى الردّ، حتى أن المرأة كرَّرَت بنفاد صبر، آلو، من تطلبون، وتوصّل أستاذ التاريخ أخيراً إلى نطق كلمتيْن، نهارك طيب، سيدتى، ولكن بدلاً من الردّ بلهجة محتشمة

مخصصة للمجهولين الذين فضلاً عن ذلك لا تُرى وجوههم، تقول المرأة مع ابتسامة كانت تظهر فى كلّ كلمـــة، إذا كان ذلك لكى تحجب نفسك، فلا تتعب، اعذرينى، غمغم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أريد فقط أن أسأل معلومة، أية معلومة يمكن أن يريدها شخصٌ يهتفُ إلى شقة يعرف فيها كل شىء، أريد أن أعرف إذا كان الممثل دانييل سانتا ـ كلارا يسكن هنا، سيدى العزيز، سوف أتكفّل بالقول إلى الممثل دانييل سانتا ـ كلارا، حين يعود، أن أنطونيو كلارو قد هتف ليسأل إذا كانا يسكنان هنا كلاهما، لا أفهم، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ليكسَبَ وقتاً، لكن المرأة قاطعته دون مراعاة، لم أعد أتعرّفك، ليسَتْ لكَ عادة هذا النوع من المزاح، قل لى إذًا مرة وإلى الأبد ماذا تريد، التصوير السينمائى متأخر، أليس كذلك، اعذرينى، سيدتى، هناك خطأ، لا أسمّى أنطونيو كلارو، لستَ زوجى، تعَجَّبَتْ، إننى فقط شخصٌ يرغبُ فى معرفة ما إذا كان الممثل دانييل سانتا ـ كلارا يسكن حيث يوجد هذا الرقم، حسب الجواب الذى أعطيته لك، تعرف مسبقاً أنه يسكن هنا، نعم، لكن طريقتك فى قوله لى بلبلتنى، إننى مشدوه منها، لم يكن ذلك قصدى، ظننت أن المقصود مزحة من زوجى، يمكنكِ أن تكونى على يقين أننى لستُ زوجكِ، يصعب علىّ تصديق الأمر، إننى لستُ زوجكِ، أريد أن أتكلم عن صوتكَ، صوتُكَ مطابقٌ لصوته، إنها صدفة، هذا النوع من الصدف لا وجود له، يمكن

لصوتيْن، مثل شخصيْن، أن يتشابها بهذا القدر أو ذاك، لكن أن يكونا متطابقيْن إلى هذه الدرجة، **ربما** كان ذلك مجرد انطباع، **كلّ** كلمة تصل إلى أذنى كما لو أنها تخرج من فمه هو، **حقاً** يصعب علىّ كثيراً تصديق الأمر، **هل** تستطيع أن تقول لى اسمك لكى أنقله له حين سيأتى، دعى هذا، هذا لا يستحق الجهد، ثم إن زوجك لا يعرفنى، **أأنت** مُعْجَب، ليس على وجه الدقة، **لا** أهمية لذلك، سيتمنّى أن يعرف من أنت، **سوف** أهتف له مرّة أخرى، اسمع. انقطعت المكالمة، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد وضع السمّاعة ببطءٍ على قاعدتها.

مضت الأيام، وترتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يهتف. كان راضياً عن الطريقة التى جرت بها محادثته مع زوجة أنطونيو كلارو، كان يشعر إذًا واثقاً من نفسه بما فيه الكفاية لكى يعود إلى العمل، ولكنه، بعد أن فكر جيّداً، كان قد قرّر أن يختار الصمت. لسببيْن. الأوّل لأنه فطِنَ إلى أن فكرة تمديد وتكثيف جوّ الصمت الذى لابدّ وأن هاتفه قد أوجده كان يروق له، لا بل إنه كان يتسلى فى تخيّل الحوار بين الزوج والمرأة، شكوكُ الزوج حول التطابق المطلق المزعوم للصوتيْن، إلحاحُ المرأة على أنها ما كانت لتخلط بينهما على الإطلاق لو أنّ هذا التطابق لم يكن موجوداً، إن شاء الله أن تكون فى البيت حين سيهتف، ستحكم آنئذ بنفسك، ستقول، وهو، إذا هتف، لأنّ ما كان يريد معرفته قلتِه لهُ من قبل، وهو إننى أسكن هنا، دون نسيان واقعة أنه طلب دانييل سانتا ـ كلارا لا أنطونيو كلارو، هذا هو الغريب. السبب الثانى، وهو أكثر صلابة، كان أنه حكم أنّ فكرته السابقة حول ميزات تمهيد الميدان قبل الانتقال إلى المرحلة

الثانية، مُبَرَّرَة بصورة نهائية، أى انتهاء نهاية السنة الدراسية والامتحانات لكى يُعِدَّ بهدوء استراتيجيات جديدة من الاقتراب والمحاصرة. صحيح أنَّ المهمة القاتلة التى كلفه بها المدير تنتظره، لكنه سيجدُ خلال ما يقارب الأشهر الثلاثة من الإجازة الموجودة أمامه الوقتَ والمزاجَ الضروريين لهذا العمل الكتابى الشاق. فإذا ما احترمَ وعدَه، فمن المحتمل كذلك أن يقرِّرَ الذهاب لقضاء عددٍ قليل من الأيام، مع أمّه، شريطة أن يكتشف مع ذلك الطريقَة الأفضل لتأكيد شبه يقينه بأن الممثل وزوجته لن يذهبا فى إجازة مبكراً، يكفينا أن نتذكر السؤال الذى كانت طرحته حين كانت تظنّ أنها تتكلم إلى زوجها، التصوير السينمائى متأخر، أليس كذلك، لكى يختتم بـ أ ثمَّ ب أنَّ دانييل سانتا ـ كلارا يُمَثِّلُ فى فيلم جديد وأنَّ مسارَه المهنى فى مرحلة صاعدة كما برْهنَ فيلم إلهة المسرح من قبل، وبأنَّ وقت انشغاله المهنى، بقوة الأشياء، يتجاوزُ بكثير وقت الممثل الصامت الذى كانه فى بداياته. إنَّ الأسباب التى يملكها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لتأخير ندائه الهاتفى هى إذاً، كما أتينا على رؤيته، مقنعة وصلبة. على أنها لا تجبرهُ ولا تحكمُ عليه بالبقاء خاملاً. ففكرته فى الذهاب لرؤية الشارع الذى يسكن فيه دانييل سانتا ـ كلارا لم تُستبعَد، على الرغم من الوجه السيّئ الذى مثله سطل الماء البارد المباغت الذى قذفه الحسّ المشترك. بل إنه كان يقدّر أن هذا الاستقصاء، الاستقبالى إن جاز القول، كان لا غنى

عنه لنجاح العمليات اللاحقة من حيث إنه كان يؤلف ضرباً من جسِّ النبض، شيئاً مماثلاً، فى الحروب الكلاسيكية أو القديمة، لإرسال دورية استطلاعية مكلفة بتقدير قوى العدوّ، لم يكن لحسن الحظ من أجل أمْنِه، قد نسىَ الاستهزاءات السماوية للحسّ المشترك من الآثار الأكثر من محتملة للظهور بوجه مكشوف. حقاً، يمكنه أن يدع نموّ شاربه ولحيته، أن يضع على أنفه نظارة سوداء، أن يغطى رأسه بعَمْرَة ولكن، باستثناء العَمْرَة والنظارة اللذين هما شيئان يُوضَعان ويُرْفَعَان، كان مقتنعاً بأنّ الإضافات من الشعر، اللحية والشارب، سواء بقرار مزاجى من شركة الإنتاج، أو بسبب تغيير فى آخرِ لحظة فى النص السينمائى، بدءاً من قبل، فى اللحظة نفسها، بالظهور على وجه دانييل سانتا ـ كلارا. وبالتالى، فإن التنكر، الجوهرىّ بلا مراء، يجب أن يكون مؤلفاً من ضروب الأقنعة القديمة والحديثة كلها، ملغياً بذلك المخاوف التى عاناها من قبل، حين طفِقَ فى تخيّل الكوارث التى يمكن أن تحدث إذا ذهب متنكراً على هذا النحو يسألُ المنشأة السينمائية معلوماتٍ حول الممثل دانييل سانتا ـ كلارا. كان يعلمُ مثل كل الناس أنَّ منشآت مختصة تبيع أو تؤجِّر الملابس والمُتمِّمات وكلّ المعداتِ الضرورية لفنِّ الخداع المسرحىّ وكذلك لتغييراتِ الشكل فى مهنة الجاسوس، إمكانية أن يُعتبَر دانييل سانتا ـ كلارا عند الشراء لم تكن لتؤخذ بالحسبان جدّياً إلا إذا جاء الممثلون أنفسهم إلى هنا

لكى يتموّنوا باللحى المستعارة، وبالشوارب، وبالجفون، وبالشعر المستعار، وبالعصابات من أجل العيون العمياء كذباً، وبالثآليل وبالشامات، وبوسائد داخلية لنفخ الوجوه، وبحشوات من كل نوع ومن أجل الجنسيّن، دون ذكر المستحضرات التجميلية القادرة على صنع تنويعات لونية حسب رغبة الزبون لم يكن ينقص إلا هذا إنّ شركة إنتاج سينمائىّ تحترمُ نفسها تملكُ يقيناً فى مخازنها كلّ ما تحتاج إليه، وإذا افتقرت إلى مادة ما فسوف تشتريها، وفى حال وجود مصاعبَ مالية أو بكلٍّ بساطة لأنّ ذلك لا يستحق العناء، حسناً، ليس عليها إلا أن تستأجرها، ولن تضطرَّ لإعلان إفلاسِهَا بسبب ذلك. مدبّرات منزل صالحات سوف يعلقن الأغطية والمعاطف حين تصل بوادرُ الحَرِّ مع الربيع، لكن ذلك لم يكن سبباً لكى يستحققن احتراماً أقلّ من قبل المجتمع الذى يقع عليه واجب معرفة ما هى الحاجة. من المقبول التساؤل إذا كان ما كتب لتوّه، منذ كلمة مدبّرات حتى كلمة الحاجة، قد خَطرَ فعلاً فى ذهن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ولكن لمّا كانت هاتان الكلمتان وكذلك تلك التى يمكن قراءتها فيما بينهما تمثل أقدسَ وأنقى الحقائق، فقد كان من المؤسف ألا يُعبَّرَ عنها. الآن وقد حُدِّدَت المراحل المختلفة الواجب عبورها، علينا أنْ نشعر بالاطمئنان إلى اليقين بأنَّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو سيستطيع الذهاب دون خشية إلى مخزن التنكر وسواه من الخِدَع، ليختارَ ويبتاعَ نمطَ اللحية الذى يناسبُ وجهه على نحو

أفضل، مع احترامه للبند غير المشروط الذى يجبُ بموجبه أن تُرفَضَ اللحية المسماة بالطوق بصورة حاسمة، حتى ولو حوّلته إلى حَكَم فى ضروب الأناقة، دون مُفاصَلة ولا استسلام لسحرٍ تخفيض ما لأنّ هيئة وجهه من أذن إلى الأخرى والقصَّة القصيرة نسبياً لشعره، دون الحديث عن عُرَى الشفة العليا، يكادان يتركان الملامحَ التى يُرادُ بالضبط إخفاؤها تحت ضوء النهار الفجّ. وبتعليل معاكس، يجبُ أيضاً استبعاد كلّ نوع من اللحية الطويلة، حتى تلك التى لا تنتمى إلى النوع الرسولى لأنها ستستثير بلا مُسَوِّغ انتباهَ الفضوليين. سيكون الحلّ إذًا لحية كثة، على قدر من القسوة، لكنها أقرب إلى القِصَرِ منها إلى الطول. قضى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ساعات فى التجريب أمام مرآة حمّامه، لاصقاً ونازعاً الطبقة الرقيقة التى زرع عليها الشعر، ضابطاً إياها بدقة مع مكان لحيته الطبيعية ومع مدار الفكيْن والأذنيْن والشفتيْن، وخصوصاً هاتيْن الأخيرتيْن، لأنهما يجب أن تتحركا من أجل الكلام وحتى ربما من أجل الأكل أو أيضاً، من يدرى، من أجل التقبيل. عندما نظر للمرة الأولى فى هيئته الجديدة شعَرَ بصدمة قوية داخليّة، هذا الخفقان العصبى، الحميمى والملحّ، للضفيرة العصبية المألوفة كثيراً منه، أيضاً هذه الصدمة لم تكن آتية من رؤيته لنفسه مختلفاً عما كانه من قبل فحسب، بل بالأحرى، وهذا أكثر أهمية إذا ما فكرنا بالوضع الخاص الذى وجد نفسه فيه

مؤخراً، من وعى هو الآخرُ مختلف، كما لو أنه أتى أخيراً على اكتشاًف هويته الأصيلة الخاصة به، كان ذلك كما لو أنّهُ صارَ، من أجل امتلاك هيئة مختلفة، هو نفسُه أكثر. كان انطباع الصدمة من الحيويّة، والإحساس بالقوّة الذى استحوذ عليه من التطرّف، والغبطة غير المفهومة التى غمرته من الاتقاد، بحيث أن الحاجة القلقة للحفاظ على هذه الصورة دفعته خارج بيته مستخدماً كل الاحتياطات الممكنة لكى لا يُرى وليتجه نحو منشأة للتصوير الفوتوجرافى بعيداً عن الحىّ الذى يقيم فيه لكى يستخرج صورة له، لم يكن يرغب الخضوع إلى إضاءة سيئة التصميم وإلى الآليات العمياء للتصوير الآلى، كان يرغب فى الحصول على صورة معتنىً بها، سيسرّه الاحتفاظ بها والتأمل فيها، صورة يستطيع القول لنفسه عنها، **هذا**، هو أنا. دفعَ السعر الإضافى من أجل الخدمة السريعة وجلس من أجل الانتظار، وأجابَ الموظفة التى كانت تقترح عليه القيام بجولة أثناء ذلك، **سوف** يستغرق ذلك بعض الوقت، أن لا، إنه يفضِّل الانتظار هنا، وأضافَ من غير فائدة، إنها للإهداء، كان يرفعُ يدَهُ من وقت لآخر إلى لحيته، كما لو من أجل تمليسها، كان يتأكدُ باللمس أنَّ كلّ شىءٍ فى مكانه وعاد للاستغراق فى المجلات الفوتوجرافية المعروضة على المنضدة. عندما خرج من جديد كان يحمل نصف دزينة صور من القطع المتوسط، كان قرّر تمزيقها مسبقاً لكى لا يرى نفسه متكاثراً، وصورة مكبّرة. دخل

فى مركز تجارى قريب، ودلفَ إلى دورة المياه وهناك، فى ملجأ من النظرات الفضولية، نزعَ اللحية المستعارة. لو رأى أحدٌ ملتحياً يدخل دورة المياه، لصعب عليه أن يقسم إنَّ من خرج بعد خمس دقائق كان رجلاً ذا وجه أمرد. لا يُلاحَظُ بصورة عامة شكلُ لباس رجلٍ ملتحٍ والظرف الفاضح احتمالاً الذى يمسكه بيده داخلاً هُوَ الآنَ مُخَبَّأٌ بين سترته وقميصه. يبدو ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وهو إلى وقت متأخر قريب العهد أستاذ تاريخ فى التعليم الثانوى هادئ، موهوباً بما فيه الكفاية لكى يمارس النشاطيْن المهنيّيْن التاليَيْن، نشاطُ جانحٍ متنكر أو نشاطُ شرطىٍّ يطارده، لنعط الوقت الكافىً إذًا للوقت وسنعلم أىّ نزعةٍ ستتغلب. عند وصوله إلى بيته بدأ بحرق النسخ الستّ من الصور ذات القطع الصغير عن الصورة الكبيرة تحت الحنفيّة، جعلَ الماء يسيل ليجرّ الرماد نحو البالوعةِ وبعد أن تأمل بمراعاة صورته الجديدة السّريّة، وضعها فى الظرف الذى ذهب ليخبئه على رفّ مكتبته، وراء تاريخ الثورة الصناعية الذى لم يقرأه.

مضت أيام عدّة، واختتمت السنة الدراسية مع الامتحان النهائى وإعلان التصنيف الأخير للتلاميذ. قام زميل الرياضيات بوداعه، سأذهب فى إجازة، ولكن بعد ذلك، إذا كنت بحاجة لأىّ شىء، اهتف لى وانتبه كثيراً، صرح له المدير، **لا** تنسَ ما اتفقنا عليه، سأهتف لك حين عودتى من الإجازة لكى أعرف

كيف يتقدم العمل، إذا قررتَ تركَ المدينة لأنكَ أنتَ أيضاً يحق لك الراحة، فاترك لى رقم هاتفك على المجيب الآلى. خلال هذه الفترة نفسها دعا ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ماريا دا باز إلى العشاء، وكانت الفظاظة التى تصرَّفَ بها معها تثقل على ضميره، ولا حتى لباقة كلمة شكر، ولا تفسير، ولو كان مُختلقاً، بالنسبة إلى عواقب الرسالة، تواجدا فى أحد المطاعم، وصلت متأخرة قليلاً، جلست على الفور واعتذرت ملقية بخطأ تأخرها على أمّها، لو رآهما أحدٌ لما حَسِبَ أنهما عاشقان، أو ربما لاحظ أنّهما كانا كذلك حتى وقت قريب العهد وأنهما لم يتعوّدا بعدُ على حالتهما الجديدة من لامبالاة أحدهما تجاه الآخر أو على تكلفِ هذه اللامبالاة. تلفظا بجمل معتادة، **كـ**يف حالك، **مـ**اذا فعلت من أشياء جميلة، **كـ**ان عندى كثير من العمل، **أنا** أيضاً، وحين كان ترتوليانو ماكسيمو آفونسو يتردّد مرة أخرى حول اللون الذى يعطيه للمحادثة، استبقته وقفزت بكليتها إلى الموضوع، الرسالة هل استجابت لتوقعاتك، سألته، هل أعطتك كلَّ المعلومات التى تحتاج إليها، نعم، قال، واعياً تماماً بأنّ جوابه كان فى آن واحد مزيّفاً وصادقاً، **أنا**، على الفور، لم يكن لدىّ هذا الانطباع، **لـ**ماذا، **كـ**ان من الممكن أن يتوقع المرء أن تكون أكبر حجماً، **لا** أفهم، إذا كانت ذاكرتى جيدة، فإن المعطيات التى كنتَ تحتاجُ إليها كانت من التعدد ومن التفصيل بحيث لا يمكن لها أن تتواجد على صفحة واحدة من

الورق ولم يكن فى الظرف سوى صفحة واحدة، **كيف** عرفتِ، هل فتحتِها، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بصوت شرس عارفاً مسبقاً أىَّ جوابٍ يجرّه استفزازه العبثى، نظرت ماريا دا باز بصورة مستقيمة فى عينيْه وقالت بلهجة رصينة، **لا**، ويجب أن تعرف، **أ**رجوك معذرتى، لقد خرجت الكلمات من فمى بلا تفكير، **ق**ال، **أ**ستطيع عذرك إن ألححت، لكنى أخشى ألا أستطيع المضىّ بعيداً، **ب**عيداً أين، **م**ثلاً نسيان أنك ظننتنى قادرة على فتح رسالة كانت مرسلة لك، **فى** أعماق نفسك تعرفين جيّداً أننى لا أفكر هكذا، **فى** أعماق نفسى أعرف أنك لا تعرف شيئاً عنى، **لو** كنت أحذر منك، لما طلبتُ إليكِ إرسالَ الرسالة باسمك، **ب**النظر إلى ذلك لم يكن اسمى إلا قناعاً، قناعاً لاسمك، قناعاً لكَ أنت، **ل**قد شرحتُ لك لماذا كنت أعتبر المنهج الذى اتبعناه أكثر ملاءمة، **ل**قد شرحته، **و**كنتِ موافقة، **ن**عم، كنت موافقة، إذًا، إذًا سأنتظر أن ترينى المعلومات التى تقول إنك تلقيتها، لا لأنها تهمنى، بل ببساطة لأننى أقدِّرُ أنّه من واجبك أن تبيّنها لى، **ا**لآن، أنتِ التى تحذر منى، **ن**عم، لكنى سأكفُّ عن الحذر إن قلتَ لى كيفَ أن كلّ المعلومات التى طلبتها يمكن أن تكفيها مجرّد صفحة من الورق، لم يعطونى إياها كلها، **آ**ه، لم يعطوكَ إياها كلها، **لقد** أتيتُ على قول ذلك لك، إذن، أرنى ما تلقيته، كان الغذاء يبرد فى الصحون، وكان عصير اللحم يتخثر، والنبيذ ينام، مَنسياً فى الكأسيْن، والدموعُ تظهر فى

عـينىْ مـاريا دا با،. فكّرَ خـلال لحظة أنه سـيـشـعـر براحـة لانهائيـة فى أن يقصّ القصـة كلها منذ البـداية، هذه الحـالة خصـوصـاً الغـريبـة، والفـريدة، والمدهشـة، والعـجيبـة لرجل منسوخ، المسـتحيل وقد صـار واقـعـاً، العـبـثى وقـد تصـالـح مع العـقل، البـرهنة الكـاملة أنْ لاشىء يستحيل على الله وأن عِلمَ قرْنِنا حقاً قلةُ عقل، كمـا يقولون. لو كـان فعلهـا، لو كانت له هذه الصـراحة، لوجدت أفعاله السابقة المُحَيِّرة نفسَها مفسَّرَة بنفسِها، بما فـيـهـا تلك الأفـعـال التى كـانت عـدائيـة، فظة، مـخـادعـة إزاء مـاريـا دا باز أو التى، بكلمـة أو بمـائة كلمة، سيّان، كـانت قـد أهـانت الحسّ المشتـرك الأكثـر ابتدائية، وبالإجمـال أفعـاله كلهـا تقـريبـاً. لكَانَ الوفـاقُ سيسـودُ من جديد، والأخطاء والأغـلاط ستغتفـر بلا شروط ولا تحـفظات، ولكانت ماريا دا باز تتـوسل إليه، لا تتشبث بهذا الجنون، فسوف ينتهى قطعاً بصـورة سيئة، وكانَ سيردّ، أكاد أسمع أمى، وستسأل، هـل قصصتَ عليهـا من قبل، وسـيقول، حـملتها فـقط على الفهـم بأنّ لدى مشكلات، وستختتم، الآن وأنت تقـول مــا فى قلبـك، سـوف نحلهـا مـعــاً، هـذه المشكلات. الموائد المشغولة قليلة العدد، لقـد وضعت فى زاوية ولا أحـد يوليهـا انتبـاهه، هذا النوع من الحـال، أزواجٌ تأتى لتحلّ خـلافـاتهـا العـاطفـيـة أو المنزليـة بين السـمك واللـحم أو، مــا هو أسـوأ لأن ذلك يتطلب مـزيداً من الوقت، بين المقـبـلات ودفع الحـسـاب، يؤلف جـزءاً لا يتجـزأ من الحـيـاة اليـوميـة التـاريخـيـة لهـذا النوع من

المنشآت، سواء أكانت مطاعم فخمة أو مطاعم قذرة. تبخرت فكرة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ذات النية الحسنة بالسرعة التى ظهرت بها، جاء النادل يطلب إن كانا قد أنهيا وسحب الصحنيّن، عينا ماريا دا باز شبه جافة، قيل من قبلُ آلاف المرات إنه لا يجب البكاء على الحليب الذى انسكب، فالأسوأ كان ما سيحدث للإبريق الذى كان يتضمنه والذى يرقد الآن على الأرض فى ألف قطعة، حملَ النادلُ القهوة والحساب الذى كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد طلبه، وبعد دقائق عدّة كانا فى السيارة. هل أصحبكِ إلى بيتك، كان قد طلب، نعم، أرجوك، كانت قد أجابت، لم يتكلما حتى اللحظة التى وصلا الشارع الذى تسكن فيه ماريا دا باز. قبل الوصول أمام الباب الذى ستنزل أمامَه، ركنَ ترتوليانو ماكسيمو آفونسو السيارة إلى جانب الرصيف وأوقف المحرّك، نظرت إليه وقد فاجأتها هذه الإشارة غير المتوقعة، من زاوية عينها، لكنها استمرت فى السكوت. قال، وقد أدار رأسه، دون أن ينظر إليها، بصوت مصمِّم، لكنه متوتر، كلّ ما سمعتِه من فمى هذه الأسابيع الأخيرة، بما فى ذلك المحادثة التى أتينا على القيام بها فى المطعم، كلّ ذلك كذب، لكن لا تضيّعى وقتك فى سؤالى ما الحقيقة لأننى لن أستطيع إجابتك، إذًا، ما كنتَ تريدُهُ حقاً من شركة الإنتاج لم يكن تفاصيلَ إحصائية، بالضبط، افترض أنّ من غير المفيد من جهتى أن أنتظر أن تقول لى ماذا كان السببَ الحقيقيَّ

لاهتمامك، نعم، أتصوّر أنّ ذلك له بالتأكيد علاقة مع أشرطة الفيديو الموجودة فى بيتك، اكتفى بما قلته لكِ وكفّى عَنْ طرح الأسئلة والقيام بفرضيات، أسئلة، أستطيع أن أعِدَكَ بألا أطرح منها، ولكن الافتراضات، إننى حرّة فى القيام بها بقدر ما يروق لى، حتى ولو بدت عبثية، من العجيب أن ذلك لم يفاجئك، أن أفاجأ بماذا، تعرفين جيداً عن ماذا أريد الكلام، لا ترغمينى على التكرار، عاجلاً أو آجلاً، سيتوجب عليكَ أن تقوله لى، لكنى لا أتوقع أن يكون ذلك اليوم، ولماذا يتوجب علىّ قوله لك، لأنك أنزهُ مما تعتقد، على كل حال ليس بما فيه الكفاية لأكشف لك الحقيقة، لا أعتقد أنّ افتقار النزاهة هو موضع الشك، إنّ ما يغلق فمك شىءٌ آخر، ماذا، شك، قلق، خشية، ما الذى يجعلك تظنّين ذلك، قرأته على وجهك، فهمته من كلماتك، قلتُ لكِ من قبل إنها كذب، هى نعم، لكن ليس الطريقة التى قيلت بها، حان الوقت للجوء إلى جملة السياسيين، لا أؤكد ولا أنفى، إنها واحدة من أدوات البلاغة المنحطة التى لا تخدع أحداً، لماذا، لأنّ أىّ شخص يفطن على الفور إلى أن الجملة تميل بالأحرى إلى جانب التأكيد أكثر مما تميل إلى جانب النفى، لم يسبق لى أن لاحظتُ ذلك، ولا أنا، لقد فطنت إلى ذلك فى هذه اللحظة بالذات وبفضلكِ، لم أؤكد لا الخشية، ولا القلق، ولا الشك، لا، لكنك لم تنفِها، ليست هذه هى اللحظة لكى نتسلى باللعب على الكلمات، هذا على الدوام

أفضل من أن تغرورق العينان بالدموع فى مطعم، اغفرى لى، هذه المرّة ليس هناك ما أغفره لك، أعرف من الآن فصاعداً نصف ما يجب معرفته، لا أستطيع أن أشكو، لقد اعترفت فقط أن ما قلته لك كان كذباً، هذا بالضبط هو النصف الذى أعرفه من قبل، الآن آملُ النومَ بصورة أفضل، ربما ستفقدين النوم لو عرفتِ النصفَ الآخر، لا تخفنى، ليس هناك أىّ سبب للخوف، اطمئنى، ليس هناك موت إنسان، لا تخفِنىً، هدّئى نفسك، كل شىء سينتهى إلى الحلّ كما تقول أمى، عدنى أنك ستكون حذراً، أعِدُك، حذِراً جداً، نعم، وأنكَ إذا اكتشفتَ فى كلّ هذه الأسرار التى أعجز عن تخيّلها شيئًا تستطيعُ قوله لى، أنْ تقوله لى، حتى ولو بدا لك ذلك تافهاً، أعِدُك بذلك، ولكن فى هذه الحالة كلُّ ما لا سيكون كلّ شىء لنْ يكون شيئاً، لا يهمّ، سأنتظر. مالتْ ماريا دا باز، لمستْ وجهه بقبلة سريعة ومضت لتخرج من السيارة حين وضع يده على ذراعها واستبقاها، ابقِ، لنذهب إلى بيتى. تخلصت بهدوء وقالت، لا، ليس اليوم، لن تستطيع أن تعطينى أكثر مما أعطيتنى إياه من قبل، إلا إذا قصصت عليك ما يَنقصُ، حتى مع ذلك، تصوّر. فتحتْ بابَ السيارة وأدارت رأسَها لكى توجّه له ابتسامة وداع، ثمّ خرجت. أدارَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو المحرّك، انتظرَ أنْ تدخلَ العمارة، ثم بحركة متعبة انطلق وعادَ إلى بيته حيث كانت تنتظره الوحدة، صابرة وواثقة من سلطتها.

فى الغداة، نحو منتصف الصباح، انطلق على الطريق من أجل أوّل مهمة استطلاعية للأرضِ المجهولة حيث يعيش دانييل سانتا ـ كلارا مع زوجته. كانت لحيته المستعارة قد ثبّتت بعناية على وجهه، كان يضع عمرة لكى تلقى ظلاً حامياً على عينيْه اللتيْن قرَّرَ فى الدقيقة الأخيرة ألا يخفيهما وراء نظارات سوداء؛ لأن هذه الأخيرة تضفى عليه مع بقية أدوات التنكر هيئة خارج على القانون جدير بإثارة شكوك الجيران وبإطلاق مُلاحقة بوليسية منتظمة، مع كلّ الفصول المتوقعة، توقيف، اطلاعٌ على الهوية وإذلالٌ عام، لم يكن يأملُ الحصولَ على معلومات خاصة ملائمة خلال هذه الحملة الاستطلاعية، وأكثرُ ما يمكنه الحصول عليه التقاط بعض البقايا السطحية، معرفة الأماكن، الشارع، العمارة، ولا أكثر من ذلك. وسيطفح كيل الصدفة إذا ما شهدَ عودة دانييل سانتا ـ كلارا إلى بيته، وهو لا يزال يحمل آثار الزينة على وجهه وبهيئة الحائر المرتبك لرجل يصعبُ عليه الخروج من جلد الشخصية التى جسّدها قبل ساعة من ذلك، تبدو الحياة الحقيقية دوماً أشدّ بخلاً بالصدف من الرواية والأشكال الأخرى من التخييل، إلا مع قبول أن مبدأ الصدفة هو المحرك الوحيد والحقيقى للعالم وفى هذه الحالة فإنّ ما يُعاش وما يُكتب يجبُ أن يكون له الثقل نفسه وبالعكس. خلال النصف ساعة التى كان ترتوليانو ماكسيمو آفونسو يمرّ فى الحىّ، متوقفاً لينظر فى الواجهات وليشترى

الصحيفة، قارئاً بعد ذلك الأخبار على رصيف مقهى إلى جانب العمارة، لم ير دانييل سانتا ـ كلارا لا داخلاً ولا خارجاً. ربما يستريح فى سلام مأواه مع امرأته وحتى أطفاله، ربما استُوقِفَ كاليوم الماضى بسبب تصوير فيلمه، ربما كانت الشقة خالية فى هذه اللحظة، فالأطفال ذهبوا لقضاء الإجازة عند جدّيْهم، والأمّ، شأن كثير غيرها، تعمل خارج بيتها، سواء للدفاع عن استقلالها الشخصى، أو لأنّ الاقتصاد المنزلى لا يمكن أن يستقيم دون إسهامها المالىّ، لأن أجور الممثل الثانوى والحق يقال، حتى ولو كان هذا يجهد فى الركض من دور صغير إلى دور صغير آخر، حتى ولو أبرمت شركة الإنتاج معه نوعاً من العقد الضمنى فى حصر عمله لها واستخدمته بانتظام، ستبقى أجوره دوماً خاضعة لمعايير العرض والطلب، التى لا تتحدّد أبداً بالحاجة الموضوعية للفاعل، بل فقط بموهبته وملكاته المفترضة أو الحقيقية، تلك التى يُمَنّ عليه بالاعتراف بها أو تلك التى مع قصد سرّىّ وشبه سلبىّ على الدوام يُقَرُّ له بها، دون التفكير أبداً أنّ مواهب أخرى وملكات أخرى، أقل ظهوراً، تستحقّ أن توضعَ موضع امتحان. هذا يعنى أن دانييل سانتا ـ كلارا سيستطيع ربما أن يصير فناناً كبيراً إذا قرَّرَ الحظ أن ينظر إليه منتجٌ ألمعى يملكُ حبّ المغامرة بعينيْن ترَيان، واحدٌ من هؤلاء المنتجين الذين، إذا صمّموا أحياناً فى ذهنهم على تحطيم نجوم من الطبقة الأولى، يرتأون أيضاً أن يدفعوا بصورة رائعة

إلى الأمام نجوماً من الأهمية الثانية والثالثة. إعطاء الوقت للوقت كان دائماً أفضل علاج لكلّ شىء منذ أن كان العالم عالماً، إنَّ دانييل سانتا ـ كلارا رجلٌ لا يزال شاباً، جميل المحيّا، ذا جسم مستحبّ، يتمتع بمواهب ممثل محققة، ولن يكون من العدل أن يمضى بقية حياتهً فى لعب أدوار موظف استقبال فى الفنادق أو سواها من النوع نفسه، رأيناه مؤخراً يلعب دور مدير مسرح فى فيلم إلهة المسرح ويُشار إليه كما يجب فى عناوين الفيلم فى البداية، ربما كانت تلك علامة البدء فى الانتباه إليه. هناك، أينما كان، ينتظره المستقبل، حتى ولو لم تكن هذه ملاحظة شديدة الجدّة، واحدٌ عليه إلا ينتظر وقتاً أكثر من ذلك، تحت طائلة تعريض نفسه إلى أن يُرَى السوادُ المُقلقُ لطلعته منقوشاً فى ذاكرة نادلى المقهى الفوتوجرافية، لأننا نسينا أن نشير إلى أنه لبس طقماً غامقاً وأنّه الآن بسبب أشعة الشمس الحادة يحمى نفسه بنظارات سوداء، هو ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. تركَ النقودَ على المنضدة لكى لا يتوجب عليه مناداة النادل وتوجّه بخطى حثيثة نحو حجرة الهاتف على الرصيف المقابل، سحب من جيبِ سترته قصاصة ورق مع رقم هاتف دانييل سانتا ـ كلارا وأدار القرص، لم يكن يريد التكلم معه، كان يريد فقط معرفة إذا كان أحدهم سيردّ ومَنْ سيكون. هذه المرّة لم تسارع امرأة على الطرف الآخر من الخط من أقصى الشقة، ولا طفلٌ يقول كذلك أمى ليست هنا، لم يُسمع صوتٌ مطابقٌ لصوت ترتوليانو

ماكسيمو أفونسو يسأل مَن المتكلم. لا بدّ وأن تكون في العمل، فكر، وهو بالتأكيد في التصوير السينمائي، في طريقه للقيام بدور شرطي سيّر أو متعهد أشغال عامة، خرج من الحجرة ونظر في ساعته، كانت ساعة الغذاء تقترب، لن يعود أيٌّ منهما إلى البيت، قال، في اللحظة نفسها مرّت امرأة، لم ينجح في رؤية وجهها، كانت تجتاز الشارع وتتجه نحو المقهى، كان هناك انطباعٌ بأنها هي أيضاً ستذهب للجلوس على الرصيف، ولكن لا، تابعت طريقها، وقامت بخطوات إضافية ودخلت العمارة التي يسكن فيها دانييل سانتا ـ كلارا. قطّب ترتوليانو ماكسيمو آفونسو تقطيبَ تبرّم غيرِ مقصود، إنها بالتأكيد هي، غمغمَ، أسوأ عيبٍ لهذا الرجل، على الأقل منذ أن قمنا بالتعرّف عليه، هو مخيّلته مطلقة العنان، لا أحدَ في الحقيقة يمكنه أن يقول إنه أستاذ تاريخ، وحدَها الوقائعُ يجبُ أن تهمّه، بكلّ بساطة لأنّه لمحَ من ظهرها امرأة مرّت لتوّها ها هو يشتطّ في الخيال من فوره حول هوّيتها، هذا دون حسبان أن المعنيّ بالأمر شخصٌ لا يعرفه، ولم يرَهُ من قبل أبداً، لا من الظهر، ولا وجاهة، يجب مع ذلك إنصافُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لأنه على الرغم من ميله إلى إطلاق العنان للمخيّلة لا يزال ينجحُ في اللحظات الحاسمة في أن يضع فوقها برودة في الحساب يمكن أن تجعل أقسى المضاربين في البورصة يشحب حسداً مهنيّاً. فالواقع، أنّ هناك طريقة بسيطة، لا بل ابتدائية، وإن كان يجب امتلاك

فكرتها، كما هو الأمر بالنسبة إلى كلّ شىء، فى معرفة ما إذا كانت المرأة التى دخلت العمارة تتجه فعلاً نحو شقة دانييل سانتا ـ كلارا، سيكفيه الصبر دقائق عدّة لكى يُسمَح للمصعد أن يصعد حتى الطابق الخامس حيث يسكن أنطونيو كلارو، أن ينتظرَ أيضاً فتحها الباب والدخول، أن يمنحها دقيقتيْن إضافيتيْن لكى تضعَ محفظتها على الأريكة وأن تأخذ راحتها، فلن يكون من اللائق إرغامها على الركض مثل ذلك اليوم ، حين خانها لهاثها. رنّ الهاتف، رنّ، لم يتوقف عن الرنين، لكن أحداً لم يرفع سماعة الهاتف. **فى** نهاية المطاف لم تكن هىَ، قال ترتوليانو ماكسيمو آفونسو وهو يغلق السمّاعة، لم يعد لديه شىء يعمله هنا، محاولته الأخيرة فى الاقتراب الأولىّ انتهت، عدد من الأفعال السابقة كانت لا غنى عنها لنجاح العملية، كان يمكنه تلافى إضاعة وقته مع أفعال أخرى، لكن كان لها على الأقلّ فضل الحدّ من شكوكه، وقلقه، ومخاوفه، والسماح له بالتظاهر فى الظنّ بأن المراوحة فى المكان كانت تساوى التقدم وأن أفضل معنى لفعل تراجعَ كان التفكير بعمق أكثر، كان قد تركَ سيارته فى شارع مجاور قريب واتجه نحوها، كانت مهمته كجاسوس قد انتهت، هذا على الأقل ما يمكننا أن نظنّه، لكنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يستطيع أن يمنع نفسه من أنْ يثبت عينيْه بنَهَم، ما الذى ستذهب إلى التفكير به، كلّ النساء اللاتى يلقاهنّ على طريقه، لا كلهنّ تمامًا فى النهاية، إذ

يُستثنى منهنَّ الأكثر تقدما فى العمر أو الأكثر شباباً من أن يكنّ متزوجات من رجل فى الثامنة والثلاثين من عمره. إنه عمرى وبالتالى يجب أن يكون عمره، عند هذا الطور اتجهت أفكار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إن جاز القول، بعضها لكى تضع موضع الشكّ الفكرة التمييزية التحتانية لتلميحه إلى اختلاف الأعمار فى الزيجات أو الاتحادات المشابهة، مسوِّغاً بذلك الأحكام المسبقة للإجماع الاجتماعى الذى أولد المفاهيم المتقلبة، وإن كانت ثابتة بصلابة، لما هو ملائم وغير ملائم، والباقى منها، نريد الحديث عن الأفكار، من أجل الاعتراض على الفرضية المُصَاغة فيما بعد والقائمة على واقعة أن الواحد هو صورة طبق الأصل عن الآخر، كالبراهين التى بيّنتها أشرطة الفيديو فى وقتها، والتى يبلغُ بموجبها أستاذ التاريخ والممثل العدد نفسه من السنوات. فيما يتعلق بأول مسار للتفكير، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مرغماً على الاعتراف بأنّ كلّ كائن بشرى، باستثناء موانع أخلاقية تعجيزية ذات طبيعة خاصة، يملكُ الحقَّ فى الاتحاد مع مَنْ يروقُ له، أينما شاء وكما يشاء، مادام الطرف الآخر راضياً بذلك. أما بالنسبة إلى الثانى، فقد أفادَ فى أن يبعثَ فجأة من جديدٍ فى ذهن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، الآن مع مزيدٍ من الدوافع أيضاً، المشكلة المقلقة فى تحديد من هو النسخة عَنْ مَنْ، ما إن تستبعَدُ بسبب عدم الاحتمال فرضية أنّ الاثنين كليهما قد ولدا لا فى اليوم نفسه فحسب بل فى

الساعة نفسها، وفى الدقيقة نفسها وفى الجزء نفسه من الثانية، وهو ما يعنى القول إنه بالإضافة إلى رؤيتهما النهار فى اللحظة نفسها، فإنهما فى اللحظة نفسها أيضاً عرفا البكاء، تزامنٌ حقاً، لكن بشرط رسمىّ أن يُحْتَرمَ الحدُّ الأدنى من الاحتمال المطلوب من قبل الحسّ المشترك. إمكانية أنْ يكونَ الأكثر شباباً من الاثنيْن تقلقُ الآن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إمكانيــة أن يكونَ الآخــرُ هو الأصلىّ وأنْ يكونَ هو مجرد تكرار، فاقد للقيمة سلفاً. من البدهىّ أن قدراته التنجيمية المعدومة لا تسمحُ له بأن يميِّز فى ضباب المستقبل إن كان لذلك تأثير ما على مستقبل لدينا كلّ الأسباب بأن نحكم بأنه مُبهَم، لكن اكتشافه هو نفسه للمعجزة الخارقة التى نعرفها كانت قد أولدت فى نفسه، وعلى حين غرة منه، ضرباً من الوعى ببكوريته التى هى فى طريقها لتتمرد ضد ما يهدّدها، كما لو أن أخاً لقيطاً طموحاً يجهد فى إسقاطه عن العرش، وهو منهمك فى هذه الأفكار الخطيرة، معذبٌ بهذه المخاوف الماكرة، دخل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مع لحيته الشارعَ حيث يسكن وحيث يعرفه الناس جميعاً، مُخاطراً فى أن يبدأ أحدهم فى الصراخ أنّ شخصاً فى طريقه لسرقة سيارة السيد الأستاذ وأن يقطع جارٌ مُصَمِّمٌ أمامَه الطريق بواسطة سيارته. على أن التضامن فقد مع ذلك الكثيرَ من فضائله القديمة، من أجل ذلك لحسن الحظ، كما يمكنُ القولُ على وجه الدقة، وتابع ترتوليانو ماكسيمو

أفونسو طريقهُ بلا عقبات، دون أن يبدو أنَّ أحداً تعرّف عليه، ولا كذلك على السيارة التى كان يقودها، غادر الحىّ وجيرانه، ودخلَ بعد ذلك، بما أنَّ الضرورة جعلت منه زائراً مواظباً للمراكز التجارية، فى أول مركز وصَلَ إليه. بعد عشر دقائق كان يخرج، حالقاً تماماً، باستثناء النمو الطفيف لشعر لحيته الخاصة منذ الصباح. عند وصوله إلى بيته وجد على مجيبه الآلىّ رسالة من ماريا دا باز، لكن لا شىء مهم، كانت تريدُ أن تعرف كيف حاله. **فى** حالة جيدة، غمغم لنفسه، لا بل فى حالة جيدة جداً. وعد نفسه أن يهتف لها فى المساء نفسه، لكن من المحتمل ألا يفعل ذلك إنْ عزمَ على القيام بالخطوة الأخيرة والتى لا يستطيع تأخيرها صفحة واحدة، أن يهتفَ إلى دانييل سانتا ـ كلارا.

هل أستطيع التكلم مع السيد دانييل سانتا ـ كلارا، سألَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو حين ردّت المرأة، افترض أنكَ أنتَ الشخص الذى هتفَ هنا قبل أيام، أتعرّفُ على صوتك، قالت، نعم، إنه أنا، اسمك، أرجوك، لا أظن أن الأمر يستحقه، زوجكِ لا يعرفنى، أنت أيضاً لا تعرفه ومع ذلك فأنت تعرف ما اسمه، هذا منطقى، إنه ممثل، إذاً شخصية عامة، إننا جميعاً شخصيات عامة بهذا القدر أو ذاك، سوى أن عدد المشاهدين ببساطة هو الذى يختلف، اسمى ماكسيمو أفونسو، لحظة، وُضِعَت السمّاعة على المنضدة، ثم رُفِعَتْ من جديد، صوتُ كليْهما يتكرر كمرآة تتكرر فى مواجهة مرآة أخرى، أنا أنطونيو كلارو، ماذا ترغب، اسمى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وأنا أستاذ تاريخ فى التعليم الثانوى، قالت لى زوجتى إن اسمك ماكسيمو أفونسو، كان ذلك للإيجاز، الآخر هو اسمى الكامل، حسناً جداً، ماذا ترغب، لقد لاحظت بالتأكيد أن صوتينا متطابقان، نعم، متطابقان بصورة مطلقة، هذا ما يبدو عليه الحال،

كانت لدىّ مراتٍ عدة الفرصة للتحقق من ذلك، كيف هذا، رأيتُ بعضَ الأفلام التى مثلتَ فيها خلال هذه السنوات الأخيرة، الأول كان كوميديا قديمة أصلاً عنوانها مَنْ يبحث يجد، وكان الأخير إلهة المسرح، أظن أنّ كلّ ما رأيته منها ثمانية أو عشرة أفلام، أعترف أننى أشعر بقدر من الفخر، لم أكن أتصوّر أن نوع الأفلام التى وجَبَ علىّ التمثيل فيها بقوّة الأشياء خلال سنوات عدّة يمكن أن يهمّ إلى هذا الحدّ أستاذ تاريخ، علىّ القول مع ذلك إن الأدوار التى أؤدّيها الآن شديدة الاختلاف، أملك سبباً جيّداً لكى أراها وهذا ما أودّ أن أتحادث بشأنه شخصيّاً معك. لماذا شخصيّاً، إننا لا نتشابه بالصوت فحسب، ماذا تريد أن تقول، أنّ كلّ شخص يرانا معاً سيكون مستعداً للقسم على أعز ما لديه بأننا توءم، توءم، أكثر من توءم، متطابقان، كيف ذلك، متطابقان، متطابقان، بكلٍّ طيبة متطابقان، سيدى العزيز، لا أعرفك، لا أستطيع حتى أن أكون واثقاً من أنّ اسمك هو حقاً ما قلته لى ولا أن مهنتك هى مهنة مؤرخ، لست مؤرخاً، إننى فقط أستاذ تاريخ، أما بالنسبة للاسم فلم يكن لى أبداً غيره، ففى التعليم لا نستخدم الأسماء المستعارة، إننا نُعَلم، بصورة جيدة أو سيئة، مكشوفى الوجه، هذه الاعتبارات غير لائقة، فلنوقف هنا محادثتنا، لدى أشياء أخرى أقوم بها، هكذا، لا تصدّقنى، لا أصدق المستحيل، هل لديك شامتان على مقدمة الذراع اليمنى، إحداهما إلى جانب

الأخرى باتجاه الطول، نعم، وأنا أيضاً، وكيف تعرف كلّ ذلك ما دمنا لم نلتق أبداً، هذا بسيط، رأيتك فى صورة قريبة فى مشهد على الشاطئ، لا أتذكر فى أىّ فيلم، وكيف يسعنى أن أعرف أن عندك الشامتيْن نفسيْهما اللتين لدىّ، الندب نفسه، هذا يتوقف عليك، إنّ مستحيلات تزامن ما لانهائية، والإمكانات أيضاً، صحيح أن شامتىْ أحدنا والآخر يمكن أن تكونا موجودتيْن مع الولادة أو ظهرتا فيما بعد، مع الزمن، لكن الندب هو دوماً نتيجة اصطدام طرأ على جزء من الجسم، كان لدينا كلانا اصطدام وربما فى الظروف نفسها، حتى مع قبول وجودِ تماثل مطلق بهذا القدر أيضاً، سجّل بأننى لا أقبله إلا بصفةً فرضيّة، لا أرى أىّ سبب لكى نلتقى ولا أفهم لماذا هتفتَ لى، بدافع الفضول، بمجرّد دافع الفضول، إننا لا نلتقى كلّ يوم شخصيْن متطابقيْن، عشتُ حياتى كلها دون معرفة ذلك ولا ينقصنى ذلك، لكنك من الآن فصاعداً تعرفه، سأتصرف كما لو أنى أجهله، سوف يحدث لك الشىء نفسه الذى حدث لى، فى كلّ مرة ترى نفسك فيها فى المرآة لن تكون أبداً واثقاً من أنَّ ما تراه هو صورتك الاحتمالية أو صورتك الحقيقية، أبدأ فى الاعتقاد بأننى أتكلم إلى مجنون، تذكر الندب، لو كنتُ مجنوناً، فالأكثر احتمالاً هو أننا كلانا كذلك، سوف أنادى الشرطة، أشك فى أن" المسألة يمكن أن تهمّ قوى الأمن، لقد اقتصرت على القيام بنداءين هاتفييْن طالباً التكلم إلى الممثل دانييل سانتا - كلارا

الذى لم أهدّده ولم أشتمه والذى لم أسبّب له أى أذى، أين جريمتى، **لـ**قد أزعجتنا، زوجتى وأنا، فلنتوقف إذًا هنا، سوف أغلق الهاتف، **هـ**ل أنت واثق أنك لا تريد أن نلتقى، ألا تشعر بأقل فضول، **لا** أشعر بأىّ فضول وليست لدى أدنى رغبة فى لقائك، هل هذه كلمتك الأخيرة، الأولى والأخيرة، **إ**ذا كان الأمر كذلك، فأرجوك أن تعذرنى، لم تكن لدىّ نيّات سيّئة، **عـ**دْنى بأنكَ لن تهتفَ أبداً، **أ**عدكَ بذلك، **لـ**دينا الحق فى حياة هادئة، فى حياتنا الخاصة، **بـ**صورة مطلقة، **إ**ننى سعيد أنك موافق، **فـ**ى كلّ هذه القضية، اسمح لى أيضاً فى أن أقول هذا، شكٌّ واحد يطاردنى، **أ**ىّ شك، **مـ**سألة معرفة ما إذا كنا، بما أننا متطابقان، سوف نموتُ **فـ**ى اللحظة ذاتها، فى كلّ يوم وفى اللحظة نفسها يموتُ أناس ليسوا متطابقين ولا يسكنون فى المدينة نفسها، **فـ**ى هذه الحالات المقصود تزامن فقط، مجرّد تزامن عادىّ، **هـ**ذه المحادثة وصلت إلى نهايتها، لم يعد لدينا أىُّ شىء نقوله، آمل فقط أن تكون لديك اللباقة فى أن تحترم كلمتك، **لـ**قد وعدتُ بألا أهتف أبداً إلى بيتك وسوف أحترم وعدى، **حـ**سناً جداً، أطلب إليك مرة أخرى أن تغفر لى، **مـ**غفور لك، **مـ**ساء الخير، **مـ**ساء الخير، كان هدوءُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو غريباً جداً فى حين كان من الطبيعى، والمنطقى، والإنسانى، ضمن نظام الإشارات هذا، أن يغلقَ الهاتفَ بعنف، أن يضربَ بقبضته المنضدة بعنفٍ لكى يحرّر غضبَه العادلَ وليتعجّبَ

بمـــرارة، كـــثيـر من العـذاب من أجل لا شـىء. بناءُ الاستراتيجيات أسبوعاً بعد أسبوع، إعدادُ المخططات، حسابُ كل خطوة جديدة، وزنُ آثار الخطوة السابقة، توجيـهُ الأشـرعـة بطـريقـة يُسـتـفـاد منهـا من الرياح المواتيـة من أينمـا أتت، ذلك كله لكى ينتـهى إلى أن يطلب بتواضع الغفـران وإلى أن يَعِدَ مثلُ صبىٍّ أمسك به وهو يخطئ فى النمليّة بألا يعـود لمثلهـا. ومع ذلك، وضدَّ كلّ توقع معقول، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو راضياً. قبل كلّ شىء لأنّه يعتبر أنه كان طوال الحوار على مـسـتـوى الموقف، غـيـر مـسـتـسلم للذعـر أبداً، مقـارعـاً نداًّ لندّ، وهذا مـا كـان عليـه الحـال، بل وحتى منتقلاً بعناد، مرة أو مرّتين، إلى الهجوم. ثمَّ، لأنه قدّر أنّ من غير المعقول بكلٍّ بساطة أن تبقى الأشياء عند هذا الحدّ، وهو سبب ذاتى بلا مراء، لكنه مُعتمَدٌ بفعل تجربة العـديد والعديد من الأفعـال التى تأخّرت رغم حدّة الفـضـول الذى كان عليـه أن يطلقـهـا بتـسـرّع إلى درجـة الظهـور أحيـانـاً وقـد سـقطت فى النسـيـان إلى الأبد. حتى ولو افـتـرضنا أن الأثـر الفـورىّ للكشف لم يتبدَّ مؤثراً بـالنسبة إلى دانييل سانتا ـ كلارا مثلما كان بالنسـبـة إلى ترتوليـانو مـاكسـيـمـو آفـونسـو، فـمن المستحيل ألا يأخذ أنطونيو كلارو المبادرة فى يوم أو فى آخر، صراحة أو خفية، لكى يقارنَ وجهاً مع الوجه الآخـر وندباً مع الندب الآخـر. **لا** أعـرف حـقـاً مـا العـمل، قـال لزوجـتـه بعـد أن روى لهـا القـسـم من المحـادثة الذى لـم تكن قـد سـمـعـتـه، هـذا الشـخص

يتحدث بكثير من الثقة بحيث إننا نرغب فى معرفة ما إذا كانت القصة التى يرويها صحيحة حقاً، لو كنت مكانك، لكنّستُ هذه القضية من رأسى، ولكرّرتُ لنفسى مائة مرة فى اليوم أنه لا يمكن أن يكون هناك شخصان متطابقان، حتى أقتنع وأنسى، ولا تحاولين القيام باتصال معه، أعتقد أن لا، لماذا، لا أدرى، بسبب الخوف، كما أفترض، بالطبع، فالموقف ليس عادياً، لكنى لا أرى سبباً للخوف، فى ذلك اليوم شعرت بما يشبه الدُّوار حين فطِنتُ إلى أنه لم تكن أنتَ على الطرف الآخر من الخط، إننى أفهم هذا، حين أسمعه أسمع نفسى شخصياً، فكرتُ، لا لم أفكر بذلك، بل إننى بالأحرى شعرتُ به، كان ذلك كنوبة هلع خنقتنى، جعلتْ شعرى ينتصب على جسمى، شعرتُ أنه إذا كان صوته مطابقاً، فكلّ الباقى سيكون كذلك أيضاً، ليس بالضرورة، ربّما لم يكن التزامن كلياً، إنه يدّعى أنه كذلك، يجب التحقق من ذلك، وكيف سنتصرف للقيام بهذا، نستدعيه إلى هنا، تخلع ملابسَكَ كلياً، ويخلع ملابسه كليّاً لكى أقوم أنا، وقد سُمِّيتُ حكماً من قبلكما أنتما الاثنَين، بنطق الحكم أو أكون عاجزة لأنّ التطابق سيكون كليّاً إلى درجة ومطلقاً إلى درجة أننى إذا تركت المكان حيث نتواجد جميعاً ثمّ أعود إليه من بعد فلن أعرف أبداً مَنْ هو الواحد ومَنْ هو الآخر، إذا خرج واحد من الاثنَين، إذا ذهب من هناك، فمع مَنْ سأتواجد، هل تستطيع أن تقوله لى، معك، معه، ستميزِّين كلاً منّا بثيابه، نعم،

بشرط ألا تكونا قد تبادلتماهما، **هـ**دّئى نفسك، إننا نتناقش، هذا كلّ شىء، لا شىء من ذلك سيحدث، **هـ**ل تتخيّل قليلاً، التقريرُ اعتباراً من علامة خارجيّة لا داخليّة، اطمئنّى، **و**الآن أتساءل ما الذى أراد أن يقول تماماً حين تعجّبَ من أنكما ستموتان فى اللحظة نفسها لأنكما متطابقان، **لـ**م يؤكد ذلك، إنه صاغ فقط تخميناً، افتراضاً، كما لو كان يسائل نفسه بنفسه، على كلِّ حال لا أرى لماذا رأى حسناً أن يقوله دون أن يملك سبباً محدّداً، **كـ**ان ذلك ليروّعنى، **مـ**ن هو هذا الرجل، ماذا يريد منّا، أعرف بقدر ما تعرفين، أىّ لا شىء، لا ما هو عليه، ولا ما يريد، إنّه يزعم نفسه أستاذ تاريخ، ذلك بالتأكيد صحيح، فلن يخترع **ذ**لك، على كلِّ حال لقد بدا لى أنه رجل مثقف، أما بالنسبة إلى هذا النداء الهاتفى فأعتقد أننى كنت سأتصرف بالطريقة نفسها لو كنت أنا وليس هو الذى اكتشف التشابه، **و**كيف سنشعر بأنفسنا من الآن فصاعداً مع هذا النوع من الشبح الذى سيظلّ فى الشقة، سيكون لدىّ الانطباع أننى أراه هو فى كلّ مرّة سأراك فيها، **مـ**ا زلنا تحت تأثير الصدمة، والمفاجأة، غداً سوف يبدو لنا كلّ ذلك بسيطاً، غرابة شأنها شأن الكثير من الغرابات الأخرى، لن يكون ذلك لا قطة برأسيْن، ولا عجلاً مع ساق إضافيّة، بل فقط زوجاً سياميّاً ولدا منفصليْن، **قـ**بل قليل تحدثتُ عن الخوف، عن الهلع، لكننى الآن أفطِنُ إلى أننى أشعرُ بشىءٍ آخر، **مـ**اذا، إننى عاجزة عن تفسيره، ربما هاجس، **حـ**سنٌ أم

سيّئ، إنه بالضبط هاجس، مثل باب مغلق وراء باب آخرَ مغلق، إنكِ ترتعدين، هذا ما يبدو لى الأمر عليه، ردّت هيلينا، لأنّ هذا هو اسمها وكنا لا نزال لا نعرفه، بسَهْو على حركة زوجها الودودة، ثم تكوَّرت على نفسها فى أقصى الأريكة التى كانت جالسة عليها وأغلقت عينيها، أراد أنطونيو كلارو أن يغيِّر أفكارها، وأن يطمئنها بمزحة، إذا صرتُ ذات يوم ممثلاً من الطبقة الأولى، فإنّ هذا الترتوليانو يستطيع أن يفيدنى كبديل، سأجعله يمثلُ المشاهدَ الخطيرة أو المضجرة وسأبقى فى البيت، لن ينتبه أحدٌ إلى التبديل، فتحت عينيها وقالت مع ابتسامة شاحبة، أستاذ تاريخ يقوم بدور البديل، هذا يمكن أن يكون مثيراً للاهتمام، والاختلاف هو أن البدائل فى السينما يتقدمون فقط حين يُنادى عليهم فِى حين أنّ هذا البديل غزا بيتنا، كفّى عن التفكير بذلك، خذى كتاباً، شاهدى التليفزيون، سلّى نفسك، لا رغبة لدىّ فى القراءة، وأقل منها فى مشاهدة التليفزيون، سأذهب لأنام. عندما ذهب أنطونيو كلارو إلى السرير بعد ساعة من ذلك، كانت هيلينا تبدو وهى تنام. تصنّعَ تصديقَ ذلك وأطفأ النور، عارفاً مسبقاً أنه سيقضى وقتاً قبل أن يعثر على النوم، كان يتذكر الحوار المقلق الذى كان له مع الدخيل، وكان يبحث عن المقاصد الخفيّة فى جُمَلِه، حتى اللحظة التى بدأت فيها الكلمات، أخيراً تعبة بقدر تعبه، تصيرُ حياديّة وتفقد دلالتها، كما لو أنها لم تعد لها علاقة أبداً

بالعالم الذهنى لمن كان يستمرّ فى لفظها فى صمت وبصورة يائسة، أولئك الذين يتطابقون يموتون معاً، كان قد قال وأيضاً، الصورة الاحتمالية لِمَنْ يَنظرُ إلى نفسه فى المرآة، الصورة الحقيقية لِمَنْ يَنظرُ إليه مِنَ المرآة. بعد محادثته مع زوجته، بعد هواجسه وخوفه ولما كان الليل يتقدم، قرّرَ أن المسألة يجب أن تُحسَم، إلى الأفضل أو إلى الأسوأ، بطريقة أو بأخرى، وبسرعة، سأذهب لأكلمه. خدع القرارُ عقله، وضلَّلَ توترات جسده، وتقدم النوم، وقد وجد الدربَ مفتوحاً، بهدوءٍ كامل واستلقى لينام. أما وقد أنهكت من إرغامها نفسها على سكون كانت أعصابها كلها تتمردُ ضدّه، فقد نعست أخيراً هيلينا، وتوصّلت خلال ساعتين إلى الاستراحة إلى جانب زوجها أنطونيو كلارو كما لو أن أىّ رجل آخر لم يكن قد أتى ليتوسّط بينهما ولكانت على وجهٍ الاحتمال استمرّت على هذا النحو حتى الفجر لو لم يوقظها حلمها بصورة عنيفة، فتحت عينيْها فى الغرفة المستغرقة فى ظلال قريبة من الظلمة، سمعت التنفسَ البطىء المنتظم لزوجها وتنبهت بغتة إلى أنّ هناك تنفساً آخر فى الشقة، كان أحدهم قد دخل، كان أحدهم يتنقل خارجاً، ربما فى قاعة الجلوس، ربما فى المطبخ، الآن وراءَ الباب المطلّ على الممرّ، فى كلّ مكان، ربما هنا بالذات، وهى ترتعدُ من الخوف، مدّت هيلينا ذراعَها لكى توقظ زوجها، ولكن العقل أوقفها فى اللحظة الأخيرة. ليس هناك أحد، فكرت، من المستحيل أن يكون أحدٌ موجوداً فى

الخارج، إنها مخيّلتى، أحياناً تخرجُ الأحلام من الدماغ الذى يحلم بها، إنها تسمّى آنئذ رؤى، خيالات، توقعات، إنذارات، تنبيه من العالم الآخر، إنّ مَنْ يتنفسُ ويطوفُ فى الشقة، مَنْ جلس قبل قليل على أريكتى، مَنْ اختبأ وراء ستارة النافذة ليس هو هذا الرجل، إنه الخيال الذى هو فى رأسى، هذا الشخصُ الذى يتقدمُ باستقامة علىّ، مَنْ يمسّنى مع يديْن مطابقتيْن ليدىْ هذا الرجل الآخر النائم إلى جانبى، مَنْ ينظرُ إلىّ مع العينيْن نفسيْهما، مَنْ يقبلنى مع الشفتيْن نفسيْهما، مَنْ يقولُ لى كلماتِ كلّ يوم مع الصوت نفسه، وكذلك الكلمات الأخرى، القريبة، الحميمة، كلمات العقل وكلمات الجسد، إنه خيال، لا شىء إلا خيال مجنون، كابوس ليلىّ ولد من الخوف ومن القلق، غداً سيستعيد كلُّ شىءٍ مكانه، ولن يكون ضرورياً أن يصيح الديك ليطردَ الأحلامَ السيئة، سيكفى أن يرنّ المنبّه، كلٌّ يعلم أنه لا يمكن لأىّ إنسان أن يكون مطابقاً تمام المطابقة لآخرَ فى عالم تُصنع فيه آلات للإيقاظ، كانت النتيجة تعسّفية، كانت تهينُ الحسَّ السليم، الاحترام البسيط للمنطق، لكنّ هذه المرأة، التى كانت قد ضلت الليل كله بين تفكك أفكارها المظلمة المصنوعة من نتف متحركةٍ من الضباب التى كانت تغيِّر شكلها واتجاهها فى كل لحظة، وجدتها ملائمة تمام الملاءمة ودامغة، يجب علينا أن نشكرَ حتى التعليلات العبثية إذا ما أعادت لنا قليلاً من السكون فى وسط ليل مرّ، حتى وإن كان

سكوناً وهمياً بقدر هذا السكون، وإذا أعطتنا المفتاح الذى سيسمحُ لنا أن نعبُرَ أخيراً ونحن نتعثر بوابة النوم، فتحت هيلينا عينيْها قبل أن يرنّ المنبّه، أوقفت المنبّه لكى لا يستيقظ زوجها وتركت، وهى مستلقية على ظهرها، وعيناها تنظران السقف، أفكارها الغامضة تنتظم شيئاً فشيئاً وتسير على الدرب الذى ستتصهر فيه فى فكر عقلانى، متماسك، متحرّرٍ من كل الأشباح الغامضة ومن كل مخيلة قابلة للتفسير بصورة شديدة السهولة، كان يصعب عليها أن تصدق أنَّ بينَ الأوهام، الحقيقية، الميثولوجية، تلك التى تتقيّأ اللهب ولها رأس أسد، وذيل تنّين وجسد عنزة، لأنه كان يمكن أن تتقدّم أيضاً على هذا النحو وحوشُ السهاد الرخوة، كان يصعب عليها أن تصدّق أنه قد عذبتها، مثل فتنة وقحة، لكى لا نقول فاحشة، صورة رجل آخر لن تكون بحاجة إلى خلع ملابسه لكى تعلمَ كيفً سيكون جسديّاً من الرأس إلى القدمين، بكليّته، لأنّ رجلاً مطابقاً ينام إلى جانبها، لم تكن تراقب نفسها لأنّ هذه الأفكار فى الواقع لم تكن تنتمى إليها، كانت ثمرة غامضة لخيال مشوّش بانفعال عنيف وغير معتاد وكان قد انحرف، ما يهمُّ هو أنها يقِظة ومتنبّهة فى هذه اللحظة، سيّدة أفكارها وإرادتها، أما هلوسات الليل، هلوسات الجسد شأنَ هلوسات العقل، فقد تبدّدت فى الهواء مع أوائل ومضَاتِ الفجر، هذا الضياء الذى ينظمُ العالم ويضعه فى فلكه المعتاد، مُعيداً فى كلِّ مرّة كتابة ألواح القانون، حانَ وقتُ

النهوض، فمركز وكالة السفر التى تعمل فيها يقع على الطرف الآخر من المدينة، سيكون رائعاً، تفكر كلّ صباح خلال المسيرة، لو تحصل على أن تنقلَ إلى مكاتبَ فى المركز، فالسيرُ اللعينُ فى هذه الساعة من الزحام تبرّر تماماً صفة الجهنمى التى أنعم بها عليه أحدهم فى لحظة سعيدة من الإلهام، لا نعلمُ متى ولا فى أىِّ بلد، سيبقى زوجها نائماً خلال ساعة أو ساعتين أيضاً، فلا وجود اليومَ لأىّ تصوير سينمائىّ يطلبه والفيلم الحالى يقتربُ من نهايته، فيما يبدو. انزلقت هيلينا خارج السرير بخفة طبيعية عندها، لكنها مصفاة بالسنوات العشر من زواج هذه الزوجة اليقظة والمخلصة، ثمّ انتقلت دون ضجة فى الغرفة وهى تنتزع مبذلها لتلبسه، بعد ذلك خرجت إلى الممرّ. هاهنا إنما طاف الزائر الليلى، كان قد تنفس بالقرب من ثقب الباب قبل أن يدخل ويذهب ليتوارى وراء الستارة، لا، لا شىء يُخشى هناك، لم يكن ذلك هجوماً ثانياً داعراً لخيال هيلينا، سَخِرَت هى نفسها من غواياتها التى تبدو فى نهاية المطاف تافهة الآن إذ يمكنها تحليلها فى النور الوردى الذى ينفذ من نافذة قاعة الجلوس التى شعرت فيها بنفسها أمس مساء مرعوبة رعب فتاة الحكاية الصغيرة المهجورة فى الغابة. هاهو الكرسىّ الذى جلس عليه الزائر ولم يفعل ذلك بالصدفة، فمن كلِّ الأماكن التى كان يمكنه الاستراحة فيها، إذا كان ذلك قصده فعلاً، اختار كرسىّ هيلينا، كما لو من أجل أن يتقاسمه معها أو أن

يستحوذ عليه، توجدُ الأسباب كلها من أجل التفكير بأنه بقدر ما نحاول كبت خيالنا، بقدر ما يتسلى هذا الأخير فى البحث وفى مهاجمة الأمكنة من الوقاية التى كنا تركناها عن وعى أو عن غير وعى عارية. ذات يوم، ستقول لنا هيلينا هذه المستعجلة والتى يجب عليها احترام ساعات العمل المهنى لماذا هى الأخرى ذهبت لتجلسَ على هذا الكرسى، لماذا تكوّرت فيه خلال دقيقة طويلة، لماذا، بعد أن كانت على هذا القدر من العزم عند اليقظة، تتصرف الآن كما لو أنّ الحلم استعادَها من جديد بين ذراعيه وهدهدها بعذوبة. وأيضاً لماذا، وقد لبست واستعدّت للخروج، فتحت دليل الهاتف ونسخت على ورقة عنوان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فتحت مواربة باب الغرفة، كان زوجها يبدو مستمرّاً فى النوم، لكن نومه لم يعد أساساً إلا الطرف الغامض الأخير من وضع النوم، كان بوسعها إذًا أن تقترب من السرير، وأن تقبّله على جبهته وأن تقول، **أ**نا ذاهبة، ثم أن تتلقى على فمها قبلته هو وشفاه الآخر، يا إلهى، هذه المرأة مجنونة بالتأكيد، الأشياء التى تقوم بها، والأشياء التى تخطر فى بالها، **هل** أنت متأخرة، سألها أنطونيو كلارو وهو يفرك عينيّه، **لا** يزال لدىّ دقيقتان، أجابت وجلست على طرف السرير، **م**اذا سنفعل بهذا الرجل، **أ**نتَ، ما الذى تنوى فعله، **هـ**ذه الليلة، بانتظار النوم، قلتُ لنفسى إنَّ علىَّ الذهاب لمكالمته، لكن الآن لم أعد أعرف إن كانت هذه هى أفضل فكرة، **إ**مّا أن نفتح له

الباب، وإما أن نغلقه فى وجهه، لا أرى حلولاً أخرى، على كل حال لقد تغيّرت حياتنا، لن تصير أبداً كما هى ذاتها، إنّ علينا نحن أن نقرّر، ولكن لا يمكن إرغام ما حدث على ألا يحدث، ظهور هذا الرجل واقعة لا نستطيع لا محوها ولا إلغاءها، حتى ولو لم نتركه يدخل، حتى ولو أغلقنا الباب فى وجهه، سينتظر على الجهة الأخرى حتى لا يعود بوسعنا أن نحتمل، أنتِ ترينَ الأشياء فى جانبها المعتم، ربما فى نهاية المطاف سينحلّ كلّ شىء بلقاء بسيط، سيبرهن لى أنه مطابقٌ لى، وسأقول له طبعاً يا سيّدى أنتَ على حق، ثم وداعاً لا لقاء بعده، تفضل بألا تزعجنا بعد الآن أبداً، سوف يستمرّ فى الانتظار على الطرف الآخر من الباب، لن نفتح له، لقد دخل أصلاً، إنه فى رأسك وفى رأسى، سننتهى إلى أنْ ننسى، هذا ممكن، لكنه ليس أكيداً، نهضت هيلينا، نظرت فى ساعتها وقالت، يجب أن أذهب، إننى فى طريقى إلى تأخير نفسى، خطت خطوتين من أجل الخروج، لكنها سألت أيضاً، هل سوف تهتف له، هل ستدبّر لقاء معه، ليس اليوم، أجاب زوجها وهو ينهض عل مرفقه، ولا غداً، سأنتظر عدداً من الأيام، ربّما هذه لن تكون فكرة سيّئة التظاهر باللامبالاة، المراهنة على الصمت، تركُ الوقت لهذه القضية لكى تفسد بذاتها، إنك أنتَ الذى يرى، إلى اللقاء. انفتح الباب المطلّ على السلم وانغلق. لن يُقالَ لنا إذا كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان جالساً على درجة السلم وكان ينتظر، تمدّد أنطونيو

كلارو من جديد على السرير، لو لم تكن حياتهما قد تغيّرت حقاً كما كانت زوجته قد قالت، لكان قد استدار على الطرف الآخر من السرير ولكان نامَ ساعة أخرى إضافية، إن الحاسدين الذين يزعمون أن على الممثلين أن يناموا كثيراً يبدون على حقٍّ فيما يقولون، إن ذلك دون شك نتيجة الحياة غير المنتظمة التى يعيشونها، حتى ولو كانوا متروبصين قليلاً مثل دانييل سانتا - كلارا. بعد خمس دقائق كان أنطونيو كلارو واقفاً، فى ساعة قليلاً ما اعتادها، وإن كان الإنصاف يقتضى أن نقول إنه حين تتطلب واجبات المهنة، فإنَّ هذا الممثل، الكسول كما هو واضح، قادرٌ على الاستيقاظ منذ بزوغ الفجر شأن أبكر القبَّرات، استشفَّ السماء من نافذة الغرفة، لم يكن صعباً أن يحزرَ المرءُ أن النهار سيكون حارّاً، وذهب إلى المطبخ يعدُّ لنفسه وجبة فطوره، كان يفكر بما قالته زوجته، إننا نحمله فى رأسنا، إنها كذلك، حاسمة، أو ليست تماماً حاسمة، إن لها موهبة الجُمَلِ المقتضبة، الوجيزة، القاطعة، إنها تستخدم أربع كلمات لتقول ما لا يقدرُ آخرون على التعبير عنه بأربعين بل ولا يقولون بها إلا نصف ما يريدون قوله، لم يكن على يقين من أنَّ أفضل حلٍّ هو الحلُّ الذى اقترحه، الانتظار بعض الوقت قبل الانتقال إلى الهجوم، سواء اتخذ هذا شكل لقاء شخصىٍّ وسرّىّ، دون شاهد قد يثرثر فيما بعد، أو شكل نداء هاتفىٍّ جافّ، بطريقة يترك معها المخاطب مشدوهاً، بلا صوت، عاجزاً عن

الإجابة، كان يشكّ على كلّ حال فى أن تنجح قدراته الجدليّة على أن يخنق فى المهد وعلى الفور أىّ عزيمة مهما وَهَنت حاضرة أو قادمة لدى هذا الملعون ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على أن يزرعَ فى حياة الشخصيّن اللذيْن يسكنان فى هذه الشقة بذور الاضطراب النفسى والزوجى المنحرفة انحراف تلك التى أعلنها من قبل ضمناً وكذلك تلك التى أطلقها صراحة، شأن التصريح الفاحش لهيلينا أمس مساء على سبيل المثال، سيكون لدىّ الانطباع بأنى أراه هو فى كلّ مرّةٍ سأنظر فيها إليك. والحقيقة، أنه لا يمكن إلا لامرأة مزعزعة بصورة خطيرة فى قواعدها الأخلاقية أن تطلق مثل هذه الكلمات فى وجه زوجها دون أن تدركَ العنصرَ الخاصَّ بالزنا الذى تنطوى عليه، بين السطور، هذا صحيح، ولكن بطريقة موحية بما فيه الكفاية. بانتظار ذلك، يجول جنين فكرة فى دماغ أنطونيو كلارو، وهو ما سينفيه بالتأكيد بغضب لو أننا استرعينا انتباهه إلى ذلك، فكرة وحدهُ الحذرُ سيمنعنا من وصفها بالميكيافيلية، لوقت سيطول على كل حال ما بقيت آثارها المحتملة، وهى بالتأكيد سلبية، لم تتجلَّ بعدُ. هذه الفكرة، وهى فى الوقت الحالى فى حالة مسودّة ذهنية، تقوم لا أكثر ولا أقلّ، ومهما أمكن لذلك أن يبدو لنا فاضحاً، على رؤية ما إذا لم يكن ممكناً، مع قليل من المهارة والحذق، أن تُستَخلصَ من التشابه، من التماثل، من التطابق المطلق، فى حالة ما إذا تأكد ذلك، منفعة شخصيّة ما،

وبإيجاز، رؤية ما إذا كان أنطونيو كلارو أو دانييل سانتا ـ كلارا سيجدان الوسيلة التى يخرجان بها رابحيْن من قضية لا يبدو فى الوقت الحالى أنها تخدمُ بأىّ حال مصالحهما. إذا كنا فى الوقت الحالى لا نستطيع أن نتوقعَ من المسئول عن الفكرة أن يكشف لنا الدروب الملتوية قطعاً التى يتصورُ بغموض قدرَتهُ بواسطتها على تحقيق غاياته، فلا يُعتمدَنَّ علينا، نحن مجرّد كتّاب أفكارِ الآخرين وناسخى أفعالهم المخلصين، لكَى نتنبأ بالمسار اللاحق لموكب لا يزال موجوداً فى باحة الكنيسة. بالمقابل من الممكن منذ الآن أن نستبعد من المشروع الجنينى فرضية أن يمكن لترتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يخدم كبديل للمثل دانييل سانتا ـ كلارا، لنتفق على أنَّ الطلبَ إلى أستاذ تاريخ أن يشارك فى السخافات الشعْريِّة للفن السابع سيكون قلة احترام فكرى، كان أنطونيو كلارو يشرب آخر جرعة من القهوة حين تسللت فكرة أخرى إلى تلافيف دماغه وهى أن يأخذ سيارته ويذهبَ ليلقى نظرة على الشارع وعلى العمارة حيث يسكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. يمكن لأفعال الكائنات البشرية أن تكفَّ عن أن تكون من تدبير الغرائز الوراثية، لكنها تتكرّر مع ذلك بانتظام مدهش إلى درجة أننا نعتقد أنَّ من المُباح، بلا مبالغة، قبولُ فرضية تكوّن بطىءٍ، لكنهُ مستمرّ، لنمطٍ جديدٍ من الغريزة ونفترض أن الاجتماعية ـ الثقافية ستكون الصفة الملائمة، تلك التى، وقد حدثت بفعل تنويعاتٍ منشؤها انتحاءات

مكرّرة وبشرط الاستجابة إلى مُحَرِّضات مطابقة، تجعلُ من الفكرة التى طرأت على فكر الواحد تطرأ بالضرورة على فكر الآخر. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أولاً هو الذى ذهب إلى هذا الشارع، متنكراً بصورة درامية، متشحاً بلباس أسود كله، فى صباح صيفٍ مضىء، الآن إنّه أنطونيو كلارو الذى يستعدُّ للذهاب إلى شارع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو دون أن يهتمّ بالتعقيدات التى يمكن أن تطرأ إذا قدّم نفسه فى هذه الأنحاء بوجه مكشوف، إلا إذا، وهو يحلق، ويستحم ويُعِدُّ نفسه، وُضِعَتْ إصبع الإلهام على جبينه لتذكّرَهُ بأنه احتفظ فى دولاب من الدواليب تحت الملابس، موضوعاً فى علبة سيجار فارغة، بصفة ذكرى مهنيّة مشحونة بالعاطفة، بالشارب الذى قام به دانييل سانتا ـ كلارا منذ خمس سنوات بتمثيل دور موظف الاستقبال فى كوميديا مَنْ يبحث يجد. كما يعلمنا بصورة حكيمة المثل القديم، ستجدُ ما هو ضروريٌّ لك إذا احتفظت بما لم يعد يفيدك. لن يتأخر أنطونيو كلارو فى معرفة أين يقيم أستاذ التاريخ الشهير بفضل دليل الهاتف المفيد، وهو اليوم موضوع بالمقلوب على الرفِّ الذى كان موضوعاً عليه دوماً، كما لو أنه وُضِعَ بسرعة من قبل يدٍ عصبيّة بعد أن استثيرَ بانفعال. كان قد سجّل العنوانَ فى مفكرته الصغيرة، وكذلك رقم الهاتف، وإن كان لا ينوى استعماله اليوم، إذا هتفَ يوماً ما إلى بيت ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فإنه يريد أن يستطيع القيام بذلك

حيثما يتواجد آنئذ، دون أن يتوجّب عليه أن يعتمد على دليلٍ لم يوضع فى مكانه فصار إذًا متعذر الوجود عندما نكونٍ فى حاجة إليه. إنه جاهز للخروج، شاربُه ملصقٌ حيث يجب أن يكون، ليس بمتانة شديدة لأنه فقدَ مع السنوات قليلاً من قابليته على الالتصاق، لكن لا مجال للخوف من أن يسقط فى اللحظة المصيرية، لم يبق له إلا ثوان عدّة ليمرّ أمام العمارة وليلقى عليها نظرة. عندما وضعه مهتدياً بالمرآة، تذكر أنه قبل خمس سنوات من الآن وجبَ عليه أن يحلق الشارب الطبيعى الذى كان يزيِّن آنئذ المكان بين أنفه وشفته العليا فقط لأنه لم يكن لا قصّته ولا شكله ملائميّن لمُخرج الفيلم نظراً لطبيعة دوره. أما وقد وصلنا إلى هذه النقطة من القصة، فإننا نتوقع أن قارئاً يقظاً، ينحدر مباشرة من سلالة هؤلاء الصبية السذج، لكنهم شديدو الوقاحة الذين كانوا، زمن السينما فى الأيام الخالية، يصرخونَ من المقاعدِ لبطلِ الفيلم أنَّ خريطة منجم الذهب كانت مخفيّة تحت شريط قبّعة العدو الوقح والغدار الذى سقط على قدميه، لنعدّ أنفسنا كىْ يُستَرعى انتباهنا وكى يُشارَ إلينا، مع وصفها بسهْو لا يُغتفر، إلى اللامساواة فى التعامل بين شخصيّة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وشخصية أنطونيو كلارو، اللذيْن، فى مواقفَ متشابهةٍ فى كلٌ شىء، يجبُ عليهما أن يدخل الأوّل إلى المركز التجارى ليضعَ أو لينزع لحيته وشاربه المستعاريْن، فى حين يستعدُّ الثانى للخروج من بيته مع أكبر قدر من

الحرية وفى وضح النهار حاملاً شارباً لم يكن فى الحقيقة شاربه وإن كانت ملكيّته تعود له بكامل حقوقها. هذا القارئ اليقظ ينسى ما سبق أن أشير إليه مرات عدّة خلال هذه القصّة وهو أنّه مثلما أنَّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هو من كلّ ناحية آخرُ دانييل سانتا ـ كلارا، كذلك فإنَّ الممثل دانييل سانتا ـ كلارا، وإن كان لأسباب أخرى، هو أيضاً آخرُ أنطونيو كلارو. ولن تجدَ أيّ جارة فى العمارة أو فى الشارع غريباً أن يخرجَ الآن مع شاربٍ مَنْ دخل أمس فقط حليقاً، ستقولُ على الأكثر إنْ لاحظتِ الاختلاف، إنه أخيراً جاهزٌ لتصوير فيلمه، استشار أنطونيو كلارو وقد جلس فى سيارته، بعد خفض الزجاج، خريطته وقائمة الشوارع، وعرفَ منهما ما نعرفهُ من قبل، أى أنّ الشارع الذى يسكن فيه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يقع فى الطرف الآخر من المدينة، وبعد أن ردّ بمودّة على تحية جارٍ له، انطلق. سيقضى ساعة تقريباً ليبلغ مكان الوصول، وسيمرّ، مغازلاً القدر، ثلاث مرات أمام العمارة بفاصل عشر دقائق كما لو أنه يبحث عن مكان فارغ ليركن سيارته، يمكن أن يحدث أن تزامناً سعيداً يحمل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على النزول إلى الشارع، مع أنّ الذين يعرفون واجبات أستاذ التاريخ يعلمون أنه يتواجدُ فى هذه اللحظة بالذات جالساً بهدوء إلى مكتبه، يعمل بدأب على الاقتراح الذى كلفه مدير ثانويّته أن يحرّره، كما لو أنّ مستقبله كان يتوقف على نتيجة هذا الجهد، فى حين أن

الحقيقة، وهذا ما نستطيع أن نتوقعه، هى أنَّ الأستاذ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لن يضع قدميْه طوال حياته مطلقاً فى قاعة أساتذة، سواء فى الثانوية حيث صحبناه مرات عدّة أو فى سواها، سنعرف عندما يحين الوقت لماذا، رأى أنطونيو كلارو ما كان متاحاً للرؤية، شارعاً عاديّاً، عمارة مشابهة لأخرى كثيرة، لا أحد يستطيع أن يتخيّل أنّ وراء هذه الستائر البريئة تعيش ظاهرة من الطبيعة لا تقلّ روعة عن أفعوان ليرنى برءوسه السبعة وسواه من العجائب المماثلة، أنْ يستحق ترتوليانو ماكسيمو أفونسو حقاً وصفاً يُخرِجُهُ عن السويّة الإنسانيّة مسألة تبقى تتطلب التوضيح، مادمنا لا نعرف حتى الآن أيّاً من هذيْن الرجليْن كانَ أوّلَ مَنْ وُلِد. إذا كان هو ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فإلى أنطونيو كلارو إنما يعود وصف ظاهرة من الطبيعة، نظراً لأنه إذ انبثق فى المقام الثانى فقد تقدّم ليحتلَّ بصورة تعسفية فى هذا العالم مكاناً لم يكن مكانه، مثل أفعوان ليرنى، ولهذا السبب من ثمَّ قتله هرقل. وما كان توازن العالم السائد ليختل بأىِّ حال لو أن أنطونيو كلارو كان رأى النور وكان ممثلاً فى نظام شمسىٍّ آخر، ولكن هنا، فى المدينة نفسها، إن صحَّ القول بابٌ مقابلَ باب بالنسبة إلى مراقب ينظرُ إلينا من القمر، فإنَّ كلَّ ضروب الفوضى وكل ضروب الغموض ممكنة، خاصة أسوأها، خاصة أشدّها فحشاً، ولكى لا نذهب إلى التفكير بأننا نولى تفضيلاً خاصاً لترتوليانو ماكسيمو أفونسو لأننا

نعرفه منذ زمن طويل، نسارع إلى التذكير بأنه يوجدُ رياضياً قدرٌ مماثلٌ من الاحتمالات القوية بكونه الثانى الذى وُلِدَ شأنه شأن أنطونيو كلارو. وعليه، ومهما أمكن أن يبدو البناءُ النحويُّ غريباً بالنسبة إلى العيون والآذان الحسّاسة، فمن المشروع القولُ إنَّ ما يجب أن يكون كانَ من قبلُ وأنه لم يبقَ إلا تسجيله أسودَ فوق أبيض على الورق، لم يعد أنطونيو كلارو يمرّ فى الشارع، وقد كمَنَ، بعد أربع كتل من العمارات بعيداً، خوفاً من أن يفاجئ مواطن صالح حركته فينادى الشرطة، خلع شارب دانييل سانتا - كلارا ولما لم يعد لديه شئٌ آخر يفعله استعادَ درب العودة إلى بيته حيث ينتظره سيناريو فيلمه القادم الذى كان مفترضاً به أن يدرسه وأن يسجل ملاحظاته عليه، سيخرج من جديد لكى يذهب لتناول الغذاء فى مطعم قريب، وسيقوم بقيلولة قصيرة ويباشر العمل حتى عودة زوجته، لم يكن يملك بعد الدور الرئيسى، لكنّ اسمه سيوضع على الإعلانات التى ستقام فى المواقع الاستراتيجية من المدينة، وكانَ شبهَ متأكد من أن النقاد سيصوغون ملاحظات تقريظية، وإن كانت وجيزة، على تمثيله دور المحامى الذى عُهدَ به إليه هذه المرّة، كانت صعوبته الوحيدة آتية من كمية المحامين الهائلة من كل تكوين وطبيعة الذين رآهم فى السينما وفى التليفزيون، مُتَّهمين عامّين وخاصّين يتلاعبون بمختلف الأساليب والمفردات القانونية، من الملاطف إلى العدوانى، مدافعين ذربى اللسان بهذا القدر أو ذاك آخر همومهم القناعة ببراءة زبونهم، يودُّ

لو يَبْتكرُ نمطاً جديداً من المحامين، شخصية قادرة على خنق القاضى بكلٍّ واحدة من كلماته وبكلٍّ واحدة من إشاراته وأن يبهر الجمع بحدّة إجاباته، وبالقوّة الشرسة لتعليلاته وبذكائه فوق البشرى. صحيح أن السيناريو لم يكن يتضمن شيئاً من كلٍّ ذلك، ولكن ربما ترك المخرج نفسه يقتنع بتوجيه كاتب السيناريو نحو هذا الاتجاه إذا ما هُمِسَت كلمة ذات وقع جيد فى عمق أذنه من قبل المنتج، كان يجب التفكير بذلك. وواقعة كونه همسَ لنفسه أنه كان يجب التفكير بذلك نقلت حالاً فكرهُ إلى مكانٍ آخر، نحو أستاذ التاريخ، نحو شارعه، عمارته، نوافذه المحجوبة بستائر ومن هناك، بصورة استرجاعية، نحو النداء الهاتفى بالأمس مساء، نحو محادثاته مع هيلينا، نحو القرارات التى يجب عليه عاجلاً أو آجلاً أن يأخذها، والآن لم يعد على هذا القدر من اليقين من القدرة على الاستفادة من هذه القصة، ولكن كما سبق وأن قاله من قبل، كان عليه أن يفكر. عادت امرأته متأخرة قليلاً عن العادة، لا، لم تقم بمشترياتها، كان خطأ السير، لا يُعرف أبداً ما يمكن أن يحدث مع السير، أنطونيو كلارو لا يعرفه إلا جيداً، هو الذى قضى ساعة ليصل إلى شارع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكن لا يجب أن أتكلم عن ذلك اليوم، فأنا على ثقة من أنها لن تفهم لماذا فعلته. هيلينا أيضاً سكتت، فهى على ثقة من أنّ زوجها لن يفهم لماذا تصرّفت كما كانت قد فعلت.

بعد ثلاثة أيام رنّ الهاتف فى بيت ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى منتصف الصباح، لم تكن أمّه بسبب حاجة عاطفيّة، لم تكن ماريا دا باز بسبب الحب، لم يكن أستاذ الرياضيات بسبب الصداقة ولم يكن كذلك مدير الثانوية راغباً معرفة كيف كان العمل يتقدّم. هنا أنطونيو كلارو، صرّح على الطرف الآخر من الخط، صباح الخير، ربما أهتف لك باكراً جداً، لا يهمك، فأنا مستيقظ وأعمل، إذا كنت أزعجك، فسأهتف فيما بعد، ما أقوم به يمكنه الانتظار ساعة، لا أخاطر فى إضاعة خط الأفكار، لن أطيل عليك، لقد فكرتُ كثيراً هذه الأيام الأخيرة ووصلت إلى نتيجة أن علينا أن نلتقى، هذا أيضاً رأيى، فلا معنى لأن يرفض شخصان فى حالتنا أن يتعارفا، كانتْ لدى امرأتى شكوك، لكنها انتهت إلى الاعتراف بأنّ الأشياء لا يمكن أن تبقى عند هذا الحدّ، إننى سعيد بذلك، المزعج هو أنه لا مجال لأن نظهر معاً أمام الناس، فليس لنا ما نكسبه من أن نكون موضوع هذا النوع من الدعاية، فى التليفزيون أو فى الصحافة، خاصة

أنا، إذا عُرِفَ بأنَّ لى شبيهاً على هذا القدر من التماثل حتى فى الصوت، فسيؤذى حياتى المهنية، **أكثر** من شبيه، **أو** توءم، **أكثر** من توءم، **هـ**ذا على وجه الدقة ما أريد التحقق منه، على الرغم من أنّ علىَّ أن أعترف لك أنه يصعب علىّ تصديق هذا التطابق المطلق بيننا، **لا** يتوقف إلا عليك أن تجلو القضيّة، **سـ**يتوجّبُ إذًا أن نلتقى، **نـ**عم، **ولكن** أين، هل لديك فكرة، سيكون الحلّ فى أن تأتى إلى بيتى، لكن هناك مشكلة الجيران، فالسيّدة التى تسكن فى الطابق العلوى، مثلاً، تعرفُ أننى لم أخرج، تخيّل ردّ فعلها إذا رأتنى أدخل إلى حيث أنا موجود، **لـ**دىّ قناع، أستطيع التنكر، **أىّ** نوع من الأقنعة، **شـ**ارب، **لـ**ن يكون ذلك كافياً، ستسألك، فى الواقع ستسألنى أنا لأنها ستعتقد أنها تكلمنى، إن كنت أعمل على الإفلات من الشرطة، **هـ**ل لك هذا النوع من العلاقة معها، إنها هى التى تنظف بيتى، **أ**فهم ذلك، فعلاً لن يكون ذلك من الحزر، فضلاً عن ذلك يوجد الجيران الآخرون، هذا صحيح، إذًا سيكون من الأفضل كما أظن أن نلتقى خارج المدينة، فى مكان خال، فى الريف، حيث لا يرانا أحدٌ وحيث نستطيع الثرثرة على راحتنا، **تـ**بدو لى هذه فكرة جيّدة، أعرف مكاناً يمكن أن يقوم بالوظيفة، على بعد ثلاثين كيلومتراً من المدينة، **مِنْ** أىّ ناحية، **مِنَ** الصعب شرح ذلك بالهاتف، سوف أرسل لك اليوم بالذات مخططاً مع كلّ الإشارات، سنلتقى **خـ**لال أربعة أيام لكى أترك للرسالة الوقتَ

لتصل، خلال أربعة أيام سيكون يوم أحد، يوم مثله مثل أىّ يوم آخر، ولماذا على بعد ثلاثين كيلومتراً، أنت تعرف كيفً هى المدن، الخروج منها يتطلب وقتاً، وعندما تنتهى الطرق فالمصانع هى التى تبدأ وعندما تنتهى المصانع فمدن الأكواخ هى التى تبدأ، هذا دون الحديث عن المناطق العمرانية المبتلعة من المدينة والتى تجهلها، إنك تصف جيداً، شكراً، سأهتف لك السبت لتأكيد الموعد، حسناً جداً، لا يزال يوجد شىء أودُّ أن تعرفه، ما هو المقصود، سآتى مسلحاً، ولماذا، إننى لا أعرفك، ولا أعرف ما مقاصدك السرّية، إذا كنت تخشى أن أحجزك، مثلاً، أو أن أقتلك لكى أبقى وحيداً فى العالم مع هذا الوجه الذى نملكه كلانا، أستطيع أن أقول لك دفعة واحدة إنه لن يكون معى أىّ سلاح، ولا حتى مجرّد سكين، شكوكى لا تذهب إلى هذا الحدّ، ولكنك ستأتى مسلحاً، من باب الاحتراز، هذا كلّ شىء، إنّ مقصدى الوحيد هو أن أبرهن لك أننى على حقّ وبالنسبة إلى ما قلته، من أنك لا تعرفنى، أسمحُ لنفسى بأن أحملك على ملاحظة أننا اثنان فى الموقف نفسه، إنك لم ترنى أبداً، هذا صحيح، لكنى أنا حتى الآن لم أركَ إلا كما لستَ أنت، وأنتَ تمثل شخصيات، نحن إذاً متساوون، لا نتناقش، علينا أن نذهب إلى الموعد بصورة سلمية، دون إعلان حرب مسبق، ليس أنا من سيحمل سلاحاً، لن يكون معبّأً، ولماذا حمل السلاح، إن لم يكن معبّأً، افعل كما لو كنت أقوم بتمثيل دور، دور

شخصيّة اجتذبت إلى كمين تعرف أنها ستخرج حيّة منه لأنها قرأت السيناريو من قبل، وبإيجاز، كالسينما، فــــى التــاريخ، الأمــر على العكس تمامــاً، لا نـعـرف الأشــيــاء إلا من بَعْدُ، الملاحظة مـثيـرة للاهتمـام، لم أفكر فـيــهــا أبداً، ولا أنا كــذلـك، لقــد أدركت ذلك بالضـبط لتـوّى فى هذه اللحظة، إذًا نحن مـتـفـقـان، سنلتقى الأحد، ســأنتظر نداءك الهـاتفى، لــن أنسى، كانت سعادة لى أن أثرثر معك، إلى اللقــاء، احتـرامى لزوجتك. كـان أنطونيو كـلارو، مثل ترتوليانو ماكسيمو أفونسـو، وحيداً فى بيتـه، كان قـد أشعـر هيلينا بأنه سيهتف إلى الأستاذ، لكنه يفضل ألا تكون حاضرة، وأنه سيـقصُّ عليهـا المحـادثة بعـد ذلك. لم تعتـرض زوجتـه على ذلك، وصـرّحت أن ذلك يبـدو لها حسناً، وأنهـا تفـهم أنه يـريد أن يشـعـر بالراحـة فى حـوار لن يكون بالتـأكيد سهـلاً، لكنّ مـا لن يعـرفـه أبداً هو أن هيلينا كـانت قـد هتفت مـرتيْن من وكالة السفـر حيث تعـمل، الأولى إلى رقـمِهـا الخــاص، والثـانيـة إلى رقم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، شاءت الصدفة أن يكون ذلك حين كان زوجها يقوم باتصال هاتفى، كان لديها على هذا النحو اليقين بأنّ القضية تتقدّم وهنا أيضاً كـانت ستـعـجـز عن أن تقـول لماذا هتفت، يصـيـر من الواضح أكثر فـأكثر أنه بعد العديد جداً من المحاولات المُجْهَضَة بهذا القدر أو ذاك، سنتوصّلُ أخيـراً إلى أن نشــرحَ كليّاً أفعـالنا إذا تمسّكنا بالقـول لماذا فعلنا هذا الشىء مع زعـمنا عـدم مـعـرفـة لماذا فـعلناه، سـيكون

برهاناً على عقل شديد الثقة بنفسه افتراضُ أنه لو وجدت زوجة أنطونيو كلارو هاتف ترتوليانو ماكسيمو أفونسو غير مشغول، لكانت أغلقت الهاتف دون انتظار الجواب، لن تعلنَ على وجه اليقين أنا هيلينا، زوجة أنطونيو كلارو، لن تقول على وجه اليقين أهتف لك لأعرف كيف حالك، لن تكون هذه الكلمات، فى الوضع الحالى، مناسبة جداً، لكى لا نقول مباشرة غير لائقة، من حيث إنَّه، على الرغم من أنّ هذيْن الشخصيْن قد تحادثا من قبل مرّتيْن، فلا يوجد بينهما حميمية كافية لكى يكون طبيعياً أن يهتمّا بالتبادل بحالة نفسٍ أو صحةِ الآخر، ولا يمكن القبول كسبب فى عذر ألفة مفرطة واضحة واقعة أن المقصودَ هنا صيغٌ عادية، جارية، من النوع الذى لا يرغم من حيث المبدأ على ولا يلزم بشىء، إلا إذا تمنى المرء تنقية عضو السمع بطريقة يلتقط بها درجات الصوتيات الفرعية المعقدة الضمنية لهذه الصيغ، كما بيّنّا بإسهاب فى مقطع آخر مِنْ هذه القصّة لكى ننوِّرَ القرّاء المهتمّين بما هو مخفىّ أكثر من اهتمامهم بما يتكشّف. أما بالنسبة إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فإنّ الارتياح الذى بدا عليه وهو يستند إلى الكرسى حين انتهت المحادثة، كان واضحاً وتنفّس الصعداء. لو طلب إليه أىٌّ واحدٍ من الاثنيْن، فى رأيه وفى هذه المرحلة، يقودُ اللعبة، لاضطر إلى الإجابة، أنا، مع عدم شكه فى الوقت نفسه أنّ الآخرَ سيظنُّ أنه يملكُ أسباباً كافية لكى يعطى الجواب نفسه لو كان قد

طرح عليه السؤال نفسه، لم يكن قلقاً من كون المكان المُختار للقائهما بمثل هذا البعد عن المدينة، لم يكن قلقاً من معرفة أن أنطونيو كلارو سيأتى إليه مسلحاً، على الرغم من أنه كان مقتنعاً بأنَّ المسدّسَ، على العكس مما أكده هذا الأخير، لأنه على وجه الاحتمال الشديد سيكون كذلك، سيكون معبّأ. بطريقة كان يشعر هو نفسه بافتقارها كلياً إلى المنطق، وإلى العقلانية، وإلى الحسّ المشترك، كان يظنّ أن اللحية المستعارة التى سيضعها ستحميه طوال الوقت التى سيحملها فيه، مؤسِّساً هذه القناعة العبثية على فكرة مقرّرة تماماً بأنه لن ينتزعها خلال اللحظات الأولى من لقائهما، بل فقط فيما بعد، حين يصير التطابق المطلق لأياديهما، ولعيونهما، ولجفونهما، ولآذانهما، ولأنفيْهما، ولشعرهما معترفاً به بالإجماع من قبلهما كلاهما. سيحمل مرآة ذات حجم كافٍ من أجل أن يستطيع اثناهما أخيراً، حين يكون قد انتزع لحيته، أن يقارنا فيها وجهيهما جنباً إلى جنب وأن تنتقل عيونهما من الوجه الذى كانا ينتميان إليه إلى الوجه الذى كان يمكن أن ينتميا إليه، مرآة تنطقُ الحكمَ النهائى، إذا كان ما هو مرئى متطابقاً، فالباقى أيضاً يجب أن يكونه بالتأكيد، لا أظنّ أنَّ من الضرورى أن نتعرّى لكى نتابع المقارنات، لسنا هنا على شاطئ العراة ولا فى مسابقة أثقال وقياسات. هادئاً، واثقاً من نفسه، كما لو أن هذه المباراة فى الشطرنج كانت متوقعة منذ البداية، استأنفَ ترتوليانو ماكسيمو

أفونسو من جديد العملَ، قائلاً لنفسه إنّه تماماً مثل اقتراحه الجرىء المتعلق بتعليم التاريخ، يمكنُ لحياة الناس هى الأخرى أن تُقَصَّ من الأمام إلى الوراء، يمكن أن ينتظر المرءُ أن تصلَ إلى نهايتها لكى يعودَ بعد ذلك صاعداً المجرى شيئاً فشيئاً وصولاً إلى موقع انبجاس النبع، محدّداً خلال الطريق الروافد الفرعية التى يمكن الإبحار عليها بطريقة يُفطن بها إلى أنّ كلَّ واحدٍ منها، حتى الأكثر تواضعاً والأكثر فقراً فى مياهه، كان بدوره ومن أجل نفسه نهراً رئيسياً، وبهذه الطريقة البطيئة، الرصينة، المُتنبِّهة لكلِّ تلؤلؤ للمياه، لكلِّ غليان آتٍ من الأعماق، لكلِّ تسارع مردّه الانحدار، لكلِّ تباطؤٍ مُستنقعى، حتى بلوغ نهايَة القصِّ ووضع نقطة النهُاية عند اللحظة الأولى من بين كلِّ اللحظات، بعد أن احتاج الأمر لكى يتحقق ذلك الزمنَ نفسه الذى كانت ستدومه الحيوات المحكيّة على هذا النحو، لا نستعجلّ، فلدينا الكثير مما نقوله حين سنسكت، غمغم ترتوليانو ماكسيمو آفونسو، وتابع عمله. فى منتصف ما بعد الظهر هتف إلى ماريا دا باز لكى يسألها إذا كانت تريد المرورَ إلى بيته عند خروجها من المصرف، أجابت أن نعم، لكنها لا تستطيع التأخر لأنَّ أمّها ليست على ما يرام، حينئذ قال لها بألا تأتى، فالأولوية للواجبات العائلية، لكنها ألحّت، **فقط** لكى أراك، وقبلَ، قائلاً، **فقط** لنرى بعضنا، كما لو كانت المرأة المحبوبة، فى حين أنّنا نعلم أنها ليست كذلك، أو ربما هى كذلك وهو لا يعلم ذلك، أو ربما، توقف عندَ هذه الكلمة لأنه لا يعلم كيف ينهى

الجُمْلة بصـورة شـريفـة، أيُّ كـذبة أو أيُّ حـقـيـقـة مصطنعة سيقولها لنفسه، كان الانفعال قد حجب عينيه بصورة خفيفة، كانت تريدُ أن تراه، كان ذلك مؤكداً، من المريح أحياناً أن يودّ أحدهم أن يرانا وأن يقول لنا ذلك، لكنّ الدمعة النمّامة، الممسوحة من قبل بقفا اليد، ظهرت لأنه كان وحيداً ولأن الوحدة فجأة كانت تثقل عليه أكثر مما فعلت فى أسوأ الساعات. حضرت ماريا دا باز، تبادلا قبلتيّن على الوجنتيّن، ثم جلسا ليثرثرا، سألها إن كان مرضُ أمّها خطيراً، أجابت، لا، لحسن الحظ، إنها مشكلات العمر، فهى تذهب وتعود، تعودُ وتذهب، حتى اللحظة التى لا تذهب معها أبداً. سألها متى ستكون فى إجازة، أجابت خلال أسبوعيّن، لكن من المحتمل جداً أنها وأمها لن يستطيعا الذهاب، فذلك سيتوقف على حالتها الصحيّة، أراد أن يعرف كيف يسير عملها فى المصرف وأجابت كالعادة، بعض الأيام أفضل من البعض الآخر. ثم سألته إن لم يكن يضجرُ كثيراً الآن لأنّ الفصول الدراسية قد انتهت وقال لا، بالضبط لأنّ مدير الثانوية كان قد كلفه بتحرير اقتراح للوزارة حولَ مناهج تعليم التاريخ. تقول، يـا له من أمر مهم، ثمَّ سكتا، حتى اللحظة التى سألته فيها إن لم يكن لديه شىء يقوله لها، فأجاب أنَّ اللحظة لم تأتِ بعد، أنَّ عليها أنْ تصبر قليلاً أكثر. تقولُ إنها ستنتظر الوقت اللازم كله، وأن المحادثة التى كانت لهما فى السيارة بعد العشاء حيث اعترف لها بأنه كذب عليها كانت

مثل باب كان قد انفتح مواربًا لمدة لحظة لكى ينغلق على الفور، لكنها كانت على الأقلّ قد علمت أنّ ما يفصل بينهما لم يكن إلا باباً ولم يكن جداراً، لم يُجب، بل اقتصرَ على أن يقول نعم برأسه بينما كان يفكر أنّ الأسوأ من كل الجدران هو باب لا نملك مفتاحه، وهو لا يعرف أين يجده ولا حتى إذا كان هذا المفتاح موجوداً. حينئذ، وبما أنه كان ساكتاً تقول، تأخر الوقت، سوف أذهب، ويقول، لا تذهبى بعد، علىّ أن أذهب، أمى تنتظرنى، اعذرينى. نهضت، وكذلك هو، تبادلا النظرات، والقبلات على الوجه كما فعلا حين وصلت، إذاً، إلى اللقاء، تقول، إذاً إلى اللقاء، يقول، اهتفى لى حين تصيرين فى بيتك، نعم، تبادلا النظرات مرة أخرى، ثمّ أخذتْ يده التى كان سيلمسُ بها كتفها بمثابة الوداع، وبعذوبة، كما لو كانت تقود طفلاً، قادته نحو الغرفة.

وصلت رسالة أنطونيو كلارو الجمعة، كانت تصحب المخطط مذكرة مخطوطة، غير موقعة، دون مُخَاطَب، تقول، سنلتقى فى الساعة السادسة مساء، آمل أن تجد المكان دون صعوبة، لا تشبه كتابته على وجه الدقة كتابتى، لكنّ الاختلاف ضئيل، إنه يُلاحَظ أكثر فى الأحرف الكبرى، غمغمَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كان المخطط يشير إلى واحدٍ من مخارج المدينة، ناحيتيْن منفصلتيْن بثمانية كيلومترات من هذه الجهة ومن تلك من الطريق وبينهما دربٌ على اليمين يقودُ عبر الحقول إلى منطقة عمرانية أخرى أقلّ

أهمـيــة إذا مــا حـكمنـا بناء على الـرسم. ومن هنـاك، يوجـد دربٌ آخـر، أكـثـر ضـيـقـاً، يؤدّى إلى بيت على مسافة كيلومتر، كان مشاراً إليه بكلمة بيت لا برسم أوّلى، مـجـرّد رسم إجمـالى حـتى اليـد الخَرِقة قـادرة على خطّه، سـقف مع مـدخنة، واجـهـة مع باب فى الوسط ونافذة على كل جانب. فوق الكلمة سهم أحمر يستبعد كل إمكانية خطأ، لا تذهب أبعد من ذلك، فتح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو درجاً، وأخرجَ منه خريطة المدينة والمناطق المحـيطة بهـا، وبحث وتعـرّفَ على المخـرج المراد، هذه هى الناحـيـة الأولى، الدرب الذى يسير على اليمين قبل الوصول إلى الناحية الثانية، المنطقة العمرانية الصغيرة واقعة أبعد قليلاً، لم يبق إلا المدخل الأخير، نظر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مرة أخرى فى الرسم الأوّلى، إذا كان بيتاً فمن غير المفيد أن أنقل مرآة، توجد مرايا فى كلّ البيوت، كان قد تخيّل أن اللقاء سيتم فى الريف المكشوف، بعيداً عن أنظار الفضوليين، بل ربما فى ظلّ شجرة كثيفة، فى حين أن ذلك سيتم فى نهاية المطاف تحت سقف، أشبه قليلاً بلقاء بين أشخاص يعرف بعضهم البعض الآخر، من حول كأس وثمار جافة. تساءل إذا كانت زوجة أنطونيو ستأتى هى الأخرى، إن كانت ستحضر لتقارن القامة وشكل الندبيّن فى الركبة اليسرى، لكى تقيس المكان بين الشامتيّن على مقدمة الذراع اليمنى والمسافة التى تفصل إحداهما، عن نتوء العضد، والأخرى عن عظم المعصم، ولتقول بعد هذا، لا

تخرجا من مَدى نظرى لكى لا أخلط بينكما. فكَّرَ أنها لا يمكن أنْ تأتى، وأنَّ رجلاً جديراً بهذه الصفة لا يأتى إلى موعدٍ مُهدِّدٍ بالتحوّل إلى صراع، لكى لا يُقال إلى موعدٍ خطيرٍ بشكل واضح، سيكفى التذكير بأن أنطونيو كلارو تصرف بلباقة فروسية بإخطاره ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بأنه سيحضرُ مسلحاً، وهو يجرُّ زوجته وراءه، كما لو من أجل أن يختبئ تحت تنورتها لأقلّ علامة خطر، سيأتى وحيداً، أنا أيضاً لن أصحبَ ماريا دا باز، نطق ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذه الكلمات المشوِّشة دون أن يأخذ بعين الاعتبار الاختلاف السحيق بين زوجة شرعيّة، محفوفة بكل الحقوق والواجبات المتعلقة بوضعها، ومغامرة عاطفية عابرة، وإن بدا لنا على الدوام تعلق الماريا دا باز المشار إليها أعلاه صَلباً، وهو ما يُمكنُ شرعاً، إن لم يكن لزاماً، الشك فيه من جانب الطرف الآخر، وضعَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو المخطط والرسم الأوّلى فى الدرج، ولكن بدون المذكرةِ المخطوطة. فقد وضعها أمامه، وأخذ قلمه وكتبَ الجملة كاملة على صفحة ورق، مع خطٍّ كان يجهدُ فى تقليد الخطِّ الآخر بأفضل ما يمكن، وخاصة الحرف الكبير الذى يُلاحَظ فيه الاختلافُ أكثر، استمرّ فى الكتابة، ونسخَ الجملة إلى أن غطى الورقة كلها، عند آخر نسخ سيكون أشدُّ اختصاصيّى الخط خبرة عاجزاً عن كشف أىٍّ قرينة فى التزوير، وما حصلَ عليه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بنسخهِ على وجهِ السرعة توقيع ماريا دا باز

لا يمكن مطلقاً أن يُقارَنَ مع المبدع الفنى الذى أتى على إنتاجه. لم يَعُدْ عليه من الآن فصاعداً إلا أن يضبطَ كيفَ يرسم أنطونيو كلارو الحروفَ الكبيرة من A إلى D ومن F إلى Z وأن يتعَلَمَ بسرعة تقليدَه. هذا لا يعنى مع ذلك أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يغذى مشروعات للمستقبل تستلزم الممثل دانييل سانتا ـ كلارا، المقصود فقط بناء على ذلك إرضاء هواية الدراسة التى قام بها وهو لا يزال شاباً فى ممارسة النشاط المحمود كأستاذ. وكما أن من الممكن دوماً أن تكون معرفة كيفية الإمساك ببيْضة واقفة مُفيدةً، كذلك ليس من المستبعد أن يمكن لتقليد صحيح للحروف الكبرى المرسومة من قبل أنطونيو كلارو أن يفيدَ ذات يوم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. كما كان القدماء يعلمون ذلك، يجبُ ألا يقولَ المرءُ أبداً أيها النبعُ لن أشرب من مائك، خاصة إذا لم يكن هناك نبعٌ آخر، والإضافة هى من بناتِ أفكارنا. لما كانت هذه الاعتبارات لم تُصَغ من قِبَلِ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فلسنا قادرين على تدقيق الرابطة التى يمكن على كلّ حال أن توجد بينها وبين القرار الذى أتى على اتخاذه والذى قادته إليه بصورة أكيدة تأملاتٌ شخصية لم نستطع التقاطها، يبرهن هذا القرار على الطابع الحتمى إن صحّ القول لأمرٍ بدهى، إذ لما كان بحوزة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الرسم الأوّلى الذى سيهديه إلى مكان لقائهما، فمن الطبيعى تماماً أن تخطر فى باله فكرة المُعايَنة المسبقة للموقع، أن يدرس

مداخله ومخارجه، أن يأخذ مقاساته إن سُمِحَ لنا بهذا التعبير، مع الميزة الإضافية التى لا يمكن إهمالها فى أنه سيتلافى على هذا النحو أن يضيِّعَ نهار الأحد. لقد هدّاه على نحو عجيب وأفرَحَهُ منظور أن هذه الرحلة القصيرة سوف تعفيه طوال عددٍ من الساعات من العمل الكتابى المملّ الذى هو تحريرُ الاقتراح الموجَّهِ إلى الوزارة. لا يؤلف ترتوليانو ماكسيمو أفونسو جزءاً من هؤلاء الأشخاص الرائعين، القادرين على الابتسام حتى عندما يكونون وحيدين، إنه بالأحرى ميّالٌ بطبيعته إلى الكآبة، إلى الانغلاق على نفسه، إلى امتلاك وعى مُثارٍ من الطابع العابر للحياة، إلى الألم من الحيرة العضال أمام المتاهة الأصيلة الكرواتية التى هى العلاقات الإنسانية. إنه لا يفهم جيداً أسباب العمل الغامضة فى بيوت النحل ولا كيف يحدث أن غصناً ينبت من جذع شجرة فى هذا المكان، لا أعلى ولا أدنى، وألا يكون لا أضخم ولا أنحف، لكنه يُرْجِعُ هذه الصعوبة فى الفهم إلى جهله لقوانين الاتصال التكوينى والإيمائى القائم بين النحل وأكثر من ذلك أيضاً سيول المعلومات التى تسير بصورة عمياء نسبياً على طول ممرّات شبكة الطرقات النباتية التى تربط الجذور المدفونة فى الأرض إلى الأوراق التى تلبسها الشجرة والتى ترتاح فى السكون أو تهتزّ مع الرياح. ومهما قدَحَ دماغه، فلن يفهم أن تقنيات الاتصال بالنظر إلى أنّها تطورت إلى تقدّم هندسى أصيل يتحسّن دون توقف، يستمرّ الاتصالُ

الآخر، بالمعنى المباشر للكلمة، الاتصالُ الحقيقى، منى إليك، منّا إليكم، فى أن يكون هذا الخليط من الطرق المسدودة الواعدة بفرجات وهمية، مموّهة حينَ تعبٌر أو حين تجهد فى الإخفاء، لن يرى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ضرراً فى أن يصير شجرة، لكنه لن يتوصّل أبداً إلى ذلك، فحياته، شأن حياة كل البشر الذين عاشوا أو الذين سيعيشون، لن تعرف أبداً التجربة الأسمى للسيادة النباتية، إننا نتخيّلها سامية لأنه لم يُقَدَّر لأىٍّ شخصٍ أن يقرأ سيرة حياة ولا مذكرات شجرة سنديان حررتها بنفسها. فليهتمّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إذًا بما ينتمى إلى عالمه هو، المؤلفُ من رجال ونساء يرهقون رئاتهم ويثبتون أنفسهم بالوسائل الطبيعية والمصطنعة كلها، وليترك الأشجار فى سلام، هى التى تملك أصلاً ما يكفيها من الهموم كما هو الأمر مع الأمراض النباتية، والقطّاعات وحرائق الغابات، وليهتم أيضاً بأن يقود جيداً سيارته التى تقوده إلى الريف وتنقله خارج مدينة هى النموذج الكامل للمصاعب الحديثة فى الاتصال، فى نسخته المتمثلة فى سير السيارات والمشاة، وخاصة فى أيام كهذا اليوم، الجمعة مساء حيث ينتجع الناس جميعاً خلال إجازة نهاية الأسبوع. يذهب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكنه سيعود دون تأخير. لقد ترك من قبل وراءه أكبر ضروب الازدحام، والطريق الذى يجب أن يسلكه غير مطروق كثيراً، وعما قريب سيتواجد أمام البيت الذى سينتظره فيه أنطونيو كلارو بعد غد، كان

متنكراً بلحيته التى سوّاها بعناية، خوفاً من ألا يُنادَى عليه حينَ يجتاز آخر موقع باسم دانييل سانتا - كلارا وألا يُدعى لشرب الجعة إذا كان البيت الذى أتى على الاستدلال عليه، كما يمكن الافتراض، ملكَ أنطونيو كلارو أو أنه يستأجره، داراً فى الريف، مقر إقامة ثان، فالممثلون الثانويون يعيشون حياة رخاء إذا حصلوا أصلاً على ضروبٍ من الرغد كانت حتى ذلك الحين محصورة ببعض أصحاب الامتياز النادرين، يخشى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مع ذلك أنَّ الطريقَ الضيّق الذى سيؤدى به إلى البيت والذى ظهر لتوّه لا فائدة له إلا هذه وأنّ المرأة التى ستظهر على النافذة بالتالى، إنْ لم يستمرّ أبعد من ذلك وإن لم يكن هناك مساكن أخرى، ستتساءل أو ستنادى الجارة إلى جانبها لكى تسألها، أين يمكن أن تذهب إذًا هذه السيارة، على ما أعلم ليس هناك أىّ شخص فى بيت السيد كلارو، ورأسُ هذا الإنسان لا أتذكره أبداً، اللحية تفيد على الدوام لإخفاء شىء ما، من حسن الحظ أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يسمعها، إذًا لوجدَ سبباً آخرَ جدّيّاً ليقلق، سيصعب على سيارتين أن تتواجها على الدرب المطلىّ بالقطران،لا بد وأنّه لا وجود فيه للكثير من المارّة هنا. على اليسار، تهبط الأرض المحصبة بالتدريج نحو وادٍ فيه صفٌّ لا ينقطع من الأشجار العالية نكاد نقول عنها وهى مرئيّة من هنا إنها مؤلفة من الدردار والحور تشير على وجه الاحتمال إلى جُرُفٍ نهر. حتى مع السرعة الحذرة التى يتقدم بها

ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى حالة ما إذا تقدمت سيارة أخرى أمامه، فإنّ مسافة كيلومتر تُجتازُ فى برهة من الزمن، ثمّ قد تمَّ اجتيازه والبيت بالتأكيد هو هذا إنه كان، يستمرّ الدرب، ويتعرج على سفح هضبتين تتشابكان ويختفى على الجانب الآخر، ربما يؤدى إلى مساكن أخرى لا نراها من هنا، فى نهاية الأمر بَدَت المرأة الحذرة تهتمُّ فقط بما يجرى بالقرب من المنطقة المعمورة حيث تسكن، فما يتواجد فيما وراء حدودها لا يهمّها. دربٌ آخر أكثر ضيقاً وذو تبليطٍ أشدّ تلفاً يهبط نحو الوادى اعتباراً من السطح أمام البيت. لا شكّ أنها طريقة أخرى فى الوصول إلى هنا، فكر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. فطِنَ إلى أنَّ عليه ألا يقترب كثيراً من البيت فى حالة ما إذا أطلق أحد المارّة الإنذار، أو حارس عنزات لأنّ الأرض مُعَدّة من أجلها، النجدة، سارق، وفى زمنين وثلاث حركات تظهر السلطة البوليسية أو، فى غيابها، مفرزة من الجيران المسلحين بالرماح والمناجل، كما كان الأمر قديماً، يجبُ أن يتصرّفَ كمسافر عابر توقف لحظة ليتأمل المنظر والذى ينتهز الفرصة، مادام هنا، لإلقاء نظرة تقويمية على بيت يملكُ أصحابه، الغائبون حالياً، الحظَّ فى الاستمتاع بهذا المنظر الرائع. المسكنُ بسيط، مؤلفٌ من طابق واحد، إنه سكنٌ ريفىٌّ نموذجىّ يبدو عليه تماماً أنه كان موضع إصلاح واضح، وإن كان يبدو عليه بعض علامات الإهمال، كما لو أنّ أصحابه يأتون إليه نادراً ولفترات قصيرة.

من المتوقع أن يعرضَ بيتٌ ريفىّ نباتات أمام الباب وعلى النوافذ، فى حين أنها ليست حالة هذا البيت الذى لا يقدم للنظر إلا عدداً من النباتات شبه الجافة، وردة على شفا الذبول، نبات شجاع لا يزال يناضل ضد الإهمال، البيت مفصول عن الطريق بسور منخفض ووراءه شجرتا كستناء ترفعان أغصانهما إلى ما فوق السقف، ونظراً لقامتهما ولعمرهما المتقدم الواضح فيجب أن تكونا سابقتيْن على البناء بمدة طويلة. موقعٌ معزول، مثالىّ لأشخاص يتأملون، يحبون الطبيعة لما هى عليه، ولا يجدون اختلافاً بين الشمس والمطر، بين الحرارة والبرودة، بين الرياح والطقس الهادئ، الذين يقبلون النِّعَمَ التى يحملها لنا البعض والتى يمتنع بها علينا الآخرون. قامَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بدورة حول البيت، تتواجد وراءه حديقة استحقت هذا الاسم قديماً، لكنها اليوم لم تعد إلا فضاءً أسىء تسييجه، غزتهُ الأسلاك الشائكة وخليط من النباتات البرّيّة التى تخنق شجرة تفاح ضامرة وشجرة خوخ ذات جذع مغطى بالحزاز، بعض نباتات الداتوراس السمّية بوجه خاص أو الستراmonيوم، حسب اسمها اللاتينى. لابدّ وأنَّ الدار الريفية بالنسبة إلى أنطونيو كلارو، وربما بالنسبة إلى زوجته، كانت هوى عابراً، واحداً من هذه الغراميات الرعوية التى تستحوذ أحياناً على أبناء المدينة والتى مثلها مثلُ القشِّ المبعثرِ تحترق باضطرام ما إن يقترب منها عودُ الكبريت والتى لا تعود عما قريب إلا رماداً أسود. لم

يبق لترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلا العودة إلى طابقه الثانى مع منظرٍ على الجانب الآخر من الشارع وانتظار النداء الهاتفى الذى سيقوده إلى هنا يوم الأحد، صعَدَ إلى سيارته، وسار على الدرب المعاكس ولكى يبيِّن للمرأة الواقفة على نافذتها أنه لا يحمل فى ضميره أىّ وزر جرم ضدّ ملكية الآخرين، اجتاز المنطقة المعمورة ببطء وتؤدة، كما لو كان يشقٌ طريقاً وسط قطيع من الماعز معتاد على استخدام الطرق بالهدوء نفسه الذى يرعى فيه فى الحقول بين الوزّال والزعتر. تساءل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إذا كان الأمر يستحق، ليرضى فضوله فقط، أن يستخدم الطريق الأقصر أمام البيت الذى يبدو هابطاً نحو النهر، لكنه سرعان ما تراجع فى الوقت المناسب، فبقدر ما يرى أقلّ ما يمكن فى هذه الأماكن، بقدر ما يكون الأمر أفضل. حتى ولو لم يعد أبداً إلى هنا بعد يوم الأحد المقبل، فسيكون مع ذلك من المفضَّل ألا يتذكر أىّ شخص الرجلَ الملتحى، سارع فى الخروج من الضاحية، وبعدٍ دقائق عدّة كان يسير على الطريق الرئيسى ثمَّ بعد أقلٌ من ساعة من ذلك كان يدخل إلى بيته. استحم لكى يتخلص من وعثاء الرحلة، وغيَّر ملابسه وجلس إلى منضدة عمله مع مرطب بالليمون كان قد أخرجه من الثلاجة، لن يتابعَ العمل على الاقتراح الموجّه إلى الوزارة، سوف يهتف لأمّه، بوصفه ابناً صالحاً كما هو، سوف يسألها كيف حالها، وستجيب حسناً وأنتَ، كالعادة، لا أملك أسباباً

للشكوى، إننى أستغرب صمتكَ، اعذرينى، لكنى كنت مشغولاً كثيراً، من الممكن الافتراض بأنّ هذه الجُمَل توازى لدى الكائنات البشرية هذه الجسّات الوجيزة للتعارف التى يقومُ بها النمل فيما بينه مع جسّاساته عندما يتلاقون على واحد من طرقهم، كما لو أنهم يتبادلون القول، إنك منّا، يمكننا الآن البدء فى معالجة القضايا الجدّيّة. **و**مشكلاتك، أهى بخير، سألت أمّه، إنها فى طريقها إلى الحلّ، لا تنشغلى، **يـ**ـا لهـا من فكرة، كما لو أننى لا أملك شيئاً آخر أقوم به فى الحياة إلا أن أنشغل، **لـ**ـحسن الحظ أنك لا تولين السؤالَ عناية خاصة، ذلك لأنّك لا ترى وجهى، **هـ**ـيّا يا أمى، هدّئى نفسك، آمل أنّ يهدِّئنى مجيئك إلى هنا، إنه عمّا قريب، **و**علاقتك مع ماريا دا باز، أين أنت منها فى هذا الوقت، **لـ**ـيس من السهل شرح ذلك، **بـ**ـإمكانك أن تحاول على الأقلّ، إنها تعجبنى، هذا صحيح، وأنا بحاجة لها، آخرون تزوجوا لأسباب تقلّ عن ذلك، **نـ**ـعم، لكنى أفطِنُ إلى أنَّ الحاجة التى أشعر بها إليها هى قضيّة آنيّة، لا أكثر من ذلك، لو أننى كففت غداً عن الشعور بها، فماذا أفعل، **و**واقعة أنها تعجبك، **كـ**ـونها تعجبنى أمرٌ عادىّ بالنسبة إلى رجل يعيش وحده وكان له حظ اللقاء بامرأة لطيفة، ذات مظهر مستحبّ، متناسقة القوام و، كما يقال عادة، تميل إلىّ، إذًا، أهذا قليل، **لا** أقول إن هذا قليل، أقول إنه ليس كافياً، **هـ**ـل أحببت امرأتك، **لا** أدرى، لم أعد أتذكر، لقد مرت ستّ سنوات، **لا** تكفى ست سنوات

للنسيان إلى هذا الحدّ. **ظـ**ـننتُ أننى أحبّها، ولقد فكرتُ يقيناً بالشىء نفسه نحوى، وفى نهاية الأمر أخطأنا كلانا، هذا أمر شائع جداً، **ولا** تريد أن يتكرّر الخطأ مع ماريا دا باز، **لا**، لا أريده، **مـ**ن أجلك أم من أجلها، **مـ**ن أجلنا كلانا، **عـ**لى كلّ حال، أكثر من أجلك مما هو من أجلها، **لـ**ست كاملاً، سيكفى أننى أوفّرُ عليها الأذى الذى لا أريد أن أراه يحدث لى، وبناء عليه فإن أنانيّتى لا تصل إلى حدّ ألا أريد حمايتها هى الأخرى، **ر**بما لم تكن ماريا دا باز ضدّ فكرة ركوب هذه المخاطرة، **ط**لاق آخر، هو الثانى بالنسبة إلىّ، والأوّل بالنسبة لها، لا، يا أمّى، لا مجال لذلك على الإطلاق، **يـ**ـمكن أن يسير كلُّ شىء على ما يرام فى نهاية المطاف، إننا لا نعرف ما ينتظرنا فيما وراء كلّ واحد من أفعالنا، **هـ**ـذا صحيح، **لـ**ماذا تقول ذلك بهذه الطريقة، أية طريقة، **كـ**ـما لو كنا فى الظلمة وقمتَ فجأة بإضاءة وإطفاء النور، إنه انطباع لديك، **كـ**ـرّر، أكرّر ماذا، **مـ**ا قلتَهُ، **لـ**ماذا، **كـ**ـرّر، أرجوك، **لـ**تتحقق مشيئتك، هذا صحيح، ألفظ الكلمتيْن فقط، **هـ**ـذا صحيح، **لـ**يس مشابهاً، **كـ**يف ذلك، ليس مشابهاً، **لا**، ليس مشابهاً، **هـ**ـيّا يا أمّى، كفى عن تخيّل أشياء، أرجوكِ، فالإفراط فى الخيال ليس أفضل طريق نحو سلامة العقل، ما قلته كان يعنى فقط رضاىَ، موافقتى، **حـ**تى الآن أتابعك، أنا أيضاً فى زمن شبابى راجعتُ القواميس، **لا** تغضبى، **مـ**تى ستأتين، **لـ**قد قلت لك ذلك، عمّا قريب، **يـ**ـجب أن يكون بيننا

محادثة، سيكون بيننا كلّ الأحاديث التى تريدينها، أريد واحداً فقط، أىّ حديث، **لا** تظهر بمظهر مَنْ لا يفهم، أريد أن أعرف ماذا يجرى وأرجوك لا تقدّم لى خطاباً مُعَدّاً سلفاً، أنتظرُ منكَ أن تكون صريحاً كل الصراحة وأن تلعبَ بأوراق مكشوفة، **هـ**ذه الكلمات لا تشبهك، **كـ**ان أبوك يستخدمها غالباً، تذكّر، **سـ**أضع كلّ الأوراق على المنضدة، **و**عِدْنِى بأن اللعبة **سـ**تكون صريحة، بلا غشّ، ستكون صريحة، ولن يكون هناك غشّ، **هـ**كذا أحبّ ابنى، **سـ**نرى ما لديكِ لتقوليه لى عندما سأضع الورقة الأولى من هذه اللعبة أمامك، أعتقد أننى رأيتُ كلّ ما كان متاحاً للرؤية فى هذه الحياة، احتفظى بهذا الوهم بانتظار أن يكون لنا هذا الحديث، أهوَ أمرٌ بمثل هذه الخطورة، المستقبل سيقول ذلك، عندما يحين الوقت، **لا** تتأخر، أرجوك، **سـ**آتى ربما فى منتصف الأسبوع القادم، **فـ**لنأمل ذلك، أقبلكِ، يا أمّى، أقبلكَ يا ابنى. أغلق ترتوليانو ماكسيمو أفونسو السمّاعة، ثم ترك أفكاره تهيمُ كما تشاء، كما لو كان يستمر فى الحديث مع أمّه، الكلمات شيطانيّة، نظنّ أننا لا نسمح أن تخرج من فمنا إلا الكلمات التى تناسبنا وفجأة تقف كلمة فى عرْض الطريق، لم نرَ من أين انبثقت، لم نقمْ باستدعائها وبسببها، غالباً ما لا نعود نذكر ذلك، يغيرُ مسارُ الحديث بغتة مجراه، ونبدأ فى تأكيد ما كنا ننفيه من قبل أو العكس، وما تمّ لتوّه خيْر مثال على ذلك، لم تكن لدىّ نيّة الحديث مبكراً إلى أمى عن قصّة

المجانين هذه، وإن كنتُ أفكرُ فعلاً فى أن أقوم بذلك يوماً ما، إلا أنها بين لحظة وأخرى، ودون أن أفهم كيف، انتزعتْ منى الوعدَ القاطع أننى سأقصّها عليها، إنها قطعاً فى طريقها إلى أن تضع فى هذه الدقيقة ذاتها علامة الصليب على المفكرة ليوم الإثنين من الأسبوع القادم، خوفاً من أن أصل إلى هناك على غير انتظار، كلّ يوم ستضع عليه علامة على هذا النحو سيكون اليومَ الذى سيتوجّب علىّ فيه أن أصل وإن لم أفعل فلن يكون ذلك خطأها، لم يغضب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من ذلك، على العكس، لقد شعرَ بنفسه مرتاحاً بصورة لا توصف، كما لو أنه رُفِعَ بغتة ثقلٌ عن كتفيّه، وتساءل عما كسِبَهُ فى النهاية من بقائه صامتاً طوال هذا الوقت كله ولم يجد أقلّ جواب ذى إيقاع صحيح، وربما سوف يكون عما قريب قادراً على تقديم ألف تفسير، عقلانية كلّها بعضها بقدر البعض الآخر، لكنه الآن يقول لنفسه فقط إنّ عليه أن يَكشف أسراره بأسرع ما يمكن، فلقاؤه مع أنطونيو كلارو سيتمّ الأحد، خلال يوميْن، ولن يمنعه شىءٌ إذاً من أن يركبَ سيارته الإثنين صباحاً والذهاب ليكشف أمام أمّه كلَّ الأوراق التى تسبّب وجع رأسه، كلها حقاً، فأمرٌ كان يمكنُ أنْ يقول لها قبل بعض الوقت، يوجد إنسان يشبهنى إلى حدٍّ أنكِ حتى أنتِ، يا أمى، سوف تخلطين بيننا، وأمرٌ آخر، شديد الاختلاف، أن يصرِّحَ لها، لقد التقيته الآن ولم أعد أعرف مَنْ أنا. فى اللحظة نفسها تبخّر السلوان العابر الذى كان قد

هدَّهَدَهُ، وظهر محلّه، مثل ألم ذكَّرَ فجأة بوجوده، الخوف. لا نعرف ما الذى ينتظرنًا فيما وراء كلٍّ واحدٍ من أفعالنا، كانت أمّه قد قالت، وهذه الحقيقة المبتذلة، التى هى فى متناول مجرّد ربة منزل ريفية، هذه الحقيقة الفاجعة التى تؤلف جزءاً من القائمة اللامتناهية من الحقائقَ التى لا فائدة من إضاعة الوقت فى تعدادها لأنه لم يعد هناك شخص واحد لا ينام بسّببها، حقيقة الجميع هذه والمتساوية بالنسبة إلى الجميع يمكن فى بعض المواقف أن تكبِّد وأن ترْعِبَ بقدر ما تكبِّد وترْعِبُ أسوأ التهديدات. كلُّ ثانية تمرّ هى مثلُ بابٍ ينفتحُ ليسمحَ بدخول من لم يصل بعد والذى نسمّيه مستقبلاً، على أنَّ الفكرة الصحيحة ربما، ونحن هنا نتحدّى التناقض مع ما قيل لتوّه، هى أنّه بدلاً من أن يكون المستقبل فقط خواءً واسعاً، فإنّه ليس شيئاً آخر سوى الزمن الذى يتغذى منه الحاضر الأبدى، إذا كان المستقبل خاوياً، فكر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فلا يوجد إذًا شىءٌ يمكن أن يُسمّى الأحد، فوجوده يتوقف على وجودى أنا، فإذا متُّ فى هذه اللحظة، فإن جزءاً من المستقبل أو ضروب المستقبل الممكنة ستكون ملغاة إلى الأبد، وسَتُقَاطَعُ النتيجة التى سيتوصلُ إليها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكى يوجد الأحد فى الواقع فإن من اللازم أن أستمرّ أنا فى الوجود، بعنفٍ برنين الهاتف. كان أنطونيو كلارو الذى كان يسأل، هل استلمتَ الرسم الأوّلى، نعم، لقد استلمته، هل لديك

أسئلة تطرحها، ولا سؤال، قلت لك إننى سوف أهتف لك غداً، لكنى فكرتُ أنَّ رسالتى لابدّ وأنها وصلتك أصلاً وأؤكد لك إذًا موعدنا، حسناً، سوفَ أكونُ في المكان المحدَّد فى الساعة السادسة، بصورة خاصّة، يجب ألا يسبِّبَ لك وجوبُ اجتياز المنطقة المعمورة أىّ همّ، سوف أسيرُ فى الطريق القصير الذى سيقودنى مباشرة إلى البيت، وعلى هذا النحو لن يتعجب أحدٌ من مرور رجلين مع وجهٍ متطابق، والسيّارة، أىّ سيارة، سيّارتى، لا أهمّية لذلك، إذا اعتبرها أحدهم سيارتى، فسوف يظنّ أننى غيّرت السيّارة، ثمّ إننى ذهبت قليلاً جداً إلى هذا البيت فى الأيام الأخيرة هذه، حسناً جداً، إلى ما بعد الغد، إلى الأحد. بعد أن أغلق السمّاعة، تنبّه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى أنه كان بوسعه القول إنه سيحمل لحية مستعارة. لكن ذلك لا أهمية له، سوف ينتزعها بسرعة كبيرة. والأحد يقترب بخطى حثيثة.

كانت الساعة السادسة وخمس دقائق حين ركن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو سيارته أمام البيت، من الجهة الأخرى من الطريق، وكانت سيارة أنطونيو كلارو موجودة من قبل بالقرب من المدخل، على طول الجدار. يوجدُ بين السيارة والأخرى اختلافُ جيلٍ ميكانيكى، وما كان دانييل سانتا ـ كلارا ليبادل سيارته مقابل النموذج المشابه لنموذج ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كانت البوابة مفتوحة، وباب البيت أيضاً، لكن النوافذ مغلقة، كان يُرى فى الداخل شبحٌ يستحيلُ تمييزه تقريباً من الخارج، ومع ذلك فالصوتُ الخارجُ من هناك واضحٌ ودقيق، كما يجب أن يكون صوت فنان مسرحىّ، ادخل، تصرَّفْ كما لو كنت فى بيتك. تسلق ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الدرجات الأربع من سلم المدخل وتوقف عند العتبة. ادخل، ادخل، كرّرَ الصوت، لا تبدو لى أنّك الشخص الذى كنت أنتظره، كنت أظنّ أنّ الممثل هو أنا، لكنى كنت مخطئاً. دون أىّ كلمة، وبعناية شديدة، انتزع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لحيته ودخل. هذا ما يُسمّى امتلاك حسٍّ

المسرح، إنك تذكرنى بهذه الشخصيّات التى تظهر بتسرّع متعجِّبة هأنذا، كما لو أن لذلك أقل أهمّية، قال أنطونيو كلارو وهو يبرز من الظلّ مُظهِراً نفسه فى النور الذى كان يدخل من الباب المفتوح. تبادلا النظر دون حراك، ارتسم الذهول ببطء، كما لو كان يصعبُ عليه الانفلات من أعماق المستحيل، على وجهِ أنطونيو كلارو، ولكن ليس على وجه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى كان يعرف من قبل ما الذى ينتظره، أنا الشخص الذى هتفَ لك، قال، أنا هنا لكى تتأكّد بعيْنَيْك أننى لم أكن أقصد التسلية على حسابك حين قلت لك إننا متطابقان، **فعلاً**، هَمْهَمَ أنطونيو كلارو بصوتٍ لم يكن يشبه أصلاً صوت دانييل سانتا ـ كلارا، بسببِ إلحاجِك تصوّرتُ أنّه كان يوجد بيننا تشابه كبير، لكنى أعترف لك أننى لم أكن مهيّأً لرؤية ما أملكه أمامى، صورتى أنا، **الآن** وقد امتلكتَ البرهان، أستطيعُ الانسحاب، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، **لا**، بشكل خاص لا، طلبت منكَ الدخول، والآن أطلبُ إليكَ أنْ تجلس، سوف نتكلم، البيت شبه مهجور، لكنّ هذه الكراسى فى حالة جيدة ولا بدّ أنه يوجد هناك ما يُشرب، إن الشىء غير الموجود هو الثلج، **لا** تزعج نفسك خصوصاً، أرجوك، كانت الخدمة أفضل لو أتت امرأتى، ولكن ليس من الصعب تخيّل ما كان يمكن أن تستشعره فى هذه اللحظة، ستكون أكثر تشوّشاً واضطراباً منى، هذا أكيد، **لو** حكمنا بناء على ما أستشعره أنا نفسى، فلن يكون

ثمة أىّ شك، ما عشته خلال هذه الأسابيع الأخيرة لا أتمنّاه لأسوأ أعدائى، اجلس، أرجوك، ماذا ترغب أنْ تشرب، ويسكى أم كونياك، **لا** أشرب كثيراً، لكن، أفضّل الكونياك، نقطة، لا أكثر. جلب أنطونيو كلارو القوارير والأقداح، وصبَّ لزائره، وصبَّ لنفسه مقدار ثلاث أصابع من الويسكى الصافى، ثمّ جلسَ على الجانب الآخر من المنضدة التى تفصل بينهما، **لا** أكاد أصدّق، قال، **لـ**قد مررتُ بهذه المرحلة، أجاب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، الآن أتساءل فقط ما الذى سيحدث فيما بعد، **كـ**يف اكتشفتَ ذلك، **قـ**لته لك حين هتفتُ لك، رأيتكَ فى الفيلم، **نـ**عم، أتذكر، الفيلم الذى مثلت فيه دور موظف الاستقبال فى فندق، **بـ**الضبط، **و**كيف نجحتَ فى التوصل إلىّ، فاسم دانييل سانتا ـ كلارا غير موجود فى دليل الهاتف، **قـ**بلَ ذلك وجبَ علىّ أوّلاً العثورَ على وسيلة التعرّف عليك بين مختلف الممثلين الثانويين الذين يظهرون فى قائمة الأسماء دون إشارة إلى الشخصيّات التى يمثلونها، معك حق، لقد تطلبَ ذلك وقتاً، لكنى وصلت إلى غاياتى، **و**لماذا تعبتَ كلّ هذا التعب، **أ**عتقد أن أىّ شخص فى مكانى كان سيفعل الأمر نفسه، **ا**فترض أن نعم، الحالة أكثر من خارقة لكى لا نوليها الاهتمام، **هـ**تفتُ للأشخاص الذين يحملون اسم سانتا ـ كلارا المسجلين فى الدليل، **قـ**الوا لك إنهم لا يعرفوننى، بالطبع، **نـ**عم، واحدة مع ذلك تذكرتْ أنها المرّة الثانية التى يطلبُ فيها أحدهم دانييل سانتا ـ كلارا على الهاتف، **شـ**خص آخر، قبلك،

طلبنى، نعم، بالتأكيد معجبة، لا، كان رجلاً، غريب، ما هو أكثر غرابة أيضاً هو أنّ الرجلَ بدا أنّه يريد تغيير صوته، كما قيل لى، لا أفهم، لماذا كان يريد تغييره، ليس لدىّ أية فكرة، ربما كان مجرّد انطباع لدى المرأة التى تحدثَ إليها، ربما، وكيف اكتشفتى أخيراً، كتبتُ إلى شركة الإنتاج، يدهشنى أنهم أعطوك عنوانى، أعطونى أيضاً اسمك الحقيقى، كنت أظن أنك علمته فقط عند محادثتك الأولى مع زوجتى، إنها الشركة التى قدّمته لى، هذه هى المرّة الأولى التى يفعلون فيها ذلك فيما يخصّنى، على كلّ حال حسب علمى، أضفتُ إلى رسالتى مقطعاً بمناسبة أهمّية الممثلين الثانويين، أفترض أن ذلك أقنعهم، العكس هو الذى كان يجب أن يكون طبيعياً، لم يمنع ذلك أننى وصلت إلى غاياتى، وها نحن هنا، نعم، هانحن هنا، شرب أنطونيو كلارو جرعة من الويسكى، وبلل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو شفتيْه فى الكونياك، ثمَّ نظر كلٌّ منهما الآخر ليحوّل نظرته على الفور، كان نورُ المساء المائل يدخل من الباب الذى بقى مفتوحاً، دفع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بالقدح جانباً ووضع يديه الاثنتين مسطحتين على المنضدة، وأصابعهما منتشرة فى شكل نجمة، لنقارن، قال. ابتلع أنطونيو كلارو جرعة أخرى من الويسكى ووضع يديْه بصورة متناظرة، مُسْنِداً إياهما بقوة على المنضدة لكى لا يُرى أنهما كانتا ترتعشان. أعطى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الانطباع بأنه فعلَ الشىء

نفسه، كانت يداهما متطابقتيْن فى كلٍّ شىء، كل عرق، كل ثنيّة، كلّ شعرة، الأظافر واحداً بعد الآخر، كلّ شىء يتكرّر، كما لو أنّهما خرجتا من قالب. الاختلافُ الوحيد كان خاتم الزواجّ الذهبى فى البنصر الأيسر لدى أنطونيو كلارو. **لـ**نرَ الآن شامتينا على مقدمة الذراع اليمنى، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. نهض، خلع سترته، وتركها تسقط على الكرسى، وشمّر كمّ قميصه حتى المرفق. كان أنطونيو كلارو قد نهض أيضاً، لكنه ذهب أولاً ليغلقَ البابَ وينيرَ المصابيح فى القاعة، لم يستطع وهو يضع سترته على مسند أحد الكراسى، أن يتلافى ضجّة صمّاء. إنه المسدّس، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، **نـ**عم، **ظـ**ننت أنك قررتَ ألا تحمله، **إ**نه ليس معبّأً، إنها فقط أربع كلمات تعلن أنه ليس معبّأً، **أ**تريد أن أبيّن لك ما دمت تبدو لا تصدقنى، **ا**فعل كما تشاء. أدخلَ أنطونيو كلارو يدَهُ فى جيبِ سترته الداخلى وأخرج السلاح، **هـ**ا هو ذا. بحركاتٍ سريعة، ودقيقة، سحب المحمِّل فارغاً، وجعل الغطاء يتراجع وأظهر الفجوة، خالية هى الأخرى. **هـ**ل اقتنعت، سأل، اقتنعت، **أ**لا تشك فى أنّ لدىَّ مسدساً ثانياً فى الجيب الآخر، **س**يعنى ذلك كثرة من المسدّسات، **فـ**قط العدد الضرورى لو أنى توقعت أن أتخلّصَ منك، **و**لماذا يودّ الممثل دانييل سانتا ـ كلارا التخلص من أستاذ التاريخ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أنتَ نفسكَ وضعتَ إصبعك على الجرح حين تساءلتَ ما الذى سيحدث

بعـد كلِّ ذلك، كـنتُ على وشك الذهاب، أنتَ الذى طلب منى البقاء، هـذا صحيح، لكنّ ذهابك ما كان ليحلّ كل شىء، لاهنا، ولا فى بيتك، ولا حين تلقى دروسك، ولا حين تضاجع زوجتك، لست متزوجاً، ستكون دائماً نسختى، نسختى الثانية، صورة مستمرّة عنى فى مرآة لن أكون فيها أنظر إلى نفسى، شيئاً ما لا يُطاقُ على وجه الاحتمال، طلقتان ناريّتان ستحلان المسألة قبل أن تطرح نفسها، هـذا صحيح، لـكـنّ المسدّس ليس معبّأً، تـمـامـاً، وأنت لا تضع مسدساً ثانياً فى الجيب الآخر، بالضبط، إذًا، نعود إلى البدء، نحن لا نعرف ما الذى سيحدث فيما بعد، كان أنطونيو كلارو قد رفع كمّ قميصه، ونظراً للمسافة التى كانت تفصل أحدهما عن الآخر لم تكن الشامات تُرى جيداً على جلدهما، ولكنهما عندما اقتربا من المصباح ظهرت، واضحة، دقيقة، متطابقة. يظنّ المرء نفسه فى فيلم خيالٍ علمىّ مكتوبٍ، ومُخرَج ومُمَثل من قبلِ مستنسخيْنَ تحت أوامر عالم مجنون، قال أنطونيو كلارو، يجب علينا أيضاً أن نرى الندب على ركبتنا، ذكّر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لا أظنّ أنّ ذلك يستحق الجهد، البرهان أكثر من واضح، اليدان، الذراعان، الوجه، الصوت، كلُّ شىء عندنا متطابق، لم يعد ينقصنا إلا أن نتعرّى كليّاً، سكب لنفسه الويسكى من جديد، ونظر إلى السائل كما لو كان ينتظر أن تتمكن فكرة من الانبثاق منه وتعجّب فجأة، ولمَ لا، نعم، لمَ لا، سيكون الأمر مهزلة، قلت لتوّك أنتَ

نفسَكَ أنَّ البرهان قد أقيم، لماذا مهزلة، نحن - ممثلى السينما، والمسرح أيضاً - نقضى وقتنا كله تقريباً فى التعرّى، فى أن نعرّى صدرنا وأن نعرّى كل الباقى أيضاً، لستُ ممثلاً، لا تتعرّى إن كنت لا تريد ذلك، لكنى أنا سوف أفعل ذلك، لا يكلفنى هذا شيئاً، لم يعد عندى إلا عادته، وإذا كان التطابق يتكرّرُ على الجسم برمّته، فسترى نفسك بنفسك حين ستنظر إلىّ، قال أنطونيو كلارو. نزعَ قميصَه بحركة واحدة، وخلع حذاءه وسحب بنطاله، ثم ملابسه الداخليّة وأخيراً جوربيْه. كان عارياً من الرأس إلى القدميْن ومن الرأس إلى القدميْن كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أستاذ التاريخ. عندئذ قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لنفسه إنه لا يستطيع أن يتملّص، وأنَّ عليه أن يواجه التحدّى، نهض من كرسيّه وبدأ هو أيضاً بالتعرّى مع حركات كان الخجل وعدم الاعتياد يجعلانها أكثر تحفظاً، ولكن عندما كان عارياً، وقد انحنت قامته بصورة طفيفة بسبب الخجل، كان قد تحوّل إلى دانييل سانتا - كلارا، ممثل السينما، مع استثناءٍ واحدٍ مرئىٍّ فى القدميْن لأنه لم يعزم على خلع جوربيْه. تبادلا النظر فى صمت، واعييْن بلا فائدة الكلام كلياً، وقد اكتسَحَهُما شعورٌ غامضٌ بالمهانة وبالضياع الذى يستبعدُ الذهولَ الذى كان يجب أن يكون الاستجابة الطبيعية، كما لو أنّ التشابهَ الجارحَ لأحدهما كان قد انتزع شيئاً ما من هويّة الآخر، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الأول فى

الانتهاء من ارتداء ثيابه. بقى واقفاً، فى وضع الرجل الذى يفكر أن اللحظة قد حانت لكى ينسحب، لكنّ أنطونيو كلارو قال، أطلبُ إليكَ أن تتفضلَ بالجلوس، أودّ أن أوضح معك نقطة أخيرة، ولن أستبقيك وقتاً طويلاً جداً، ما الموضوع، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يعود إلى الجلوس بقسْر، الموضوع هو تاريخ ولادتنا، وكذلك الساعة التى ولدنا فيها، قال أنطونيو كلارو وهو يُخْرِجُ من جيب سترته محفظة الجيب ومنها وثيقة هويّة مَدّها إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من فوق المنضدة. ألقى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو نظرة خاطفة فوقها، أعادها وصرّح، ولدتُ فى التاريخ نفسه، وفى السنة نفسها، وفى الشهر نفسه وفى اليوم نفسه، هل سأجرحك إن طلبت منكَ أن ترينى بطاقة هويّتك، على الإطلاق، انتقلت بطاقة ترتوليانو ماكسيمو آفونسو إلى يدىْ أنطونيو كلارو حيث توقف عشر ثوان لكى يستدير بعدها إلى صاحبها الذى سأل، هل أنت راض، ليس بعد، لا بدّ لى أن أعرف أيضاً الساعة، فكرتى هى أن نكتبها كلانا على ورقة، كلٌّ واحد ساعته، لماذا، لكى لا يستسلم الثانى الذى سيتكلم، إن كان هذا هو المنهج الذى سنختاره، إلى إغواءِ طرح خمس عشرة دقيقة من الساعة التى صرّحَ بها الأوّل، ولماذا لا تُضاف هذه الدقائق الخمسة عشر، لا تضمن الورقة جدّيّة المنهج، لا أحد يستطيعُ أن يمنعنى من أن أكتب، هذا مجرّد مثال، أننى ولدت خلال الدقيقة الأولى من اليوم، فى

حيْن أنّ ذلك ليس صحيحاً، ستكون قد كذبت، حقاً، لكن أيّاً منّا ـ نحن الاثنيْن ـ إن شـــاء ذلك، يمكن أن يخطئ ضدّ الحقيقة حتى ولو اقتصر فقط على التصريح بصوت عال وواضح فى أيةّ ساعة وُلِد، معك حق، إنها مسألة استقامة ونيّة صادقة، كان ترتوليانو ماكسيمو آفونسو يرتعد فى داخله، كان لديه منذ البداية اليقينَ بأنَّ هذه اللحظة ستأتى، ببساطة لم يكن قد تصوّر أنه سيكون هو نفسه الذى سيدعوه إلى الظهور، إلى تحطيم الختم الأوّل، إلى كشف الاختلاف الوحيد، كان يعرف مسبقاً ما سيجيب به أنطونيو كلارو، لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يسأل، وأيّة أهمّيّة ستكون لواقعة أن نقول لأنفسنا بالتبادل الساعة التى أتينا فيها إلى العالم، سنعرف على هذا النحو من منا نحن الاثنيْن، أنتَ أم أنا، هو النسخة الثانية عن الآخر، وما الذى سيحدث للواحد وللآخر من معرفة ذلك، ليس لدىّ أية فكرة، ومع ذلك فخيالى، والممثلون يتمتعون به أيضاً، يقول لى إنه على الأقلّ لن يكون من السهل أن يعيش المرء مع معرفته نفسه أنه نسخة عن شخص آخر، وهل أنت مستعدّ، من ناحيتك، على المجازفة بذلك، أكثر من مستعدّ، دون كذب، آمل ألا يكون ذلك ضرورياً، أجاب أنطونيو كلارو مع ابتسامة مدروسة، تركيبٌ من الشفتين والأسنان أوالصراحة وهى تتحد، بمقادير متساوية وغامضة، مع الخبث، البراءة مع الصفاقة. ثمّ أضاف، من الطبيعى، إذا كنت تفضل، يمكننا أن نقترع مَنْ

منّا نحن الاثنين سيتكلم أوّلاً، ليس ذلك ضرورياً، سوف أبدأ، قلتَ أنتَ نفسك إنها مسألة استقامة ونية صادقة، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إذاً، ولدتَ في أيةّ ساعة، فى الساعة الثانية بعد الظهر، اتخذ أنطونيو كلارو هيئة معذبة وقال، ولدتُ قبلك بنصف ساعة أو، لكى أتكلم بدقة مطلقة، وضعتُ رأسى خارجاً فى الساعة الثالثة عشرة وتسع وعشرين دقيقة، آسف، يا عزيزى، لكنى كنتُ هنا قبلكَ حين ولدتَ، إنّك أنتَ النسخة، ابتلع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بجرعة واحدة ما تبقى من الكونياك، نهض وقال، إنّه الفضول الذى جاء بى إلى هذا اللقاء، الآن وقد ارتضى فإنى أنسحب، هيّا، لا تذهب بهذه السرعة، لنثرثر أيضاً قليلاً، ليس الوقت متأخراً ثمَّ، إنْ لم تكن لديك التزامات أخرى، فإن باستطاعتنا تناول العشاء معاً، يوجد مطعمٌ جيّد قريبٌ من هنا، مع لحيتك لن يكون هناك خطر، أشكرك على الدعوة، لكنى لا أقبلها، لن يكون لدينا شيء مهم لنقوله فيما بيننا، لا أعتقد أن التاريخ يهمّك وأنا شفيتُ من السينما للسنوات القادمة، إنّك ساخطٌ لأنّكَ لم تكن الأوّل الذى وُلِد، سخطٌ مِنْ أنْ أكونَ الأصل وأنتَ النسخة، كلمة السخط ليست الكلمة الصحيحة، كنت أفضل لو لم يكنِ الأمر هكذا، ولكن لا تطلب منى لماذا، مهما كان الأمر لم أفقد كلّ شىء، بل إننى اكتسبت تعويضاً صغيراً، أىّ تعويض، واقعة أنك لن يكون لديك ما تكسبه فى الطواف فى العالم وأنت

تفتخر بأنك الأصل منّا نحن الاثنيّن إن لم تكن معك النسخة التى هى أنا للقيام بالتحقيقات الضرورية، ليست لدىّ أية نية فى الإعلان على السطوح عن هذه القصّة التى لا تصدَّق، إننى فنان سينما، لا ظاهرة للعرض، وأنا أستاذ تاريخ، لا حالة مسخيّة، نحن متفقان، لا وجود إذًا لأىّ سبب كى نلتقى من جديد، إننى أرى أيضاً هذا الرأى، لمً يبق علىّ إذًا إلا أن أتمنّى لك أكبر نجاح فى القيام بدور لن تكسب منه أية ميزة نظراً لأنه لن يكون هناك جمهور لكى يصفق له وإلا أن أعدكَ بأن نسختك ستبقى بعيداً عن أن يطالها الفضول العلمى الأكثر من مشروع والطفيليّة التى لا تقل مشروعية للصحفيين من حيث إنهم يعيشون منها، أتصوّر أنك سمعت من قبل ما يقال من أن العرف له قوّة القانون، ولو لم يكن الأمر كذلك لأكدت لك أن قانون حمورابى ما كان ليكتب، سنحافظ على المسافات فيما بيننا، فى مدينة بمثل هذا الاتساع لن يكون ذلك صعباً، وفوق ذلك فإنَّ حياتنا المهنية هى من الاختلاف بحيث إننى ما كنت لأعرف أنك موجود لولا هذا الفيلم الملعون، أما بالنسبة لإمكانية أن يهتم ممثل سينما بأستاذ تاريخ، فليس لها بالتأكيد تعبير رياضىّ، لا أحد يعرف أبداً، كانت إمكانيّة أن نكون كما نحن معدومة ومع ذلك ها نحن، سأحاول أن أتصوّر أننى لم أرَ الفيلم، لا الأوّل، ولا الأفلام التالية، أو أن أتذكر فقط أننى عشت كابوساً طويلاً ومؤلماً، لكى أدرك فى نهاية المطاف أنه

لم يكن مرعباً بهذا القدر، رجلٌ مطابقٌ لرجل آخر، أية أهمّيـة، إن شـئتَ أن أقـول لك أسـاسَ فكرىً، الشىء الوحيد الذى يشغلنى حقاً فى هذه اللحظة هو معرفة مـا إذا كنا، لأننا ولدنا فى اليـوم نفسـه، سـوف نموت أيضـاً فى اليـوم نفسـه، لا أرى بأيةٍ مناسـبـة تأتيك هموم مشابهة، الموت دائما يأتى بالمناسبة، تـبدو لـى أنّك تشكو من هوس سقيم، عـندمـا هتفتَ لى لفظتَ الكلمات نفسها وكذلك بغير مناسبة، فـى تـلـك المناسبة، جاءتنى بصورة آليّة، كانت واحدة من الجُمَل غيـر اللائقة وخارج الموضوع التى تنزلق فـى المحادثة دون أن يُراد ذلـك، لـم تكن هـى الحـالـة الآن، أهذا يزعجك، عـلـى الإطـلاق، سـيزعجكَ ربمـا إن حدثتك عن فكرة خطرت على بالى لتوّها، أية فكرة، إذا كنـا متشـابهين بالقـدر الذى أمكننـا أن نتحقق منه اليوم، فالمنطق التطابقى الذى يبدو أنه يوحّدنا سيحدّد أنه يجب عليك أن تموت قبلى، إحدى وثلاثون دقيقة على وجه الدقة قبلى، خلال إحدى وثلاثين دقيقة ستحتلّ النسـخـة مكان الأصل، سـتكون هـى نفـسهـا الأصل، أتمنى لك أن تعـيش جـيـداً هـذه الدقـائق الإحـدى والثلاثين من الهوية الشخصية، المطلقة والحصرية، لأنه من الآن فصاعداً لن تكون لك هوية أخرى، هـذا لطف منك، قال ترتوليانو مـاكسـيمـو أفونسـو، وضع بعناية شديدة لحيته فى مكانها، وضغط عليها برقة بأطراف أصـابعه، لم تعد يداه ترتعشان، حيّا واتجه نحـو البـاب. ومـا إنْ وَصَلَ هناك، حتى توقف فـجـأة،

استدار وقال، آه، كدت سأنسى الأهمّ، كلّ البراهين قُدِّمَت إلا واحداً، أىّ واحدٍ منها، سأل أنطونيو كلارو، البرهان عن طريق تحليل الجينات، تحليل ترميز معلوماتنا التكوينية أو بصورة أبسط، لكى نبقى فى متناول فهم ضروب الذكاء جميعها، الحجة القاطعة، البرهان بتسعة براهين، لا مجال على الإطلاق، معك حق، علينا الذهاب كلانا إلى مخبر التحليل التكوينى، يداً بيد، لكى يقص أحدٌ أظافرنا أو لكى تؤخَذ قطرة من الدم وآنئذ، حقاً، سنعرف إن كان هذا التطابق ليس إلا تزامناً طارئاً ذا ألوان وأشكال خارجية أو إذا كنا البرهنة المستنسخة، أريد أن أقول فى نسخة أصلية وفى نسخة مستنسخة، وأنّ استحالة مثل هذا الاستنساخ كانت الوهم الوحيد الذى تبقى لنا، ربّما سنُعتبَرُ بوصفنا حالتين مستنسختين، أو بوصفنا ظاهرتيّن للعرض، وسيكون ذلك غير محتمل من كليّنا، لا شىء أكثر صحة من ذلك، لحسن الحظ أننا مُتَّفقان، كان لا بدّ لنا من أن نكون على اتفاق حول شىء ما، مساء الخير، مساء الخير.

كانت الشمس قد اختبأت وراء الجبال التى تسدّ الأفق من الجانب الآخر من النهر، لكنّ تلألؤ السماء بلا غيوم لم ينقص تقريباً، وحدها حدّة الزرقة الفائضة كانت مخففة بطبقة شاحبة زهرية كانت تسودُ المكان ببطء، وضع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو سيارته فى وضع الانطلاق وأدار المقود سائراً فى اتجاه الطريق الذى يعبرُ المنطقة المعمورة، نظرَ نحو

البـيـت ولمح أنطونيـو كـلارو على العـتـبـة، لكنّه تـابع طـريـقـــه، لم تـكـن هـنـاك إشـــارات وداع، لا مـن هـذه الناحيـة ولا من الناحيـة الأخرى. قال الحسّ المشترك، عُدتَ لوَضْع هذه اللحية المضحكة، سوف أنتزعها ما إن نبلغ الشارع، هذه هـى المرة الأخيـرة التى تفاجئنى بهـا وأنا أضـعـهـا، من الآن فـصـاعـداً سـأتتزّه على المكشوف، فليتنكر من يريد، كـيف تعـرف ذلك، المعرفة، ما يُسمّى المعرفة، لا أعرفه، إنها مجرد فكرة، افتراض، حدْس، يجب علىَّ أن أعترف أننى لم أكن أنتظر كل ذلك منك، لقد تصرفت بصورة جيدة جداً، كـرجل، إنـنـى رجـل، لا أنكر ذلك، لكن العـادة أنَّ الضعفَ عندك يتنضّد فوق القوة، النتيجة إذًا هى أن الرجل هو مَنْ لا يكون عرضة لأىٍّ ضعف، الرجل هو أيضاً مَنْ يتوصّل إلى السيطرة عليهما، فـى هـذه الحالة فإنّ المرأة التى تُظهرُ قدرة على التغلب على ضعفها الأنثوى هى رجل، إنها مثلُ الرجل، بالمعنى المجازى نعم، من الممكن قول ذلك، إذًا أنا أقول لك إنَّ الحسّ المشترك يعبِّرُ عن نفسه كذكورىٍّ بالمعنى الكامل للكلمة، هذا ليس خطئى، لقد صُنعتُ على هذا النحو، هذا ليس عذراً جيداً لشخص يقضى حياته فى إعطاء النصائح والآراء، إنَّها ليستْ سيّئة على الدوام، هذا التواضع المفاجئ يناسبك تمام المناسبة، سأكون أفضل مما أنا عليه، وأكثر تأثيراً، وأكثر فائدة، إذا ساعدتمونى، مَنْ يساعدك، أنتم جميعاً، الرجال، والنساء،الحسّ المشترك ليس إلا نوعاً من المتوسط

الحسابى يرتفع أو ينخفض حسب المدّ والجزر، أى أنّه بالنتيجة متوقع، فعلاً، إننى الشىء الأكثر توقعاً فى العالم، وهذا هو السبب فى أنكَ كنت تنتظرنى فى السيارة، كان قد آن الأوانُ لأن أظهرَ من جديد، من الممكن حتى أن يُؤخذَ علىَّ أننى تأخرت، وسمعتَ كلَّ شىء، مِنَ الألف إلى الياء، هل تعتقد أننى أسأتُ صنعاً إذ ذهبت للتكلم معه، هذا يتوقف على ما نفهمه بإساءة أو إحسان، ثمَّ إن ذلك لا أهميّة له لأنه نظراً للوضع الذى كنتَ قد حشرتَ نفسَكَ فيه لم يكن لديك الخيار، كانت هى الطريقة الوحيدة لوضع نهاية للقضيّة، أيةّ نهاية، لقد قرّرنا معاً ألا نعود لرؤية بعضنا، هل أنتَ فى طريقك لتقول لى إنَّ كل هذا المهرجان الذى نظمته لنا سوف ينتهى على هذا النحو، أنك ستعودُ إلى عملك وهو إلى عمله، أنتَ إلى ماريا دا باز بالقدّر الذى سيدومُ فيه ذلك وهو إلى هيليناه أو التى يعلم الله وحده اسمَها ومن الآن فصاعداً كما لو أن أحداً لا رأى ولا سمع، أهذا هو ما أنتَ فى سبيلك إلى قوله لى، ليس هناك أىّ سبب ليكون الأمر خلاف ذلك، توجد الأسباب كلها لكى يكون الأمر خلافَ ذلك، هذه كلمة صدق من الحسّ المشترك، يكفى ألا نريد ذلك، إذا أوقفتَ المحرّك، ستستمر السيارة فى التقدّم، إننا على منحدر، ستستمرّ أيضاً فى التقدم، لوقتٍ أقلّ طولاً هذا صحيح، لكن إذا تواجدنا على سطح مستو، فذلك يُسمّى قوة الجمود، كما تعرف حتماً، حتى ولوً لم يكن

المقصود التاريخ، أو ربما بلى، الآن وقد فكرتُ فى ذلك، أعتقد أنّه فى مجال التاريخ على وجه الدقة إنما تلاحَظ قوة الجمود أكثر، **لا** تعطِ رأيك فيما لا تعرفه، مباراة شطرنج يُمْكِنُ أنْ توقفَ فى أيةّ لحظة، أتكلم عن التاريخ، **وأنا** أتكلم عن الشطرنج، **حسناً** جداً، يكرِّمُ المرءُ قدِّيسيهِ على قدْرِ معرفته بهم، يمكنُ لأحدِ اللاعبين أن يستمرّ فى اللعب وحده إن راق له ذلك وهو سوف يربح فى كلّ الحالات، دون أن يحتاج إلى الغشّ، سواء لعبَ بالقطع البيضاء أو بالقطع السوداء لأنّه يلعب بها جميعاً فى آن واحد، **لقد** نهضتُ من أمام المنضدة، وخرجتُ من القاعة، ولم أعد حاضراً أبداً، **لا** يزال باقياً ثلاثة لاعبين، افترض أنك تريد أن تقول إنّ هذا الأنطونيو كلارو بقى، وكذلك زوجته، وكذلك ماريا دا باز، **ما** علاقة ماريا دا باز بكل ذلك، **لديك** ذاكرة ترتخى، يا عزيزى، تبدو وقد نسيتَ أنكَ قد استخدمتَ اسمَها من أجل بحوثك، عاجلاً أم آجلاً ستأخذ ماريا دا باز منك أو من شخص آخر علماً بالمؤامرة التى زُجَّ بها فيها على غير معرفة منها، أما بالنسبة لزوجة الممثل، فربما ستكون غداً، بافتراض أنها لم تدخل بعد ضمن اللعبة، الملكة المنتصرة، **لديك** خيال أوسعُ من أن تكون معه الحسّ المشترك، **تذكَّر** ما قلته لك قبل أسابيع عدّة، وحدة الحسّ المشترك كان يمكنه مع خيال شاعر أن يبتكرَ الدولاب، ليس هذا تماماً ما قلته لى، **لا** يهمّ، إننى أقوله الآن، **ستكون** صاحِباً أفضل لو كنتَ لا

تريدُ دوماً أن تكونَ على حق، **لم** أزعم أبداً أننى على حقٍّ دوماً، عندما أرتكب خطأ فإننى أول من يعترف بأخطائه، **ربما**، لكن مع اتخاذك سمات ضحيّة خطأ قانونى صارخ، وحديد الحصان، **ماذا**، حديد الحصان، **أنا**، الحسّ المشترك، لقد ابتكرتُ أيضاً حديد الحصان، **مع** خيال شاعر، الأحصنة مستعدة للقسم أنْ نعم، **يا** إلهى، يا إلهى ها نحن ننطلقُ على أجنحة الخيال، **ما** الذى تفكر أن تعمله فى الوقت الحاضر، **أريد** أن أقوم بنداءين هاتفييّن، أحدهما إلى أمّى لأقول لها إننى ذاهب إلى رؤيتها بعد غدٍ والآخر لماريّا دا باز لأعلمها أننى سأقوم بعدَ غدٍ بزيارة أمى وأننى سأبقى معها أسبوعاً، كما ترى، لا شئ أبسط من ذلك، لا شئ أكثر براءة، لا شئ أكثر عائلية ومنزلية. فى اللحظة نفسها تجاوزتهما سيارة بأقصى سرعة، قام السائق بإشارة بيده اليمنى، **هل** تعرف هذا الشخص، من هو، سألَ الحسّ المشترك، إنه الشخص الذى تكلمت إليه، أنطونيو كلارو، دانييل سانتا ـ كلارا، الأصل الذى أنا نسخته، كنت أظنّ أنك عرفته، **لا** يمكننى أن أعرف شخصاً لم يسبق لى أن رأيته أبداً من قبل، أنْ ترانى، هو كما لو أنّك تراهُ هو، ولكن ليس وراء لحية كلحيتك، **أنسَتنى** محادثتنا انتزاعها، هاكَ، لقد انتزعتها، كيفَ تجدنى فى الوقت الحاضر، **سيّارته** أقوى من سيّارتك، **أكثر** بكثير، لقد اختفت فى غمضة عيْن، إنه يهرعُ ليقصّ لقاءنا على زوجته، **هذا** ممكن، لكنه ليس أكيداً، إنك شكاك لا

يمكن إصلاحك، **لا**، إننى ببساطة ما تسمّونه الحسّ المشترك، فى غياب معرفة أىّ اسم أفضل أسمّى به، أنتَ، مخترع الدولاب وحديد الحصان، **فى** ساعاتى الشعرية، فقط فى ساعاتى الشعرية، **لو** كان يمكنها أن تكون أكثر عدداً، **عندما** نصل اتركنى عند مدخل الشارع، إنْ لم يزعجك ذلك، **ألا** تريد الصعود لترتاح قليلاً، **لا**، أفضّل أن أطلق العنان لخيالى، سوف نكون بحاجة إليه.

عندما استيقظ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى الغداة صباحاً عرف لماذا كان قد قال للحسّ المشترك، ما إن دخل هذا إلى سيّارته، إنها المرّة الأخيرة التى سيراه فيها مع اللحية المستعارة وأنّه سيتنزه بوجه مكشوف وعلى مرأى من الجميع، كان قد صرّح بلهجة حاسمة، **فـ**ليتنكر من يريد. وما كان يمكن أن يظهر آنئذٍ لشخص على غير علم بذلك تصريحاً فظاً بالمقاصد، يبرّره نفاد صبر شخص خضعَ لضروب متعاقبةٍ من التجارب القاسية كان فى نهاية المطاف، دون أن نرتاب فى ذلك، نواة فعل مثقل بالنتائج القادمة، مثل إرسال شخص رسالة تحدٍّ يتحدّى بها عدوهُ مع معرفته المسبقة بأنّ الأشياء لن تبقى على حالها. يجدُرُ بنا، قبل المتابعة، مع ذلك، من أجل انسجام جيّدٍ للقِصّة أن نخصّصَ عدداً من السطور لتحليل تناقض كان يمكن أن يمرّ دون أن نراه بين الفعل الذى سنتكلم عنه فيما بعد والقرارات المعلنة من قبل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو خلال رحلته الوجيزة مع الحسّ المشترك. عودة سريعة إلى

الصفحات الأخيرة من الفصل السابق ستضىء على الفور وجود تناقض أساسىٍّ ظهر تحت أشكال مختلفة، مثلاً، واقعة أنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان قد قال، أمام الارتياب الحذر للحسّ المشترك، أولاً أنّه وضع نهاية لقضيّة الرجلين المتطابقيْن، ثمّ ثانياً أنّه كان قد استقرّ الاتفاق على أن أنطونيو كلارو وهو لن يلتقيا أبداً وثالثاً، مع البلاغة الساذجة لنهاية فصل، إنّهما قد نهضا من منضدة اللعب، وإنهما خرجا من القاعة وإنهما لم يعودا حاضريْن أبداً. ها هنا يكمن التناقض. كيف يستطيع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يؤكد أنه لم يعد حاضراً، وأنه خرج، وأنه ترك المنضدة إذا رأيناه، وهو ما كاد ينهى تناول طعام فطوره، يسارعُ إلى أقربِ مكتبة وراقة ليشترى علبة من الورق المقوّى يرسلُ فيها بواسطة البريد إلى أنطونيو كلارو لا أقلَّ من اللحية التى تنكرَ بها مؤخراً. وبافتراض أن أنطونيو كلارو سيستخدم ذات يوم هذا القناع، فالأمر شأنه هو، ولا علاقة لهذا فى شىء مع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى خرج مغلقاً الباب بقوّة ومعلناً أنه لن يعود أبداً. حين سيفتح أنطونيو كلارو بعدِ يوميْن أو ثلاثة أيام، العلبة فى بيته ويجدُ نفسَهُ أمام اللحية المستعارة التى تعَرَّفها مباشرة، سيقول على وجه التأكيد إلى زوجته، **ما** ترينه هنا والذى يملكُ هيئة اللحية هو فى الحقيقة رسالة تحدٍّ للمبارزة، وستسأل زوجته، **ولكن** كيف يمكن لذلك أن يحصل، ليس لديك أعداء، لن يضيّع أنطونيو كلارو

وقته فى إجابتها بأنّ من المستحيل ألا يكون للمرء أعداء، وأنّ الأعداء لا يولدون من إرادتنا أن يكون لنا منهم، بل من رغبة لا تقاوم لديهم يشعرون بها فى أن يكون لهم منّا، تثير الأدوار المكتوبة فى عشرة أسطر مثلاً لدى الممثلين، بتكرار مفقدٍ للعزيمة حسَدَ الممثلين المكتوبة أدوارهم فى خمسة أسطر، يبدأ ذلك كله بالحسد، وإذا رأوا أنفسهم بعد الأدوار بعشرة أسطر يُكلفون بعشرين سطر فى حين يتوجّبُ على ذوى الخمسة أسطر الاكتفاء بسبعة، فالأرض صالحة لكى تنمو فيها بغضاءٌ شديدة الحدّةِ والحيويةِ والديمومة. وهذه اللحية، سألت هيلينا، ما دورها فى كلِّ هذا، هــــذه اللحية، كنتُ قد نسيت أن أقوله لك فى ذلك اليوم، هىَ التي كان يضعها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو حين جاء إلى لقائى، من المفهوم أنه تنكر بها لا بل وأعترفُ أننى ممتنٌّ له أنْ جاءته هذه الفكرة، تصوّرى، لو أنَّ أحداً رآه يعبر المنطقة المعمورة ويظنّ أنه أنا، التعقيدات التى كان يمكن لذلك أن يثيرها، ما الذى ستفعله بها، يمكننى أن أعيدها مع بطاقة جافة لكى أضع هذا النسّناسَ فى مكانه، لكن ذلك سيعنى الدخول فى قلتَ لى وقلتُ لك مع نتائج بغير حسبان، نعرف كيف يبدأ ذلك، ولكننا لا نعرف كيف سينتهى، ولدىّ حياة مهنية يجبُ علىّ أن أدافع عنها الآن وعندى أدوار بخمسين سطراً، مع إمكانية مزيد من التسلق إذا استمر كلّ شىء يسيرُ بالنسبة إلىّ كما يَعِدُ السيناريو الذى ترينه هناك، لو كنتُ مكانك لأتلفتها،

هذه اللحية، سأرمى بها أو سأحرقها، فليمت الحيوان، وليمت السمّ، **لا** أظن أنَّ المسألة مسألة حياة أو موت، وفوق ذلك لدىّ الانطباع بأنّ اللحية لا تناسبك تماماً، **لا** تمزح، كانت تلك طريقة فى الكلام، كلّ ما أعرفه هو أنّ عقلى قد انقلب بل وحتى جسمى تغيّر من معرفتى أنه يوجدُ فى هذه المدينة رجلٌ مطابقٌ تمام المطابقة لك، رغم أننى أستمرّ فى رفض الاعتقاد بأن التشابهات يمكن أن تبلغ هذا الحدّ، أكرّر لكِ إنها كليّة، مطلقة، حتى البصمات على بطاقتىْ هويتيْنا متماثلة، أتيحت لى الفرصة لمقارنتها، **إنى** لأصاب بالدوار لمجرّد التفكير بذلك، **لا** تتركى نفسكِ تستغرقُ فى ذلك، خذى مهدّئاً، **لقد** أخذت منه، إننى آخذ منه منذ أن هتفَ هذا الرجل إلى هنا، لم أنتبه إلى ذلك، **ذلك** لأنكَ لا تنتبه إلىّ، **هذا** ليس صحيحاً، كيف يمكننى معرفة أنك تتناولين حبوباً إذا كنت تفعلين ذلك سرّاً، اعذرنى، إننى عصبية قليلاً، لكن لا أهمية لذلك، سينقضى الأمر، **سيأتى** يومٌ لن نتذكر فيه هذه القصة اللعينة، **بانتظار** هذا اليوم، عليكَ أن تقرّرَ ماذا **سوف** تفعل بهذا الشعر المقرف، سوف أضعهُ مع الشارب الذى حملته فى هذا الفيلم، **ما** الفائدة من الاحتفاظ بلحية استعْمِلت على وجهِ شخص آخر، المشكلة كلها تكمنُ هنا، فى الواقع الشخصُ هو آخر، وليسَ الوجه، فالوجهُ هو نفسه، إنه ليس نفسه، إنه نفسه، **إذا** أردتَ أن تجننّى، استمرّ فى القول إنَّ وجهكَ هو وجهُهُ هو، **أرجوكِ**، هدئى

نفـــسك، وفوق ذلك، كيف يمكنكَ الاحتفاظ بهذه اللحية كما لو كانت ذخيرة عزيزة وفى الوقت نفسه تصفها برسالة تحدٍّ مُرسَلة من قبل يدٍ عدوّة لأنك على هذا النحو سميتها وأنت تفتح العلبة، لم أقل إنها آتية من عدوّ، لكنك فكرت ذلك، هذا ممكن، لكنى لست متأكداً من أنها الكلمة الصحيحة، فهذا الرجل لم يسبب لى الأذى أبداً، إنه موجود، إنه موجود بالنسبة إلى مثلما أنا موجود بالنسبة إليه، لستَ أنتَ مَنْ ذهبَ للبحثِ عنه، حسب معرفتى، لو كنتُ فى وضعه، لما تصرفتُ خلافَ ذلك، أقسم لك إنك كنت ستفعل لو أنك طلبتَ نصحى، إننى أفطِنُ تماماً إلى أنّ الوضع ليس سائغاً، وهو ليس كذلك بالنسبة إلى أىّ واحدٍ منّا، لكنى لا أفهم لِمَ تتحمّسين إلى هذا الحدّ، لا أتحمّس، تكاد عيناكِ تقدحان شرراً، لم تكن شراراتٌ تلك التى أتت إلى عينىْ هيلينا، بل هى الدموع، ويا للعجب. أدارت ظهرها لزوجها وهرعت تنفرد بنفسها فى الغرفة، مغلقة الباب بقوّة وبعنف زاد عما كان ضرورياً، إنّ شخصاً ميّالاً إلى الخرافات يحضرُ مشهدَ الخلافِ الزوجى المؤسف الذى أتينا على وصفه ما كان ليفوّت الفرصة لإضفاء سبب الخلاف على التأثير المشئوم للحية المستعارة التى سيصرُّ أنطونيو كلارو على وضعها إلى جانب الشارب الذى دشّن به حياته المهنية كممثِّل. ومن المؤكد جداً أن الشخص المذكور سيهزُّ رأسه بهيئة تعاطف مزيّف وسينطق بالكلام المقدّس التالى، لا يأتينَّ مَنْ أدخلَ

العدوَّ إلى بيته بيديْه شاكياً، فقد أنذرَ ولم يهتمّ لذلك.

على مسافة أربعمائة كيلومتر من هنا، يستعدّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو للنوم فى غرفته القديمة صبياً صغيراً. بعد أن خرج من المدينة صباح الثلاثاء قضى الرحلة كلها وهو يتساءل إن لم يكن يجب عليه أن يقصّ على أمّه جزءاً مما حدث له أو، على العكس، إن لم يكن من الأفضل أن يحتفظ بفمه مغلقاً بقوّة. على مسافة خمسين كيلومتراً قرّر أنَّ الأفضلَ سيكونُ إفراغ ما فى جعبته كلياً، وعلى مسافة مائة وعشرين كيلومتراً اغتاظ من نفسه لقدرتهِ على أن يَتدبَّرَ مثل هذه الفكرة، وعلى مسافة مائتين وعشرة كيلومترات تخيّل أنَّ تفسيراً سطحيّاً بلهجة فكاهيّة سيكفى ربما لتهدئة فضول أمّه، وعلى مسافة ثلاثمائة وأربعة عشر كيلومترًا وَصَفَ نفسه بالغبىّ وصرّح أن ذلك يعنى أنّهُ لا يعرفُ أمَّه، وعلى مسافة أربعمائة وسبعة وأربعين كيلومترًا، عندما توقف أمامَ باب البيت العائلى، لم يكن يعرفُ ما العمل. ويقول لنفسه الآن، بينما يلبس بيجامته، إنّ هذه الرحلة خطأ خطير، يستحقُّ العصا الغليظة، وإنّهُ كان من الأفضل له ألا يخرج من بيته، وأن يبقى فى ملجأ فى قوقعته الحامية وأن ينتظر. صحيح أنه هنا فى منجى، لكن الانطباع يخامره، دون إرادة إهانة دونّا كارولينا بقول ذلك والتى لا يبرر جسمها ولا طبعها مثل هذه المقارنة، بأنه ألقى نفسه فى التَّهْلُكةِ كعصفورٍ متهوّرٍ طار مباشرة إلى الفخِّ دون

الانتباه إلى النتائج، لم تطرح عليه أمّه أسئلة، واكتفت بالنظر إليه من وقت إلى آخر مع تعبير ترقب ثم حوّلت عينيّها عنه ببطء بعد ذلك كما لو كانت تقول له، **لا** أريد أن أكون طفيليّة، لكن الرسالة واضحة، إذا كنتَ تظن أنكَ ستعودُ دون أن تتكلم، فإنك تخطئ خطأً كبيراً. وهو ممدّدٌ على السرير، قلّبَ ترتوليانو ماكسيمو آفونسو المشكلة على مختلف وجوهها فى رأسه ولم يجد حلاً. ليست أمّه معجونة من عجينة ماريا دا باز التى اكتفت، أو أنها تحمل على الظن، بأىّ تفسير، ولن ترى من المسىء أن تنتظر لحظة الكشف، لو اضطر الأمر، طوال حياتها. فى حين أنّ أمّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، تقولُ له فى كلّ موقف من مواقفها، فى كلّ حركة من حركاتها، حينما تضع صحناً أمامه، حينما تساعده على لبس سترته، حين تمدّ له قميصاً نظيفاً، **لا** أسألك أن تقصّ علىّ كل شىء أبداً، لك الحقُّ فى الاحتفاظ بأسرارك، ولكن بشرط واحد، شرط لا غنى عنه، أنَّ الأسرار التى تتوقف عليها حياتك، ومستقبلك، وسعادتك، أن تقولَ لى هذه الأسرار، هذا حقى، لا يمكنكَ أن تنكرَهُ على، أطفأ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو المصباحَ على منضدة السرير، كان قد حملَ معَهُ كتباً عدّة، لكنَّ عقله هذا المساء لم يكن توّاقاً للقراءة، أما بالنسبة إلى حضارات مابين النهرين التى كانت تقوده بهدوء إلى قمة النوم فهى من الثقل بحيث بقيت فى بيته، كذلك على منضدة السرير، العلامة المشيرة إلى بداية الفصل

المُنوِّر المخـصَّص للملك توكـوتى. نينورتا الأول الذى عرفَ أوْجَ مَجْدِهِ، كما اعتدنا القول عن الشخصيات التاريخية، بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر قبل ميلاد المسيح، انفتح باب الغرفة الذى كان مواربا، بهدوء فى الظلال، كان تومـاركتـوس، كلبُ البيت، قد دخل. جاء يتحقق إذا كان هذا السيّد الذى لا يظهر إلا من وقت إلى آخر لا يزال هنا. ذو قامة متوسطة، يشبه بقعة من الحبر الأسود، لا كالكلاب الأخرى التى يميل لونها بالأحرى، حين يُنظر إليها عن كثب، نحو الرمادى. أعطاه هذا الاسمَ الغريبَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، هذا ما يعنيه امتلاك سيّدٍ عالم، بدلاً من أن يطلق على الحيوان تسمية يمكن بسهولة التقاطها عن الطريق التكوينى المباشر، كما كانت الحالة بالنسبة إلى فيديل، أو بيلوت، أو سلطان، أو أميرال، موروثاً ومنقـولاً بالتـعـاقب من جيل إلى جيل، بدلاً من ذلك أطلق عليه اسماً غريباً لكلب من سلالة الكلبيات التى عـاشت، فيمـا يقـال، منذ خمسة عشر مليوناً من السنين والذى يعتبر بناء على أقوال أخصائيى الأحياء المادية القديمة آدمُ هذه الحيوانات المتحَجِّر ذوات الأطراف الأربعة التى تركض، وتتوقع، وتحكّ براغيثها وتعضّ أحياناً كما هو طبيعى بالنسبة للأصدقاء، لم يأت توماركتوس ليبقى وقتاً طويلاً، سينام عدداً من الدقائق ملفوفاً على نفسه عند قدم السرير، ثمّ ينهض ليقوم بدورة فى البيت كى يرى إنْ كانَ كلُّ شىء على ما يرام وأخيراً، خلال ما تبقى من الليل، سيكون

الرفيقَ الساهرَ على سيّدته فى كل الأوقات، إلا إذا وجب عليه الذهاب للعواء فى الباحة، والشرب فى طريقه من الماء فى قصعته ورفع رجله بالقرب من أجمة الجيرانيوم أو رزم إكليل الجبل، سيعود إلى غرفة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى الساعة الأولى من الفجر، وسيطمئن إلى أنّ هذا الجانب من الأرض لم يغيِّر من مكانه هو الآخر، وأكثر ما يقدره الكلاب فى الحياة هو ألا يذهب أىّ شخص. عندما سيستيقظ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، سيكون الباب مغلقاً، علامة على أنّ أمه قد استيقظت من قبل وعلى أنّ توماركتوس ذهب لينضمَّ إليها، نظر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى المُنبِّه وفكر، لا يزال الوقت باكراً، يمكن للمشاغل انتظارَ الوقت كله الذى سيدومه هذا النوم الأخير المبهم.

كان سيستيقظ قفزاً لو أن عفريتاً ماكراً همسَ فى أذنه أنَّ شيئاً ما على أكبر قدر من الأهميّة كان فى طريقه لأن يحدث فى اللحظة ذاتها فى بيت أنطونيو كلارو أو، لكى نكون أكثر دقة وأكثر صحة، فى داخل دماغه، ساعدت المهدّئات هيلينا كثيراً، وليس علينا إلا أن نرى كيف تنام، بتنفس هادئ، ووجهِ طفل وديع وغائب، لكننا لا يمكننا قولُ الأمر نفسه عن زوجها الذى لم تفدْهُ الليالى، فهو لا ينى يكرِّرُ التفكيرَ مراراً باللحية المستعارة ويتساءل بأىّ قصدٍ أرسلها له ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، حلم باللقاء فى البيت الريفى، واستيقظ قلقاً، وأحياناً مبتلاً من العرق، لم

يكن اليومَ على هذا النحو، كانت الليلة، شأن الليالى السابقة، عدائيّة نحوه، لكنّ الفجر أنقذه، كما يَتوّجَّبُ على كل فجر أن يفعل، فتح عينيْه وانتظر، وقد فاجأهُ شعورُه بنفسه يبُحثُ عن شيء على وشك أن يظهر وقدْ ظهَرَ لتوّه بغتة، شرارةً، برقاً يملأ الغرفة كلها بفيض من النور، كان قد تذكر أنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان قد قال له فى بداية محادثتهما، **كتبتُ** إلى شركة الإنتاج، مجيباً بذلك عن السؤال الذى كان قد طرحه، **وكيف** وجدتنى فى نهاية المطاف، ابتسمَ ابتسامة سرور صافٍ، كما وجب أن يبتسم البحّارة جميعاً عند رؤية جزيرة مجهولة، لكن السرور الحماسىّ من الاكتشاف لن يدوم وقتاً طويلاً، فهذه الأفكار الصباحيّة تشكو عادة من عيب فى صناعتها، يمتلكنا الشعورُ بأننا ابتكرنا الحركة الأزليّة وما نكاد ندير ظهرنا حتى تصدأ آليتها، إنّ الرسائل التى تطلب صور وتوقيعات الفنانين أمرٌ معتادٌ فى المؤسسات السينمائية، والنجوم الكبار يتلقون الآلاف منها كلّ أسبوع، ولوقت يطول ما استمرّ حبّ الجمهور، عندما نقول يتلقون لا نعنى أنّهم يتلقونها بالمعنى المباشر للكلمة، فهم لا يضيّعون وقتهم فى قراءتها، من أجل ذلك يوجد موظفو شركة الإنتاج الذين يبحثون على الرفوف عن الصور المرغوبة، والذين يضعونها فى مظروفٍ مع إهداءٍ مكتوبٍ سلفاً، وهو نفسُه للجميع، وهوب، انتهى الأمر، وإلى التالى. منَ الواضح أن دانييل سانتا ـ كلارا ليس نجماً بأىّ حال وأنه إذا

وصلت ثلاث رسائل فى اليوم نفسِهِ إلى شركة الإنتاج تطلب صَدَقة صورته فسيكون هناك مجال لوضع الزينة وإعلان اليوم عيداً قومياً، هذا دون حساب أنه لا يُحْتفظُ بهذا النوع من الرسائل، إذ يُلقى بها جميعاً على الفور وبلا استثناء فى آلة التمزيق، ويستحيل هذا القلق كلّه، وهذه المشاعر كلّها تلّة بائسة من الأشرطة الورقية العسيرة على القراءة، وإذا افترضنا على كل حال أنَّ موظفى الأرشيف فى الشركة قد تلقوا تعليمات بأن يقوموا، على قاعدة معايير محدّدة، بتسجيل، وتنظيم، وتصنيف، شهادات الإعجاب هذه من الجمهور نحو فنانيها بطريقة لا تضيعُ معها أية رسالة، فسنتساءل حتماً ما الذى ستفيد أنطونيو كلارو الرسالة المكتوبة من قبل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أو بصورة أدقّ كيف يمكن لهذه الرسالة أن تسْهمَ فى إيجاد مخرج، إن كان ثمة مخرج، من الحالة المعقدة، الغريبة، غير المسبوقة لرجليْن متطابقيْن. يجب القول إن هذا الأملَ الأخرق، الذى سرعان ما يحيله منطقُ الوقائع إلى ذرّات، هو الذى همسَ مثلَ هذا الحماس عند استيقاظ أنطونيو كلارو وإذا كان لا يزال قد بقىَ منه أثر، فهو مُجَرَّدُ الإمكانية البعيدة فى أن يكون الجزءُ مِنَ الرسالة الذى يقول ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أنَّهُ كرّسه لأهميّة الممثلين الثانويين قد حُكِمَ بأنه على قدْر من الأهميّة يكفى ليستحق شرف التواجد فى الأرشيف بل وحتى، من يدرى، لأن يسترعى انتباه اختصاصىٍّ فى علوم السلع الذى لن

تكون العوامل البشرية بالنسبة إليه غريبة كلياً. أساساً، إنَّ ما نكتشفه هنا هو فقط حاجة الرضا الضئيل الذى يمكنُ أن يقدّمَهُ لأنَا دانيل سانتا. كلارا، بواسطة قلم أستاذ التاريخ، الاعترافُ بأهمية الزبَدِ لإبحار حاملة الطائرات، حتى وإن لم يكن قد فعل شيئاً آخرَ خلال الرحلة سوى صقل النحاس الذى يغلفها، أنْ يكفى ذلك لكى يقرّر أنطونيو كلارو الذهاب إلى شركة الإنتاج هذا الصباح من أجل أن يسأل عن وجود رسالة مكتوبة من قبل شخص يدعى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أمرٌ قابلٌ بصراحة للنقاش، نظراً لعدم اليقين من العثور فيها على ما حملته مخيلته بقوّة على أن يأملَ فيه، لكن هناك لحظات فى الحياة تبدو فيها الحاجةُ الملحّة لانتزاعِ أنفسنا من ضعفِ التردّد، لفعلِ شيءٍ ما، أىّ شيء، حتى ما لا يفيد، حتى السطحىّ، آخرَ علامةٍ على القدرة الإرادية التى لا تزال باقية لنا، مثلُ الرَّصْدِ من ثقب قفل باب مُنِعْنا من عبوره، خرج أنطونيو كلارو من السرير مع ألف حيطة لكى لا يوقظ زوجته، إنه الآن نصف مستلق على الأريكة فى قاعة الجلوس، وسيناريو فيلمه القادم على ركبتيْه، سيكون ذلك تبريره لكى يذهب إلى شركة الإنتاج، هو الذى لم يكن أبداً بحاجة ليبرر نفسه ولم يُطلب منه أبداً ذلك فى هذا البيت، هذا ما يحدث عندما لا يكون ضميرنا مطمئناً تمامَ الاطمئنان، يجب أن أتوصَّلَ إلى الحصول على تدقيق بعض الأشياء فى هذا السيناريو، سيقول عندما

ستظهر هيلينا، ينقص جزء على الأقلّ من الحوار، والمقطع لا معنى له على هذا النحو. وأخيراً، عندما ستدخل زوجته قاعة الجلوس ستجده نائماً، لكنَّ الأثر لن يضيع كليّاً، ستفكرُ أنه نهض ليدرس دوره، يوجدُ أناسٌ على هذا النحو، أناسٌ يملكون حسّاً رفيعاً بالمسئولية يجعلهم فى حالة من القلق الدائم، كما لو أنهم فى كلّ لحظة يفوّتونَ القيام بواجب ما ويؤاخذون أنفسهم على ذلك. نهض قافزاً، شرحَ وهو يغمغم أنه قضى ليلة سيئة وسألته لماذا لم يعد إلى السرير، فشرحَ آنئذٍ أنه وجدَ خطأ فى السيناريو لا يمكن إلا لشركة الإنتاج وحدها أن تصحّحه وردّت عليه أن ذلك لا يرغمه على أن يسارع فى الذهاب إلى هناك، فليذهب بعد الغذاء ولينم الآن. ألحّ، فتركته، قالت فقط إنها فيما يخصّها، بالمقابل، ترغبُ رغبة شديدة فى النوم ثانية، تبدأ الإجازات خلال أسبوعيْن، سترى كم سأنام، مع هذه الحبوب بالإضافة إلى ذلك، ستكون الجنة، لن تقضى إجازاتك فى السرير، تعجّب، سريرى هو قصرى، ردّت، وراء أسوارهِ أنا فى ملجأ، يجب أن تذهبى لرؤية طبيب، لم تكونى هكذا من قبل، هذا مفهوم، حتى اليوم لم أكن أملك أبداً رَجُليْن فى رأسى، أنتِ لا تقولى ذلك جدّياً، أتصوّر، ليس بالمعنى الذى تظنّ، بالطبع، وفوق ذلك أعترف أنه سيكون من السخرية بما فيه الكفاية أن تكون غيوراً حتى من رجل لا أعرفه وإذا توقف الأمر علىّ فلن أعرفه مطلقاً، ستكون هذه هى اللحظة أو لا تكون

أبداً لكى يعترف أنطونيو كلارو أنه ذاهب لشركة الإنتاج لا بسبب الأخطاء المزعومة فى السيناريو، بل لكى يقرأ، إن استطاع، رسالة مكتوبة بالضبط من قبل ثانى الرجليْن اللذيْن يشغلان أفكارَ زوجته، حتى وإن كنا على حقٍّ فى أن نفترض، نظراً للطريقة التى يعمل بها الدماغ البشرىُّ عادة، المستعدُّ دائماً كما هو عليه على الغرق فى أىِّ شكل من أشكال الهذيان، على الأقل فى هذه الأيام المضطًربة، أنْ يكون ثانى الرجليْن هذا قد تفوق على الأوّل. لنعترف مع ذلك أنَّ مثلَ هذا التفسير، فضلاً عن أنه يتطلبُ كثيراً من الجهد من قبل الدماغ الفوضوى لأنطونيو كلارو، لا يفيد إلا فى أن يزيد من بلبلة الوضع وأنه لن يُسْتقبلَ استقبالاً مشجعاً من قبل هيلينا، اقتصر أنطونيو كلارو على الردّ أنه ليس غيوراً، وأنه سيكون من الغباء أن يكون كذلك وأن صحّتها هى التى كانت تشغله، **يجب** أن نستفيد من إجازاتك لنذهب بعيداً، أجابت، **أفضِّلُ** البقاءَ فى البيت، ثمَّ إنكَ سيتوجبُ عليكَ العمل فى فيلمك الجديد، **إنه** ليس على الفور، فلدىّ الوقت، **لـ**كن مع ذلك، **نـ**ستطيع أن نذهب إلى بيتنا الريفى، سأطلبُ من شخص من القرية أن يذهب لتنظيف الحديقة، **إننى** أختنق فى هذه العزلة، **إذًا**، لنذهب إلى مكان آخر، **قـ**لتُ لكَ من قبل إننى أفضل البقاء فى البيت، **سـ**يكون ذلك نوعاً آخر من العزلة، **و**لكن فى هذه العزلة أشعر بنفسى فى حالة حسنة، **حـ**سناً إذا كان هذا هو ما ترغبين فيه حقاً، **نـ**عم، هذا ما أرغب

فيه حقاً، لم يعُد هناك شىء ليقال. تمّ تناول فطور الصباح بصمت، وبعد نصف ساعة كانت هيلينا قد خرجت، فى طريقها إلى عملها، لم يكن أنطونيو كلارو على عجلة من أمره مثلها، لكنه هو الآخر لن يتأخر عن الخروج، صعد إلى سيارته وهو يقول لنفسه إنه سينتقل إلى الهجوم. ولكنه لم يكن يعرف على ماذا.

ليس من المألوف أنْ يدخلَ الممثلون مكاتبَ شركة الإنتاج بغتة ولا بدّ أنها المرّة الأولى التى يطرح فيها أحدهم سؤالاً حول رسالةٍ من أحد المعجبين، حتى وإن بدت مختلفة عن الأخريات بواقعة غير معتادة تجلّتْ فى عدم طلبها لا صورة ولا توقيعاً، بل عنواناً فقط. لا يعرفُ أنطونيو كلارو ما تقولُ الرسالة، إنه يفترضُ أنها تتضمّن فقط طلب عنوانه. من المحتمل أنه ما كانت لمهمّة أنطونيو كلارو أن تصير سهلة لو لم يكن له حظ معرفة رئيس الدائرة الذى كان رفيقه على مقاعد الدراسة والذى استقبله مفتوحَ الذراعيْن مع الجملة التقليدية، أىُّ رياح طيبة أتت بك إلى هنا، أعرف أن أحدهم كتبَ لكم يطلبُ عنوانى وأودّ أن أقرأ الرسالة، قال، لا أهتم بهذا النوع من المشكلات، لكنى سوف أطلب من زميل لى أن يستقبلك، نادى بواسطة الاتصال الداخلى، وشرح ما الموضوع بإيجاز وبعد لحظات عدّة ظهرت امرأة شابة مبتسمة، وجملة مُعَدّة سلفاً على الشفاه، صباح الخير، أحببتُ كثيراً فيلمكَ الأخير، إنكِ شديدة اللطف، ما الذى تودّ معرفته،

رسالة مكتوبة من شخص يُسمّى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إذا كانت من أجل طلب صورة فهى لم تعد موجودة، إننا لا نحتفظ بهذا النوع من الرسائل، إذ أنَّ أرشيفنا سيتهاوى من فتحاته لو احتفظنا بها، إنها حسب ما أظنّ معرفته، تتضمنُ طلبَ عنوان وتعليقاً حول موضوع يهمّنى، هذا هو السبب الذى قادنى إلى هنا، **ما** هو اسم الشخص، **ترتوليانو** ماكسيمو آفونسو، إنه أستاذ تاريخ، **هل** تعرفه، **نعم** ولا، أى أننى حُدِّثتُ عنه. **ما** تاريخ هذه الرسالة، **بين** أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، لا أعرف بالضبط، **سأبدأ** بالرجوع إلى سجلّ الرسائل الواصلة، رغمَ أن هذا الاسم فى الحقيقة لا يقول لى شيئاً، **هل** أنتِ المكلفة بالسجلّ، **لا**، إنها زميلة ذهبت فى إجازة، ولكن لم تكن التعليقات لتفوتنا مع مثل هذا الاسم، لا بدّ وأنه لا توجد كثرة ممن يحملون اسم ترتوليانو فى حقبتنا الحالية، **معك** حق دون أىّ شك، **تعالَ** معى، أرجوك، قالت المرأة. ودّع أنطونيو كلارو صديقه وتبعَهَا، لم تكن أبداً سيِّئة الطبع، كان لها قامة جميلة وعطر سائغ، اجتازا قاعة كان يشتغل فيها عددٌ من الأشخاص، رسمَ اثنان منهما ابتسامة صغيرة لدى مروره، وهو ما يبرهن بالرغم من الآراء المعاكسة التى حدّدتها فى معظمها أحكامٌ مسبقِة مُتَجَاوَزة على أنه لا يزال ثمة أشخاص ينتبهون إلى الممثلين الثانويين. دخلا مكتباً امتلأت جدرانه بكلِّ السجلات من القطع الكبير، كان أحد هذه السجلات مفتوحاً على المنضدة

الوحيدة التى كانت تتواجد هناك. كلّ هذا يبدو لى وكأنه إعادة تكوين أحداث تاريخية، قال أنطونيو كلارو، نكادُ نحسبها أرشيفات مكتب الأحوال المدنية، إنها أرشيفات، لكنّها مؤقتة، عندما يصير السجلُّ على المنضدة مليئاً تماماً يذهبُ الأقدمُ بين السجلات الأخرى إلى سلة المهملات، ليس الأمرُ كما هو الحال فى مكتب الأحوال المدنية الذى يُحتفظُ فيه بكلِّ شىء، الأحياء والأموات، بالمقارنة مع القاعة التى أتينا منها، إنه عالم آخر، أتصوّر أننا نعثر حتى فى المكاتب الأكثر حداثة على مكاتب مشابهة لهذا المكتب، مثل مرساة صدئة حبيسة الماضى وغير قابلة للاستعمال، نظر أنطونيو كلارو إليها بانتباه وقال، منذ أن دخلتُ هنا وأنا أسمعكِ تعبّرين عن أفكار كثيرة مهمّة، أتظن ذلك، نعم، إننى أظنه فعلاً، إلى حدٍّ ما كعصفور دورىّ طفق فجأة فى الغناء كالكنارى، تعجبنى أيضاً هذه الفكرة، لم تجب المرأة، قلبت عدّة صفحات، وعادت إلى الوراء ثلاثة أسابيع وبدأت ببنصر يدها اليمنى فى الطواف على الأسماء بعضها وراء البعض الآخر. لا شىء خلال الأسبوع الثالث، لا شىء خلال الأسبوع الثانى أيضاً، نحن فى الأسبوع الأول، فى نهار اليوم ولا يظهر اسم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى أىّ مكان. لا بدّ وأنك قد تلقيّتَ معلومات خاطئة، قالت المرأة، هذا الاسم لا يوجد هنا، وهو ما يعنى إنه إذا كانت هذه الرسالة قد كتبت فإنها لم تسَجَّلْ هنا، ربما تكون قد ضاعت على الطريق، إننى أحملكِ على

العمل كثيراً، إننى أستغلّ وقتك، غامر أنطونيو كلارو بلهجة توعزُ بأنه ربما إذا عدنا إلى الوراء أسبوعاً، فلمَ لا قامت المرأة بتمرير الصفحات مرة أخرى وتنهّدت، كان الأسبوع الرابع حافلاً جداً بطلبات الصور، يلزمُ بعضُ الوقت للوصول إلى يوم السبت ولنشكر الربّ على أن الطلبات الخاصّة بالممثلين الأهمّ تُعالج فى دائرة أخرى مُجَهّزة بمعدّات وخدمات معلوماتية لا علاقة لها بالقدم الذى لا يكاد يُعرَفُ بدءُه لهذا الجبل من المجلدات المخصصة للأمور العامة. قضى أنطونيو كلارو فترة من الوقت قبل أن يفطِنَ إلى أنه كان بوسعه أن يقوم هو نفسُهُ بعمل البحث الذى تقوم به المرأة اللطيفة وأنه كان عليه أن يقدِّمَ نفسه للحلول محلّها، لاسيّما وأنَّ الطبيعة البدائية للمعلومات المحفوظة، مُجَرَّدُ قائمةٍ بأسماء وعناوين، مطابقة لما هو موجود فى دليل هاتف عادى، لم تكن تتضمن أقلّ درجة من السرّية ولا أىّ مطلب فى التكتّم يفرض الحفاظ عليها فى مأمن من لغوٍ الأشخاص الغرباء على الدائرة. شكرت المرأة العرْض بابتسامة، لكنها لم تقبله، لقد صرّحت أنها لن تقف لتراه يعمل مع بقائها مكتوفة اليديْن. مضت الدقائق، والأوراق تتعاقب، وتمّ الوصول إلى يوم الجمعة دون أن يظهر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أبداً. بدأ أنطونيو كلارو يشعر نفسه ثائر الأعصاب، وطفق يرسلُ إلى الشيطان الفكرة التى خطرت له ويتساءلُ فيم ستفيده الرسالة الملعونة إن انتهت إلى الظهور على السطح، لم

يكن يعرفُ كيف يستجيبُ لهذا الوضع غير المريح، حتى الرضا الضئيل الذى جاءت أنانيته تستدعيه كقطة نهمة كان فى طريقه إلى أن يتحوّل إلى شعور بالعار، أغلقت المرأة السجلّ، آسفة جداً، لكنّ هذا الاسم غير موجود فيه، **وأنا** علىّ أن أطلبَ منكِ معذرتى على كلّ هذا العمل بسبب تفاهة، **إذا** كانت لديك رغبة شديدة فى رؤية هذه الرسالة فلا يمكن أن تكون تفاهة، قالت المرأة بكرم، **قيل** لى إنها كانت تتضمن مقطعاً جديراً بأن يثير اهتمامى، **أىّ** مقطع، **لست** متأكداً جداً، أظنّ أنه يتعلق بأهمّية الممثلين الثانويين من أجل نجاح فيلم ما، شىء ما من هذا القبيل، قامت المرأة بحركة مفاجئة، كما لو أنّ ذاكرتها هُزّت بعنف من الداخل، وسألت، **قلتَ** الممثلين الثانويين، **نعم**، ردّ أنطونيو كلارو دون الاعتقاد بإمكانية أشعة أمل جديدة، **لكنّ** هذه الرسالة كانت مكتوبة مِنْ قِبل امرأة، **مِنْ** قبل امرأة، ردَّدَ أنطونيو كلارو الذى شعر بنفسه وقد أصيب بالدوار، **نعم**، يا سيّدى، من قبل امرأة، **وما** الذى آلت إليه، أتكلّم عن الرسالة، بالطبع، **الشخص** الأول الذى قرأها وجدَ المضمون غريباً غرابة كليّة وعرضها على الرئيس السابق للدائرة الذى نقلها بدوره إلى الإدارة، **وبعد** ذلك، **لم** تعد الرسالة إلى دائرتنا، فإما إنها حُفِظت فى الصندوق، أو إنها مُزِّقت فى آلة سكرتارية رئيس مجلس الإدارة، **ولكن** لماذا، لماذا، **لقد** طرحت سؤالَين، كلاهما فى محله، ربما كان ذلك بسبب هذا المقطع

المشهور، وربما لأنّ الإدارة لم تنظر نظرة إيجابية إلى احتمال بدء ذيوع إعلان، فى داخل شركة الإنتاج وخارجها، فى البلاد كلها، يطالبُ بالقسط والعدالة فى صناعتنا، تصوّر ما الذى يمكن أن يحدث فيما بعد لو أنَّ المطلبَ انتقلَ إلى الطبقات الدنيا، وحَمَلَهُ كلُّ التابعين الثانويين فى الشركة بصورة عامّة، تحدّثتِ عن رئيس دائرة سابق، لماذا سابق، **لأنه** بسبب حدسه الخارق سرعان ما رُقّى، إذًا، لقد اختفت الرسالة، تبخّرت، همْهَمَ أنطونيو كلارو بيأس، الأصلية، نعم، لكننى احتفظتُ بنسخة عنها من أجل استخدامى الشخصى، نسخة طبق الأصل، احتفظتِ بنسخة منها، ردّد أنطونيو كلارو الذى شعر بأن الرعدة التى أتت على السريان فى جسده كان مردّها الكلمة الثانية من الكلمتيْن، بدت لىَ الفكرة خارقة إلى درجة أننى قرّرتُ ارتكابَ مخالفة صغيرة لنظام الموظفين، وهذه الرسالة، موجودة فى بيتك، موجودة عندى فى بيتى، آه، موجودة فى بيتك، إذا كنت تريد نسخة فلا أرى أىّ مانع فى إعطائك واحدة، لأنّ المرسل إليه الحقيقى لهذه الرسالة فى نهاية المطاف هو الممثل دانييل سانتا ـ كلارا، المُمَثَّل هنا شرعياً، **لا** أدرى كيف أشكرك واسمحى لى أن أكرّر لك ما قلته لك من قبل، كانت سعادة لى أن أتعرّف عليك وأن أثرثر معك، لى أيامى، واليوم وجدتنى فى حالة حسنة، أو ربما لأننى شعرتُ بنفسى فى جسم شخصيّة رواية، أية رواية، أيّة شخصيّة، **لا** يهمّ، لنعد

إلى الحياة الحقيقية، ولنترك الخيال والتخييل، غداً سوف أصوِّر لك نسخة عن الرسالة وأرسلها إلى بيتك بواسطة البريد، لا أريد أن تسببى لنفسك هذا الجهد، سأمرّ هنا، إيّاك أن تمرّ ، تخيّل قليلاً ما يمكن أن يفكر به الآخرون إذا رأونى أسلّمك ورقة ما، هل سَيُعَرِّضُ ذلك سمعتك للخطر، سأل أنطونيو كلارو راسماً ابتسامة تخفى خبثها، بل ما هو أسوأ، ذلك يُعَرِّضُ عملى للخطر، اعذرينى، لا بدّ وأننى بدوتُ لك سارحاً، لا أريد أن أجرحك، افترض لا، لقد أخطأتَ فقط فى معنى الكلمات، هذا يحدث كلّ الوقت، إنَّ ما ينقذنا إنما هى المُرَشِّحات التى ينسجها الزمن وعادة السماع فينا، أىّ مُرشِّحات، إنها مثل أنواع من مصافى الصوت، تترك الكلماتُ فيها حتماً وهى تسيلُ من خلالها بقايا، يجب تحليلها بعناية لمعرفة ماذا أريدَ حقاً أن يُقالَ لنا، يبدو هذا شديد التعقيد، على العكس، العمليات الضرورية تتمُّ بصورة متزامنة، كما هو الأمر فى الحاسوب، لكنها لا تتزاحم أبدًا فيما بينها، فكلُّ شىء يسيرُ ضمن النظام، وعلى خطٍّ مستقيم حتى النهاية، إنّها مسألة تدريب، هذا إذا لم تكن بالأحرى موهبة طبيعية، كامتلاك الأذن المطلقة، لا يجب كلُّ ذلك والحالة هذه، تكفى القدرة على سماع الكلمة، فحدّة السمْع تقع فى مكان آخر، لكنكَ لن تعتقد أن كل شىء فراشٌ من الورود، أحياناً، وأتكلم فيما يخصّنى، لا أدرى كيف يجرى الأمر لدى الآخرين، أعودُ إلى بيتى مع مرشِّحات شبه مسدودة،

من المؤسف أن ماء الحمّام الذى يغسلنا من الخارج لا يستطيع أيضاً أن يغسلنا من الداخل، أتوصّل إلى نتيجة أن العصفور الدورى لا يغنّى مثل الكنارى، بل مثل البلبل، **يا** إلهى، ما أكثر البقايا هناك، تعجّبت المرأة، أودّ لو أراكِ من جديد، أودّ تصديق ذلك فعلاً، مرشّحى أتى على قول ذلك لى لتوّه، أتكلم بصورة جدّيّة، **لـ**كنكَ لستَ جادّاً، **لا** أعرف حتى اسمِك، **لـ**ماذا تريد معرفته، **لا** تسخطى، جرى العرفُ على أن يقدم الناس بعضهم إلى البعض الآخر، **حـ**ينما يكون هناك سبب لذلك، **و**فى هذه الحالة، ألا يوجد سبب، سأل أنطونيو كلارو، **بـ**صدق، لا أرى سبباً لذلك، **تـ**صوّرى أنّ عندى من جديد حاجة لمساعدتِك، **هـ**ذا أمرٌ بسيط، ستطلبُ إلى رئيسى أن يأتى بالموظفة التى ساعدتكَ فى المرّة الأولى، وإن كانت ستكون على وجه الاحتمال الشديد زميلتى الموجودة فى إجازة حالياً هى التى ستهتمّ بك، **إ**ذاً، لن أراكِ أبداً، **سـ**أكون عند وعدى، ستتلقى رسالة الشخص الذى يتمنى معرفة عنوانك، **و**لاشىء أكثر من ذلك، **لا**شىء أكثر من ذلك، أجابت المرأة، سيمضى أنطونيو كلارو لشكرِ رفيقهِ القديم، ثرثرا بعضَ الوقتِ وفى النهاية طلبَ، **مـ**ا اسمُ الموظفة التى اهتمَّت بى، **مـ**اريا، لماذا، **بـ**عد التفكير العميق، من أجل لا شىء، لا أعرفُ شيئاً الآن لم أكنْ أعرفه من قبل، **و**ما الذى كنت تعرفه، **لا** شىء.

كانت الحسابات سهلة الإنجاز. إذا أكّدَ لنا أحدهم أنه كتبَ رسالة وأنّ هذه الرسالة تصلنا بعد ذلك مع توقيع شخص آخر، فيجب الاختيار بين فرضيّتيْن، إما أن الشخص الثانى كتبها بناء على طلب الأوّل، وإما أنّ الأوّل، لأسباب يتوجب على أنطونيو كلارو أن يكتشفها، قد اغتصبَ اسم الثانى. من المستحيل الخروج من هنا. أيّاً ما كان الأمر، بما أنَّ عنوان المرسِل ليس عنوان الشخص الأوّل، بل عنوان الثانى، الذى كان يجبُ أن على جواب شركة الإنتاج بالطبع أن يُرسَلَ إليه، ونظراً إلى أنَّ كلّ الخطوات الناتجة عن معرفة مضمونها كانت قد أنجزت من قبل الأوّل ولم تنجَز أيّة خطوة من قبل الثانى، فإن النتائج التى يجبُ استخلاصُها من هذه القضيّة هى أكثر من منطقية، إنها شفافة. فى المقام الأوّل من الواضح، والجلىّ والظاهر أن الطرفيْن قد اتفقا لكى يؤديّا الغاية من الرسالة، وفى المقام الثانى، ولأسباب يجهلها أنطونيو كلارو أيضاً، فإنّ هدفَ الشخص الأوّل كان أن يبقى فى الظلّ حتى اللحظة الأخيرة وقد توصّل إلى ذلك.

قضى أنطونيو كلارو الأيام الثلاثة التى تطلبها وصولُ الرسالة المرسلة من قبل اللغز ماريا فى تقليب وإعادة تقليبِ هذه الاستنتاجات الأوليّة فى عقله، كانت الرسالَة مرفقة ببطاقة مخطوطة، ولكن دون توقيع، كانت تقول، آمل أن يفيدك هذا فى شىء ما. كان ذلك هو السؤال الذى كان أنطونيو كلارو يطرحه على نفسه فى الوقت الحاضر. والآن، ماذا أفعل. يجب القول مع ذلك إننا إذا طبقنا على الوضع الحاضر نظرية المرشِّحات أو مصافى الكلمات، فسوف نكتشف فيه حضور راسب، تفل، خثارة أو بكل بساطة بقايا، كما تفضِّلُ تسميتها هذه الماريا نفسها التى جرؤ أنطونيو كلارو على أن يسمّيها، هو الوحيد الذى يعرف مع أية مقاصد، أولاً كناريا، ثمَّ بلبل، أية بقايا، يمكن أن نقول، الآن ونحن على علم بعمليّة التحليل، تكشف عن وجود نيّة، ربما لا تزال غير محدّدة، ضبابية، لكننا نقامرُ بأنْ يُقطعَ رأسنا إذ نقول إنه ما كانت لتتجلى لو أنَّ الرسالة المتلقاة كانت موقعة لا من امرأة، بل من رجل. أيعنى ذلك أنه إذا كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان عنده، على سبيل المثال، صديق يثق به كلّ الثقة دبّر معه هذه المؤامرة الملتوية، لكان دانييل سانتا - كلارا مزّقَ الرسالة ببساطة لأنّه كان سيعتبرها تفصيلاً لا أهمية له بالنسبة إلى أساسِ المسألة، أى التطابق المطلق الذى يقارب بينهما والذى، بالسرعة التى تجرى فيها الأشياء، سيفصل بينهما على وجه الاحتمال الشديد. لكن الرسالة، وا أسفاه،

موقعة من قبل امرأة تُدعى ماريا دا باز وأنطونيو كلارو الذى لم يرَ نفسه أبداً خلال ممارسته مهنته يُعطى دور الشابّ فاتن النساء، ولا حتى من المستوى التابع، يجهدُ بكلِّ الوسائل لأن يجدَ فى الحياة العملية تعويضات مُوازنة، حتى ولو بدون نتائج إيجابية، كما أتيحت لنا مؤخَراً فرصة أن نفطِنَ إلى ذلك أثناء الحلقة التى جرت له مع موظفة شركة الإنتاج، ويجدر أن نحدِّدَ من الآن فصاعداً أننا إذا لم نقم بالإشارة مبكراً إلى نزوعه الطبيعى إلى الترهات فذلك فقط لأنّ ذلك لم تكن مناسبته فى حكايتنا للأحداث. إذ بما أن الأفعال الإنسانية على كلِّ حال مُحَدّدة بصورة عامة بتضافر حوافزَ آتيةٍ من كلِّ النقاط الأساسية والجانبية للمخلوق المعجون من الغرائز الذى لم نكفّ أبداً عن أن نكونه حتى اليوم، وفى الوقت نفسه من ذرّةٍ صغيرةٍ جداً من العقل ننجحُ على الرغم من المصاعب العديدة مع ذلك فى إدخالها ضمن شبكة دوافعنا، ومادام الأنقى مثل الأقذر ينزلق فى الأفعال الإنسانية المذكورة وما دامت الاستقامة تُقدّرُ بقدر التقصير، فلن نكون مُنْصِفين إزاء أنطونيو كلارو إن لم نقبل، ولو بصورة مؤقتة، التفسيرَ الذى سيقدّمه لنا على وجه التأكيد حول موضوع الأهمّية التى يوليها لموقّعةِ الرسالة، أىّ الفضولُ الطبيعىّ تماماً، وهو الآخر إنسانى جداً، لمعرفةِ أىّ نوع من العلاقة يتواجد بين ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، المؤلف الفكرى للرسالة، ومؤلفها المادّى، ،كما يفكر، الشهيرة ماريا دا

باز. كانت لدينا فرصٌ عديدة لملاحظة أنَّ أنطونيو كلارو لا تنقصُهُ لا الألمعيّة ولا البصيرة، لكن لا يقلّ عن ذلك أنه لا يمكن حتى لأشدِّ المحققين مهارة سبق له أنْ خلّفَ وراءه أثراً فى علم الجريمة أن يتصوّرَ أنَّ المؤلف المعنويّ والمؤلف المادىّ للمؤامرة فى هذه القضيّة الغريبة، وضدّ كلِّ البراهين، وخاصة الوثائقية منها، هما الشخصُ الوحيدُ نفسُه. فرضيّتان جليّتان تفرضان نفسيْهما ضمنَ نظام ينطلق من الحدِّ الأدنى إلى الحدِّ الأقصى، إما أنهما بكلِّ بساطة صديقان أو أنهما بكلِّ بساطة عشيقان، يميلُ أنطونيو كلارو إلى الفرضيّة الأخيرة، أوّلاً لأنها أكثرُ ملاءمة للمؤامرات العاطفية التى يقتصر دوره على أن يكون الشاهد عليها فى الأفلام التى يُمثل فيها عادة، ثم، عن طريق الاستنتاج، لأنه يجد نفسه فى أرض مطروقة ومع سيناريو مرسوم تماماً، حانت اللحظة للتساؤل إذا كانت هيلينا علىً علمٍ بما يجرى، إذا كان أنطونيو كلارو قد تلطّفَ وأعلمًها عن زيارته لشركة الإنتاج، وعن بحثه فى السجلّ وعن حواره مع ماريا، الموظفة الذكيّة والمعطرة، إذا كان قد أراها أو سوف يريها الرسالة الموقعة من قبل ماريا دا باز وأخيراً إذا كان سيجعلها تشاركُ بوصفِها زوجة فى الذهاب والإياب الخطير للأفكار التى تخامر عقله. الجواب هو لا، ثلاثُ مراتٍ لا. وصلت الرسالة أمس مساء وكانَ الهمُّ الوحيد لأنطونيو كلارو يتمثلُ فى إخفائها فى مكان يستحيلُ اكتشافه. لقد دُسَّت مسطحة تماماً بينَ

صفحات تاريخ للسينما لم يعدْ يثيرُ اهتمامَ هيلينا منذ أن قرأته قافزةً على كميات من المقاطع خلال الأشهر الأولى من زواجهما. يجبُ علينا القول احتراماً للحقيقة إنّ أنطونيو كلارو لم ينجح حتى الآن وعلى الرغم من أنه فكر كثيراً فى المسألة، فى إعداد خطةِ عمل مرضيةٍ بصورة معقولة وجديرة بهذا الاسم. ومع ذلكٍ، فإن الميزة التى نتمتعُ بها، وهى معرفة كلٌ ما سيجرى حتى الصفحة الأخيرة من هذه الحكاية، باستثناءِ ما سيتوجَّبُ علينا ابتكاره من الآن وحتى ذلك الحين، تسمحُ لنا بأن نعلن أنَّ الممثل دانييل سانتا ـ كلارا سيهتفُ غداً إلى بيت ماريا دا باز لا لشىء إلا لمعرفة إذا كان ثمة من يردّ على هذا الرقم. لا ننسى أننا فى فصل الصيف، وهى فترة الإجازات، لكنه لن يلفظ كلمة واحدة، ولن يخرج من فمه أىّ صوت، صمتٌ كلىّ، لكى لا يحسَبَ الشخصُ على الطرف الآخر من الخط أنه صوتُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لأنّه آنئذٍ، ولكى يجيب، لنْ يبقى عليه إلا أن يتحمّل مسئولية هوية هذا الأخير، مع النتائج غير المتوقعة التى يمكن أن يؤدى إليها ذلك، نظراً للوضع الحالى. على أنّه سيهتف أيضاً خلال دقائقَ عدّة، مهما بدا ذلك غير متوقع، وقبل أن تعود هيلينا من العمل، وكذلك من أجل أن يعرف إن كان غائباً، إلى بيت أستاذ التاريخ، لكنّه لن يظلّ هذه المرة ساكتاً، لقد أعدّ خطابَهُ مسبقاً، سواء أوَجَدَ شخصاً على الطرف الآخر من الخط ليسمعه أو وجبَ عليه أن يعهد به إلى

المجيب الآلى، وهذا ما سيقوله، هذا ما يقوله، نهارك سعيد، هنا أنطونيو كلارو، أتصوّر أنك لا تتوقع أنْ أهتفَ لك، والحقيقة أن العكس كان سيفاجئنى، أفترض أنك غائب، ربما فى طريقك للاستفادة من إجازاتك فى الريف، هذا طبيعى جداً، فهذا هو الموسم، لكنّى على كلِّ حال أريدُ، سواء أكنتَ غائباً أم لا، أنْ أسألكَ خدمة كبيرة، وهى أنْ تتفضّلَ بأنْ تهتفَ لى عندما تعود، أعتقد مخلصاً أنه لا يزال لدينا الكثير من الأشياء لنقولها، أعتقد أنه يجب علينا أن نلتقى، لا فى بيتى الريفى، وهو بصراحة شديد البعد، بل فى مكان آخر، فى مكان لا يسترعى الانتباه نكونُ فيهِ فى ملجأ من نظرات الفضوليين الذين ليس لنا أن ننتظر منهم أىّ خيْر، آمل أن توافق على ذلك، أفضلُ الساعات لكى تهتف لى هى بين الساعة العاشرة صباحاً والساعة السادسة مساء، فى أىِّ يوم باستثناء السبت والأحد، ولكن سجل جيّداً، فقط حتى نهاية الأسبوع القادم، لم يضف، **لأنَّ** هيلينا بعد ذلك، وهذا هو اسم زوجتى، لا أدرى إن كنت قد قلته لك، ستبقى فى البيت، ستكون فى إجازة، إذ على الرغم من أننى لا أقوم بالتمثيل فى فيلم ما فلن نغادرَ المدينة. ذلك سيعادلُ الاعترافَ بأنها ليست على علم بما يجرى وبما أنّ علاقاتهما حاليّاً ليست قريبة بماً فيه الكفاية، لكى لا نقول على الإطلاق، فرجلٌ عاقلٌ ومتوازنٌ لن يكشفَ التفاصيلَ الحميمة لحياته الزوجيّة، ولاسيّما فى وضعٍ دقيقٍ كهذا الوضع. فطِنَ

أنطونيو كلارو، الذى لا تقلّ فراسته فى شىء عن فراسة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كما أمكن لنا ملاحظة ذلك، إلى أنّ الأدوار التى كانا قد لعباها كلاهما حتى الوقت الحالى قد انعكست الآن وأنه سيجبُ عليه من الآن فصاعداً أن يتنكر وأنّ ما كان قد ظهرَ أوّلاً استفزازاً مجانياً ومتأخراً من قبل أستاذ التاريخ، هذا الإرسال، كالصفعة، للِّحْيَةِ المُستعارَة، كانَ يملكُ فى نهاية المطافِ قصداً محدّداً بدقة، وُلِدَ من بصيرةٍ حقيقيةٍ حافلةٍ بالدلالات. وحيثما سيلتقى أنطونيو كلارو، أينما كان، ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فإنَّ على أنطونيو كلارو أن يذهب هو إلى المكان المحدَّدِ متنكراً لا ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. ومثلما ذهب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى ذلك الطريق ملتحياً بلحية مستعارة لكى يحاولَ أن يلمحَ أنطونيو كلارو وزوجته، كذلك فإنَّ أنطونيو كلارو سيلتحى لحية مستعارة لكى يذهب إلى الشارع الذى تقيم فيه ماريا دا باز لكى يكتشف أىّ ضرب من النساء هىَ وأن يتبعها حتى مصرفِها بل وحتى قريباً ذاتَ مرّةٍ من دار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وكذلك سيصيرُ ظلها طوالَ الوقتِ الضرورىّ وحتى تقرِّرَ القوة التى لا تقاوم لما كُتِبَ ولما سيُكتَبُ مصيرَها بصورة أخرى. سنفهمُ، بعد الذى قيلَ للتوِّ، ذهبَ أنطونيو كلارو ليفتحَ دولابَ الخزانة التى وُضِعَت فيها العلبة التى تحتوى على الشارب الذى زيّنَ قديماً وجهَ دانييل سانتا ـ كلارا، وهو قناعٌ غيرُ كافٍ بالطبع نظراً للحاجات الحالية،

وعلبة السيجار التى تأوى منذ أيام عدّة أيضاً اللحية المستعارة التى سوف يلتحيها أنطونيو كلارو، كان فى قديم الزمان على الأرض ملكٌ يُعْتبَرُ حكيماً عظيماً أكد فى لحظة إلهام فلسفىٍّ سهل مع، فيما افترضَ، كلِّ الفخامة الخاصّة بوظيفته أنه لا جديدَ تحت الشمس. يجبُ ألا نحملَ أبداً على مَحْمَلِ الجدّ الكثير هذا النوع من الأحكام، تحتَ طائلة متابعةِ إذاعتها حين سيتغيّرُ من حولنا كلُّ شىء وحين لن تعودَ الشمسُ نفسَها أبداً إلى ما كانت عليه. بالمقابل، فإنّ حركات وإشارات الكائنات البشرية لا تتغيّر كثيراً، وذلك ليس فقط منذ الملك الثالث لإسرائيل، بل كذلك منذ اليوم المشهود الذى ظهر فيه للمرّة الأولى وجهٌ إنسانىٌّ فى المرآة الملساء لمستنقع ما وفكّر، **هذا** هو أنا. اليوم، فى هذه النقطة التى نتواجد فيها، التى نوجد فيها، بعد أربعة أو خمسة ملايين من السنين، تستمرُّ الإشاراتُ البدائيّة فى تكرار نفسها بطريقة رتيبة، غير مبالية بتغيّرات الشمس والعالم الذى تضيئه، ولو كان لا يزال ينقصنا برهان لكى نمتلك اليقين بأن الأمر هو على هذا النحو، سيكفينا ملاحظة كيف يسوّى اللحية التى كانت تعود إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أمام السطح الأملس للمرآة فى قاعة حمّامه، بالعناية ذاتها، والتركيز ذاته، وربما الخوف ذاته الذى كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قبل أسابيع عدّة فقط قد رسم، فى قاعة حمام أخرى وأمام مرآةٍ أخرى، شاربَ أنطونيو كلارو

على وجهه هو، وهما أقلّ ثقة بنفسيْهما على كلّ حال من جدّهما المشترك الخشن، لم يستسلما لإغواء القول بسذاجة، هذا هو أنا، لأنَّ المخاوف منذ ذلك الحين تغيّرت كثيراً والشكوك أكثر، إنَّ الشىء الوحيد الذى يخرج من فمنا الآن، بدلاً من التأكيد الواثق، هو السؤال، مَنْ هو هذا، ولن تسمحَ أربعة أو خمسة ملايين سنة إضافية على وجه الاحتمال بالإجابة عنه. انتزع أنطونيو كلارو اللحية ووضعها فى العلبة، إذ أن هيلينا، لن تلبث أن تعودَ، متعبة من العمل، وأكثر صمتاً من المعتاد، وسيبدو عليها أنها تنتقلُ إلى شقتها كما لو لم تكن شقتها، كما لو أنّ الأثاث كان غريباً عليها، كما لو أنّ زواياها وحوافها لم تكن تتعرّف عليها، كأنّها كلابُ حراسةٍ يقظة، تزمجرُ لدى مرورها بطريقة مُهَدِّدة. ربّما كان يمكنُ لكلمةٍ ما مِنْ زوجها أن تغيِّر الأشياء، لكننا نعرفُ سلفاً أنه لا أنطونيو كلارو ولا دانييل سانتا ـ كلارا سيلفظانها. ربما لا يريدان ذلك، ربما لا يستطيعان ذلك، كلُّ أسباب القدرِ إنسانيّة، إنسانية فقط، وذلك الذى يزعمُ العكسَ، معتمداً على دروس الماضى، نثراً أو شعراً، لا يعرفُ عمَّ يتحدّث وليُتفضَّل بالغفران لنا على هذا الحكم الأرعن.

فى الغداة، بعد ذهاب هيلينا، هتفَ أنطونيو كلارو إلى بيت ماريا دا باز، لم يكن يشعرُ بنفسه بصورة خاصة عصبياً أو مستثارًا، فالصمتُ سيكون درعه الحامى، كان الصوتُ الذى ردّ عليه أصم، مع

الهشاشة المتردّدة لشخص قيد النقاهة من مرض جسدىّ، وبما أنه كان حسبَ القرائن كلها صوتُ امرأةٍ متقدّمة فى السنّ، فإنه لم يكن على كلٍّ حال مرتعداً ارتعاد صوت امرأة عجوز، أو شخص من العمر الثالث، لمن كان يحبّ التلميح، لم يكن مُسهباً، آلو، آلو، مَنْ على الخط، أجب أرجوك، آلو، آلو، يا لها من قلة احترام، لا يمكن للمرء أن يكون هادئاً حتى فى بيته، وأغلِقَ الهاتف. على الرغم من أنه لم يرتبط فى النظام الشمسى بالكواكب ذات العظمة الأولى، يملكُ دانييل سانتا - كلارا سمعاً مرهفاً جدّاً، والحالة هذه، لكى يكشفَ علاقات القرابة، ولم تكن لدية أيّة صعوبة فى استنتاج أنه إن لم تكن الأم، فإن المرأة المُسنَّة هى الجدّة وإن لم تكن الجدّة فهى العمّة، باعتبار أنَّ اللازمة الأدبية الرّثة عن الخادمة - العجوز التى - لم - تتزوّج - أبداً - حبّاً - بسادتها - مستبعدة تماماً لأنَّ الواقع المعاصر تَجاوزَها بصورة واضحة. لا يزال بالطبع وإن لم يكن الأمر إلا لأسباب منهجية، باقياً على التحقق إن كان ثمة رجال فى البيت، أبٌ، جدٌّ، عمٌّ، أخٌ، لكنّ لن يتوجب على أنطونيو كلارو أن يهتمّ بذلك نظراً إلى أنّه من أجل الصحة أومن أجل المرض، من أجل الحياة أو من أجل الموت، فإنه سيقدّمُ نفسه إلى ماريا دا باز، لا بوصفه دانييل سانتا - كلارا، ولكن بوصفه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إما كصديق، أو كعشيق، وإذا لم يُفتح له الباب على مصراعيه، فلابدّ أن يتمتع على الأقل بميزات وضع علائقى

معترفٍ به ضمناً. ولو كنا سألنا أنطونيو كلارو ما ترجيحاته بناء على الأهداف التى يتطلع إليها، بالنسبة إلى طبيعة العلاقة بين ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وماريا دا باز، علاقة عاشقين، علاقة صديقيّن، فلا نشكّ أنه سيردّ أنه إذا كانت هذه العلاقة ببساطة علاقة صداقة لما كان لها، ومن بعيد، الأهمّية ذاتها لو كانا عاشقيْن. لقد تقدّمت كثيراً كما يمكن أن نرى، خطة العمل التى رسمها أنطونيو كلارو فيما يخصُّ تحديدَ الأهدافِ وصلابةِ الدوافع، حتى وإن كانت هذه الصلابة، باستثناء خطأ خطير فى التفسير من ناحيتنا، تبدو أنها ثمرة أفكار عدوانية فى الانتقام الشخصىّ لم يكن الوضعُ كما يظهر يُعلنه ولا يبرّره بأىّ حال. صحيح أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان قد تحدّى بصراحة دانييل سانتا ـ كلارا بإرساله اللحية المستعارة له والأسوأ من ذلك، من دون كلمة، ولكنه كان من الممكن معه للأشياء مع ذرّةٍ من حسٍّ مشترك أن تبقى عند هذا الحدّ، كان يمكن لأنطونيو كلارو أن يهزَّ كتفيْه وأن يقول لزوجته، هذا الشخص غبىّ، إذا كان يظن أننى سأردّ على استفزازه فإنه يخطئ خطأً كبيراً، ارم لى هذه القذارة فى سلة المهملات وإذا كان حيواناً بما فيه الكفاية لكى يعود إلى هذا النوع من الحمرنات فسوف نستدعى الشرطة وسننتهى مرة وإلى الأبد من هذه القصّة، أيّاً كانت النتائج. من المؤسف أنّ الحسّ المشترك لا يتجلى دائماً عندما يتوجّبُ ذلك، غالباً ما يقود غيابُه المؤقت

إلى أسوأ المآسى وإلى أشدِّ الكوارث هولاً. والبرهانُ على أن الكونَ لم يُفَكَّر به كما كان يجب التفكير، هو أنّ الخالق أمر بتسمية النجمةِ التى تنيرنا الشمس. فلو كان الكوكب ـ الملك حملَ اسمَ الحسّ المشترك لكان العقلُ الإنسانىّ اليوم أكثر استنارة، فى النهار وفى الليل، لأنه لا أحدَ يجهلُ أنَّ ما نقولُ عنه إنه نور القمر لا يأتى من القمر، بل دوماً من الشمس ومنها وحدها، والمجال يتيح التفكير تماماً بأنه إذا كانت علوم نشأة الكون المصممة منذ ولادة اللغة والكلام عديدة، فلأنّها بقدر العددِ الذى كانت عليه، فشلت، بعضها وراء البعض الآخر، بصورة مؤسفة، وهو ما لا يُبَشِّر بأىّ خير يُنتظرُ مِنَ العِلم الذى يتحَكَّمُ بنا، مع بعض التنوعات البسيطة، بالقبول. لنعد على كلِّ حال إلى أنطونيو كلارو. من الواضح أنه يريد التعرّف على ماريا دا باز بأسرع وقت ممكن، لقد حشر فى رأسه هذه الفكرة المُسَيْطرة فى الثأر لأسباب سيئة ولن تتوصَّلَ أيّة قوة فى السماء أو فى الأرض، كما أدركنا على وجه التحقيق من قبل، إلى جعله يتخلّى عنها. لنْ يستطيعَ بالطبع الذهابَ ليُعسكِرَ عندَ بابِ العمارة التى تعيش فيها وأنْ يطلبَ إلى كلِّ امرأة تدخلُ فيها أو تخرج منها، هل أنتِ ماريا دا باز، ولن يستطيع كذلك أن يستسلم للصُّدَفِ المزاجيّة للحظ، أن يتنزّهَ على سبيل المثال مرّة، أومرتين، أو ثلاثاً فى الشارع الذى تسكن فيه وأن يُصرِّح فى الثالثة لأول امرأة قادمة، تبدين لى تماما أنك ماريا دا باز، لا تستطيعين

أن تتصوّرى الفرحة الهائلة التى أشعر بها فى أن أتعرّفَ أخيراً عليكِ، إننى ممثل سينما واسمى دانييل سانتا ـ كلارا، اسمحى لى أن أدعوك لتناول القهوة، سيكفى أنْ نعبرَ الشارع، إننى مقتنعٌ أن لدينا الكثير مما نقوله واحدنا للآخر، اللحية، آه، نعم، اللحية، أهنئك على أنّك من الدهاء بحيث لم تؤخذى بها، لكن لا تخش شيئاً، أرجوكِ، اطمئنى، عندما سنكون فى مكان غير ظاهر يمكننى فيهِ أن أنتزعَها دون خطر، فسترَيْن أنه سيظهرُ أمامَكِ شخصٌ تعرفينه جيداً، حتى بصورة حميمية، كما أعتقد، سأهنئه حتى دون أدنى غيرة لو كان هنا، أريد أن أتحدث عن هذا العزيز ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ستكون السيّدة المسكينة مضطربة بصورة فظيعة أمام التحوّل المعجز، غير القابل من كل النواحى للتفسير فى هذا الطور من القصّ، يجب ألا ننسى أبداً التسلسل المنطقى الأساسى الذى يقضى أنْ تنتظرَ الأشياءُ بصبْرٍ وقتها، ألا تتزاحمَ على البوّابة وألا تمرّ أمام تلك التى وصلت قبلها، وألا تصرخ، هأنذا، وإنْ كنا لا نستطيعُ أنْ نهملَ بصورة كليّة الفرضيّة بأننا إذا تركناها أحياناً تمرّ قبل وقتها، فربّما تفقدُ بعض المصائب التى نتوقعها بعضاً من حدّتها أو تتلاشى كالدخان فى الهواء، بكل حماقة لأنها فوّتت دَوْرَها، لا يجبُ أن يحملنا هذا الغيثُ من النتائج والتحليلات، هذا الطوفانُ اللطيفُ من التأملات والاستنتاجات التى تؤخرنا على ألا نرى الواقع التافه الذى يتمثلُ فى أنَّ ما يريد أنطونيو

كلارو معرفته حقاً، فى أعمق أعماقه، هو إذا كانت ماريا دا باز تستحقُّ الجهد، إذا كانت تستحقُّ حقاً كلَّ العمل الذى تتطلبه الآن منه. لو كانت امرأة بشعة، هيكلاً عظميّاً أو كانت على العكس مخلوقة متمتعة بوفرة من الامتلاءات فى الجسم، وهو ما لا يمكنُ فى هذه الحالة كما هو الأمرُ فى تلك، ونحن نسارع إلى تدقيق ذلك، أنْ يؤلفَ عقبة كبرى إذا ما قامَ الحب بدوره، فسنرى دانييل سانتا ـ كلارا يتراجعُ بسرعة، كما كان ذلك سوف يحدث غالباً فى الماضى بمناسبة اللقاءات المنظمة بالمراسلة، مع استراتيجياتها المضحكة، وتعارفاتها الساذجة، أحملُ مظلة زرقاء باليد اليمنى، سأحملُ وردة بيضاءَ على زرّ سترتى، وفى نهاية المطاف ليس هناك لا مظلة ولا وردة، ربّما كان أحدُ الاثنين ينتظرُ عبثاً فى المكان المتفق عليه، أو لا أحدَ من الاثنيْن، فالوردة ألقيتْ بسرعة فى البالوعة، والمظلة تخفى وجهاً لا يريد لنفسه فى النهاية أن يُرى. فليطمئن دانييل سانتا ـ كلارا على كلّ حال، إن ماريا دا باز امرأة شابة، جميلة، أنيقة، ذات جسدٍ متناسق وطبع ظريف، وإن كان هذا الوصفُ الأخير ليس حاسِماً فى القضية التى تشغلنا مادام الميزان الذى كان يتقرر فيه قديماً حظّ المظلة ومصير الوردة ليس اليوم حساساً بوجه خاص لاعتبارات من هذا النوع، هذا لا يمنع من أنه لا يزال على أنطونيو كلارو حلّ مشكلة مهمة إذا لم يكن يريد قضاء ساعات واقفاً على الرصيف فى مواجهة عمارة ماريا

دا باز بانتظار أن تظهــر، مع النتــائج المصــيــرية والخطيرة الناتجة عن الحذر الطبيعى للجيران الذين لن يتأخروا فى أن يهتفوا إلى الشرطة لكى يعلموها بالحضور المريب لملتح لم يأتِ على وجه اليقين لكى يسندَ المبنى بواسَطة ظهـره، يجب إذًا اللجــوءَ إلى التعليل وإلى المنطق. الأمر الأكثر احتمالاً، بالطبع، هو أنّ ماريا دا باز تعمل، أنّ لها وظيفة ثابتة وساعات دخول وخروج منتظمة. مثل هيلينا. لا يريد أنطونيو كلارو أن يفكر بهيلينا، إنه يكرِّرُ أنَّ الواحدة لا علاقة لها بالأخرى، أنَّ ما سيحدث مع ماريا دا باز لا يُعَرِّضُ للخطر زواجه، وأنَّ من الممكن أن ننعت ذلك بمجرد نزوة، من هذه النزوات التى يُقالُ إنَّ الرجالَ ميّالون إليها بسهولة، إن لم يجب أن نتكلم هنا بالأحرى عن ثأر، عن انتقام، عن تدبير انتقامى، عن حقد، وربما أسوأ من كلِّ ذلك، عن كراهية. يــا إلهى، يا لها من مبالغة، إلى أين سنذهب، سيقول الناس السعداء الذين لم يروا أنفسهم أبداً فى مواجهة نسخة عن أنفسهم، الذين لم يتلقوا أبداً إهانة لحية مستعارة مرسلة فى علبة دون أية ورقة تتضمن كلمة لطيفة أو فكِهَة لتخفِّفَ الصدمة. سَيُبَيِّنُ ما عَبَرَ دماغ أنطونيو كلارو للتوِّ إلى أيةٍ درجة، ضدَّ الحسِّ المشترك الأشدِّ بدائية، يُمكنُ لعقل تسيطرُ عليه مشاعرُ وضيعة أن يُجْبِرَ ضميرَه الشخصِى على أن يتحالف معها، مُرغِماً إيّاه بصورة ماكرة على أن يُشركَ أسوأ الأعمال مع أفضل الأسباب وعلى أن يبرّر بعضها بالبعض الآخر

فى أسلوب لعبة متقاطِعَة يكون فيها الرابحون والخاسرون دائماً هم أنفسهم. وعلى أنَّ الأمر يبدو عسيراً على التصديق، فقد أتى أنطونيو كلارو على أن يقول لنفسه إنَّ المجىء خِدْعَة بعشيقة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى سريره سيجيب لا على الصفعة بصفعةٍ أخرى أشدّ رنيناً فحسب، بل ستكون أيضاً، تصوروا قليلاً القصدَ العبثى، أكثر الطرقِ جذريّة فى الانتقام من الكرامة المُهَانة لهيلينا، زوجته، سيعجزُ أنطونيو كلارو حتى ولو توسلنا إليه عبثاً راكعين، عن أن يفسِّر لنا على ماذا تقوم إهانات بمثل هذه الفرادة لا يمكن أن ينتقم لها إلا بإهانة جديدة لا تقل عنها إزعاجاً، تستحوذ عليه هذه الفكرة الثابتة ولا يستطيعُ أحدٌ شيئاً لكى يردّه عنها، وإنه لكثير أصلاً أن ينجح فى استعادة التعليل الذى قطعَهُ والذى كان جعلهُ يلمحُ تشابهاً مهنيّاً بين هيلينا وماريا دا باز، كلاهما لديه عمل منتظم وساعات ثابتة. عليه بدلاً من أن يمسح الشارع فى كل الاتجاهات بانتظار لقاء مفاجئ أكثر من غير محتمل، أن يعود من جديد فى ساعة مبكرة، لينتظر أن تخرج ماريا دا باز وأن يتبعها حتى مكان عملها. **لا** شىء أسهلَ من ذلك، سيُقال لنا، ومع هذا يا له من خطأ جسيم، تنجم الصعوبة الأولى عن أنه يجهل إذا كانت ماريا دا باز وهى خارجة من بيتها ستستديرُ يمنة أو يسرة وبالتالى إذا كان وضعهُ كراصدٍ بالنسبة إلى الطريق الذى ستأخذه أو بالنسبة إلى المكان الذى سيركن فيه سيارته سيعقّد أو سيسهِّل

تتبّعَ خطاها، دون أن ننسى أيضاً، وهذا هو التعقيد الثانى، وليس الأقلّ، أنّ سيارة ماريا دا باز ربما ستكون مركونة أمام باب بيتها، وهو ما لا يدعُ له الوقت الكافى للركض حتى سيارته وأن ينزلق فى زحام السيْر دون أن تضيعَ عن ناظريْه. مِنَ المحتمل كثيراً أنه سيفشل على كلٍّ المستويات فى اليوم الأوّل، سيعود فى اليوم التالى لكى يفشل هنا وينجح هناك، ويأمل أن يرقَّ قلب القديسة حامية الشرطة السرّية، وقد أذهلها عناده، فتجعل من اليوم الثالث نصراً كاملاً وحاسماً فى فنٍّ تتبّع الخطى، لا يزال على أنطونيو كلارو أن يحلّ مشكلة، صحيح أنها تافهة نسبياً، إذا ما قورنت بالمصاعب الهائلة التى تمَّ التغلّب عليها، لكنها تتطلَّبُ مهارة ورشاقة صالحتيْن فى كلّ الظروف، يميل دانييل سانتا ـ كلارا، كما سبق ولاحظنا، إلى البقاء فى دفء السرير ساعة أو ساعتيْن بعد ذهاب هيلينا للعمل، إلا حينَ تفرضُ عليه الالتزامات المهنيّة، كالتصوير صباحاً أو فى مكان بعيدٍ عن المدينة، أن ينتزعَ نفسه منذ بزوغ الفجر من راحة السرير، يجبُ أن يبتكر إذاً تفسيراً ممكناً لاستيقاظه الغريب عندَ الفجر، لا يوماً واحداً، بل يومين، وربما ثلاثة أيام، فى حين أنه يتواجدُ، كما نعلم، فى طور ترقب مهنىٍّ بانتظار الضوء الأخضر من أجل قضاء اللصّ اللطيف الذى سيمثّلُ فيه دورَ المحامى المساعد، لن تكون فكرة سيِّئة أن يقول إلى هيلينا إنه على موعدٍ مع المنتجين إذا كان تحقيقه حول ماريا دا باز سينتهى

برشاقة وبصمت كاللصِّ اللطيف، يفتحُ الخزانة التى وُضِعَت فيها علبة الأشياء المستعارة، وسحبَ منها اللحية، وخبّأها برشاقة وبصمت على الدوام، تحتَ إحدى وسائد الأريكة فى قاعة الجلوس، من الناحية التى لم يكن يجلس عليها أحدٌ أبداً تقريباً. لكى لا تتسحِق كثيراً، كما فكر.

كانت الساعة الثامنة ودقائق عدّة فى الغد صباحاً حين ركنَ سيارته مقابل الباب الذى يأمل أن تخرجَ منهُ ماريا دا باز، من الناحية الأخرى من الشارع، نكادُ نظنّ أن القديسة حامية الشرطة السرّية كانت قد سهرت طوال الليل لتحتفظ له بالمكان، كانت معظمُ الدكاكين لا تزال مقفلة، بعضها بسبب إجازات الموظفين كما تشرح الإعلانات، وكان المارّة قلة قليلة، صفٌّ صغير ينتظرُ الحافلة، لن يتأخر أنطونيو كلارو فى أن يفطِن إلى أنَّ هذيانه المُضى حول كيف وأين يقف منْ أجل أن يرصد ماريا دا باز كانت ضياعاً للوقت وفى الوقت نفسه إنفاقاً غير مفيد للطاقة الذهنية. ستبدو عليه وهو يقرأ الصحيفة فى سيارته، لأنّه لا يُعَرِّض فيها نفسه لأنْ يُلاحَظ، هيئة مَنْ ينتظر أحداً وتلك هى الحقيقة الصافية، لكنه لا يستطيع أن يجهرَ بها على السطوح، خرجَ من العمارة المُراقبة على هذا النحو، شيئاً فشيئاً، عدّة أشخاص، رجالٌ كلهم تقريباً، ولكن ولا امرأة من بين النساء تطابق الصورة التى كان أنطونيو كلارو دون أن يفطِنَ إلى ذلك قد كوَّنَها لنفسه بمساعدة بعض الشخصيات النسائية فى

الأفلام التى كان قد شارك بها، كانت الساعة الثامنة والنصف تماماً حين انفتح باب العمارة، وخرجت منه امرأة شابة وجميلة، سائغة للتأمل من رأسها إلى أخمص قدميها، فى صحبة امرأة مسنّة. إنهما هما، فكَّرَ، وتركَ الصحيفة، وأدارَ محرِّكَ السيارة وانتظر، قلقاً كحصان وراء الحاجز منتظراً طلقة الانطلاق. استدارت المرأتان ببطء يميناً على الرصيف، وقد أعطت الأكثر شباباً ذراعَها للمسنّة، لا شىء آخر تجبُ معرفته حول هذا الموضوع، إنهما الأم والبنت وهما تعيشان وحدهما على وجه الاحتمال، إنها المسنة التى ردّت أمس على الهاتف، لا بدّ أنها مريضة حسب طريقتها فى السيّر، والأخرى، الأخرى سأراهنُ على قطع رأسى فى أنّها ماريا دا باز، التى لا بأس فى جمالها على الإطلاق، على الإطلاق، فذوق أستاذ التاريخ ممتاز. كانتا كلاهما قد ابتعدتا أصلاً ولم يكن أنطونيو كلارو يعرفُ ماذا يفعل. إن بوسعه متابعتهما وأن يقفل راجعاً حين تصعدان فى سيارتهما، لكن فى ذلك خطر إضاعتهما. ماذا أفعل، أبقى، أذهب، أين يمكن أن تذهب هاتان المرأتان. يجب إسناد خطأ هذا التعبير الشعبى إلى عصبيّته، فلم يكن أنطونيو كلارو معتاداً على استخدام هذا النوع من الأسلوب، لقد خرجت الكلمة منه دون مشيئته، وهو على استعدادٍ لكل شىء، سارع فى الخروج من سيارته، وحث فى خطاه وشرع فى متابعة المرأتيْن. عندما صارتا على مسافة ثلاثين متراً، أبطأ وضبط خطوته على

خطاهما. ولكى يتلافى الاقتراب منهما كثيراً، لكثرة ما كانت أمّ ماريا دا باز تتقدم ببطء، كان يتوجب عليه التوقف من وقت لآخر، متصنِّعاً النظر فى واجهات الدكاكين. فوجئ أن بطء خطواتهما كان يبدأ فى مضايقته، كما لو أنه كان يرى فيه عقبة أمام أفعال قادمة لا يجب، على الرغم من أنها لا تزال غامضة فى رأسه، أن تواجهَ أىّ مانع على كلِّ حال. كانت اللحية المستعارة تحكّه، والطريق يبدو له بلا نهاية، لم يكن مع ذلك قد سار كثيراً، ثلاثمائة متر هى مجموع كلّ ما خطاه، لكنّ زاوية الطريق القادمة سجلت نهاية رحلته، تساعدُ ماريا دا باز أمّها على صعود درجات الكنيسة، تركتها مع قبلة وهىَ الآن تقفلُ عائدة على الرصيف نفسه، بخطوةٍ رشيقة لبعض النساء اللاتى يمشين كما لو كنَّ يرقصن. اجتاز أنطونيو كلارو الشارع، وتوقفَ مرة أخرى أمام واجهة دكان ورأى فى زجاجها الشبح المشوق لماريا دا باز يمرّ، يجب عليه الآن أن يكون يقظاً بوجه خاص، فأقلُّ تردّد يمكن أن يفسد كلَّ شىء، إذا صعدت إلى واحدة من هذه السيارات وإذا لم يتوصّل إلى الدخول فى سيارته فى الوقت المناسب يمكنه أن يقول وداعاً لكلِّ خططه وسيحتاج إلى يوم ثان. ما يجهله أنطونيو كلارو هو أنّ ماريا دا باز لا تملكُ سيارة، وأنّها ذهبت تنتظر بهدوء الحافلة التى ستقلها إلى قرب المصرف الذى تعمل فيه، لقد نسىَ دليل الشرطىّ السرّى الكامل فى نهاية المطاف، وهو شامل لكلٍّ لآخرِ ما يخصّ التقنيات

المعقدة، أنَّ بعضاً من أصل خمسة ملايين نسمة من سكان المدينة، لم يكتسب وسائل نقل شخصيّة، لم يتضاعف طابور المنتظرين كثيراً. احتلت ماريا دا باز مكانها، ولكى لا يكون شديدَ القربِ منها تركَ أنطونيو كلارو ثلاثة أشخاص يمرون أمامه، صحيحٌ أن لحيته المستعارة تخفى وجهه، لكنها لا تخفى عينيْه، ولا أنفه، ولا حاجبيْه، ولا جبينه، ولا شعره، ولا أذنيْه. وسينتهز شخصٌ مغرمٌ بالمذاهب الباطنيّة الفرصة ليضيفَ النفسَ على قائمة ما لا تخفيه لحية ما، لكننا سنصمتُ عن هذا الموضوع، فلن نكون سبباً فى اشتعال سجال بدأ نسبياً فى فجر الزمان وليس من المتوقع انتهاؤه قريباً، وصلت الحافلة، عثرت ماريا دا باز على مكان للجلوس، وسيبقى أنطونيو كلارو واقفاً فى الممرّ، فى الوراء. هذا أفضل على هذا النحو، فكر، سنسافر معاً.

روى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لأمّه أنه تعرّف على شخص، رجل، كان التشابه معه يبلغ درجة أن شخصاً لا يعرفهما تماماً سيخلط بينهما يقيناً، وأنّه قد التقاه وأنه يأسف، لأنّ رؤية المرء نفسَه يتكرَّر، مع اختلافات طفيفة جداً، لدى أخ أو أخوين توءمين، يمكن أن يكون مقبولاً، ماداما يؤلفان جزءاً من الأسرة نفسها، ولكن أن يجدَ المرء نفسه فى مواجهة غريب لم تسبق رؤيته من قبل أبداً والشكّ خلال لحظة من هو الواحد ومن هو الآخر، إننى مقتنع أنكِ أنتِ، يا أمّى، على كلّ حال للوهلة الأولى، ستكونين عاجزة عن أن تحزرى مَنْ هو ابنك بين الاثنيْن، وإذا توصّلتِ إلى ذلك فسيكون الأمر صدفة، حتى ولو جئتنى بعشرة متطابقين معك، لابسين بالطريقة نفسها، وتقف فى وسطهم، سأشير إلى ابنى على الفور، فغريزة الأمومة معصومة، ما نسمّيه غريزة الأمومة بالمعنى الحقيقىّ للكلمة لا وجود لها، لو أننا فُصِلنا عند ولادتى ثم تواجدنا معاً بعد عشرين عاماً من ذلك، هل أنتِ واثقة من أنكِ ستكونين قادرة على التعرف علىّ، ربما لا

أقول التعرّف لأنّ الشكل الصغير الملفوف بالأقمشة للمولود الجديد لا يشبه وجه رجل فى العشرين من عمره، لكنى أراهن كلّ ما تريد أنّ شيئاً ما فىَّ سيجعلنى أنظر إليك مرّتين، والثالثة، لو حصل ذلك، سوف تحوّلين نظرك، هذا ممكن، ولكن ربّما مع انقباض فى الصدر، وأنا، هل سأنظر لك مرّتيْن، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، بصورة شديدة الاحتمال، قالت أمّه، ولكن لأنّ الأطفال جميعاً جاحدون. ضحك كلاهما وسألته، وكنتَ لهذا السبب شديد الهمّ، نعم، فالصدمة كانت شديدة القوّة، لا أتوصّل إلى الاعتقاد بأن حالة أخرى مشابهة قد حدثت من قبل أبداً، أفترضُ أنّ ذلك مضادٌّ لعلم الوراثة نفسه، لا بل إننى رأيت الكوابيس فى الليلة الأولى، كان ذلك كالهاجس، والآن، أين صارت الأمور، لحسن الحظ أنّ الحسّ المشترك جاء للنجدة، حملنا على أن نفهم أنه إذا عشنا حتى الآن فى جهل وجود أحدنا بالنسبة إلى الآخر، فذلك سبب قوىٌّ لكى يتوجب علينا البقاء أحدنا بمعزل عن الآخر بعد قيامنا بالتعارف، تصوّرى، لا يمكننا أن نبقى معاً، لا يمكننا أن نكون صديقيْن، ولكن عدوّيْن بصورة محتملة، فى لحظة ما فكرت أن ذلك يمكن أن يكون عليه الحال، لكن الأيام مضت، وعادت الأمور إلى مجراها، ما تبقى من كلّ ذلك هو كذكرى حلم سيئ سيمحوه الزمن شيئاً فشيئاً من الذاكرة، فلنأمل ذلك، كان توماركتوس مستلقياً عند قدمى كارولينا، ورقبته ممدودة ورأسه على أطرافه

المتصالبة، كما لو أنه ينام. نظرَ إليه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لحظاتٍ عدّة وقال، أتساءل ما كان سيفعله هذا الحيوان لو وجد نفسه أمام هذا الرجل وأمامى، من هو من بيننا مَنْ سيتعرف فيه سيّدَه، سيتعرّف عليك من رائحتك، إذا افترضنا أننا لا نملك الرائحة نفسها ولست متأكداً من ذلك على الإطلاق، لابدّ من وجود اختلاف ما، هذا ممكن، يمكن للناس أن يتشابهوا كثيراً فى الوجه، ولكن ليس فى الجسم، افترض أنكما لم تتعرّيا أمام المرآة لكى تقارنا كلّ شىء، حتى الأظافر وأصابع القدمين، أسرع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى الإجابة بالطبع لا، يا أمّى، ولم يكن ذلك كذباً بما أنه لم يقف أبداً أمام مرآة مع أنطونيو كلارو، حقاً أمام مرآة. فتح الكلب عينيّه، ثم أغلقهما، كان ولا شك قد فكر أنه قد حانت ساعة النهوض والذهاب إلى الباحة ليرى إذا كان الجيرانيوم وإكليل الجبل قد نميا كثيراً منذ المرّة الأخيرة، حمْحَمَ، ومطّ طرفيّه الأماميّيْن ثم الخلفيّيْن، مادّاً عموده الفقرى إلى أقصى حدٍّ ممكن، واتّجه نحو الباب، سأله سيّده بالتناوب، إلى أين تذهب يا توماركتوس. توقف الكلبُ عندَ العتبة، وأدار رأسه بانتظار أمر مفهوم وبما أن هذا الأمر لم يأت، خرج. سألته دونا كارولينا، وهل رويت ما حدث لماريا دا باز، لا، لم أكن أريد أن أفرض عليها الهمومَ التى كان يصعبُ علىّ كثيراً مواجهتها، أفهم ذلك، لكنى أفهم أيضاً لو أنكَ رويتَ لها ذلك، رأيت أنّ من الأفضل ألا

أحدّثها عن هذه القصّة، والآن وقد صار كل ذلك من الماضى، ألن تذهب لتحدثها عنه، لا موجب لذلك، ذات يوم رأتنى فيه قلقاً وعدتُها أن أفعلَ ذلك، أنْ أقولَ لها ما يحدث لى، وأنَّ قولَ ذلك كان مستحيلاً علىّ فى تلك اللحظة، ولكنى فى يوم ما سأقصّ عليها كلّ شىء، وكما يبدو، لن يأتِ هذاً اليوم أبداً، مِنَ الأفضل تركُ الأشياءِ على حالها، هناك أوضاع سيكون اختيارُ تركِ الأشياءِ فيها على حالها أسوأ الحلول، ذلك لا يفعل إلا أن يمنحها مزيداً من القوّة، ذلك يمكن أيضاً أن يرهقها ويرغمها على تركنا بسلام، إذا كنتَ تحبّ ماريا دا باز، فستحدثها عن ذلك، أحبّها، تحبّها ربما، ولكن ليس بما فيه الكفاية، إذا كنتَ تنامُ فى سرير مع امرأة تحبّك وإذا لم تفض لها بأسرارك، أسألك ماذا تفعل فى هذا السرير، تدافعين عنها كما لو كنت تعرفينها، لم أرها من قبل أبداً، لكنى أعرفها، تعرفين فقط ما علمت به منى وهذا لا يمكن أن يكون شيئاً كبيراً، الرسالتان اللتان حدّثتنى فيهما عنها، بعض الملاحظات فى الهاتف، لا أحتاج إلى أكثر من ذلك، لمعرفة أنها المرأة المناسبة لى، كان بوسعى أن أقول ذلك أيضاً مع هذه الكلمات لو استطعتُ كذلك أن أقول لكَ إنكَ الرجلَ الذى يناسبها، ألا تعتقدين أن تلك كانت هى الحالة، أو أنها هى كذلك، ربما لا، فى النتيجة أفضل حلٍّ هو الأبسط، وضعُ حدٍّ لعلاقتنا، أنتَ الذى يقول ذلك، لا أنا، يجب أن يكون المرءُ منطقيّاً، يا أمّى، إذا كانت هى

التى تناسبنى، وإذا لم يكن العكس صحيحاً، فلماذا الرغبة الكبيرة فى أن نتزوّج، لكى تكونَ دوماً هنا حينما ستستيقظ، إننى لا أنام، لست مروبصاً، لدىّ حياتى، عملى، جزءٌ منكَ ينامُ منذ أن ولدت وما أخشاه هو أن تكون مرغماً ذات يوم على أن تستيقظ بصورة عنيفة، عندكِ توجّه تنبئى مثل كاساندرا، ما هو هذا، السؤال الجيّد ليس ما هو هذا، ولكن من هى، إذاً، أعلمنى عنه، سمعتُ دوما ما يُقال من أنّ تعليمَ شىءٍ ما لَمَنْ يّجهله عملٌ رحمانى، إن كاساندرا هذه كانت ابنة ملك مدينة طروادة، المُسمّى بريام، وحين وضع الإغريق حصانهم الخشبى على أبواب المدينة، طفقت تصرخ إن هذه المدينة ستتهدّم إذا ما اقتيد الحصان إلى الداخل، كلّ ذلك كان مشروحاً بالتفصيل فى إلياذة هوميروس، الإلياذة قصيدة، نعم، سمعت عنها، ما الذى حدث بعد ذلك، اعتبرها الطرواديون مجنونة ولم يهتمّوا أبداً بنبوءاتها، وبعد ذلك، بعد ذلك هوجمت المدينة، ونُهبَت، وأحيلت إلى رماد، إذاً كاساندرا هذه التى تتحدّث عنها كانت على حق، علمنى التاريخ أنّ كاساندرا كانت على حق دوماً، وأنتَ صرّحت أنّنى أملك توجّهاً تنبئيًا مثل كاساندرا، قلته وأكرّره، مع كلّ الحب الذى يحمله ابنٌ إلى أمّهِ الساحرة، أنت إذاً واحد من هؤلاء الطرواديين غير المصدقين ولهذا السبب أحرقت طروادة، فى هذه الحالة بالذات ليست هناك أية طروادة للحرق، كم طروادة بأسماء أخرى وفى أمكنة أخرى أحرقت

بعد طروادة هذه، إنها لا تُحصى، إذًا لا تفعل كل شىء لتكونَ طروادة إضافية، ليس لدىّ أىّ حصان من الخشب على باب بيتى، وإذا كان عندكَ واحدٌ، فاسمع صوت هذه الكاساندرا العجوز، لا تتركه يدخل، سأكون متنبِّهاً لصهيله، الشىء الوحيد الذى أطلبه منك هو ألا ترى من جديد هذا الرجل، عدنى بذلك، أعِدُ بذلك. قدّر الكلب توماركتوس أنه حان وقت العودة، كان قد ذهب يستكشف الجيرانيوم وإكليل الجبل فى الباحة، لكنه لم يكن عائداً من هناك الآن، كان قد مرّ بغرفة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كان قد لمح الحقيبة المفتوحة على السرير وكان يملك ككلبٍ ما يكفى من سنوات التجربة ليعلم ماذا كان ذلك يعنى، ولهذا السبب لم يذهب للنوم عند قدمىْ سيّدته الدائمة، بل عند قدمىْ سيّدٍ آخر على وشك الذهاب.

بعد كلِّ الشكوك التى ساورته حول أكثر الطرق حذراً لإعلام أمّه عن الحالة الشائكة للتوءم المطلق أو، لاستخدام واحدة من هذه التعبيرات الشعبية القويّة، للشبه الذى يَخلقُ منه أربعين، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الآن مقتنعاً بصورة عقلانية فى أنه نجح فى الالتفاف على الصعوبة دون أن يزرع وراءه كثيراً من القلق، لم يستطع أن يتلافى أن تعادَ مسألة ماريا دا باز إلى الطرح من جديد، لكنه تذكرَ فجأة شيئاً كان قد حدث أثناء المحادثة، فى اللحظة التى كان قد قال فيها إنّ الأفضل كان أن يضع حدّاً نهائياً لعلاقتهما، وكان أنه شعر فى اللحظة نفسها، وقد نطق لتوّه

بالحكم الذى لا غفران فيه فى الظاهر، بنوعٍ من الإرهاق الداخلى، برغبة نصف واعية فى التخلى عن كلّ شىء، كما لو أنّ صوتاً فى رأسه يتمسّك فى أن يبرهن له على أنَّ عنادَه ربما لم يكن إلا آخر زاوية كان لا يزال يجهد فيها فى خنق رغبته فى رفع الراية البيضاء للاستسلام غير المشروط. قال فى نفسه، إذا كان الأمر على هذا النحو، فإنَّ علىّ واجباً لازماً فى أنْ أفكر جدّيّاً فى المسألة، أنْ أحلِّلَ مخاوفى وتردّداتى التى هى على وجه الاحتمال الشديد ميراثُ زواجى الأوّل، وأن أحسم خاصّة مرة وإلى الأبد، من أجل معرفتى، مسألة ماذا يعنى حبُّ شخص إلى درجة إرادة العيش معه، لأنَّ الحقيقة ترغمنًى على أن أعترف بأننى لم أفكر أبداً فى ذلك حين تزوّجت وهذه الحقيقة ذاتها ترغمنى على الإقرار بأنّ ما يرعبنى فى الأساس هو احتمال فشل جديد، أسهمت هذه التأملات المحمودة فى جعل رحلةً ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أكثر رضا، بالتناوب مع صورٍ خاطفة لأنطونيو كلارو، الذى يرفضُ فكرُهُ، بصورة عجيبةٍ، أن يتخيّلَ شبَهَهُ التام، كما لو أنَّه، على العكس من بداهة الوقائع ذاتها، يرفضُ قبولَ وجوده، كان يتذكر أيضاً شذرات من محادثاته معه، وخاصة فى البيت الريفى، لكن مع انطباع غريب بالمسافة وبالغرابة، كما لو أن شيئاً من ذلك لمً يكن يًعنيه حقاً، كما لو أنه أمامَ قصة قرئت قديماً فى كتاب لم يبقَ منه إلا صفحاتٍ عدّةٍ متفرٌقة. لقد وعدَ أمَّه ألا يعود أبداً لرؤية أنطونيو

كلارو وسوف يحترم وعده، لا أحد يستطيع اتهامه فى أنه قام بخطوة واحدة فى هذا الاتجاه، سوف تتغيَّرُ الحياة، سوف يهتف إلى ماريا دا باز ما إن يصل إلى بيته، كان علىّ أن أهتفَ لها من هناك، فكر، إنها قلة تهذيب لا تغتفر، ولو لم يكن الأمر إلا للاستعلام عن أخبار صحّة والدتها، كان ذلك أقلّ الأشياء، لاسيّما وأنّ من الممكن جداً أن تصير حماتى، ابتسم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أمام هذا المنظور الذى كان يمكن أن يشنِّج أعصابه قبل أربع وعشرين ساعة من ذلك، يبدو أن الإجازة قد أفادته جسماً وعقلاً، وأوضحت له خصوصاً أفكاره، إنّه رجل آخر، وَصَلَ حوالى نهاية بعد الظهر، وركنَ سيارته مقابلَ الباب وبخطوة رشيقة، خفيفة، مرحة، كما لو أنه لم يقم بالسير أكثر من أربعمائة كيلو متر دفعة واحدة، تسَلقَ السلم مع رشاقة مراهق ولم يلاحظ حتى ثقل حقيبته التى كانت، بالطبع، أكثر ثقلاً لدى العودة مما كانت عليه لدى الذهاب ولم ينقصه إلا أن يدخل بيته وهو يرقص. طبقاً للاتفاقات التقليدية الخاصّة بالجنس الأدبى المسمّى رواية والذى يجب أن يستمرّ فى أن يُسَمّى على هذا النحو طالما لم تُبتَكر له تسمية أكثر اتفاقاً مع وجوهه الحاليّة، هذا الوصف النشيط، المُنَظّم فى مقطع بسيط من المعطيات القصصيّة التى لم يدخل فيها بصورة عمديّة وبالحيلة أىُّ عنصر سلبى من أجل إعداد الإخراج المسرحى لتضادٍّ يمكن له، كما تريد أهداف كاتب القصص الخياليّة، أن يكون

دراميّاً مثلما أن يكون عنيفاً أو مُرعِباً، مثلاً جثة على الأرض تسبح فى دمائها، مجمع أشباح، مجموعة من النحل تنزوى بشدّة يمكن أن تتخذ من أستاذ التاريخ ملكة لها، أو، ما هو أسوأ، كلّ ذلك متحد فى الكابوس الوحيد ذاته، ما دامت مخيّلة الروائيين الغربيين، كما أمكن تبيان ذلك بما فيه الكفاية، لا تعرف حدوداً لها، على الأقلّ منذ هوميروس، المشار إليه من قبل، الذى كان، بعد كلِّ اعتبار، أوّل الجميع. فتحت شقة ترتوليانو ماكسيمو أفونسو له ذراعيها مثل أمٍّ أخرى وهمست له بصوت هوائى، تعال يا بنىّ، أنتظركَ، أنا قصرُك وحصنك، لا سيطرة لأيةٍ سلطة علىّ، لأننى أنا أنتَ نفسك حين تكون غائباً وسأكون على الدوام وحتى عندما أهدَم المكان الذى أنتمى إليه. وضع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو حقيبته على الأرض وأشعل مصابيح السقف. كانت القاعة مرتبة، ولم يكن فيها أية حبة من الغبار على الأثاث، هناك حقيقة جليلة تقول إنَّ الرجال، حتى وهم يعيشون وحدهم، لا يتوصلون إلى الاستغناء بصورة كاملة عن النساء، ونحن فى الوقت الحالى لا نفكر بماريا دا باز، التى ستؤكدها على الرغم من كلِّ شىء لأسباب شخصيّة ومريبة، بل بالجارة فى الطابق الأعلى التى قضت الصباحَ كله أمس فى التنظيف بهذا القدر من العناية والحماس كما لو كانت الشقة ملكها، أو حتى أكثر من ذلك أيضاً، كان ضوءُ المجيبِ الآلىِّ يومض، جلس ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يستمعُ إلى الرسائل.

الرسـالة الأولى التى انبـثـقت منه صـدرت عن مـدير ثانويّتـه الذى كان يتمنـى له إجازة طيبـة والذى يريد أن يعـرف إذا كـان تحـريرُ الاقـتـراح الموجّه إلـى الوزارة يتقـدم جيّداً، دون مـسـاس، ولا فـائدة من تدقيق ذلك، بحقكَ الشـرعىّ فى الراحـةً بعـد سنة دراسيّة مـتـعبـة بهـذا القـدر. الـثـانيـة جـعلت الصـوتَ الـثـقـيل والأبوى لزميل الرياضياَت يُسمع، لا شىء مهم، فقط من أجل السـؤال عن الحـال، إذا كـان يخـرج من وهنه ولكى يقترح أن رحلة طويلة فى البـلاد، دون استـعـجـال وفى صحبة طيبة، ربما تكونُ أفضلَ علاج لآلامه. الرسالة الثالثة كانت تلك التى تركها أنطونيو كلارو ذلك اليوم والتى تبـدأ على هذا النحـو، مـرحـباً، هنا أنطونيـو كـلارو، أفـتـرضُ أنكَ لم تكن تنتظر نـداءً منى، كـان يكفى أن يرنّ صوته فى هذه القاعة، الهادئة حتى ذلك الحين، لكى يصـيـرَ واضـحـاً أن الاتفـاقـات التقليـدية الخـاصّة بالرواية المشـار إليـهـا آنفـاً ليست فى نهـاية المطاف مـجـرّد مـلاذٍ بالٍ لقصّاصـين يعـوزهم الإلهـام مؤقتـاً، بل نتيجـة أدبيـة للتوازن الكونى الجليل، مادام العالمُ، الذى هو نسقٌ يفتقرُ منذ أصوله لكلٍّ معنىً فى التنظيم، تمتّعَ بوقتٍ أكـثـرَ من كـافٍ ليسـتـخلصَ درسَ التـعـدّدِ اللانهـائى لتجـاربه الخـاصـةً به كى يكون قـادراً على أن يؤدى، كـمـا يـبـيِّن ذلك المشـهـد غـيـر المتـوقف للحياة، إلى آليّةٍ معصومةٍ فى التعويض لن تحتاج، هى أيضاً، إلا لقدرٍ قليلٍ من الوقت لتبيِّن أن تأخراً بسيطاً فى عمل مجموعٍ دواليبها لا تأثير له على الجوهرى

وليس مهمّاً إن وجَبَ انتظار دقيقة أو ساعة، عام أو قرْن. لنذكِّرَ بالاستعدادات الممتازة التى عاد بها هذا العزيز ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى بيته، لنذكِّر مرة إضافية بأنه طبقاً للاتفاقات التقليدية لرواية ما، المعززة بالوجود الفعلى لآليّة التعويض العام التى أتينا على ذكرها، سيتوجب عليه أن يجد نفسه فى مواجهة شىء ما سيُحَطمُ على الفور فرحته ويغرقه فى أهوال اليأس، والقلق، والخوف، وكل ما يمكن أن نلتقيه، نعرف ذلك، على منعطف طريق أو أثناءَ وضع المفتاح فى القفل، إن ضروب الذعر الرّهيب التى نصفها حينئذ ليست إلا مجردَ أمثلة، كان يمكن أن تكون هى هذه، كان يمكن أن تكون أسوأ، وفى نهاية الأمر لا هذه ولا تلك قد حدثت، فتحَ البيتُ ذراعيْه بصورة أمومية لمالِكِهِ، ووجّه له بعض الكلمات اللطيفة، من هذه الكلمات التى تعرف كلّ البيوت قولها، لكنّ ساكنيها فى معظم الحالات لم يتعلموا سماعها، وبإيجاز، ولكى لا نكون أكثر إسهاباً، كان يبدو أن لاشىء بوسعه أن يُفسِدَ العودة السعيدة لترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى منزله. خطأ محض، ضلالٌ محض، وهمٌ محض، كانت دواليب الآليّة الكونيّة قد هاجرت إلى الأحشاء الإلكترونيّة للمجيب الآلى وكانت تنتظر إصبعاً يضغط على الزرّ الذى يفتحُ بابَ القفص لآخر الوحوش وأشدّها إرهاباً، لا الجثة المُدَمّاة عَلى الأَرض، لا مجمع الأشباح وقد صار هلاميّاً، لا الغيمة الكثيفة المدوّية والشهوانية للدبابير،

بل صوت أنطونيو كلارو المدروس والماكر، ابتهالاته الملحّة، لِنرَ بعضَنا من جديد أرجوك، لدينا الكثير من الأشياء لنتبادل قولها، فى حين أننا نحنُ الذين هنا، جميعاً شهودٌ أنَّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كان بالأمس، فى هذه الساعة ذاتها، يعِدُ أمّه بألا تكون له أبداً أيّة قضية مع هذا الرجل، سواء من أجل لقائه شخصيّاً، أو حتى من أجل أن يهتف له ويقول له إنّ ما انتهى كان قد انتهى تماماً وأنَّ عليه أن يتركه فى سلام، أرجوك. لنصفق على كل حال بقوّة لهذا القرار، ولكى نفعل ذلك سيكفينا أن نضعَ أنفسَنا مكانه، لنشفق لحظة على الحالة العصبية التى تركت عليها هذه الرسالة الهاتفيّة المسكينَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، الجبينُ وقد سالَ من جديد عرقاً، اليدان المرتعدتان مجدداً، الإحساس المجهول حتى ذلك الحين بأن السقف سوف يسقط على رأسه بين لحظة وأخرى. لا يزال المنبِّه على المجيب الآلى مضيئاً، علامة على أنه لا يزال يتضمّن رسالة أو عدداً من الرسائل. كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو تحت وطأة الصدمة التى سبّبتها رسالة أنطونيو كلارو، قد أوقف المجيب الآلى وهو الآن يخشى أن يسمع الرسائل الباقية، فى حالة ما إذا لعلع الصوت نفسه من جديد، محدِّداً له ربما، دون الاهتمام بموافقته، موعداً فى ساعة معيّنة، فى يوم معيّن، فى مكان معيّن. نهضَ وطردَ الإحباطَ الذى كان قد استغرق فيه، وتوجّه نحو غرفة نومه لكى يغيِّر ملابسه، لكن ما إن وصلها حتى

غيّر رأيه، إنَّ ما يحتاجه هو حمّام بارد ممتاز يهزّه ويقوّيه، ويسحب فى أنبوب التصريف الغيوم السوداء التى تزدحمُ فى رأسِهِ وتوهنُ عقله إلى درجة أنه لم يفكر حتى فى أنّ الرسالة الأخرى، أو إحدى الرسائل على الأقلّ، إن كان ثمة رسائل، آتية من ماريا دا باز. أتتْ هذه الفكرة من فورها على عبور رأسه وكان ذلك كما لو أن بَرَكَة متأخرة كانت قد نزلت أخيراً من فوّهة حنفية الدش، كما لو أن حماماً آخر معقماً، لا حمام النساء الثلاث العاريات على السطح، بل هذا الرجل الوحيد، المعتزل بصورة رحمانية فى أمنِ شقته الهشّ، فى وسط سيلانٍ وحيدٍ للماءِ وللصابون، يُخلصه من قذارة الجسم وجزء النفس. فكر بماريا دا باز بنوع من الطمأنينة الحنونة، كما لو كان يمكن أنْ يفكر بميناء انطلقت منه سفينة لتقوم بدورة حول العالم. بعد أن اغتسلَ وجففَ نفسه، بعدَ أنْ ترطبَ ولبسَ ملابس نظيفة، عادَ إلى القاعة ليستمع إلى بقية الرسائل، بدأ بمحو رسالتىْ مدير الثانوية وأستاذ الرياضيات اللتين لا تستحقان الاحتفاظ بهما ومع تقطيب للحاجبين أعادَ الاستماع إلى رسالة أنطونيو كلارو التى جعلها تختفى بضربة مباشرة على الزرّ الملائم، ثم استعدّ ليكون متنبّهاً لما سوف يلى. النداء الرابع كان فعلَ شخص لم يكن يريدُ الكلام، استمرت الرسالة أبديّةً دامت ثلاثين ثانية، ولكن دون وشوشة يمكن سماعها على الطرف الآخر من الخط، ولا أقلَّ موسيقى فى الخلفيّة، ولا أىّ تنفس خفيف جداً أمكن

التقاطه على حين غرّة، كما هى العادة فى السينما حين يراد الوصول بالحدّة الدرامية حتى الخوف. **لا** تقولوا لى إنه هو هذا الشخص من جديد، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يفكر، ساخطاً، بانتظار أن يغلق الشخص السمّاعة، لم يكن هو، لا يمكنُ أنْ يكونَ هو، رجل سبق وأن أنعم عليه من قبل بخطاب طويل على هذا النحو لن يبادر حتماً إلى أن يهتفً مرّةً أخرى كى يبقى ساكتاً، النداءُ الخامسُ والأخير كان آتياً من ماريا دا باز، **هـذا** أنا، قالت، كما لو أنه لا يوجد أىّ شخص آخر قادر على أن يقول **هـذا** أنا وهو يعرف مسبقاً أنه سيُعْرَف، أتصوّر أنك ستعود عما قريب، آمل أن تكون قد استرحت بصورة ملائمة، كنت أظنّ أنكَ ستهتف لى من عند أمّك، لكن كان علىّ أن أعرف أنه لا يمكن الاعتماد عليك فى هذا النوع من الأمور، على كلّ حال، لا فرق، ستجد هذه الكلمات التى تتمنى لك عودة طيبة من صديقة، اهتف لى متى شئت، متى شعرت بالرغبة فى ذلك، لكن لا تشعر بنفسك مرغماً على فعل ذلك، إذ سيكون أمراً سيئاً لك ولى، أحياناً أستسلم للخيال قائلة لنفسى كم سيكون رائعاً لو هتفت لى هكذا، من أجل لا شىء، ببساطة مثل شخص عطش وذهب ليشرب كأساً من الماء، لكنى أعرف جيداً أن ذلك سَيكون طلباً زائداً عن اللزوم، لا تتصنع أبداً معى عطشاً لا تشعر به، اعذرنى، لم يكن ذلك ما كنتُ أريد قوله، كنتُ أريد فقط أن أتمنى أن تعود إلى بيتك فى صحّة جيّدة، آه،

بمناسبة الصحّة، تحسّنت حالة أمى كثيراً إلى الأفضل، إنها تخرج الآن للذهاب إلى القدّاس وللقيام بمهامّها، وخلال أيام عدّة ستكون قد شفيت كليّاً، أقبلك، مرة، مرتين. أعاد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الاستماعَ إلى هذه الرسالة، أولاً مع الابتسامة المقتنعة للرجل الذى يستمع إلى ضروب المديح والإطراء التى لا يبدو عليه أنه يرتاب فى استحقاقه لها، وشيئاً فشيئاً صار تعبيره جدّياً، ثم تأملياً، ثم قلقاً، تذكر كلمات أمّه، هذا إذا كانت لا تزال هنا عندما ستستيقظ، وهى ترنّ الآن فى عقله كما لو أنها آخر إنذارات كاساندرا ما وقد أرهقها أنها غير مسموعة، نظر إلى ساعته، لا بدّ وأنّ ماريا دا باز قد عادت من مصرفها. سيعطيها ربع ساعة إضافية ثمّ يهتف لها، **آ**لو، مَنْ على الخط، سألت، أجاب، **إ**نه أنا، **أ**خيراً، **و**صلت قبل ساعة تقريباً، استحممتُ وانتظرتُ لكى أكون واثقاً من العثور عليك فى بيتك، **هل** سمعت الرسالة التى تركتها لك، **ن**عم، **ي**خامرنى الشعور بأننى قلت أشياء كان من الأفضل لى أن أسكت عنها، **م**ثل ماذا مثلاً، **لم** أعد أذكر على وجه الدقة، ولكن كما لو كنتُ أطلب إليك للمرّة الألف أن تمنحنى قليلاً من الاهتمام، أقسم فى كلّ مرّة إننى لن أعود إلى ذلك أبداً ثم ما ألبث أن أسقط فى الذلّ نفسه، **لا** تلفظى هذه الكلمة، إنها ليست صحيحة بالنسبة لك، ولا بالنسبة لى أيضاً على كلّ حال، **س**مِّ ذلك كما تشاء، ما أراه بوضوح هو أنّه لم يعد يمكن لهذا الوضع أن

يدوم، وإلا فسأنتهى إلى أن أفقد القليل من الاحترام الذى ما زلت أحتفظ به لنفسى. **سوف** يستمرّ، **ماذا**، هل أنت فى سبيلك إلى أن تقول لى إنّ نزاعنا سوف يستمرّ كما هو حتى هنا، أنّ خطابى المشفق إلى جدار لا يردّ لى حتى الصدى لن ينتهى أبداً، **أقول** لكِ إننى أحبّك، **سبق** وأن سمعتك تقول هذه الكلمات، خاصة فى السرير، قبل، وأثناء، ولكن لم أسمعها أبداً بعد، **ومع** ذلك فهذا صحيح، أحبّك، **أرجوك**، أتوسّل إليك، كفّ عن أن تعذبنى، استمعى لى، إننى أسمعك، لم أشأ أبداً شيئاً بمثل هذه الحرارة أكثر من أن أسمعك، **حياتنا** سوف تتغيّر، **لا** أصدّق ذلك، **صدّقيه**، يجب عليك أن تصدقيه، وأنت انتبه إلى ما تقوله لى، لا تعطنى اليوم آمالاً لا تستطيع غداً أن تحققها، **لا** أنت ولا أنا نعرفُ ما يخبئه لنا المستقبل، وهذا هو السبب فى أنّى أتوسلُ إليك أن تمحضينى ثقتك اليوم، **ولماذا** تطلب إلىّ اليوم شيئاً كنتَ تمتلكه على الدوام، **لكى** أعيش معك، لكى نعيش معاً، لا بدّ وأننى أحلم، من المستحيل أن يكون ما أتيتُ على سَماعِهِ حقيقياً، **لن** أتردّد فى تكراره لو أردت، **بشرط** أن يكون ذلك مع الكلمات نفسها، لكى أعيش معك، **لكى** نعيش معاً، **أكرِّر** إن ذلك ليس ممكناً، فالناس لا تتغيّر هكذا من لحظة إلى أخرى، ما الذى جرى فى رأسك أو فى قلبك لكى تطلب إلىّ أن أعيش معك فى حين أنك حتى الآن كدحت لكى تحملنى على أن أفهم أنَّ مثل هذه الفكرة لم تكن تدخل فى خططك وأن من

الأفضل لى ألا أخدع نفسى بالأوهام، **ا**لناس يستطيعونَ أن يتغيّروا من لحظة إلى أخرى مع بقائهم هم أنفسهم، **هـ**ل تريد حقاً أن نعيش معاً، نعم، **هـ**ل تحب ماريا دا باز بما يكفى لكى تعيش معها، نعم، **أ**عِدْ قولَ ذلك علىّ، **نـ**عم، نعم، نعم، نعم، **قـ**فْ، لا تخنقنى، سوف أنفجر، لا مجال لذلك، أريدك كاملة، **هـ**ل يزعجكَ أن أقول ذلك **لأ**مّى، كانت تنتظر هذه الفرحة منذ زمن طويل، **بـ**التأكيد هذا لا يزعجنى، على الرغم من أنّها لا تُولع بى بصورة خاصة، **كـ**انت لها أسبابها، المسكينة، كنتَ تتباطأ، لم تكن تقرّر، كانت تريد أن تكون ابنتها سعيدة وأنا لم أكن أظهرُ لها أية علامات سعادة، الأمهات جميعاً متشابهات، **هـ**ل تريدين معرفة ماذا قالته لى أمى أمس فى لحظة كنا نتكلم فيها عنك، ماذا، على أن تكون هنا عندما ستستيقظ، **أ**فترض أنها كانت الكلمات التى كان يجب أن تسمعها، **بـ**الضبط، استيقظتَ وكنتُ ما أزالُ هنا، لا أدرى إلى كم من الوقت أيضاً، لكننى كنتُ هنا، **قـ**ولى لأمّك إنها من الآن فصاعداً تستطيع أن تنام ملء جفنيها، **تـ**لك التى لن تنام هى أنا، **مـ**تى سنرى بعضنا، **غـ**داً، ما إن أخرج من المصرف حتى أقفز فى تاكسى وأصل، استعجلى فى المجىء، **إ**لى ما بين ذراعيك. أغلق ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الهاتف، وأغمض عينيّه وسمع ماريا دا باز تضحك وتصرخ، **يـ**ا أمى العزيزة، يا أمى العزيزة، ثم رآهما تتبادلان القبل، وبدلاً من الصرخات، والدمدمات، وبدَلَ الضحكات، والدموع،

نتساءل أحياناً لماذا تتأخر السعادة كثيراً فى المجيء، لماذا لم تصل مبكرًا، ولكنها إذا ظهرت على غيرِ توقع، كما هو الأمر فى هذه الحالة، فى لحظة لم نعد ننتظرها فيها، فإننا نصيرُ آنئذ فى حالة ضياع غالباً، وليس المقصود الاختيار بين الضحك والدموع بقدر ما نحنُ بالأحرى فريسة قلق سرّىٍّ ألا نكون ربما قادرين على المواجهة. وكما لو أنه يستعيد عادات منسيّة، ذهب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى المطبخ ليرى إن كان سيجد شيئاً ما يأكله. وفكر، علبُ المحفوظات الأبدية. لكن ورقة ملصقة على البرّاد، كانت تعلن بحروف كبيرة لكى تكون مرئيّة أكثر، **يوجد** حساء فى البرّاد، إنه آتٍ من جارة الطابق الأعلى، فلتكن مباركة، هذه المرّة، ستنتظر علبُ المحفوظات. بعد إنهاك السفر، وضنى المشاعر، استلقى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى السرير قبل الساعة الحادية عشرة. حاول أن يقرأ صفحة من حضارات مابين النهرين، لكنَّ الكتاب سقط من يديه مرّتيْن، وانتهى إلى إطفاء النور والاستعداد للنوم، كان ينزلق بهدوء فى السبات عندما جاءت ماريا دا باز توشوشه فى أذنيه، **كم** سيكون رائعاً لو هتفت لى هكذا، للا شيء. ربما كانت ستتلفظ ببقية الجملة، لكنه كان قد نهض أصلاً، وكان قد ارتدى مبذلة فوق البيجاما، وكان قد أدار القرص، سألت ماريا دا باز، أهذا أنت، وأجاب، **هذا** أنا، إننى عطشان وجئتُ أسألكِ كأساً من الماء.

إنَّ اتخاذَ قرار هو، على العكس مما نظنّه عموماً، واحدٌ من أسهل القرارات فى العالم، كما يشهد على ذلك قضاؤنا النهارَ المقدّسَ كلَّه فى اتخاذ الكثير منها، على أنّها، وهنا المُعْضِلة، مصحوبة دوماً بصورة بعْديّة بمشكلات صغيرة خاصة، أو، لكى نفهم بسهولة أكثر، بأكياس من العقد فى آخر لحظة، الأولى باعتبارها قدرتنا على التمسّك بقراراتنا والثانية إرادتنا فى تنفيذها. لا لأن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يفتقرُ إلى الواحدة أو إلى الأخرى فى علاقاته العاطفية مع ماريا دا باز، فقد كنا شهوداً على أنهما عرفا فى هذه الساعات الأخيرة تحسّناً واضحاً كيفيّاً، كما جرت العادة على القول. لقد قرّر أن يعيش معها ولم يغيِّر رأيه، وإذا كان هذا التصميمُ لم يتعيَّن بعد أو أنه لم يوضَع بعدُ موضعَ التنفيذ، كما يقال أيضاً بصورة عامة، فلأنَّ الانتقالَ من الكلمات إلى الأفعال يواجه أيضاً مصاعبَ، كيساً أخيراً من العقد، مثلاً يجب على العقل أن يتسلحَ بالقوة لكى يدفعَ الجسم المتكاسلَ إلى القيام بواجبه، دون الحديث عن المشكلات التافهة

اللوجستية التى لا يمكن أن تُحَلّ فى غمضة عيْن، مِنْ مثل مَنْ يذهب إلى بيْت مَنْ، هل ستذهب ماريا دا باز لتسكَنَ فى الشقة الصغيرة لحبيبها أمْ أنَّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو سيسكن فى الشقة، الأوسع، لَمحْبوبته. وسواء أكانا مستلقيين على هذه الأريكة أو نائمين على هذا السرير، فالخطيبان، على الرغم من المقاومة الطبيعية لكلٍّ منهما ضدَّ هجْر القوقعة المنزلية التى اعتاد عليها، ينتهيان إلى الميل نحوَ الفرضيّة الثانية، لأنه سيكون فى شقة ماريا دا باز مساحة من المكان لاستقبال كتبِ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فى حين أنه لن يكون فى شقة هذا الأخير مكانٌ لأمِّ ماريا دا باز. على هذا الصعيد لا يمكن للأشياء أن تتاحَ بصورة أفضل، المشكلة هى أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد أن تردّد طويلاً بين الحسنات والسيّئات، كان قد انتهى إلى القصّ على أمّه، حقاً مع التخفيف من أشدِّ الزوايا حدّة وأكثر الأشواك تخويفاً، قصة الرجليْن المنسوخيْن الخارقة، وما زلنا لا نرى متى سيعزم على احترام الوعد الذى قطعه لماريا دا باز حينما أجّل إلى مناسبة أخرى، بعد اعترافه بأنّ كلّ ما كان قد قاله لها عن أسباب الرسالة الشهيرة المرسلة إلى شركة الإنتاج كان كذباً، ما كان ينقصُ نصفَ الاعتراف لكى يكون كاملاً وصادقاً وناجعاً. لم يُدَقق، ولم تسأله، والكلمات القليلة التى كان يمكنها أن تفتح هذا الباب الأخير، هل تتذكرين، يا حبّى، اليوم الذى كذبتُ عليك فيه،

هــل تتذكر، يا حبّى، اليوم الذى كذبتَ فيه علىّ، لم تُلفَظ وإذا كــان لدى هذا الرجل أو هذه المرأة الوقت للمضىِّ حتى نهاية هذا الموضوع المؤلم، لكانا على وجه الاحتمال الشديد برّرا صمتهما بزعمهما عدم إرادتهما تعكيرَ هذه الساعات السعيدة مع قصّة آثمة حول الانحراف التكوينى، لن نتأخرَ فى معرفة ما الذى كانت عليه النتائج الوخيمة لترك قنبلة من الحرب العالمية الثانية مدفونة حيث سقطت ظنّاً بأنها، وقد مضى زمنها، لن تنفجرَ أبداً، كانت كاساندرا قد حذّرتنا، سيحرقُ اليونان مدينة طروادة.

منذ يومَين، وقد صمَّمَ على إنهاء العمل الذى طلبه منه مدير الثانوية من أجل وزارة التربية، لم يرفع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو تقريباً عينيْهِ عن أوراقه. وعلى الرغم من أن التاريخ الذى سينتقل فيه إلى بيت ماريا دا باز لم يُحَدَّد بعد، تمنى أن يتحرَّرَ من هذه المهمّة بأسرع وقتٍ ممكن لكى لا تعقِّد عليه حياته فى مسكنه الجديد، يكفيهِ ترتيبُ أوراقه، وكذلك ترتيب الكتب العديدة التى يجب أن ينظمها، لم تهتف ماريا دا باز لكى تتلافى صرفهُ عن العمل وهو سعيد من ذلك، ذلك يشبهُ قوله وداعاً لحياته السابقة، للوحدة، للهدوء، لصمت شقته التى لا يتوصل الطرْقُ على الآلة الكاتبة، عجباً، إلى أن يعكره. تغذى فى المطعم وعاد فوراً بعد ذلك، لا يزال يحتاجُ إلى يومَين أو إلى ثلاثة أيام لكى يصل إلى نهاية عذاباته، ولن يبقى عليه بعد هذا إلا التصحيح والنسخ من جديد، إعادة كتابة كلّ

شيء، إنّه على ثقة ويقين من أنه سيجبُ عليه عاجلاً أو آجلاً تقرير شراء حاسوب وطابعة مثلما فعل كلُّ زملائه تقريباً، وإنه لعارٌ أن يستمرَّ المرءُ في الحفر بالمعول في حين أن المحاريث، والمحاريث من آخر جيل صارت عامّة الاستخدام. سوف تعلمه ماريا دا باز أسرار المعلوماتية، فقد درست الموضوع، وهي تعرفه جيّداً، توجدُ في المصرف حيث تعمل حواسيبُ على كلِّ المكاتب، وليس الأمرُ شأن المكاتب القديمة للأحوال المدنيّة. شخصٌ ما يدق جرس البيت. **من** يمكن أن يكون في هذه الساعة، تساءل، وقد أزعجه توقيفه، إنها ليست جارة الطابق الأعلى، فموزع البريد يضعُ الرسائلَ في العلب البريدية، كما سبق لعمال الماء، والغاز، والكهرباء أن مرّوا مؤخراً وأخذوا سجلّ العدادات، ربما يكون واحداً من هؤلاء الشباب الذين يقومون بالدعاية للموسوعات التي تصفُ طباعَ عفاريت البحر، الجرس يلعلع مرة أخرى. ذهب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يفتح الباب، كان هناك ملتح يقف أمامه ويقول له، **هذا** أنا، حتى ولو لم يبدُ عليّ ذلك ربما، سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بصوت أصمّ ومتوتّر، **ماذا** تريد منّي، أجاب أنطونيو كلارو، أن أكلمّك بكل بساطة، طلبتُ منك أن تهتفَ لي حينما تعودُ من الإجازة ولم تفعل ذلك، إنَّ ما لدينا لنقوله لبعضنا قد سبق قوله، **ربما**، لكن لا يزال ينقص ما لديَّ أنا لأقوله لك، إنني لا أفهم، **هذا** طبيعي، لكنك لا تتوقع مع ذلك أن أقوله لك هنا على

السلّم، على عتبة شقتك، تحت طائلة أن يسمعنا الجيران، على كلٍّ حال هذا لا يهمّنى، على العكس، أنا واثق أن ذلك سيهمّك بصورة هائلة، إنّ المقصود صديقتك التى تسمّى، فيما أظنّ، ماريا دا باز، ماذا حدث، لا شىء، فى الوقت الحالى، عن هذا بالضبط يجب علينا أن نتحدّث، إذا لم يحدث شىء، فلا شىء ثمة ليُقال، قلتُ فى الوقت الحالى. فتح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الباب بصورة أوسع وابتعد، ادخل، قالَ. دخلَ أنطونيو كلارو وبما أنّ الآخرَ لم يكن على استعداد للتحرّك من هنا، قال، أليس لديك كرسى تعطينى إياه، أظنّ أننا سنتحدث براحة أكبر ونحن جالسان. صَعُبَ على ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أنْ يكبتَ إشارة غضب دون أن يقول أية كلمة دخل الغرفة التى تقوم مقام المكتب. تبعَهُ أنطونيو كلارو، نظرَ من حوله كما ليختارَ أفضلَ مكان وقرَّر اختيارَ الكرسى ذى المسند المنجّد، ثم قال وهو ينتزع بعناية لحيته، أتصوّر أنك كنت جالساً فى هذا المكان حين رأيتنى للمرّة الأولى لم يجب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كان قد بقى واقفاً، وكان وضعُ جسمِهِ المتشنج احتجاجاً صارخاً، قلْ ما عندك واختفِ من وجهى، لكنّ أنطونيو كلارو لم يكن مستعجلاً، إذا لم تجلس، فسوف ترغمنى على النهوض وليس لدىّ أقلّ رغبة فى ذلك. طوّف بهدوء عينيْه من حوله، متوقفاً على الكتب، واللوحات المعلقة على الجدران، والآلة الكاتبة، والأوراق المبعثرة على المكتب، والهاتف، ثمّ قال، أرى

أنكَ كنتَ تعمل، اخترتُ اللحظة السيئة لآتى كى أحدثك، ولكن نظراً لعجلة ما قادنى إليك، لم يكن لدىّ الخيار، **وما** الذى قادك إذًا إلى بيتى دون أن أدعوك إليه، **قـ**لته لك وأنا أدخل هنا، المقصود هو صديقتك، **وما** علاقتك مع ماريا دا باز، **أ**كثر مما يمكنك أن تتصوّر، ولكن قبل أن أشرح لك كيف ولماذا وإلى أى حدّ، اسمح لى أن أطلعك على هذا، سحب من جيب سترته الداخلية ورقة مطويّة أربع طيّات بسطها ومدّها على طرف أصابعه كما لو كان يستعدّ ليتركها تسقط، أنصحك أن تأخذ هذه الرسالة وأن تقرأها، إذا لم تكن تريد أن ترغمنى على أن أكون سيئ التربية وعلى أن ألقيها أرضاً، ثمّ إنّها ليست أمراً جديداً عليك، تتذكّر قطعاً أنّك حدّثتنى عنها حين التقينا فى بيتى الريفى، الاختلاف الوحيد، هو أنك قلتَ لى آنئذ أنكَ كتبتها فى حين أنّها موقعة من قبل صديقتك. ألقى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو نظرة سريعة على الورقة وأعادها، سألَ وهو يجلس، **كـ**يف وقعت بين يديك، **تـ**عذبتُ بعضَ الشىء من أجل الحصول عليها، لكن ذلك كان يستحق العذاب، صرّح أنطونيو كلارو الذى أضاف، **مـ**ن كلِّ النواحى، **لمـ**اذا، **يـ**جب أن أبدأ بالاعتراف أنَّ شعوراً خبيثاً هو الذى دفعنى للذهاب إلى أرشيف شركة الإنتاج، قدراً من الكبرياء، من حبِّ الذات، أظنّ أنه هكذا يُسمّى هذا الشعور، الخلاصة، رغبتُ أن أرى ما كتبته عن الممثلين الثانويين فى الرسالة التى كنتُ موضوعَها، كانت

حجّة، عذراً لمعرفة اسمكَ الحقيقى، لا أكثر من ذلك، وهل نجحت، كان من الأفضل ألا يجيبونى، قُضِىَ الأمر، يا عزيزى، لقد فتحتَ علبة باندورا، الآن تحمَّلْ نتائج ما فعلت، ليس لديك الخيار. ليست هناك نتائج، ماتت القضيّة ودفنت، هذا ما تظنّه، لماذا، إنك تنسى توقيع صديقتك، الأمر له ما يفسِّره، أىّ تفسير، وجدتُ أنَّ من الأفضل أن أبقى جانباً، جاء دورى لأسألك لماذا، أردتُ أن أبقى فى الظلّ حتى اللحظة الأخيرة، وأن أظهر فجأة، نعم يا سيّدى، حتى أن هيلينا لم تعُدْ هىَ نفسها منذ هذا اليوم المشهود، فالصدمة التى شعرت بها كانت رهيبة، معرفتها بوجودِ رجل فى هذه المدينة مطابق لزوجها حطمَ أعصابَها، وهىَ الآن فى حالة أفضلً من كثرة تناولها للحبوب المهدّئة، بحالة أفضل نسبياً، آسف على ذلك، لم أكن أتوقع أن أسبِّب مثل هذا الخراب، كان من الممكن أن يكون الأمر أبسط، كان يكفى أن تضع نفسك مكانى، كنت أجهل أنك كنت متزوّجاً، تصوّر، إنه مجرّد مثال، تصوّر أننى وأنا أخرج من هنا سأذهب لأقول إلى صديقتك ماريا دا باز أنك أنت ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وأنا، أنطونيو كلارو، متطابقان فى كلِّ شىء، حتى فى طولِ قضيبنا، فكر فى الصدمة التى سيسبِّبها ذلك للسيّدة المسكينة، إننى أمنعك من فعل ذلك، هدّئ من روعك، لم أقل لها ذلك ولن أقوله لها، نهضَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فجأة، ماذا يعنى ذلك، لم أقل لها، لن أقول لها، ماذا

يعنى هذا الكلام، **هـ**و ذا سؤال لا قيمة له، بلاغى، صُنِعَ من أجل تضييع الوقت، لأنك لا تعرف كيف تتصرّف، أوقفْ سخافاتك وأجبنى، **ا**حتفظ بشهوتك للعنف إلى ما بعد، ومع ذلك، لعلمك، أحذرك بأن لدىّ قدرًا لا بأس به من العلم بفن الكاراتيه لأجعلك تأكلُ الترابَ خلال خمس دقائق، صحيح، إننى خلال الأيام الأخيرة قد أهملتُ بعضَ الإهمال التدريب، ولكن مع شخص مثلك سأكون أكثر مما هو مطلوب منى، إنّ امتلاكنا قضيباً له الطول نفسه لا يعنى أننا نملك القوّة نفسها، **ا**خرج من هنا على الفور أو أنادى الشرطة، **نـ**ادى أيضاً قنوات التليفزيون، والمصورين، والصحافة، خلال دقائق سنكونُ حدثاً عالميّاً، **أ**ذكرك بأنه إذا عُرِفَ بهذه القصّة فسوف يسىء ذلك لمستقبلك المهنىّ، دافع عن نفسه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، **ا**فترض أن نعم، وإن كان المستقبل المهنى لممثل ثانوى لا يهمّ أحداً، سواه هو نفسه، **إ**نه سبب كاف لكى ننتهى من كلِّ ذلك، تذهبُ، وتنسى ما جرى وسأجهدُ فى أنْ أفعلَ الأمر نفسه، **مـ**وافق، ولكن هذه العمليّة، التى نستطيع تسميتها **عـ**مليّة النسيان، لن تبدأ إلا بعد أربع وعشرين ساعة، **لـ**ماذا، السبب يُسَمّى ماريا دا باز، ماريا دا باز نفسها هذه التى غضبتَ من أجلها قبل لحظة وتبدو الآن تريدُ وضع ستار عليها لكى لا نتحدّث عنها أبداً، **مـ**اريا دا باز لا علاقة لها أبداً بهذه القصّة، **نـ**عم، علاقتها قليلة معها إلى درجة أننى أراهن أنّها تجهل وجودى، كيف تعلم ذلك، **لـ**ست

على يقين من ذلك، إنه افتراض، لكنكَ لا تتكره، رأيتُ أنَّ من الأفضل أن يكون الأمر على هذا النحو، لم أرد أن يحدثِ لها الشىء نفسه الذى حدث لزوجتك، يـا له من قلب كبير قلبك وهذا يتوقف عليك ألا يحدث هذا الأمـرً، لا أفـهم، لـنكفّ عن اللفٌ والدوران، طرحتَ علىّ سؤالاً ومنذ ذلك الحين وأنت تفعل ما بوسعك لكى لا تسمع الجواب الذى أردتُ أن أعطيك إيّاه، اذهـب، لـيست لدىّ النيّة فى أن أحشر نفسى، إذهب فوراً، فوراً، حـسناً جدّاً، سوف أذهب لتقديم نفسى بلحمى وعظمى إلى صديقتك وسأقصّ عليها ما أخفيته عنها لافتقاركَ إلى الشجاعة أو لسبب آخر تماماً وحدك مَنْ يعرفه، لـو كان معى سلاح، لَكنتَ رجلاً ميتاً، ربما، لكننا لسنا فى السينما، يا عزيزى، الأشياء فى الحياة أبسط بكثير، حتى عند وجود القتلة والمقتولين، أفرغ ما عندك مرّة وإلى الأبد، هل كلمتها، أجبنى، كلمتها، نعم، ولكن عبر الهاتف، وماذا قلتَ لها، دعوتها للذهابِ اليومَ معى لرؤية بيتٍ ريفىٍّ معروض للاستئجار، بيتك الريفى، بالضبط، بيتى، لكن اطمئن، الشخص الذى تكلم بالهاتف مع صديقتك ماريا دا باز ليس أنطونيو كلارو، بل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أنتَ مجنون، ما هذه الحيلة الشيطانيّة، ما الذى تزعمه، أتريد حقاً أن أقوله لك، إننى أطلبه، أزعمُ قضاءَ الليلة معها، لا شىء أكثر من ذلك. نهض ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعنف وتقدّم من أنطونيو كلارو، وقبضته مضمومة، لكنه تعثر

بالمنضدة الصغيرة التى كانت تفصل بينهما وكان سيتمدّد على الأرض لولا أن الآخر أمسك به فى اللحظة الأخيرة. هزّ ذراعيْه، وقاوَمَ، لكنّ أنطونيو كلارو سيطرَ عليه برشاقة بفضل حركة سريعة على الذراع جمّدته، احشر فى رأسك تماماً هذا الشىء قبل أن أشوّهك، لا تحاول أن تضعَ نفسك على مستواى. دفعَهُ نحو الأريكة وجلس، أطلقَ عليه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو نظرة مفعمة بالحقد وهو يفركُ ذراعه التى تؤلمه، **لـ**ـم أرد أن أؤلمك، صرّح أنطونيو كلارو، لكنها كانت الطريقة الوحيدة لتلافى تكرار مشهد الصراع المبتذل والفظ دوماً بين ذكريْن يتنازعان على أنثى، **مـ**ـاريا دا باز وأنا سوف نتزوّج، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كما لو كانت حجّة لا تقاوم، **هـ**ـذا لا يفاجئنى، عندما كلمتها تكوّن لدىّ انطباع بأن علاقتكما كانت جدّية حقاً وتوجّب علىّ أن أستحضرَ كلّ تجربتى كممثل لكى أعثر على اللهجة المناسبة، أستطيع أن أؤكد لك أنها لم تشكّ فى أيّة لحظة فى أنها تتكلم إليك، والأكثر من ذلك، إننى أفهم الآن على نحو أفضل الفرحة التى تلقت بها دعوتى للذهاب لزيارة البيت لأنها كانت تجدُ نفسها وهى تعيش فيه أصلاً، **كـ**ـانت أمّها مريضة، لا أظنّ أنّها ستتركها وحدها، بالفعل، لقد حدّثتنى عن ذلك، لكنها تركت نفسها تقتنع بسهولة، فالليلة الواحدة تمضى بسرعة، اضطربَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى مقعده، ساخطاً على نفسه لظهوره قابلاً من خلال

كلماته الأخيرة بإمكانية وضع أنطونيو كلارو مقاصده موضع التنفيذ. لماذا التصرّف على هذا النحو، تساءل، وهو يدرك مرة أخرى متأخراً أنه أتى على القيام بخطوة إضافيّة على طريق الخضوع، ليس من السهل شرح ذلك، ولكنّى سأحاول، قال أنطونيو كلارو، ذلك ربما من أجل أن أنتقم من الاضطراب الذى أدخله ظهورك فى علاقاتى الزوجية والذى لا تملك عنه أيةّ فكرة، ربما كان ذلك نزوة دونجوانية لزير نساء مهووس، ربما كان ذلك، وهذا هو الأكثر احتمالاً، لمجرد الحقد ببساطة، بسبب الحقد، نعم، بسبب الحقد، قلتَ قبل دقائق عدّة إنكَ لو كنتَ تملكُ سلاحاً لقتلتنى، كانت تلك طريقتك فى التصريح بأنَّ واحداً منا نحن الاثنين زائدٌ عن اللزوم فى هذا العالم وأنا متفقٌ تمامَ الاتفاق معك، واحدٌ منّا زائدٌ عن اللزوم فى هذا العالم ومن المؤسف ألا نستطيع قول ذلك بحروف كبيرة، كانت المسألة ستكون محلولة اليوم لو أن المسدّس الذى حملته معى حين التقينا كان مشحوناً وكانت لدىّ الشجاعة لأن أطلق، ولكن كما نعلم من قبل، نحن أناس شرفاء، إننا نخاف من السجن وبالتالى، بما أننى عاجز عن القضاء عليك جسديّاً، فسوف أقتلك بطريقة أخرى، سأنتهك امرأتك، الأسوأ فى الأمر أنها لن تعرف أبداً، ستعتقد طوال الوقت أنها تمارس الحبّ معك، كلّ ما ستقوله لى من كلمات عذبة وعاشقة إنما ستقولها إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لا إلى أنطونيو كلارو،

فليكن فى ذلك على الأقلّ عزاء لك، لم يجب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أسرع فى غضٍّ بصر عينيْه لكى لا يمكن أن تُقرَأ فيهما الفكرة التى أتتْ على عبور دماغه من أوّله إلى آخره. تكوَّنَ لديْه بغتة الانطباع بأنه يشارك فى مباراة شطرنج وينتظر الضربة التالية لأنطونيو كلارو، هبط كتفاه بإعياء حين صرَّحَ هذا، بعد نظرة خاطفة إلى ساعته، حـان وقتُ ذهابى، يجبُ أن أمرّ لاصطحاب ماريا دا باز من بيتها، لكنّهما ما لبثا أن انتصبا بقوّة متجدّدة حين سمع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قول أنطونيو كلارو، بـالطبع، لا أستطيع الذهاب إلى هناك على النحو الذى أنا عليه، لا بدّ لى من ملابسك أنتَ وكذلك سيارتك، إذا وجب علىّ أن أقدّم نفسى مع وجهك فيجب أيضاً أن أقدّم نفسى مع الباقى، لا أفهم، قال ترتوليانو ماكسيمو آفونسو فى هيئة الحائر، ثمَّ من فوره ، آه نعم، هذا واضح، لا يمكنكَ أن تخاطرَ فى أن تتعجّبَ من الطقم الذى تلبسه ولا فى أن تسألكَ أين وجدتَ المال لشراء سيارة كسيّارتك، بـالضبط، وتريد إذاً أن أعيركَ ملابسى وسيّارتى، هذا بالضبط ما طلبته منك، وماذا ستفعل إذا رفضت، سـأفعل شيئاً ما شديد البساطة، سأهتف مباشرة من هنا بالذات إلى ماريا دا باز وسأقصّ عليها كلّ شىء، وإذا طرأت على خاطرك الفكرة المُزعجة فى أن تمنعنى، فكن واثقاً من أننى سأتركك ميتاً على البلاط فى وقتٍ أقلّ من الوقت اللازم لقولِ ذلك، إذاً حذار، حتى الآن استطعنا أن

نتلافى الطرق القسريّة، ولكن إذا تبيّن أنها ضرورية فلن أتردّد، حسناً جدّاً، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وأيّ نوع من الملابس يلزمك، طقمٌ كاملٌ مع ربطة العنق، أو ملابس صيفية، كما أراكَ تلبس، ملابس خفيفة، من هذا النوع. خرج ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ذهب إلى غرفته، فتح الخزانة، سحب من الدروج. بعد خمس دقائق كان عائداً مع ما هو ضروري، قميص، وبنطال، وكنزة ، وجوارب، وحذاء. لبس فى قاعة الحمام، قال. حين عاد أنطونيو كلارو، لمح على المنضدة الواطئة ساعة يد، وحافظة أوراق وبطاقة الهويّة. قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أوراق السيارة موجودة فى علبة القفازات، وهاهى المفاتيح وكذلك مفتاح بيتى إذا لم أكن موجودا فيه حين تأتى لتغيير ملابسك. سأعود فى منتصف فترة الصباح، وعَدْتُ زوجتى أنْ أعودَ قبل الظهر، أجاب أنطونيو كلارو، أتصوّر أنك أعطيتها سبباً جيّداً لتفسِّرَ قضاءك الليلة فى الخارج، مشكلات عمل، ليست هذه هى المرّة الأولى، وتساءل أنطونيو كلارو، وقد تبلبل ذهنه، لماذا بحق الشيطان يعطى كل هذه التفسيرات فى حين أنّه برهن على سلطته وسيطر تماماً على الوضع منذ دخوله إلى هنا. قالَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، يجبُ ألا تكونَ معكَ لا أوراقك، ولا ساعتك، ولا مفاتيح شقتك وسيارتك، ولا أىّ شىء شخصى، لاشىء مما يمكن أن يكشف هويتك لأنّ النساء، بالإضافة إلى أنهن فضوليات بطبيعتهن، على كل حال

هذا ما يُقال دوماً، ينتبهنَ دوماً إلى التفاصيل، ومفاتيحك، لاشكّ أنكَ ستحتاج إليها، خذها، لا تهتمّ، فجارة الطابق العلوى تملك صورة منها، أو نسخاً، إن فضّلت هذه الكلمة، فهى التى تدبّر ترتيب الشقة، آه، حسناً جداً. لم يكن أنطونيو كلارو يتوصّل إلى التخلص من الإحساس بالقلق الذى كان قد حلّ محلَّ البرودة المُصمِّمَة التى أجرى معها من قبلُ الحوارَ المراوغ المؤدّى إلى الغاية التى يستهدفها، كان يبدو له الآن أنه فى لحظة ما من النقاش قد ابتعد عنه أو أنّه دُفعَ به خارج الدرب بصدمة جانبية ماهرة لم ينتبه إليها عند حدوثها. كانت الساعة التى يجب عليه أن يمرّ عندها لاصطحاب ماريا دا باز تقترب، ولكن بالإضافة إلى إلزام هذه الساعة المحدّدة، يوجد إلزامٌ آخر، وهو داخلى، أشدّ ضغطاً، يلاحقه، اذهب، اخرج من هنا، تذكّر أنه يجب معرفة الانسحاب فى الوقت المناسب حتى من الانتصارات الأشدٌ تألقاً، أسرعَ فى أنْ يضعَ على المنضدة الواطئة، جنباً إلى جنب، أوراقَ هويته، ومفاتيحَ بيته، ومفاتيحَ سيارته، وساعة يده، وخاتم زواجه، ومنديلاً يحمل الحرفيْن الأوليْين من اسمه ولقبه، ومشط جيب، وصرّح بلا فائدة بأنّ أوراق السيارة كانت فى علبة القفازات وقال، أنت تعرف سيارتى، لقد ركنتها بالقرب من باب المدخل، وأجاب ترتوليانو ماكسيمو آفونسو بالإيجاب، رأيتها أمام بيتك الريفى حين وصولى إلى هناك، وأين رُكنتْ سيارتك، تجدها بالضبط عند زاوية الشارع، اتجه يساراً عند

خـروجك من الـعـمـارة، إنهـا زرقـاء وذات بابيْن، قـال ترتوليـانو مـاكسـيمـو أفـونسـو ولكى لا يكون ثمـة خلط ممكن أكمل المعلومات بإعطائه ماركة السيارة ورقمها. كـانت اللحـيـة المسـتـعـارة على ذراع الأريكة التى كـان أنطونـيـو كـلارو جالسـاً عليهـا. ألن تـضـعـهـا، سـأل ترتوليـانو ماكسـيمـو آفونسـو، إنه أنت الذى اشـتـراها، احتفظ بها، فـالوجه الذى سـأخـرج به هو الوجه نفسه الذى سـأدخل بـه غـداً حـين سـآتى لـتـغـيـيـر الملابس، أجاب أنطونيو كلارو، الذى اسـتـعـاد قليـلاً من سلطته السـابقـة وأضـاف بلهـجـة هازئة، حـــتى ذلك الحـــين سـأكون ترتوليـانو مـاكسيـمـو آفونسـو، أسـتاذ التاريخ. تبـادلا الـنظر عـدداً من الثـوانـى، الآن، يقـينـاً، كـانت الكلمـات التى كـان ترتوليـانو مـاكسيمو أفـونسـو الآخـرَ قد اسـتقـبلَ بها أنطـونيو كـلارو عند وصوله صـحـيـحـة، صـحـيـحـة حـتـى الأبد، إنَّ ما لـدينا لنقوله لـبـعضنا سـبق قـوله. فـتـح ترتوليـانو مـاكسـيـمـو أفـونسـو البـاب المُطِلَّ على السلم بـلا ضـجـة، وابـتـعـد لكى يتيح خـروج الزائر وببطء، وبالعناية نفسهـا، أغلقـه. سيكون من الـطـبيـعـى الـتــفكيـــر أنه تصــرّف على هـذا النحــو لكى لا يـوقظ فضولَ الجـيران المريض، لكنّ كـاسـاندرا، لو كـانت هـنا، لن تنسـى أن تذكرنا بأننـا بهـذه الـطـريقـة تحـديداً إنما نضعُ الـغطاءَ على النعش، عـاد ترتـوليـانو مـاكـسـيـمـو آفـونسـو إلـى القـاعـة، جلسَ على الأريكة واسـتـنـد إلـى المسند مـغلقـاً عـينيْه، لم يتحـرّك خـلال سـاعـة، ولكنه على العكس مما كـان يمكن لـنـا أن نظـنّ لم ينم، تركَ

فقط لسيارته العتيقة الوقتَ لتخرج من المدينة. فكر بماريا دا باز دون حزن، كما لو أنّها شخص كان يتلاشى شيئاً فشيئا فى البعيد، فكر بأنطونيو كلارو كما لو أنّه عدوّ كان قد انتصر فى المعركة الأولى، لكنه سينهزم فى الثانية لو كان لا يزال قليل من العدالة باقياً فى هذا العالم. كان نور المساء قيْدَ الأفول، لا بدّ وأنّ سيارته قد تركت الشارع الرئيسى، وربما اتجهت فى الطريق القصير الذى يتلافى عبورَ المنطقة المعمورة، فى هذه اللحظة تتوقفُ أمام البيت، أخرجَ أنطونيو كلارو مفتاحاً من جيبه، ذلك المفتاح لم يكن بوسعه أن يتركه فى بيت ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، سيقول لماريا دا باز أنه أعيرَ له من قبل مالك البيت، لكن هذا لا يعرف بالطبع أننا سنقضى الليلة هنا، إنه رفيق الدراسة، شخص جدير بالثقة، لكن ليس إلى الحدِّ الذى أقصّ عليه حياتى، انتظرينى هنا قليلاً، سأذهب لأرى إذا كان كلُّ شىء على ما يرام فى الداخل. سوف تتساءل ماريا دا باز ماذا يمكن ألا يكون على ما يرام فى بيت ريفىّ للإيجار، لكن قبلة من ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، واحدة من هذه القبل العميقة التى تطوِّع لك المرأة، ستحوّل انتباهها وخلال الدقائق القليلة التى سيدومها غيابه فتتت بجمال المنظر، الوادى، والخط القاتم لأشجار الحور والدردار الذى يتبع مجرى النهر، الجبال فى البعيد، الشمس التى مسّت من قبل أعلى قمّة فيها. حزر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ذلك الذى نهض لتوّه من على

الأريكة، ما كان أنطونيو كلارو يفعله فى الداخل، استعرض ببرودة ما يمكن أن يخونه، بعض الإعلانات عن الأفلام، لكنّ الخطر لن يأتى منها، إنه سيتركها حيث هى، إن أستاذاً ما يمكن أن يكون هاوياً للسينما، كانت الصخرة هى هذه الصورة له إلى جانب هيلينا على منضدة فى المدخل. ظهر أخيراً على العتبة وناداها، يمكنكِ أن تأتى، كانت هناك ستائر قديمة مكوّمة على الأرض تعطى مظهراً قبيحاً للبيت. خرجت من السيارة، سعيدة، وصعدت بسرعة الدرجات على المدخل، انغلقَ البابُ بصخب، كان يمكن لذلك أن يظهر للوهلة الأولى قلة احترام ذميمة، لكن لا ننسى أنَّ البيت منعزل، دون جيران لا قريبين ولا بعيدين، ويجب علينا بالإضافة إلى ذلك أن نبدو متفهّمين، فالشخصان اللذان دخلا لتوّهما لديهما مهامّ أخرى أشدّ إلحاحاً من الاهتمام بصخبِ بابٍ ينغلق.

جمع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من على الأرض، حيث سقطت، صورة الرسالة التى حملها أنطونيو كلارو، ثمّ فتح درج المكتب حيث وضع جواب شركة الإنتاج، واتجهَ، حاملاً الورقتين بيد، بالإضافة إلى الصورة التى أخذها لنفسه مع اللحية، نحو المطبخ. وضعها فى المَجْلى، وقرّب منها عود كبريت مشتعلا وتأمّل العملَ النشيطَ للنار، اللهبَ الذى كان يعلكُ ويبتلعُ الورق يعيد بصقه رماداً، اللمعات السريعة التى كانت تتعنت فى عضّه حين كان اللهب يبدو منطفئًا

هنا أو هناك. حرّك ما كان لا يزال باقياً لكى ينتهى كل شىء فى الاحتراق وبعد ذلك فقط جعلَ الماء ينسكبُ من الحنفيّة حتى اختفت آخرُ ذرّة من الرماد فى المجارى. ثم ذهب إلى الغرفة، سحبَ أفلام الفيديو من الخزانة حيث خبأها وعاد إلى القاعة. كانت ملابس أنطونيو كلارو التى كان حملها من الحمّام مُكوّمة على الكرسىّ ذى المسند المنجّد، تعرّى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كليّاً، رسم تكشيرة قرف وهو يلبس الملابس الداخليّة التى كان الآخرُ يلبسها، لكنه لم يكن يملك الخيار، فالضرورة، التى هى أحد الأسماء المستعارة للقدر حين يتوجّب عليه أن يتنكر، كانت تفرضُ عليه أن يلبسها. الآن وهو يجد نفسه متحوِّلاً فى النسخة الأخرى من ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يعد باقياً عليه إلا أن يتحوّل إلى أنطونيو كلارو الذى كان أنطونيو كلارو نفسُه قد هجره. حين سيعود بدوره غداً ليستعيدَ ملابسه، لن يستطيع أنطونيو كلارو الخروج إلى الشارع إلا تحت ملابس ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، يجبُ عليه أن يكون ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ما دامت ملابسه هو، هذه أو سواها، لا تعيدُ له هوية أنطونيو كلارو، لا يزال اللباسُ، شئنا أم أبينا، أفضلُ المُتاح لجعل المرء راهباً. اقترب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من المنضدة التى ترك عليها أنطونيو كلارو أشياءه الشخصية وأنجز بصورة منهجية عمله فى التحويل. بدأ بساعة اليد، وزلق خاتم الزواج فى بنصر يده اليسرى، وأدخلَ فى

أحد جيبىَ البنطال المشطَ والمنديلَ مع حرف أ ك، وفى الجيب الخلفى أوراقَ الهوية التى يجب أن تشهد فى حالة الشك بأنه هو أنطونيو كلاروو إنه جاهزٌ للخروج، لم يبق عليه إلا اللمسة الأخيرة، اللحية المستعارة التى كان يضعها أنطونيو كلارو حين دخل هنا، نكاد نقول إنه كان قد حزرَ أنها ستكون ضرورية، ولكن لا، كانت اللحية قد انتظرت فقط حدوث صدفة، إذا كانت الصدفُ تنتظر سنوات لكى تحدث، ففى مرّات أخرى تتزاحم إحداها وراء الأخرى، فى طابور. ذهب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى الحمّام ليستكمل تنكرَه، صارت اللحية من كثرة ما ثبِّتت وانتزعت، من كثرة ما تنقلت من وجه إلى وجه، تلتصقُ بصورة سيئة، وهى توشكُ من الآن فصاعداً أن تظهر فى هيئة مريبة لأول نظرة خاطفة من عين ثاقبة لموظفٍ من قواتِ الأمن أو أمام الحذر الآلى لمواطن وجل. انتهت أخيراً على كلِّ حال إلى الالتصاق علىً الجلد كيفما اتفق، ويلزمها الآن الوقت الكافى فقط لكى يعثر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على سلة مهملات فى مكان غير مأهول كثيراً. ستنهى اللحية المستعارة قصتها الوجيزة المضطربة فيها، وفيها ستنتهى أيضاً أفلام الفيديو وسط البقايا الفاسدة وفى الظلمات. عاد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى القاعة، نظرَ من حوله ليطمئنّ إلى أنه لم ينسَ شيئاً يمكن أن يحتاج إليه، ثمّ دخل غرفته، الكتابُ حول حضارات بلاد ما بين النهرين موضوعٌ على منضدة

السـرير، ليس هناك أىّ سـبب لكى يحمله معـه، لكنّه سيفعل مع ذلك، فالعقل الإنسانى غير قابل للفهم، هل يحتاج ترتوليانو ماكسيمو أفونسو حقاً إلى صحبة الساميين العموريين والآشوريين فى حين أنه سيكون عائداً إلى بيته فى أقلٍّ من أربع وعشرين ساعة. ليحدث ما يحدث، همسَ لنفسه، لا مجال للتردّد، ما يجب أن يكون سيكون، من المستحيل الإفلات منه. الوجه الأحمر هو هذا الباب الذى ينغلق، هذا السلم الذى يجب النزول عليه، هذه الخطوات التى تقود إلى السيارة، هذا المفتاح الذى يفتحها، هذا المحرّك الذى يجعلها تنزلق بهدوء على طول الطريق، لقد ألقيت حجار النرد، ولتقرّر الآلهة. إنه شهر أغسطس، الجمعة، قلة من السيارات وقلة من المشاة يمرّون، كان الشارع الذى يتجه إليه بعيداً وفجأة كان شديدَ القرب، كان الليلُ قد أطلّ منذ أكثر من نصف ساعة. ركن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو السيارة فى مواجهة العمارة. نظرَ قبل أن يخرج منها إلى النوافذ، لم تكن هناك واحدة مضاءة. تردّد، وتساءل، والآن، ماذا أفعل، فردّ عليه العقل، **هيّا**، ولوّ، لا أفهم هذا التذبذب، إذا كنت فعلاً أنطونيو كلارو كما تريدُ أنْ تحملَ على الاعتقاد، فليسَ عليكَ إلا الصعود بهدوء إلى شقتك وإذا كانت الأنوار مطفأة فمن المؤكد أن ثمة تفسيرًا لذلك، ولاحظْ أنها ليست الوحيدة فى العمارة، وبما أنك لستَ قطاً يرى فى الظلام فلا بدّ لك من أن تضيئها، هذا بافتراض أنه لسببٍ نجهله لا أحدَ

ينتظركَ أو بالأحرى نعرفُ جميعاً لماذا، تذكر ما قلته لزوجتك، إنه بسبب عملك يجبُ عليك قضاءَ الليلة خارجاً، الآن واجه النتائج. اجتاز ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الشارع، والكتاب حول سكان بلاد مابين النهرين تحت ذراعه، فتح باب العمارة، دخل فى المصعد، ورأى أنه لم يكن وحيداً، قال له الحسّ المشترك، مساء الخير، كنتُ أنتظرك، كان حتميّاً أن تظهر، ما الذى حملك على المجىء هنا، لا تتصنع السذاجة، تعرفُ السببَ تماماً مثلما أعرف، لكى تنتقم، بسبب الثأر، لكى تضاجع زوجة عدوّك، بما أن امرأتك موجودة فى السرير معه، بالضبط، وبعد ذلك، بعد ذلك، لن تتصوّر ماريا دا باز أبداً أنها ضاجعت الشخص الخطأ، والذين هنا، الذين هنا سوف يتوجّب عليهم أن يعيشوا الجزء الأشدّ رعباً من المأساة - الملهاة، لماذا، إذا كنتَ الحسّ المشترك فيجبُ عليك أن تعلم ذلك، إننى أفقد بعض ميزاتى فى المصاعد، عندما سيعود أنطونيو كلارو إلى بيته غداً سيعسُرُ عليه أشدّ العُسّر أن يشرح لزوجته كيف نجح فى أن يضاجعها بينما كان يعمل خارج المدينة، لم أكن أظنك أبداً قادراً على خطة شيطانية بمثل هذا القدر، إنها خطة إنسانية، يا عزيزى، إنسانية بكل بساطة، الشيطان، من ناحيته، لا يضع خططاً، ثم، لو كان البشر صالحين، لما وُجِدَ أصلاً، وغداً، سأعثر على حجّة للهرب منذ الصباح الباكر، وهذا الكتاب، لا أدرى، سأتركه ربما هنا كذكرى. توقفَ المصعدُ عند

الطابق الخامس. سألَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، هل تدخل معى، إننى الحسّ المشترك، هنا لا مكان لى على الإطلاق، إذًا، إلى وقت متأخر، أشكّ فى ذلك.

ألصق ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أذناً على الباب. لم يكن هناك أى صوت يصدر من الداخل. عليه أن يتصرَّفَ بصورة طبيعية، كما لو أنه ربُّ البيت، لكنّ خفقات قلبه كانت من العنف بحيث إنها كانت تهزّ جسمه كلّه، لن يملكَ الشجاعة فى أن يتقدّم. فجأة بدأ المصعد فى الهبوط، مَنْ هذا الذى يمكن أن يكون، فكر برعب، دون مزيد من التردّد وضع المفتاح فى القفل ودخل، كانت الشقة سابحة فى الظلمة، لكنّ نوراً غامضاً، منتشراً، آتياً بلا شكّ من النوافذ، بدأ فى رسم أركان الشقة ببطء، وفى إبراز أشكالها. تلمّس ترتوليانو ماكسيمو أفونسو الجدار إلى جانب الباب حتى اكتشف مفتاح الضوء. لا شىء يتحرّك فى الشقة، لا يوجد أحد فيها، فكر، يمكننى أن أفتش كلّ شىء. نعم، كان يجب عليه بأسرع ما يمكن أن يتعرّف على الشقة التى ستكونُ شقته لليلة واحدة، ربما منْ ثمَّ له وحده فقط، إذ ربّما سيجدُ نفسه فيها وحيداً، لنتصوّر، مثلاً، أن لهيلينا أقرباء فى المدينة، حينئذ ستفشل الخطة التى وصفها الحسّ المشترك بالشيطانية مثل أىِّ خدعة ذهنية تافهة، كقصر من الورق المقوى ينهار من نفخة طفل. قال فى نفسه، ما أكثر ما تملكُ الحياة من هذه السخريات، فى حين أنها فى الواقع أشد الأشياء المعروفة ضيقَ أفق، ذات

يوم لابدّ وأنّ أحدهم قد قال لها، سيرى إلى الأمام، إلى الأمام دوماً، لا تخرجى أبداً عن الخط، ومنذ ذلك الحين، خرقاء، عاجزة عن أن تستخلصَ هى نفسها نتائج الدروس التى تتفاخر بإعطائنا إياها، لا تفعلُ إلا تنفيذ الأمر الذى تلقته بصورة عمياء، ساحقة على طريقها كلَّ شىء دون أن تتوقف لكىْ تقوّم الخسائر، لكىْ تطلب منّا الصفح، ولو لمرّة واحدة، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد طافَ فى الشقة من أولها إلى آخرها، وكان قد أشعلَ وأطفأ النور، فتحَ وأغلق الأبواب، والخزائن والدروج، لمحَ ملابسَ رجل، وملابس داخليّة نسائية، حميمية ومثيرة، والمسدّس، لكنه لم يلمس شيئاً، كان يريدُ فقط أن يعرف فى أىّ عشٍّ دبابير حشرَ نفسه، أيّة علاقة موجودة بين فضاءات هذه الشقة وما يمكن أن يُرى من الأشخاص الذين يسكنونها، الخرائطُ تتصرف بالطريقة نفسها، إنها تدلّ على الطريق الواجب اتّباعه، لكنها لا تضمنُ الوصول. عندما اعتبر أنّ التفتيش قد استكمل، عندما صار يستطيع من الآن فصاعداً السيْر فى كل مكان مغمضَ العينيْن، جلسَ على الأريكة التى لا بدّ وأن تكون أريكة أنطونيو كلارو وطفق ينتظر، كلّ ما يطلبه هو أن تصل هيلينا، أن تدخل من هذا الباب هناك وأن تراني، أن يمكن لشخصٌ ما أن يشهدَ أننى جرؤت على المجىء هنا، فى الأساس كلّ ما يريدُهُ هو شاهد، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة حينَ وصلت. أما وقد ارتعبت من رؤية الأنوار مشتعلة، فقد

سألت منذ باب الدخول، **أ**هذا أنت، **نـ**عم، إنه أنا، أجاب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بصوت مخنوق. فى اللحظة التالية دخلت القاعة، **مـ**ا الذى جرى، لم أكن أنتظركَ إلا غداً، تبادلا قبلة سريعة بين السؤال والجواب، **تـ**أجّل العمل، وعلى الفور جلس ترتوليانو ماكسيمو آفونسو لأنَّ ساقيه كانتا ترتعدان، بسبب العصبية أو بسبب القبلة. سمع بصعوبة ما كانت المرأة تقوله له، **ذ**هبتُ لرؤية أبوىّ، ونجح فى أن يسأل، **كـ**يف حالهما، فأجابته، **حـ**سنة، ثمّ، **هـ**ل تناولتَ العشاء، **نـ**عم، لا تهتمّى بى، **إ**ننى متعبة، سوف أذهب للنوم، ما هذا الكتاب، اشتريته بسبب فيلم تاريخى سأمثل فيه أحد الأدوار، **أ**هو كتاب مستخدم، إنه ملىء بالتعليقات، **و**جدته عند بائع كتب مستخدمة، خرجت هيلينا، وبعد دقائق عدّة خيّمَ الصمتُ من جديد، كانت هيلينا تنام، كانت البيجاما التى يُفترضُ به لبسَها موضوعة على الوسادة. بعد ساعتين من ذلك كان الرجل لا يزال مستيْقظاً، كان قضيبه هامداً. فتحت المرأة عينيْها، سألت، **أ**لا تنام، **لا**، **لـ**ماذا، **لا** أدرى. حينئذ استدارت نحوه وأخذته بين ذراعيها.

كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أوّل من استيقظ. كان عارياً، كان غطاء السرير والشرشف قد انزلقا من ناحيته على الأرض، تاركاً أحد ثديى هيلينا مكشوفاً، كانت تبدو نائمة نوماً عميقاً، كان نور الصباح، الذى يكاد يتسلل عبر الستائر السميكة، يملأ الغرفة كلها بظلٍّ متألق. لابد وأن الطقس حارٌّ فى الخارج. أحسّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بقضيبه يتمدّد، ويقسو من جديد بشراهة. تذكر آنئذ ماريا دا باز. تخيّل غرفة أخرى، وسريراً آخر، والجسم المستلقى لماريا دا باز الذى يعرفه عن ظهر قلب، وجسم أنطونيو كلارو المستلقى، المطابق لجسمه، وقال لنفسه فجأة أنه وصل إلى غاية الطريق، وأنّ أمامه جدارٌ، يقطع عليه الدرب، جدارًا يرتفع مع لوحة تعلن، هاوية، ممنوع الذهاب إلى أبعد من هنا، ثم لاحظ أنه لا يستطيع الرجوع على أعقابه، وأنّ الطريق الذى جاء منه كان قد تلاشى، وأنه لم يبق له منه إلا المكان الضيق الذى كانت قدماه لا تزالان موضوعتيْن عليه. كان يحلمُ ولم يكن يعرف ذلك. قلق كان أصلاً رعباً

حمله على الاستيقاظ فى اللحظة ذاتها الذى كان فيها الجدار ينهار وحيث كانت ذراعاه، لقد رأينا أسوأ من فكرة جدار يملك ذراعين، تجرّانه نحو الجرف. تناولت هيلينا يده وحاولت أن تطمئنه، هدّئ من روعك، كان ذلك كابوساً، وقد انقضى، إنك هنا فى بيتنا. كان يلهث، ويفوق، كما لو أن السقطة قد أفرغت له رئتيْه مرّة واحدة. اطمئن، اطمئن، كانت هيلينا تردّد، كانت تستندُ على مرفقها، مكشوفة الثديين، وكان الغطاءُ الرقيقُ يرسمُ أسفلَ ظهرها، وانحناءة خصرِها وكانت كلماتها تسقط على جسم الرجل القلق كرذاذ مطر يمسّ الجلد كاللمسة، كقبلة الماء. وبصورة تدريجية، على طريقة غيمة بخارية تعود إلى مكانها الأصلى، عادَ عقلُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو المذعور إلى وعيه المنهك وحينما سألته هيلينا، ماذا كان هذا الحلم السيّئ، احكِ لى، تحدّث هذا الرجل الضائع، الذى كان يصنع المتاهات والذى كان يضلّ فيها، والذى يستلقى الآنَ إلى جانبِ امرأة باستثناء معرفته الجنسية التى يملكها عنها مجهولة منه كليّاً، عن دربٍ لم يعد يملك بداية، كما لو أنّ الخطوات التى كانت قدْ انطبعت عليه كانت قد ابتلعت شيئاً فشيئاً ماهيته التى، أيّاً كانت، تمنحُ أو تعيرُ ديمومة للزمن وبعداً للمكان، والجدار الذى وهو يقطع الممرّ على الواحد كان يقطعه أيضاً على الآخر، والمكانُ الذى تقف عليه القدمان، هاتان الجزيرتان الصغيرتان، هذا الأرخبيل البشرى، الواحدة هنا، والأخرى هناك،

واللوحة المعلنة عن الهاوية، ممنوع الذهاب إلى أبعد من هنا، تذكر، إنَّ مَنْ يحذرك هو عدوّك، شأن هاملت الذى كان يسعه أن يقوله إلى كلاوديوس، عمّه وزوج أمّه، كانت قد استمعت له بدهشة وبشىء من الحيرة، لم يعوّدها زوجها على هذا النوع من التأملات وخاصة على هذه اللهجة، كما لو أنّ كلّ كلمةٍ كانت مصحوبة بمثلها، بضربٍ من الصدى فى كهفٍ مسكون يستحيل فيه تحديدُ مَنْ يتنفس، مَنْ أتى على الغمغمة، مَنْ تنهّد، أخذت فى التفكير بسرور أنّ قدميْها هى أيضاً كانتا جزيرتين صغيرتيْن وأن بالقرب منهما قدمين أخريين ترتاحان وأن الأربعة كلها معاً يمكنُ أن تؤلف، كانت تؤلفُ، سبقَ لها وأن ألفت أرخبيلاً كاملاً، إذا كان الكمال من الآن فصاعداً من هذا العالم وشراشف السرير المحيط الذى قبلت أن تلقى فيه مرساها. هل اطمأننت، سألت، لا أظن أنه يوجد شىء ما أفضل، قال، هذا غريب، هذه الليلة أتيتَ إلىّ كما لم تأت من قبل أبداً، دخلتَ بعذوبة بدت لى فيما بعد معجونة من الرغبة ومن الدموع والتى كانت أيضاً من الفرح، أنينٌ من الألم، طلب للمغفرة، كان هذا كل ذلك ما دمتِ شعرتِ به، من المؤسف، هناك أشياء تحدث ولا تتكرّر، وأخرى تحدث وتحدث من جديد، أتظن، قال أحدهم إنّ من يعطِ الورد مرّة لا يستطيع بعد ذلك أن يعطى أقلّ من الورد، يجب التحقق من ذلك، الآن، نعم، بما أننا عاريان، إنه سبب صالح، سببٌ كاف، حتى وإن لم يكن أفضل الأسباب. تلاقت

الجزر الأربعة، وعاد الأرخبيل للتكوّن من جديد، وانطلقَ البحرُ الهائجُ لمهاجمة الشواطئ الوعرة، لو سمع من فى العلى الصرخات فقد كانت صرخات عرائس البحر التى كانت تركب الأمواج، ولو كان هناك أنين، فلم يكن أنيناً من الألم، ولو طلب أحدهم المغفرة، فليغفر له، الآن وإلى أبد الآبدين. استراحا لحظة وجيزة كلٌّ منهما بين ذراعى الآخر، وبعد قبلة أخيرة، انزلقت من السرير، **لا** تنهض، نم قليلاً أيضاً، سوف أحضِّر طعامَ الفطور.

لم ينم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، كان عليه أن يسرع فى ترك هذا البيت، لا يمكنه أن يعرض نفسه إلى خطر رؤية أنطونيو كلارو يعود إلى بيته أبكر مما كان قد قال، قبل الظهر، تلك كانت كلماته الدقيقة، لنتصوّر أنَّ الأشياء، هناك فى البيت الريفى، لم تجر كما كان يأمل وأنه يعود إلى هنا، متوعّداً، غاضباً على نفسه، لا يكاد يصبر على إخفاء إحباطه فى سلام المأوى، بينما سيقصُّ على زوجته كيف جرى عمله، مبتكراً ليُمَرِّرَ مزاجه السيّئ المنغِّصات الخيالية، والنقاشات المختلقة، والاتفاقات الوهمية، المشكلة أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يستطيع أن يذهب هكذا، يجب أن يعطى لهيلينا تبريراً لا يوقظ شكوكها، لنتذكر أنها لم تكن تملك حتى الآن أىّ سبب لتفكر بأن الرجل الذى ضاجعته واستمتعت به هذه الليلة ليس زوجها وبالتالى، أينَ يجدُ الجرأة على التصريح لها الآن، بعد أن أخفى عنها فوق كل شىء الخبَرَ حتى

اللحظة الأخيرة، بأنّ عليه قضايا ملحّة يجب أن يحلّها فى الخارج فى صباح صيفىٍّ كهذا الصباح، يوم سبت، فى حين أن الانسجام الكامل الذى أتى هذا الزوج على إهدائنا إيّاه يتطلب منطقياً أن يبقيا فى السرير ليستأنفا المحادثة التى انقطعت أو لفعل ما هو أفضل أيضاً. لن تتأخر هيلينا فى الظهور مع طعام الفطور، لقد مضى وقت طويلٌ لم يتناولاه على هذا النحو، معاً، فى حميمية سرير لا يزال مفعماً بروائح عطور الحبّ الخاصة، وسوف يكون مما لا يغفر إضاعة فرصة تتآمر كل الاحتمالات بنشاط، على الأقل تلك التى نعرفها، لكى تكون الأخيرة. فكر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، فكر ولا يزال يفكر، ومن كثرة ما فكر، فإنَّ ما نسمّيه بالطاقة الغريبة للنفس البشريّة بلغت النتيجة التالية عنده، صارت ضرورة الذهاب ضعيفة أكثر فأكثر، وملحّة أقلّ فأقلّ، وفى الوقت نفسه وعلى الرغم من عدم الحذر من كلّ الأخطار المتوقعة، فإنَّ رغبة مجنونة فى أن يشهد شخصيّاً انتصاره النهائى على أنطونيو كلارو تتخذ أكثر فأكثر قواماً فى عقله. بلحمه وعظمه متحمِّلاً النتائج كلّها. **فـ**ليأتِ إذاً وليجدْه هنا، فليغضب، فليَعْصف، فليستخدم العنف، عبثاً ما سيفعل، لاشىء يمكنه أن يخفِّفَ من حجم هزيمته، إنّه يعرف أنّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يملكُ السلاح النهائى، سيكفى أن يطلب منه أستاذ التاريخ هذا الملعون ألف مرّة من أين يأتى فى هذه الساعة وأن تعرف هيلينا

أخيراً كل الجانب الخسيس للمغامرة الباهرة للرجليْن اللذين يملكان الشامة نفسها على الذراع، والندوبَ ذاتها على الركبة وقضيباً ذا طول مطابق واللذيْن صارا اعتباراً من اليوم متساوييْن أيضاً فى تزاوجهما. لابدّ من أن تأتى سيارة إسعاف ربما لكى تتلقى الجسدَ المُحتقرَ لترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكنّ جرحَ المُعتدى عليه، لن يندملَ من ناحيته أبداً، كان يمكن لأفكار الانتقام الوضيعة وليدة دماغ الإنسان المستلقى الذى ينتظرُ طعامَ الفطور أنْ تتوقفَ عند هذا الحدّ، لكن ذلك يعنى تجاهلَ الطاقة الغريبة للنفسِ البشرية المشار إليها آنفاً، أو، إن فضّلنا أن نعطيها اسماً آخر، الإمكانيّة فى أن تظهر مشاعرٌ ذات نبل مهجور، أن يظهرَ سلوكٌ فروسىّ جديرٌ بالثناء قلما تناضل بعض السوابق الشخصية الذميمة كلّيّاً لصالحه. ومهما أمكن أن يبدو ذلك غريباً بهذا القدر، فإنّ الرجل الذى هجر ماريا دا باز لأحضان أنطونيو كلارو عن جبنٍ أخلاقىّ، خوفاً من أن تُعْرَفَ الحقيقة، هو الرجل نفسه الذى يستعدّ لتلقى أكبر ضربة فى حياته والذى يفكر فوق ذلك أنّ من أدقّ واجباته هى ألا يترك هيلينا وحيدة فى الوضع الحرج الذى تجد نفسها فيه، مع زوج إلى جانبها وآخرَ يتقدمُ على عتبةِ الباب. النفسُ البشرية علبةٌ يمكنُ أن يخرج منها على الدوام مهرّج مُكشّرٌ يخرج لنا لسانه، لكنّ هذا المهرّج نفسه أحياناً يقتصرُ على النظر إلينا من فوق أطراف العلبة وإذا رأى أننا نتصرّف حسبَ ما هو صحيحٌ ومشرّف،

فإنه يوجّهُ لنا علامة الموافقة برأسه ويختفى وهو يقول لنفسه إننا لسنا حالة ميئوساً منها كلّيّاً. بفضل القرار الذى أتى على أخذه، مسح ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من سجله العدلى بعض الهفوات، لكن لا يزال عليه أن يتعذب كثيراً قبل أن يبدأ الحبر الذى يحتفظ بهذه الأخطاء الأخرى فى الشحوب على ورق الذاكرة الحبّار. يُقال غالباً، **فـ**لنعط الوقتَ للوقت، لكن يُنسى دوماً السؤال، **هـ**ل هناك وقت لكى يُعطى. دخلت هيلينا مع طعام الفطور فى اللحظة التى كان فيها ترتوليانو ماكسيمو أفونسو ينهض، **أ**لا تريد أن تتناوله فى السرير فى النهاية، وأجاب لا، كان يفضلُ الجلوسَ بصورة مريحة على الكرسىّ بدلاً من وجوبِ مراقبةِ الصينيةِ المهتزة، والفنجان المنزلق، وسيلان الزبدة الدهنى، والفتات الذى يتسرب بين طيّات الشراشف ويبقى حتماً فى أكثر الأماكن حساسية من الجلد. ألقى هذا الخطاب لكى تبدو عليه هيئة اللوذعى والمزاج الرائق، لكن هدفه الوحيد كان أنْ يخفى همّه الجديد الذى كان يداهمه، أىّ إذا وصلَ أنطونيو كلارو بغتة هنا، فلكى لا يفاجئنا على الأقلّ فى السرير الزوجى ونحن نعضعض بصورة شهوانية الكعك والبسكويت، إذا وصلَ أنطونيو كلارو بغتة هنا، فليجدْ على الأقلّ سريرَهُ مرتباً وغرفته مُهوّاة، إذا وصلَ أنطونيو كلارو بغتة هنا، فليكتشفنا على الأقلّ وقد اغتسلنا، وتسرَّحنا ولبسْنا كما يجب، لأنه على صعيد المظاهر كما هو الحال مع الرذيلة، ما دمنا فى قلبها

ولا نرى الوسيلة لتلافيها ولا حتى الفائدة الحقيقية من القيام بذلك، فلتثنِ على الفضيلة على الأقل من وقت إلى آخر، ولو لم يكن إلا على الصعيد الشكلى، من المشكوك فيه جداً على كلٍّ حال أن يستحقَّ الأمرُ عذابَ الطلبِ منها أكثر من ذلك.

كان الصباح قد تقدّم بقدر، وتجاوزت الساعة العاشرة والنصف. ذهبت هيلينا لشراء بعض الحاجيّات وهى تقول، إلى اللقاء، مع قبلة، بقية فاترة ولا تزال تواسى من انفجار المشاعر الذى كان جمعَ وألهبَ بصورة غير شرعية هذا الرجل وهذه المرأة خلال الساعات الأخيرة. الآن، وهو جالس على الأريكة، والكتاب حول حضارات بلادِ مابين النهرين القديمة مفتوح على ركبتيْه، ينتظر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يصل أنطونيو كلارو وبما أنه رجل يترك لخياله العنان فقد تصور أنّ المُسَمّى كلارو وزوجته يمكن أن يلتقيا فى الشارع وأن يصعدا معاً لتوضيح هذه العقدة مرة وإلى الأبد، هيلينا محتجّة، أنتَ لستَ زوجى، زوجى فى البيت، إنه جالس هناك فوق، أنتَ، أنت أستاذ التاريخ الذى سمَّم حياتنا، وأنطونيو كلارو مقسم، أنا هو زوجك، أما هو فهو أستاذ التاريخ، انظرى قليلاً فى الكتاب الذى يقرؤه، هذا الشخص هو أكبر كذاب فى العالم، وهى، بلهجة قاطعة وساخرة، نعم، نعم، ولكن تفضّل أولاً بأن تشرح لى لماذا يتواجد خاتم الزواج فى بنصره هو لا فى بنصرك، عادت هيلينا وحدها لتوّها مع مشترياتها

وكانت الساعة تجاوزت الحادية عشرة. سوف تسأله عمّا قريب، عندك هموم، وسيجيب، **لا**، من أين أتتك هذه الفكرة، وستقول، **فى** هذه الحالة لا أفهم لماذا تنظر دون توقف فى ساعتك، وسيجيب بأنه لا يعرف لماذا، تلك عادة، ربما إنه معصّب قليلاً، **تصوّرى** أن يُعهَدَ إلىّ بدور الملك حمورابى، ستجتاز مسيرتى المهنية كممثل آنئذ منعطفاً حاسماً. دقت الساعة الحادية عشرة والنصف، خلال ربع ساعة ستكون الساعة ظهراً، ولا يزال أنطونيو كلارو لم يصل، كان قلب ترتوليانو ماكسيمو أفونسو مثل حصان جامح يرسلُ الركلات من كلّ الجهات، كان الفزع يعقد له لسانه ويصرخ فيه أنه لا يزال لديه الوقت، انتهز فرصة أنها هناك واهرب، لا يزال لديك عشر دقائق تقريباً، لكن انتبه، لا تأخذ المصعد، انزل بواسطة السلم وانظر من حولك يمنة ويسرة قبل أن تضع قدميْك فى الشارع، صار الوقت ظهراً، كانت ساعة القاعة ترسل الدقّات ببطء، كما لو كانت لا تزال تريد أن تعطى لأنطونيو كلارو إمكانيّة أخيرة فى الظهور، فى أن يحترم كلمته، ولو لم يكن إلا فى الثانية الأخيرة، مع أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يملك شيئاً يكسبه من إرادة خداع نفسه بنفسه، إن لم يأت حتى الآن، فلن يأت أبداً. أىّ شخص يمكن أن يتأخر، عطل سيارة، دولابٌ مضروب، يحدث هذا كلّ يوم، ولا أحد فى ملجأ من هذا النوع من الحوادث المؤلمة. اعتباراً من الآن، كلّ دقيقة ستكون احتضاراً، ثمّ يأتى

دوّر الارتباك، والقلق وستخطر له، بصورة حتمية فكرة، بافتراض أنه تأخر، نعم، تماماً، تأخر، فبمَ تفيدُ الهواتف إذًا، لماذا لا يهتف ليقولَ إن محرّك النقلات قد انكسر، أو علبة السرعة، أو ممرّ التهوية، كلّ ما يمكن أنْ يحدث لسيارة عتيقة منهكة كهذه السيارة. مضت ساعة أخرى، ولا ظلّ لأنطونيو كلارو وحين جاءت هيلينا لتعلن أن طعام الغذاء جاهز، قال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إنه ليس جائعاً، فلتأكل وحدها وإنهُ فوقَ ذلك يجبُ عليه أن يخرج بصورة حتمية. أرادت أن تعرف لماذا وكان بوسعه أن يردّ عليها إنه لم يكن متزوّجاً وأنه بالتالى ليس عليه أن يقدّم لها الحسابات بمناسبة ما يفعله أو ما لا يفعله، لكن لحظة وضع كلّ الأوراق على المنضدة والتصريح بكلّ شىء لم تكن قد حانت بعد، حتى أنه اقتصر على الإجابة بأنه سوف يقصُّ عليها فيما بعد، وعدٌ يملكه ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على رأس لسانه دوماً ويحترمه، حين يحترمه، بصورة متأخرة وبصورة سيّئة، يمكن لأمّه أن تشهد على ذلك، وماريا دا باز أيضاً، التى لا أخبار عنها لدينا. سألته هيلينا إن لم يكن عليه أن يغيّر ملابسَه ووافق، فى الحقيقة إنّ ما كان يلبسه لم يكن مناسباً لما كان عليه أن يقوم به، وسيكون من الأنسب أن يلبس طقماً عادياً، جاكت وبنطال، لستُ سائحاً ولا أذهبُ إلى الريف مصطافاً. بعد خمس عشرة دقيقة خرج، ورافقته هيلينا حتى المصعد، كان انفجار معلن عن البكاء يلمع فى عينيّها،

ولن يكون لدى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وقت لوضع قدمه فى الشارع حتى انهارت باكية، مكرّرة السؤال الذى بقى حتى الآن بلا جواب، ما الذى يحدث، ما الذى يحدث إذاً.

دخل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو السيارة، كانت فكرته الأولى أن يذهبَ من هنا، أن يذهبَ ليركن السيارة فى مكان هادئ لكى يفكر جدّيّاً حول الوضع، ولكى ينظم الفوضى التى تتزاحم فى رأسه منذ أربع وعشرين ساعة، وأن يقرّر ما الذى سيفعله، انطلق وكفاهُ أنْ يستديرَ عند منعطف الطريق ليفهم أنه لا يحتاج إلى التفكير، كان يجبُ عليه بكل بساطة أن يهتف إلى ماريا دا باز، أمرٌ لا يُصَدّق ألا تكون هذه الفكرة قد واتته من قبل، ذلك ولا شك لأننى كنتُ حبيسَ هذه الشقة دون إمكانية استخدام الهاتف. عثرَ على مقصورة هاتف على مسافة مئات عدةٍ من الأمتار بعيداً. أوقفَ السيارة، ودخل بقفزة فى المقصورة وأدارَ القرص بسرعة على الرقم، كانت الحرارة خانقة فى المقصورة، لم يتعرّف على صوت المرأة التى أجابته. أودّ التكلم مع ماريا دا باز، قال، نعم، من المتكلم، إننى زميل لها، من المصرف حيث تعمل، الآنسة ماريا دا باز ماتت هذا الصباح فى حادث اصطدام سيارة، كانت مع خطيبها وماتا كلاهما، إنها مصيبة، مصيبة كبيرة. فى لحظة كان جسم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يغرق فى العرق من الرأس إلى القدميْن، تلفظ ببعض كلمات لم تفهمها المرأة، ماذا تقول، ماذا قلت، بعض

كلمات لم يعد يتذكرها ولن يتذكرها، سينساها إلى الأبد، دون أن يفطن إلى ما كان يفعل، وشأن إنسان آلىّ قطع عنه التيّار فجأة، ترك السمّاعة تسقط. بلا حراك فى تنّور المقصورة، كان يسمع كلمة، واحدة، يرنّ صداها فى أذنيّه، ماتت، لكنّ كلمات أخرى جاءت على الفور لتحلّ محلّها، لقد قتلتها، لم يكن أنطونيو كلارو مَنْ قتلها بسلوكه المتهوِّر، بافتراض أنهُ كان فى أصل الحادث، لقد قتلها هو، ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إنها استقالته المعنوية التى قتلتها، إرادةٌ جعلته يَعْمَى عن كلِّ ما لم يكن انتقاماً، لقد قيل إن واحداً منهما، سواء الممثل، سواء أستاذ التاريخ، كان زائداً عن اللزوم، ولكن لستَ أنتَ، أنتَ لم تكن زائداً، أنتَ ليس لك نسخة عنك يمكن أن تحلَّ محلّك بالقرب من أمّك، أنتَ كنت وحيداً فعلاً، شأن أىّ امرئ يكون وحيداً، وحيداً وحدة أصيلة. يُقال إن مَنْ يكره نفسه هو وحده من يكره الآخر، لكن أسوأ ضروب الكراهيّة يجب أن تكون الكراهيّة التى تحثُّ على عدم تحمّل المساواة مع الآخر وعلى عدمِ تحملها لاسيّما إذا كانت هذه المساواة مطلقة، خرج ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من المقصورة مترنِّحاً مع خطوات سكّير، دخل السيارة بعنف، كما لو كان يرمى نفسه بنفسه فى الداخل وبقى ينظر أمامه دون أن يرى، حتى لم يعد يقدرُ على ذلك أبداً وحتى هزّت الدموع والانتحاباتُ صدرَه. فى هذه اللحظة يحبّ ماريا دا باز كما لم يحبّها من قبل أبداً وكما لنْ يحبّها فى

المستقبل أبداً، والألمُ الذى يحسّ به آتٍ من أنّه فقدَ ماريا دا باز، لكن الوعى بذنبه يثقلُ ببطءٍ على جرح لن يكفّ أبداً عن أن ينزوى القيح والخراء. أشخاصٌ عدةٌ كانوا ينظرون إليه بهذا الفضول المجّانى والعاجز الذى لا يقدّم خيراً ولا شرّاً، لكن أحدهم اقترب منه وسأله إن كان يستطيع مساعدته فى أىِّ شىء وأجاب **لا**، شكراً جزيلاً، وضاعفَ هذا الشعور بالعرفان انتحاباته، كما لو وُضِعَت يدٌ على كتفه وقيل له، **صبراً**، فمع الزمن سيزول حزنك، هذا صحيح، مع الزمن كل شىء يزول، لكنّ هناك حالات يتأخر فيها الزمن عن منح الألم الوقتَ لكى يتعبَ، وكانت هناك حالات وستكونُ هناك أخرى، أشدّ ندرة لحسن الحظ، لم يتعب فيها الألمُ ولم يمرّ فيها الزمن، استمرّ على هذا الحال حتى لم يعد لديه أبداً دمع يذرفه، حتى قرّر الزمن أن يتحرّك من جديد ويسأله، **والآن**، إلى أين تفكر فى الذهاب، وها هو ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، وقد تحوّل على وجه الاحتمال الشديد إلى أنطونيو كلارو طوالَ ما بقى من أيّامه، قد فهمَ أنه لم يعد لديه أى مكان يلجأ إليه. قبل كلِّ شىء، الشقة التى كان ينعتها بشقته من قبل تعود إلى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وترتوليانو ماكسيمو أفونسو مات، ثم إنه لا يستطيعُ الذهاب إلى الشقة التى هى ملك أنطونيو كلارو والقول إلى هيلينا إنّ زوجَها مات، لأنهُ فى نظرها أنطونيو كلارو، وأخيراً، بالنسبة إلى شقة ماريا دا باز التى لم يسبق أن دُعِىَ إليها أبداً، لا

يستطيع الذهاب إليها إلا لتقديم عزائه غير المفيد لأمٍّ مسكينة يتيمة بموت ابنتها، سيكونُ من الطبيعى أن يفكر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى هذه اللحظة بأمٍ أخرى لابدّ وأن تكون، إن صارتْ على علم بالخبر الأليم، هى أيضاً فى طريقها لذرف الدموع التى لا تواسى لأمٍّ يتيمة، لكنّ الوعىَ الثابتَ جيداً فى أنه بينه وبين نفسه كانَ وسيبقى على الدوام ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وأنه بالتالى حىٌّ بوصفهِ ترتوليانو ماكسيمو آفونسو كانَ لا بدّ قد كبحَ مؤقتاً ما كان على وجه اليقين يمكنُ أن يكونَ اندفاعاً أوّلياً فى ظروفٍ أخرى، لا يزال يجب عليه فى الوقت الحاضر أنْ يعثرَ على جوابٍ عن السؤال الذى بقى مؤجّلاً، والآن، إلى أين تفكر فى الذهاب، صعوبةٌ هىَ، والحقُّ يُقال، مِنْ أسهلِ المصاعب على الحلِّ فى مدينةٍ لا تحتاجُ حتى إلى أنْ تكون الحاضرة الكبرى التى هى إياها، مع فنادق ومنتجعات لكلِّ الأذواق ولكلِّ القدرات المالية، إليها إنما يجبُ أن يذهب، وليس فقط لقضاء عدد من الساعات كىْ يحمى نفسه من الحرِّ وأن يبكى حتى الثمالة. شىءٌ أن يكون قد ضاجع الليلة السابقة هيلينا، عندما لم يكن القيام بذلك إلا مجرّد ردٍّ فى لعبة، إذا ضاجعتَ امرأتى، سأضاجعُ امرأتكَ، العينُ بالعين، والسنُّ بالسنّ، كما يأمر قانون القصاص، الذى لم يُطبَّق أبداً مع هذا القدْر من المبررات كما يُطبَّق فى هذه الحالة، لأنّ الكلمة الحالية talion تحمل الدلالة نفسها التى يحملها جذرها

اللاتينيtalis الذي اشتقت منه، وبالتالي إذا كانت الجنحُ المرتكبة متطابقة، فمتطابقان ذلكما اللذان ارتكباها. شيءٌ، ليسمحَ لنا بالعودة إلى بداية جملتنا، شيءٌ كان قضاء الليلة مع هيلينا عندما لم يكن أيّ شخص يمكن أنْ يحزرَ أنَّ الموت كان يستعدّ للقيام بعمله كي ينتصرَ في الشطرنج، وشيءٌ آخرَ سيكونُ، مع معرفة أن أنطونيو كلارو قد مات، وهذا حتى لو أنّ الصحف قالت غداً إنَّ المتوفى يُدّعى ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذهابُ لقضاءِ ليلة ثانية معها، بتنضيدِ خدعةٍ أخرى فوق الأولى، أسوأ أيضاً. نحن البشر الآخرين، على الرغم من أننا نستمرّ في كوننا على درجات مختلفة حيوانات بقدر ما كنا قديماً، نملكُ بعضَ المشاعر الطيبة، بل وأحياناً بقيّة أو بداية احترام لأنفسنا، وهذا الترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذي تصرّفَ في أغلب الأحوال بطريقة تبرِّرُ نقدنا الأشدّ لذعاً لن يجرؤ على القيام بالخطوة التي ستحكمُ عليه في نظرنا حكماً نهائيّاً. سيعملُ إذاً على البحث عن فندق وسنرى غداً، أطلقَ محركَ السيّارة واتجه نحو المركز حيث سيكون الخيار أكبر، سيكتفي في نهاية المطاف بفندق صغير بنجمتيْن، فقط من أجل ليلة واحدة، ومن يقولُ لي إنهُ سيكون فقط من أجل ليلة واحدة، فكر، أين سأذهب للنوم غداً، وبعد، وبعد، وبعد. للمرّة الأولى بدا له المستقبلُ مثل مكان حيث لا يزال الناس على وجه اليقين بحاجة إلى أستاذ تاريخ، ولكن لا إلى هذا الأستاذ، حيث الممثل

دانييل سانتا ـ كلارا لن يستطيع إلا أن يتخلى عن مسيرة مهنية كانت تتجلى حسنة جداً، حيث سيتوجبُ اكتشافُ نقطة توازن بين ما كان والاستمرار فيما هو كائن، من المريح يقيناً أن يقول لنا وعينا، أعرف من أنت، لكنه هو نفسه سيبدأ ربما فى الشكِّ بنا وبما يقوله لو اكتشف أنّ أناساً فى الخارج يطرحون على أنفسهم بالتبادل السؤال المحرج، وهذا الذى هناك، مَنْ هو. الأوّل الذى كانت له فرصة الإعلان عن هذا الفضول العام كان موظف الاستقبال فى الفندق حين دعا ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى تقديم بطاقة هوية، ويجبُ شكر السماء أنه لم يسأله أولاً عنْ اسمه لأنه كان يسعه تماماً أن يحدث بقوّة العادة أن يتركَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو يفلتُ منه الاسمُ الذى كان اسمُه خلال ثمانية وثلاثين عاماً والذى يعود الآن إلى جسم مُدمّر ينتظر فى غرفة مبرّدة ما تشريحاً هو القاعدة بالنِّسبة إلى ضحايا حوادث السيِّر، بطاقة الهوية التى قدّمها تحمل اسم أنطونيو كلارو، والوجهُ على الصورة الفوتوجرافية هو الوجه نفسه الذى يراه موظف الاستقبال أمامه والذى سيبدأ فى فحصه بانتباه لو كان هناك سببٌ صالحٌ لذلك، لم يكن هناك سبب، وقّع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو استمارة الفندق، تكفى فى هذه الحالات مجرّد خربشة تشبه بصورة غامضة التوقيع الرسمى، معه مفتاح الغرفة فى يده، كان قد صرّح بأنه ليس لديه حقائب ولكى يؤكد على احتمالٍ لم يضعه أحدٌ موضعَ شكٍّ شرَحَ أنّه

فوّت عليه الطائرة، وأن حقائبَهُ موجودة فى المطار وأنه من أجل ذلك لن يبقى سوى ليلة واحدة. غيّر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو اسمَهُ، لكنه يستمرّ فى أن يكون الشخص نفسه الذى رافقناه فى مخزن أفلام الفيديو، الذى يتكلمُ دائما أكثر مما يجب، الذى يعجزُ عن أن يكونَ طبيعياً، لحسن الحظ أنَّ للموظف مشاغله الأخرى، الهاتف الذى يرنّ، الأجانب الذين وصلوا لتوّهم، مثقلون بالحقائب والأكياس. صعد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى غرفته، أخذ راحته، وذهب إلى الحمام ليفرغَ مثانته، فيما عدا تفويته الطائرة، كما قال للموظف، لم يكن يبدو عليه أنه مشغول بهموم أخرى، على الأقلّ مادام لم يستلق على السرير بهدف أن يرتاح لحظة، لكن خياله قدّم له على الفور سيارة استحالت إلى كومة من الحديد تحتوى جسميْن مُدَمّريْن، يدميان بصورة تثير الشفقة، عادت الدموع، والانتحابات أيضاً ووحده الله يعرف كم كان سيدوم ذلك لو لم تبرز فجأة فى دماغه المضطرب ذكرى أمّه المجروحة، جلس بقفزة واحدة، أمسك بالهاتف وهو يشتم نفسه ذهنياً، إننى لكَعٌ، سفيهٌ، أحمقٌ كامل، غبىّ، أهبل تامّ، كيف أمكننى ألا أفطِن إلى أنّ الشرطة سوف تذهب للطرق على بابى، لكى تسأل الجيران إن كان لى أسرة، وأنّ جارة الطابق العلوى ستعطيهم عنوانَ ورقمَ هاتف أمّى، كيف أمكننى أن أنسى شيئاً يمثلُ أمامَ العينيْن، كيف أمكننى. لا أحدَ يجيب. كان الهاتف يرنّ، يرنّ، لكن أحداً لا

يقول، آلو، مَن المتكلم، لكى يستطيع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أخيَراً أن يردّ، إنه أنا، إننى حىّ، الشرطة أخطأت، سوف أشرحُ لك، لم تكن أمّه فى بيتها وهذه الواقعة، الغريبة فى ظروف أخرى، لا يمكنها أن تعنى إلا شيئاً واحداً، إنها فى طريقها إلى المجىء، كانت قد استأجرت سيارة تاكسى وهىَ تأتى، بل ربما وصلت أصلاً وفى هذه الحالة كانت قد ذهبتْ تطلبُ المفتاحَ من جارة الطابق العلوى وهى الآن تبكى من الحزن، يا لأمّى المسكينة، التى كانت مع ذلك قد حذرتنى. أدار ترتوليانو ماكسيمو أفونسو رقم بيته هُوَ ولم يكن هناك هذه المرّة أيضاً أحدٌ يجيب، جَهدَ فى التفكير بهدوء، فى أن يطردَ اضطرابه، حتى ولو أبدتِ الشرطة ذات فعالية مثالية، فقد كانت بحاجة إلى الوقت لتبدأ ولتنهى تحقيقها، يجدرُ التذكيرُ بأنَّ هذه المدينة هىَ مَنْمَلَةٌ هائلة فيها خمسة ملايين نسمة يتحرّكون، وأن الحوادث عديدة والمصابين فيها أكثر عدداً،وأنه يجبُ التعرُّفُ على هوية المصابين، ثم البدء بعد ذلك فى البحث عن أسرهم، وهى مُهمَّة ليست سهلة على الدوام لأنّ هناك أناسًا لا يبالون إذ يسافرون على الطرقات دون أن يحملوا فى جيوبهم ورقة تقول، **فى** حالة حادث سيْر، الرجاء الاتصال بفلان أو فلان. من حسن الحظ أن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يؤلف جزءاً من هؤلاء الأشخاص وكذلك فيما يبدو ماريا دا باز، ففى مفكرة كلٍّ منهما، على الصفحة المخصّصة للمعلومات الشخصيّة، تمثلُ كل

المعطيات الضرورية للتعرف على الهوية كاملاً، على كلّ حال من أجل الحاجات الأولى التى تنتهى دوماً إلى أن تكون الأخيرة. لا أحد، باستثناء الخارجين على القانون، لا يتنزه مع أوراق مزيّفة أو أوراق مسروقة من شخص آخر، ومن هنا فمن المشروع أن نستنتج أنَّ ما بدا فى الحالة التى تشغلنا، حقيقيّاً للشرطة هو كذلك فى الواقع، لاسيّما وأننا لا نرى، بما أن هذه الشرطة ذاتها لا تملك سبباً للشكِّ فى هويّة إحدى الضحيّتيّن، لماذا بحقِّ الشيطان يمكنُ أن تشكّ فى هويّة الضحيّة الأخرى، هتف ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من جديد ومن جديد لم يحصل على جواب، لم يعد يفكر أصلاً بماريا دا باز، إنه يريدُ أن يعرف الآن أين كارولينا ماكسيمو، تملكُ سيارات التاكسى اليوم محرّكات قويّة، لم تعدْ أبداً السيارات القديمة التى كانتها، وفى وضع مأساوى كهذا الوضع لم تعُدْ بحاجة لتستحثَّ السائق مع وعدٍ بمنحة إن ضغط على مداسِ السرعة، يجب أن تكون هنا فى أقلّ من أربع ساعات وبما أننا يوم سبت فى قلب فترة الإجازات وأنه ليس هناك تقريباً من سيّر فى الشوارع، فلا بدّ من أن تتواجد فى بيت ابنها وأن تبدّد قلقه. هتفَ ثانية وفى هذه المرّة، دون أن يتوقّع ذلك، انطلق المجيب الآلى، أنتم فى اتصال مع ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، تفضلوا بإيداع رسالة، كانت الصدمة قويّة، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من الاضطراب بحيث لم يلاحظ أن آليّة المجيب الآلى لم

تنطلق في السابق، والآن كان الأمر كما لو كان قد استمع فجأة إلى صوت لم يكن صوته، صوت ميّت مجهول يجب استبداله غداً بصوت حيٍّ ما لكي لا يؤثر على الأشخاص الحسّاسين، عملية مَحْو وإعادة تسجيل تُمارَسُ كلّ يوم آلاف وآلاف المرّاتً في كل مكان من العالم، حتى ولو لم تكن لدينا الرغبة كثيراً في التفكير بذلك. احتاج ترتوليانو ماكسيمو أفونسو لثوان عدّة لكي يستعيد نفسه ويعثر على صوته، ثم قال بارتعاش، يا أمي، ما قيل لك ليس صحيحاً، إنني سليم ومعافٍ، سوف أشرح لكِ فيما بعد ما جرى، أكرّر، إنني سليم ومعافٍ، وسوف أعطيكِ اسم الفندق الذي أقيم فيه، ورقم الغرفة ورقم الهاتف، اهتفي لي ما إن تصلي، لا تبكي أبداً، لا تبكي أبداً، ربما كرّر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو هذه الكلمات مرّة ثالثة لو أنه هو نفسه لم يذرف الدموع بغزارة مُفكراً بأمّه، وبماريا دا باز التي عادت له ذكراها، وكذلك بفعل الشفقة على نفسه، استسلم منهكاً، للسقوط على السرير، كان يشعر بنفسه هشّاً، ضعيفاً كطفل مريض، تذكرَ أنهُ لم يتناول طعام الغذاء واستثارت هذه الفكرة ، بدلاً من أن تثير شهيته، غثياناً كان من العنف بحيث أنه اضطرَّ إلى النهوض والإسراع كيفما استطاع إلى الحمّام حيث لم يؤد غثيانه المتعاقب إلا إلى أن تصعد من معدته لعاباً مرّاً عاد إلى الغرفة، وجلسَ على السرير، ورأسه بين يديْه، وترك لأفكاره أن تطفو كما يطفو قاربٌ من الفلين ينزلُ مجرى التيار ويغيِّرُ من

وقت لآخر مؤقتاً اتجاهه حين يصطدم بصخرة ما. بفضل هذا الهذيان نصف الواعى تذكر تفصيلاً مهمّاً كان عليه أن يُعْلِمَ به أمّه. هتف إلى بيته ظاناً أنّ الآلة سوف تهينه من جديد بعدم انطلاقها وتنهّد براحة حين أعطى المجيب الآلى علامة الحياة بعد ثوان عدّة من التردّد، كانت رسالته مقتضبة، اقتصر على القَول، سجّلى إنَّ الاسم هو أنطونيو كلارو، لا تنس، ثم، كما لو أنه اكتشف لتوّه عنصراً ذا أهميّة لتوضيح نهائىّ للهويات القابلة للتبادل وغير المستقرّة، أضاف المعلومة التالية، الكلب يسمّى توماركتوس. عندما ستصلُ أمّه لن يحتاجَ لكى يعيد عليها اسمَ أبيه وجدّيه، وأخواله وأعمامه، لن يحتاجَ إلى الحديث عن ذراعه المكسورة حين كان قد سقط من شجرة التين، ولا عن حُبِّه الأوّل، ولا عن الصاعقة التى كسرت مدخنة البيت حين كان عمره عشر سنوات. لكى تكون كارولينا أفونسو على يقين مطلق من أنّ أمامها ابنُ أحشائها لن تحتاج إلى غريزتها الرائعة كأمّ ولا إلى البراهين العلميّة الناجعة من خلال معرفة الحمض التكوينى، يكفى اسمُ كلبٍ بسيط.

مضى ما يقربُ من الساعة قبل أن يرنّ الهاتف. انتفض، ونهض ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على عجل، متوقعاً سماع صوت أمّه، لكنه كان صوتُ موظف الاستقبال الذى كان يقول، السيّدة كارولينا كلارو هى هنا، إنها تريد التكلم معك، إنّها أمّى، غمغم، سأنزلُ، سأنزل فوراً. خرج راكضاً، وهو يزجرُ نفسَه، يجبُ أن

أستعيدَ نفسى، يجب ألا أبالغ فى التعبير عن حنانى، فبقدر ما نقلل من إثارة الانتباه إلينا بقدر ما يكون ذلك أفضل. ساعدَهُ بطء المصعد على استيعاب دفق عواطفه وكان من ظهرَ فى ردهة الفندق شخص مقبول نسبيّاً كانه هذا الترتوليانو ماكسيمو أفونسو الذى عانق السيّدة العجوز التى، سواءً عن حذر غريزىّ، أو تحتَ تأثير رصانة تقررت فى التاكسى الذى جاء بها إلى هنا، أجابت بتحفظ على علامات حُبِّ الأبناء، دون الحيوية العاطفية الشعبيّة التى تعبر عن نفسها فى جُمَلٍ من نوع، آه يا بنىّ المعبود، وإن كانت الجملة فى حالة المأساة الحالية، آه، يا ابنى المسكين، ستكونُ أكثرَ مناسبة للظرف، توجّب على العناقات، والبكاء التشنّجى انتظارَ أن تكون الأمّ والابن فى الغرفة، وأن يُغلقَ البابُ وأن يستطيعَ الابن المنبعث أن يقول، يا أمّى، ولن تقول هى من الكلمات إلا تلك التى خرجت من قلبها الشكور، أهذا أنت، أنتَ حقاً. ومع ذلك فإنّ هذه المرأة ليست من النوع الذى يكتفى بالقليل، من تلك النساء اللاتى تجعلهنّ قبلة واحدة ينسيْن على الفور شتيمة، لم تطلق والحالة هذه ضدّها رغم ذلك، بل ضدّ العقل والاحترام وكذلك الحسّ المشترك، لكى لا يُقال إننا نسينا مَنْ فعَلَ ما بوسعه لكى لا تنتهى قصّة الرجال المنسوخين إلى مأساة، لن تستخدم كارولينا ماكسيمو هذه الكلمة، ستقتصرُ على القول، شخصان ماتا، الآن، قُصّ علىّ منذ البداية كيف أمكن لذلك أن يحدث ولا تُخْفِ عنّى

شيئاً، أرجوك، انتهى زمن نصف الحقائق، وكذلك زمن نصف الأكاذيب. جرّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو كرسيّاً لأمّه لكى تستطيع الجلوس، وجلسَ هو نفسه على حافّة السرير وبدأ قصّته. منذ البداية، كما طلبت منه ذلك أمّه. لم تقاطعه، مرّتان فقط تغيّر تعبيره، المرّة الأولى حين صرّح أنطونيو كلارو أنه سيصحب ماريا دا باز إلى بيته الريفى لكى يمارس الحبّ معها، والمرّة الثانية حين شرحَ ابنها كيف ولماذا ذهب إلى بيت هيلينا وما جرى هناك بعد ذلك. حرّكت شفتيْها لتقول، **يا** للمجانين، لكنّ الكلمات لم تُسْمَع، حَلَّ المساء، وكانت العتمة تغلف ملامح الواحدِ منهما والآخر. عندما سكت ترتوليانو ماكسيمو آفونسو، طرحت عليه أمّه السؤال الذى لا مفرّ منه، **والآن، الآن** يا أمى، إنّ ترتوليانو ماكسيمو آفونسو الذى ظننته ماتَ والآخرُ، إذا أرادَ أن يستمرّ فى أن يؤلف جزءاً من الحياة، لن يكون له الخيار، إنه لا يستطيع إلا أن يكون أنطونيو كلارو، **و**لماذا عدمُ قولِ الحقيقة، لماذا عدمُ قصٍّ ما جرى، لماذا عدمُ وضعِ الأشياء كلها فى مكانها، **هل** سمعتِ ما جرى، **نَ**عم، وبعد ذلك، إننى أطرح عليك السؤال التالى، يا أمى، هل تفكرين حقاً أن هؤلاء الأشخاص الأربعة، الأموات والأحياء، يجب أن يقذف بهم إلى الساحة العامة مرتعاً لفضول العالم الشرس، ما الذى سنربحه من ذلك، لن يُبْعث الأمواتُ وسَيَبْدأ الأحياء بالموت على الفور، **ما** العمل إذن، **سـ**تشاركين فى دفن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو

المزيّف وستبكين كما لو كان ابنك، ستشاركُ فى ذلك هيلينا أيضاً، لكن أحداً لن يستطيع أن يعلم لماذا، **و**أنتَ، **قـ**لتُ لكِ ذلك من قبل، إننى أنطونيو كلارو، عندما سأضىءُ المصباح، سيكونُ الوجهُ الذى سيظهر وجهُه، لا وجهى، إنّك ابنى، **نـ**عم، إننى ابنكِ، لكنى لا أستطيع أن أكونه، مثلاً فى المدينة حيث ولدتُ، إننى ميتٌ فى نظر الأشخاص الذين يسكنون فيها، عندما نريد أن نرى بعضنا، يجب أن يتمّ ذلك فى مكان لا علم فيه لأىّ شخص بوجود أستاذ تاريخ يُسَمّى ترتوليانو ماكسيمو آفونسو، **و**هيلينا، **غـ**داً سأذهب لأطلبَ منها الصفح ولأعيدَ لها هذه الساعة وخاتم الزواج هذا، **و**للوصول إلى كلٍّ هذا وجبَ أن يموت شخصان، **لـ**قد قتلتهُما وأحدهما ضحية بريئة، لم ترتكب أيةّ خطيئة. نهض ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وذهب ليضىء المصباح كانت أمّه تبكى. صمتا معاً لحظات عدّة، وهما يتلافيان تبادل النظرات. ثمّ دمْدَمَتْ أمّه وهى تجفف جفنيها بمنديلها الرطب، **كـ**اساندرا العجوز كانت على حق، كان عليك ألا تدع الحصان الخشبىّ يدخل، **ا**لآن لا دواء لذلك، **نـ**عم، الآن لا دواء لذلك وفى المستقبل لن يكون هناك دواء أيضاً، سنصيرُ جميعاً أمواتاً. سأل ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد صمت وجيز، **هـ**ل كلّمتك الشرطة عن ظروف الحادث، **قـ**الوا لى إن السيّارة خرجت عن طريقها واصطدمت بشاحنة ضخمة كانت آتية من الاتجاه المعاكس، قالوا لى أيضاً إنه لابدّ وأنَّ الموت كان

متزامناً، هذا غريب، **ما** هو الغريب، **كان** لدىّ الانطباع بأنّه سائق ممتاز، **لابدّ** وأنَّ شيئاً ما قد حصل، **ربما** انزلقت السيارة منه، ربما كان هناك زيت على سطح الطريق، **لم** يكلمونى عن هذا، قالوا فقط إنّ السيّارة كانت قد خرجت عن مسارها ومضت لتصطدم بالشاحنة، عادَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو للجلوس على حافة السرير، نظرَ فى ساعته وقال، **سوف** أطلب من الاستقبال أن يحجزوا لك غرفة ، سنتناول العشاء وستقضين الليلة هنا، **أفضّلُ** العودة إلى الشقة، بعد تناولنا الطعام ستطلب لى سيارة تاكسى، **سوف** أصحبك، لن يرانا أحدٌ، وكيف ستقودنى طالما لم يعد عندك سيّارة، لدىّ سيارته، هزّت أمّه رأسها بحزن وقالت، **سيّارته**، امرأته، لم يعد ينقص إلا أن تعيش أيضاً حياته، **سيجب** أن أكتشف لنفسى حياة أفضل، والآن، أرجوك، لنذهب لتناول شىء من الطعام، ولتتوقف المصائب. مدّ لها يديّه ليساعدها على النهوض، ثم أخذها بين ذراعيّه وقال، لا تنسى أن تمحى الرسائل التى تركتها على المجيب الآلى، يجب أن نكون شديدى الحذر فى هذا النوع من المواقف. عندما انتهيا من العشاء طلبت الأمّ من جديد، **اطلب** لى تاكسى، **سوف** أصحبك، **لا** يمكنك أن تخاطر فى أن تُرى، وفوق ذلك فإنّ مجرّد فكرة الجلوس فى هذه السيّارة تجعلنى أقشعرّ، **سوف** أصحبك فى التاكسى وأعود، **إننى** على قدر كاف من الرشد لكى أتدبّر أمرى وحدى، لا تلحّ. قال لها

ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يتركها، حاولي أن ترتاحي، يا أمّي، فأنتِ بحاجةٍ للراحة، فأجابت، لن نتوصّل يقيناً إلى أن ننام، لا أنتَ ولا أنا.

كانت على حق، فترتوليانو ماكسيمو أفونسو على الأقلّ لم يستطع أن يغلق عينيْه خلال ساعات وساعات، كان يرى السيارة تخرج عن مسارها وتصطدم بالصفيح الهائل للشاحنة، تساءل، لماذا، لماذا مالت عن طريقها بهذه الطريقة، ربما انفجر أحد الدواليب، لا، لا يمكن أن تكون هذه هى الحالة، فما كان للشرطة ألا تتحدّث عن ذلك، السيّارة، وهذا صحيح، تستخدم منذ سنتين بصورة مستمرّة، لكنها كانت موضعَ فحص جدّىّ قبل ما يقارب ثلاثة أشهر ولم يُكتشف آنئذٍ أىّ عيب آلىٍّ أو كهربائىٍّ، نام عند الفجر، لكن نومه دام قليلاً، كانت الساعة السابعة تقريباً حين أيقظته فجأة فكرة أن شيئاً ما ملحّاً كان ينتظره، كان ذلك ولا شكّ زيارته لهيلينا، لكن الوقت كان أبكر من أن يقوم بذلك، ما ذا كان هذا الشىء إذاً، فجأة أضاء النور فى عقله، الصحيفة، يجب أن يرى ما كانت الصحف تقوله، فحادث من هذا النوع، على أبواب المدينة عملياً، لابدّ وأن يحدث ضجة. نهض دفعة واحدة، ولبس على عجل وخرج راكضاً. نظر إليه حارس الليل، لا الموظف الذى كان قد استقبله عشية اليوم السابق، بحذر ووجب على ترتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يقول له، سأذهب لشراء الصحيفة، خوفاً من ألا يفكر الآخر أن الزبون المضطرب كان يستعدّ

للهـرب دون أن يدفع مـا عليـه، لم يكن عليـه أن يذهب بعــيــداً، كــان هنـاك كـشـك على أول منعطف على الطريق، اشترى ثلاث صحف، توجد على الأقلّ واحدة تتحدّث عن الحـادث، وعاد بسـرعـة إلى الفندق، صعد إلى غرفته وطفق يتصفّح باهتياج وهو يبحث عن باب حوادث السيّر. عثر على الخبر فـى الصحيفـة الثالثة فقط. صورة تبيّن حالة حطام السيّارة، وقـرأ ترتوليانو ماكسيمـو آفونسو وهو يرتجف، قـافزاً على التفـاصيل، ذاهباً مباشرة إلى مـا هو جوهرى، أمس، نحـو السـاعـة التـاسـعـة والثـلاثين دقيـقـة صبـاحـاً، حـدث اصطدامٌ عنيف بين سـيـارة سيـاحية وشـاحنة كبيـرة عند مـدخل المدينة تقـريبـاً، كان راكبـا السيارة، فـلان وفـلانة، وقـد تمَّ التعرّف عليهما على الفور بفضل الوثائق التى كانت بحـوزتهمـا، قـد مـاتـا قبلَ وصـولِ الإسـعـاف إليـهمـا. أمـا سـائق الشـاحـنة فـقـد جـرح جـرحـاً طفـيـفـاً فـى يديّه ووجـهـه. وقـد صـرّح السـائق الذى اسـتـجوبتـه الشـرطة التى لم تُحَمِّله أية مسئولية عن الحـادث، بأنّ السيّارة كـانت لا تزال على مـسـافـة مـا، قـبل أن تحـيـد عن طريقـهـا، وأنـه قـد بدا لـه رؤية راكـبـيّهـا يتـبـادلان اللكمـات، على الرغم من عدم استطاعتـه تأكيد ذلك بيقـين كامل بسبب الانعكاسـات على واجهـة السيـارة الزجـاجية، والمعلومات التى تم الحـصـول عليهـا لاحقـاً من قـبل مـحـررينا كشفت عن أن المسـافـريّن المصـابيّن كانا خـطيبيّن، أعـاد ترتوليانو مـاكسـيمـو أفونسـو قـراءة المقال، وقالَ فى نفسه إنه فى مثل هذه السـاعـة كان لا

يزال فى السرير مع هيلينا، ثمّ، وكان ذلك محتوماً، ربط بين الساعة الصباحيّة التى كان يعود فيها أنطونيو كلارو وتصريحات سائق الشاحنة. ما الذى حدث بينهما، تساءل، ما الذى حدث فى البيت الريفى لكى يستمرا فى الشجار داخل السيّارة، وأكثر من الشجار فيما بينهما، أن يتبادلا اللكمات كما سبق وقال شاهد العيان الوحيد بدقة غير مستهلكة فى التعبير، نظر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فى ساعته. كانت الساعة الثامنة تقريباً، لا بدّ وأن تكون هيلينا قد استيقظت. أو ربما لا، إذ من المحتمل جداً أن تكون قد أخذت حبّة من أجل أن تنام، أو لتهرب، وهو فعلٌ أكثر صحّة، يا لهيلينا المسكينة، البريئة من كلِّ شىء براءةَ ماريا دا باز، إنها لا تتخيّل ما ينتظرها، كانت الساعة التاسعة حين خرج ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من الفندق، كان قد طلب من موظف الاستقبال أدواتٍ للحلاقة، وتناول طعام الفطور ويذهب الآن ليقول إلى هيلينا الكلمة التى لا تزال ناقصة لكى تكتملَ قصّة الرجليْن المنسوخيْن العجيبة مرة أخيرة وإلى الأبد وأن تستعيد الحياة مجراها بصورة طبيعية، تاركة الضحايا وراءها، كما يقتضى العرف والعادة. لو كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو على وعى تامٍّ بما سوف يفعله، وبالضربة التى سيضربها بعنف، فلربما هرب دون تقديم أىّ تفسيرٍ ولا تبرير، وربما ترك الأشياءَ على حالها، لكى تفسد، لكنّ عقله كان يبدو كما لو أنه متبلد، كما لو أنه تحت وقع التخدير الذى هدّأ ألمه

ويدفعـه الآن بمعزل عن إرادته، ركنَ سيارته فى مواجهة العمارة، واجتاز الشارع، ودخل المصعد. الصحيفة، رسولة المصيبة، صوتُ وكلماتُ القدر، مطويةٌ تحتَ ذراعه، إنها أسوأ من أىّ كاساندرا، هى التى لا وظيفة أخرى لها إلا أن تقول، **لقد** حدث، لم يرد ترتوليانو ماكسيمو أفونسو فتحَ البابِ بالمفتاح الذى كان فى جيبه، إذ لم يَعُدْ هناك والحق يقال مكانٌ للمبادلات، ولضروب الثأر، ولضروب الانتقام، رنّ جرسَ البابَ كبائع الكتب الذى يثنى على الفضائل السامية للموسوعة التى تصف بدقة عادات عفريت البحر، لكنّ ما يرغبه فى هذه اللحظة بكل قوى نفسه هو أن يقول له الشخص الذى سيفتح له، حتى ولو كذب، **لا** أحتاج إليها، إننى أملكها أصلاً، فُتِحَ البابُ وظهرت هيلينا فى عتمة الممرّ الخفيفة. دققت النظر فيه بذهول، كما لو أنها كانت قد فقدت كلّ أمل فى رؤيته من جديد، أبانت له عن وجهها الشاحب المسكين، وعينيْها المطوقتيْن، كان من الواضح أن الحبّة التى كانت قد تناولتها لتهرب من نفسها قد فشلت، أين كنت، تلعثمتْ، ما ذا حدث، لم أعُدْ أعيش منذ الأمس، لم أعُدْ أعيش منذ أن ذهبتَ من هنا، قامت بخطوتيْن نحو ذراعيه اللذين لم ينفتحا، اللذيْن لم يدفعاها بسبب الشفقة عليها فقط، ثمّ دخلا معاً، وهى متعلقة به، خرقاء، ثقيلة، كدمية متحركة لا تقوى على الحركة الذاتية، لم يكن قد تكلمَ بعد، لنْ يلفظَ كلمة قبل أن تكون قد جلست على الأريكة وما سيقوله

لهـا سيبدو ببسـاطة تصـريحاً عـاديّاً لشـخص ذهبَ ليشـتـرى صـحـيـفـة وهـو الآن، دون أى قـصـد خـفـىّ، يقتصرُ على التصـريح، لــقد جئتكم بالأخبار، ويمدّ الصفـحـة المفـتوحة ويشـيـر إلى مكان المأسـاة. هاهنا، ولن تلاحظ أنه لم يكلمـهـا بصـيـغـة المفـرد، سـتـقـرأ باهتمـام مـا كـان مكتوبـاً، وستحـوّلُ عينيّهـا عن صـورة السيّارة المسحوقة وستدَمْدِمُ بحزن عندما ستنتهى، يـا للهول. على أنّها إذا كانت قد تكلمت على هذا النحو فـلأنّهـا بـبـسـاطة امـرأة ذاتُ قلب حـسّاس، لأنّ هذه المصـيـبـة والحق يُقـال لا تمسّهـا مـبًاشـرة، لا بل لقـد لوحظت، بالتـنـاقض مع المعنى التـضـامنى للكلمـات المنطوقة، لهجـة ما أقـرب إلى التعبير عن الارتياح، لم تكن إرادية بالطبع، لكنّ الكلمـات المنطوقـة بعـد ذلك عبَّرت أصـلاً بطريقة أكثر وضـوحاً، إنها مصيبة، إنهـا لا تسـبِّب لى أية فـرحـة، على العكس، لكنهـا على ستفيد على الأقل فى وضع نهاية لكل هذا الخليط، لم يكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد جلس، كان قد بقى واقفاً أمـامها، كما يجب أن يكون حاملو الرسائل وهم يقـومـون بوظيـفـتـهم، لأنّ لديه أخـبـاراً أخـرى ينقلهـا وستكون هذه الأخيرة أسوأ، الصحيفة فى نظر هيلينا، شىء ينتمى إلى الماضى، أمـا الحـاضـر المحـسـوس، الحـاضـر الفعلىّ فهـو زوجهـا الذى عاد، الذى يسمى أنطونيو كلارو والذى سيقول لها ماذا فعل بعد ظهر أمس وهذه الليلة، ما الذى فعلته هذه القضايا الملحّة إلى درجة تركهـا تجهل عنه كلّ شىء خلال ساعات

طويلة، فطِنَ ترتوليانو ماكسيمو آفونسو إلى أنه لا يستطيع السكوتَ وقتاً أطول من ذلك وإلا سيكون مرغماً على الاحتفاظ بالصمت إلى الأبد. قال، لم يكن الرجل الذى مات ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، نظرتْ إليه بقلق وتركت أربع كلمات غير مفيدة تخرج من فمها، ماذا، ما الذى قلته، وكرّر دون أن ينظر إليها، الرجل الذى مات لم يكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. استحالَ قلقُ هيلينا بغتة خوفاً مطلقاً، مَنْ كانَ إذًا، زوجكِ، لم تكن هناك طريقة أخرى يُقالُ لها ذلك، لم يكن هناك فى العالم أىّ خطابٍ تمهيدى يمكنُ أن يُعتمدَ عليه، كان من غير المفيد وضع الضماد قبل أن يحدث الجرح، لا تزال تحاول، يائسة، مأفونة، أن تدافع عن نفسها ضدّ الكارثة التى كانت تقع عليها، لكنَّ الوثائق التى تتحدّث عنها الصحيفة كانت وثائق هذا الملعون ترتوليانو، أخرجَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو حافظة الأوراق من جيب سترته، فتحَها، سحبَ منها بطاقة هويّة أنطونيو كلارو ومدّها لها. أخذتها، نظرتْ فى الصورة داخلها، نظرتْ فى الرجل أمامَها وفهمَتْ كلّ شىء، كان جلاءُ الوقائع ينبنى من جديد فى عقلها كدفق نور مفاجئ، كانت وحشيّة الوضع تخنقها، بدتْ للحظةٍ على وشك أن تفقد وعيَها، تقدّم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، أمسَكَ بيديْها بقوّة لكنّها، وقد فتحتْ عينيْن كانتا مثل دمعة هائلة، سحبتهما بسرعة، ثم تركتهما، بلا قوّة، كان النحيب التشنّجى قد وفّر عليها الإغماء، وكان الشهيق

يهزّ الآن بلا رحمة صدرَها، وفكر، أنا أيضاً بكيتُ على هذا النحو، هكذا نبكى أمام ما لا علاج له. والآن، سألتْ من أعماق الصهريج الذى كانت تغرق فيه، **سوف** أختفى من حياتك إلى الأبد، أجاب، لن ترينني أبداً، أودّ أن أطلب منك الصفح، لكنى لا أجرؤ على القيام بذلك، سيكون ذلك إهانة لكِ من جديد، **لـ**ستَ المُذنِبَ الوحيد، **لا**، لكنّ مسئوليتى أكبر، إننى مذنب بالجبن وبسببه مات شخصان، **أ**كانت ماريا دا باز حقيقة خطيبتك، **نـ**عم، **و**كنتَ تحبها، **كـ**نتُ أحبّها، كنا على وشك الزواج، وتركتَها تذهبُ معه، قلتُ لك ذلك، عن جبْن، عن ضعف، **و**جئتَ هنا لكىْ تنتقم، **نـ**عم، تراجعَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو خطوة. فكّ، وهو يكرِّر حركات أنطونيو كلارو قبل ثمانى وأربعين ساعة، الساعة من يده ووضعها على المنضدة، ثمّ وضع خاتم الزواج جانبها. قال، **سـ**أرسل لك بواسطة البريد الطقم الذى ألبسه. أخذت هيلينا خاتم الزواج، ونظرتْ إليه كما لو كانت تفعلُ للمرّة الأولى. سهواً، كما لو أرادَ محوَ الأثر غير المرئىّ الذى كان الخاتمُ قد تركه، فركَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو بينَ السبّابة والإبهام من يده اليمنى الإصبعَ فى اليد اليسرى الذى سحب منه خاتم الزواج، لم يفكر أىٌّ منهما ولن يفكرَ أبداً أنّ غيابَ هذا الخاتم من إصبع أنطونيو كلارو كان يمكن أن يكون السبب المباشر للموتيْن ومع ذلك كانَ الأمر على هذا النحو، كان أنطونيو كلارو أمس صباحاً، فى البيت الريفى، لا يزال نائماً حينَ

استيقظت ماريا دا باز، كان مستلقياً على جانبه الأيمن، ويدُهُ اليسرى تستريحُ على الوسادة التى كان رأسُها هىَ ينامُ عليها، على مستوى عينيّها، كانت أفكار ماريا دا باز مشوّشة، وكانت تتمايل بين نعيم الجسد الخافت وبين قلق لا تفسيرَ له فى العقل، كان النور الذى ينفذ من خلالٍ فتحات الدَّرْفات الريفية وهو يزدادُ حيويّة ينيرُ الغرفة شيئاً فشيئاً، تنفست ماريا دا باز واستدارت برأسها نحو ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. كانت اليد اليسرى لهذا تغطى كامل الوجه تقريباً، كان بنصره يحمل العلامة الدائريّة المُبيَضَّة التى تتركها خواتم الزواج المحمولة منذ زمن طويل على الجلد. انتفضتْ ماريا دا باز، فكرتْ أنها رأت بصورة سيّئة، أنهـا فى طريقها لرؤية أسوأ الكوابيس، هذا الرجلُ المطابق لترتوليانو ماكسيمو أفونسو ليسَ ترتوليانو ماكسيمو آفونسو، فترتوليانو ماكسيمو آفونسو لم يَعُدْ يحملُ خاتمَ زواج منذ أن طلّق، والعلامة على إصبعه امّحَت منذ زمن طويل. كان الرجل ينامُ بسكينة، انزلقتْ ماريا دا باز خارجَ السرير بحيطةٍ شديدة، جمعتْ ثيابها المتناثرة وخرجتْ من الغرفة، لبست فى القاعة، وهى لا تزال أشدّ نزقاً من أن تفكّر بصفاء، عاجزة عن العثور على جوابٍ عن سؤالٍ كانَ يفتلُ عقلها، هل صرتُ مجنونة، كانت تملك اليقينَ المطلق بأنّ الرجل الذى صحبَها إلى هنا والذى قضت معه الليلة لم يكن ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، ولكن مَنْ يكون فى هذه الحالة

وكيف حدثَ أن وُجدَ فى العالم شخصان متطابقان بصورة مطلقة، إلى درجة الاختلاط فى كلّ شىء، فى الجسم، وفى الحركات، وفى الصوت. شيئاً فشيئاً، وكما نبحث ونكتشف القطع الناقصة فى لعبة تركيب الصور، بدأتْ فى بناء العلاقة بين الأحداث والأفعال، تذكّرت الكلمات المبهمة التى كانت قد سمعتها من فم ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، إجاباته الغامضة، الرسالة المُستلمة من شركة الإنتاج، الوعدَ الذى قطعه على نفسه لها بأن يقصَّ عليها كلّ شىء ذات يوم، لم تكن تستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك، ستستمرّ فى عدم معرفة مَنْ كان هذا الرجل، إلا إذا قاله لها هو نفسه. سُمِعَ صوتُ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو من الغرفة، ماريا دا باز. لم تردّ، ألحّ الصوت، مُلمِّحاً، مُلاطِفاً، لا يزال الوقت باكراً، عودى إلى السرير، نهضتْ من على الكرسىّ الذى كانت تركت نفسها تسقط عليه واتّجهت نحو الغرفة، لم تجتز العتبة. قال، أيّة فكرة غريبة دفعتك إلى أن تلبسى، هيا اخلعى ملابسك وتعالى هنا، لم ينته العيد بعد، مَنْ أنت، سألتْ ماريا دا باز، وقبلَ أن يجيب، مِنْ أىّ خاتم أتت العلامة التى توجد على الإصبع، نظرَ أنطونيو كلارو فى يده وقال، آه هذه، نعم، هذه، إنكَ لستَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لا، فعلاً، لستُ ترتوليانو، إذًا من أنت، اكتفى فى الوقت الحاضر بمعرفة من لستُ أنا، ولكن عندما ستكونين مع صديقك، ستستطيعين أن تسأليه، سأسأله، إننى بحاجة لمعرفة من قبل مَنْ خُدِعت، مِنْ قبلى، فى المقام الأوّل، لكنهُ أسهَمَ فى ذلك، أو

بالأحـرى إن الرجل المسكين لم يكن يملك الخـيـار، خطيبك ليس على وجه الدقة بطلاً. خرج أنطونيو كلارو من السرير عارياً كليّاً واقترب من ماريا دا باز مع ابتسامة، أيّة أهمّيّة فى أن أكون الواحدَ أو أكونَ الآخر، كفّى عنْ طرح الأسئلة وتعالى إلى السرير. أطلقت ماريا دا باز صرخة، أيّها القذر، وهربت إلى القاعة، ظهر أنطونيو كلارو بعد قليل، لابساً وجاهزاً للذهاب. قال بلا مبالاة، إننى لا أتحمّل النساء المجنونات، سوف أترككِ أمام بيتك ووداعاً. بعد ثلاثين دقيقة من ذلك، اصطدمت السيّارة وهى تسير بسرعة فائقة، بشاحنة، لم يكن هناك زيتٌ على الطريق المعبّدة. الشاهدُ العيانُ الوحيدُ صرّح للشرطة بأنه على الرغم من أنه لا يستطيع أن يملك اليقين المطلق بسبب الانعكاسات على واجهة السيارة الزجاجية كان يبدو له أن راكبىَ السيّارة يتعاركان.

كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد قال أخيراً، لتشأ السماء أن يأتى اليوم الذى تستطيعين فيه أن تصفحى عنى، وتجيب هيلينا، الصفح ليس إلا كلمة، الكلمات هى كلّ ما نملك، إلى أين ستذهب الآن، مِنْ هنا، لتجميع القطع ولتضميدِ الجروح، بوصفكَ أنطونيو كلارو، نعم، فالآخر مات، حافظت هيلينا على صمتها، كانت يدها اليمنى موضوعة على الصحيفة، وكان خاتم زواجها يلمع فى يدها اليسرى، هذه اليد نفسها التى كانت لا تزال تمسك بأطراف أصابعها الخاتم الذى كان يعود إلى زوجها. قالت

آنئـــذ، **هــــل** بقى لك شـخصٌ يمكنـه أن يسـتمـرّ فى تسميتك ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، **نـعم**، أمّى، **هـل** هى فى المدينة، **نـعم**، **هـنا**ك امرأة أخرى، **مَنْ**، **أنا**، لن تكون لها الفرصـة، لن نعود إلى رؤية بعضنا أبداً، هذا يتوقف عليك، **لا** أفهم، **إ**ننى فى طريقى لأن أقـول لك أن تبـقـى معـى، أن تحـتلّ مكانَ زوجـى، أن تـكون فـى كلِّ شىء ومن كلّ ناحـيـة أنطونيو كلارو، أن تتـابع حيـاته، بما أنكَ انتـزعـتـهـا منه، أن أبقى هنا، أن نعـيش مـعاً، **نـعم**، **لـكننا** لا نحبّ بعضنا، **ريما** لا، **سـو**ف يصل بكِ الأمـرُ ربّـمـا إلى كـراهيّتى، **قـــد** يحـــدث ذلك، **أو** أن أكـــرهـكِ أنـا، **أ**قـبل المخـاطرة، سـتكون حـالـة فـريدة إضـافية فى العالم، أرملة تطلِّق، **لـ**كن لابدّ وأنّ لزوجكِ أسـرة، أب وأمّ، وإخـوة، كـيف يمكننـى أن أحلّ مـحله، سـأساعـدك، **كـ**ـان مُمَثلاً، وأنا أستـاذ تاريخ، **تـلـك** بعض القـطع التى يجب عليك إعادة جمـعهـا، لكن كل شىء فـى وقــتــه، **ريما** تـوصّلنـا إلى أن نـحبّ بعـضنا، ريمـا، **لا** أعتقد أننى أستطيعُ أن أكـرهك، **ولا** أنـا أنْ أكرهك، نهضت هيلينا واقتربت من ترتوليانو ماكسيمو أفونسو. كدنا نظنّ أنها ذاهبة لتقبيله، ولكن لا، يا لها من فكرة، قليلاً من الرصـانة، رجاءً، لا ننسى أن هناك وقـتـاً لكلِّ شـىء، أخـذت يدهُ اليـسـرى وببطء، ببطء شديد، لكى تترك للزمن الزمنَ الكافى ليأتى، أدخلتِ خاتمَ الزواج فى إصبعهِ. جذبها ترتوليانو مـاكسيمو أفـونسـو بخـفـة إليـه وبقـيـا علـى هذا النـحـو، شـبـه مـتعـانقـيْن، شـبـه مجـتـمعـين من جديد، على طرف الزمن.

تمَّ دفن أنطونيو كلارو بعد ثلاثة أيّام من ذلك، كانت هيلينا وأمّ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد ذهبتا إلى هناك لتمثلا دورهما، إحداهما لتبكى ابنها الذى لم يكن ابنها، والأخرى لتتصنع أن المتوفى كان مجهولاً منها، كان ترتوليانو ماكسيمو أفونسو قد بقى فى البيت وكان يقرأ الكتاب عن حضارات بلاد ما بين النهرين القديمة، فى الفصل المخصّص للآراميين، رنَّ الهاتف. دون أن يفكر أنّه يمكن أن يكون واحداً من أقربائه الجدد أو إخوته، رفع ترتوليانو ماكسيمو آفونسو السمّاعة وقال، آلو. صرخ على الطرف الآخر من الخط صوتٌ مطابقٌ لصوته، أخيراً، انتفضَ ترتوليانو ماكسيمو أفونسو، لا بدّ وأنّ أنطونيو كلارو كان جالساً على هذا الكرسىّ ذاته فى ذلك المساء الذى هتف له فيه. الآن سوفَ تتكرّر المحادثة، تابَ الزمن وعاد إلى الوراء. هل هو السيّد دانييل سانتا كلارا، سألَ الصوت، نعم، هو نفسه، منذ أسابيع عدّة وأنا أبحث عنك، وها قد وجدتك أخيراً، ماذا ترغب، أودّ أن ألتقى بك، لماذا، لابدّ وأنك دون شك

لاحظتَ أنّ صوتيّنا متطابقان، **أظنّ** أننى لاحظت بعض التشابه، **لا** تشابُه، بل تطابق، **كما** تشاء، **لا**انتشابه فى الصوتِ فحسب، **لا** أفهم، **جميع** أولئك الذين سيروننا معاً سيقسمون بأننا توءمان، **توءمان**، **أكثر** من توءميّن، متطابقيّن، **متطابقيّن** كيف، متطابقيّن، ببساطة متطابقيّن، **لنضع** حدّاً لهذه المحادثة، إننى مشغولٌ جدّاً، **هل** تريد القول إنّك لا تصدّقنى، **لا** أؤمن بالمستحيل، **هل** تملك شامتيّن على مقدمة الذراع اليمنى، جنباً إلى جنب، **نعم**، **وأنا** أيضاً، **هذا** لا يبرهن على شىء، **هل** تملك ندباً تحت الداغصة اليسرى، **نعم**، **أنا** أيضاً، استنشق ترتوليانو ماكسيمو بعمق، ثمّ سأل، **أين** أنت، **فى** مقصورة للهاتف غير بعيد كثيراً عن بيتك، **وأين** أستطيع أن ألتقى بك، **يجب** أن يكون ذلك فى مكان ناء، من دون شهود، **بالطبع**، لسنا ظاهرتيّن شعبيّتيّن فى معرض. اقترحَ الصوتُ على الطرف الآخر من الخط حديقة على طرف المدينة وقال ترتوليانو ماكسيمو أفونسو إنّه موافق، **لكنّ** السيّارات لا تستطيع الدخول فيها، استرعى الانتباه **منَ** الأفضل على هذا النحو، ، قال الصوت، هذا أيضاً رأيى، **توجد** منطقة مشجّرةٌ بعد البحيّرة الثالثة، سأنتظرك هناك، **ربما** سأكون أوّل من يَصلِ، **متى**، **على** الفور، خلال ساعة، **حسناً** جدّاً، **حسناً** جداً، كرّر ترتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يغلق السمّاعة، أخرجَ صفحة من الورق وكتب دون أن يوقع، **سأعود**. ثمّ ذهبَ إلى غرفة النوم، فتحَ

الدرجَ الذى يحتوى على المسدّس، أدخلَ المُحَمِّل فى الأخمص ونقل خرطوشة إلى المخزن. غيّر ملابسه، ولبس قميصاً نظيفاً، وربطة عنق، وبنطالاً، وسترة وأفضل زوج حذاء عنده. أدخل المسدس فى زنّاره وخرج.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء - للكاتب التركى «أورهـان باموق» - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط - للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة - للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» - عدد خاص - «جائزة الدولة للأدب».

١٥ - الرجل البطىء - للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» - رواية - «جائزة نوبل».

١٦ - طحالب - للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» - متتالية قصصية - «جائزة كين».

١٧ - شوشا - للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» - رواية - «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل - للكاتب من ترينداد - «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ - الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الانجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

الطوف الحجرى. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨.

الأنثى كنوع.. جويس كارول أوتس.. جائزة بن/ مالامود (الأمريكية) ١٩٩٦.

اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. أورهان باموق.. جائزة نوبل ٢٠٠٦.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg

بعد [illegible]

[illegible] ثانوى [illegible] يقوم برحلة
[illegible] خلال أسابيع [illegible]
[illegible] المصريين لملاحظة شبيهه،
يعرف أن هذا الممثل يستخدم اسماً
مستعارا ويتأكد من خلال [illegible] في بقية
أفلامه أنهما على مدار الفترات المختلفة
كانا [illegible] مما يجعله يتوقع
أنهما لابد وأن يكونا متماثلين في الوقت
الحالي فماذا سيحدث عندما يلتقى
البطل مع هذا الآخر الذي [illegible] يشبهه إلى حد
التماثل ؟

ISBN 9774197135

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠ جنيهاً